التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث

الأستاذ الدكتور
عمر عبد العزيز عمر
أستاذ التاريخ الحديث
نائب رئيس الجامعة - جامعة الإسكندرية
فرع دمنهور

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

دراسات في

التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث

الأستاذ الدكتور

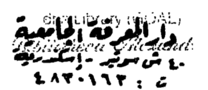
عمر عبد العزيز عمر

أستاذ التاريخ الحديث

نائب رئيس الجامعة - جامعة الإسكندرية

فرع دمنهور

١٩٩٤



القسم الأول

معالم التاريخ الأوروبي الحديث

الفصل الأول

عصر النهضة The Renaisance

مقدمة عن الانتقال الى العصور الحديثة :

ينقسم التاريخ الانساني الى قسمين غير متساويين : قسم عصور ما قبل التاريخ، وقسم العصور التاريخية . وتبدأ العصور التاريخية وهى الفترة التى ترك الانسان فيها سجلات مكتوبة عن حياته وأوجه نشاطه - بالعصور القديمة التى كان يميزها قيام الحضارات القديمة فى الشرق وتلت هذه الفترة العصور الوسطى التى حدد جمهرة المؤرخين زمنها من سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية على ايدى البرابرة فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر . ولقد شاهدت العصور الوسطى هذه ازدهار الحضارة البيزنطية وانتشار الحضارة الاسلامية . اما غرب اوروبا فكان متخلفا عن تلك النهضة التى شملت كل نواحى الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وعلم وفن وأدب . وانه لمن الأهمية بمكان القاء نظرة سريعة على أهم المظاهر التى كانت تميز العصور الوسطى حتى يمكننا أن ندرك التغيير الكبير الذى طرأ على نظم أوروبا فى العصور الحديثة وسنجمل هذه المظاهر فيما يلى :

١ - انه نتيجة لسقوط الدولة الرومانية بدأت العصور الوسطى بفترة قلق واضطراب بسبب هجمات البرابرة ، ولكن القائمين على الأمر استطاعوا ايجاد أمن وسلام نسبى ، أما عن محاولات الوحدة السياسية الاوروبية كما كانت من قبل ، فلم يجانبها التوفيق (مثل

محاولات جستنيان وشارلمان).

٢ - كان وجود امبراطورية عالمية من أهم مميزات العصور الوسطى، وخضعت لحكم الامبراطورية الرومانية المقدسة معظم أجزاء اوروبا فى ذلك الوقت، ومعنى هذا ان الفكرة السائدة كانت فكرة العالمية (أى وجود حكومة عالمية) لأن فكرة القوميات أو الدولة الوطنية الحديثة Nation state لم تكن معروفة ومفهومة فى العصور الوسطى (وكان أصحاب النظريات السياسية فى العصور الوسطى يعتقدون ان المسيحية كلها تكون دولة واحدة يحكمها البابا والامبراطور بتفويض من الله، ويشرف الاول على الشئون الدينية والثانى على الشئون الدنيوية).

٣ - ولكن تحديد اختصاصات كل من البابوية والامبراطورية لم يحل دون قيام صراع بينهما نتيجة لنمو هاتين القوتين. فسلطات كل منهما لم تكن محددة تحديدا دقيقا وبالتالى حاول كل من الطرفين ان تكون له الغلبة فى النهاية على حساب الآخر . ولقد أضعف هذا الصراع تلك القوتين وكان ذلك ايذانا بانتهاء العصور الوسطى .

٤ - ومن مظاهر هذا العصر ايضا تسلط الكنيسة ورجال الدين على عقول وأفكار الناس فى اوروبا وتحت تأثير ذلك أخذت غالبية الناس تفكر فى ان الحياة الدنيا ما هى الا قنطرة يعبرون عليها للحياة الآخرة. وانصرف غالبية الناس عن دنياهم الى آخرتهم وأخذوا ينظرون الى الحياة المثلى كحياة التقشف والاشتغال بالامور الدينية كحياة الرهبان. ولقد اصبح الفرد يؤمن بما يلقى على

مسامعه من قول دون ان يخضع هذا الكلام للمنطق او العقل. وعلى ذلك نرى ان القول السائد كان I believe so that I may Understand ولكن تغير هذا الحال عندما اشرفت العصور الوسطى على الانتهاء وبدأ ظهور عصر النهضة الذى ظهرت فيه روح البحث والتشكك والنقد، وبالتالى فاننا نجد ان القول السائد فى هذه الفترة كان Nothing is to be believed unless it is Understood وبالاضافة الى ذلك كانت الكنيسة الكاثوليكية تحت رئاسة البابوية لها نفوذ وسيطرة عظيمة فى المجتمع الاوروبى الغربى الوسيط وكان اثرها ملموسا فى السياسة والاقتصاد وأحرزت الكنيسة حينذاك ثروة كبرى وكانت مثلا صادقا للحكم الاستبدادى فالكنيسة فى العصور الوسطى على حد قول احد الكتاب كانت بمثابة الدولة او السلطة المدنية لأنه لم يكن معترفا بوجود مجتمع منفصل، فالكنيسة اخذت عن الامبراطورية الرومانية نظريتها فى السلطان المطلق العام للسلطة العليا وحورتها الى نظرية السلطة التامة للبابا الذى كان المدبر الاسمى للقانون والمصدر الشرعى الوحيد للسلطة على الارض .

٥ - اما المظهر الخامس للعصور الوسطى فهو الجانب الحربى الذى وجه وجهة دينية عرفت باسم الحروب الصليبية التى اشتركت فيها مختلف طبقات المجتمع فى اوروبا ، اما اظهارا للشجاعة وحبا فى القتال او للدفاع عن مثل دينية عليا . وكان تطور ونمو فكرة الحرب المقدسة فى غرب اوروبا من العوامل الرئيسية التى مهدت لقيام الحركة الصليبية . ولقد اتاح هذا الاتصال بين الشرق

والغرب ان يتعرف كلا الجانبين كل منهما على الآخر وان يلـــم بشئونه السياسية والاجتماعية .ولقد نشأت صلات تجارية بين الطرفين المتحاربين نتيجة لتعرف الغرب على حاجيات الشرق وكذلك لرغبة الشرق فى مبادلة الغرب بالفائض من منتجاته الزراعية والصناعية واستفاد من ذلك المماليك والبنادقة وظل الحال على ذلك الـى ان تم كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

٦ - ومن أهم المميزات الخاصة للعصور الوسطى هو قيام النظام الاقطاعى، ويجدر بنا ان نلم الماما سريعا بهذا النظام وتطوره . فلقد نشأ النظام الاقطاعى بعوامل ذاتية تحت ضغط الأحـداث دون انتكون له قواعد مرسومة . ومنذ انهيار الامبراطورية الرومانيـة الغربية وهجمات البرابرة عليها لم تعرف اوروبا الاستقرار لا فـى الاجناس ولا فى الشعوب . وفى هذا الوضع المضطرب نشأ الاقطـــاع وتطور، فكان نظاما حربيا زراعيا اجتماعيا ،لم يكن يوجد فـــى تلك المرحلة حكم مركزى ،وانوجد فقد كان ضعيفا ،وكان من الطبيعى انيلجأ من لا يقوى على الدفاع عن نفسه الى اولئك الذين تمركزوا نوعا ما واستطاعوا ان يحتفظوا بثروتهم الوحيدة وهـى الارض . ولقد كانت الارض هى مصدر الرزق، يحيا عليها سكانها الاصليـــون وبجانبهم عدد من المستأجرين بشروط معينة . وكان الاقتصاد فى هذا المجتمع الاقطاعى قائما على سياسة الاكتفا الذاتـــى Self Sufficient فلم يكن يستورد من خارج الاقطاع الا المـــواد القليلة التى لايمكن انتاجها محليا كالاسلحة النادرة والملــح والخمور وغيرها ،ولم يكن لأحد فى هذا المجتمع ان يجمع المـــال

مثلا أو يقيم مصرفا ، بل كان السيدمصدر كل شئ تقريبا . وكان هذا المجتمع ينقسم الى ثلاث طبقات هم النبلاء ورجال الدين ثم الشعب الذىكان قوامه رقيق الارض وكان لكل فئة من هذه الفئات عملها ووظيفتها وبذلك فقد كان الاقطاع يمثل دولة داخل دولة .

كيف انهار نظام الاقطاع :

عندما زالت الظروف التى أوحت بهذا النظام أصبح الاقطاع عبئا ثقيلا على كاهل الناس .فحياة طبقة رقيق الارض(طبقة الفلاحين) التى كونت نسبة كبيرة من المجتمع الاقطاعى الوسيط كانت حياة قاسية وتفتقر الىالاستقرار والامانة . ولقدعارض النبلاء تحويل أراضى الغابات الى اراض زراعية وذلك لرغبتهم فى الاحتفاظ بأراضى خاصة للصيد . وازاء هذا الوضع فكر الكثيرون فى السعى عن مصادر الرزق خارج اوروبا .وبذلك لبوا دعوة البابا للذهاب الى الشرق للدفاع عن الاراضى المقدسة . اما النبلاء انفسهم فقد اشتركوا فى هذه الحملات وشجعهم على ذلك ان الاقطاعات فى غرب اوروبا لم تعد تكفى أفراد العائلات النبيلة المتزايدين . وكان من آثار الحروب الصليبية (التى بدأت فى نهاية القرن ١١) على الغرب أن آخذ العهد الاقطاعى فى التدهور عندما قضت هذه الحرب على الكثيرين من أمراء الاقطاع ممن أسهموا فيها ،فأدى ذلك الى الاستغناء عن الكثيرين من رقيق الارض الذين اخذوا يتفرغون للتجارة والصناعة ، فلما اخذت التجارة تنشط تبع ذلك حركة ظهور المدن ،فأخذت معها الحركة الفكرية تنتعش منذ القرن الثانى عشر بتوفر الثروة واتساع الافق الاقتصادى ،ومن ثم آخذت طبقة

جديدة من المجتمع الاقطاعى فى الظهور، وهى طبقة البرجوازيه التجارية. وكان ظهور هذه الطبقة من المظاهر الاجتماعية البارزة للحضارة الاوروبية الحديثة . وكان التاجر الجائل يتمركز فى المدن الواقعة عند مفرق الطرق وعند مصبات الانهار ليحتمى من الثلوج وعندما تهدأ الطبيعة يتمكن من متابعة سيره . ولقد كانت ضواحى هؤلاء التجار قرب الحصون ولكى تصبح تلك فى مأمن من الاعتداء عمل هؤلاء التجار على تقوية مركزهذه الضواحى Bourg وتحصينها ومن هنا اطلق على هؤلاء التجار اسم مرادف لكلمة تاجر سمى فيما بعد برجوازى Bourgeois ولقد احرزت هذه الطبقة السيطرة فى المجتمع بفضل تركيز الثروة التى تتمتع بها هذه الطبقة المتوسطة فقد زالت الاهمية التى كانت للارض فى العصور الوسطى كمصدر منفرد للثروة والقوة . وبالتالى زالت طبقة رقيق الارض Serfs الذين اصبحوا الآن عمالا اجيرين، ثم زال الاقطاع الاوروبى فى جملته من جهة، وظهرت الدولة الوطنية الحديثة Nation State من جهة أخرى. ونتج عن ظهور هذه الحركة التجارية ان دب النشاط فى المدن الايطالية واتسع نطاق بعض المدن الفرنسية، واصبحت المدينة مركزا تصب فيه المواد الاولية فحلت الصناعة محل الحرف المتنقلة . وهكذا نهضت بعض المدن فى غرب اوروبا منذ أوائل القرن الثانى عشر . أما من ناحية النهضة الفكرية، فقد كان لنشأة المدن فضلها فى رعاية نهضة العلوم والفنون، فمنها ظهرت هذه النهضة، فلم يكن هناك مدينة فى اوروبا منذ القرن الثانى عشر فصاعدا الا وبها مدرسة، ولها ارشيفها وسجلاتها مما أدى بالتدريج الى انتقال

مراكز التعليم من المؤسسات الكنسية والاديرة الى مدارس المدن ، فانتعشت على يد المدن وسكانها من البرجوازية ، الحركة الفكرية ، كما ان لاختراع البارود يرجع الفضل فى القضاء على النظريات الحربية فى العصور الوسطى التى تركز حول اقامة الحصون والاعتصام بها فى اوقات الحرب فاستخدام البارود أفقد ماكان لحصون الاشراف من قوة ومنعة واصبحت الملكية بفضل هذا السلاح الجديد قوة يخشى بأسها وتتضاءل أمامها قوة الاشراف ، ولهذا بدأت قوة الملكية فى النمو .

وبانتهاء العصور الوسطى وبداية التاريخ الحديث أخذت مظاهر الحياة الاوروبية الوسيطة فى الاختفاء وقامت فى اوروبا حضارة جديدة لم يقتصر امرها على القارة الاوروبية بل انتشرت وتسربت خارج حدودها الى انحاء مختلفة من العالم فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب . ولقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ أوروبا الى عصور قديمة ومتوسطة وحديثة . وأساس هذا التقسيم اطلاق اسم العصر على عدة قرون من الزمن كانت اسس الحياة فيها متشابهة متقاربة سواء كان ذلك من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية او الفنية . ولكن أين يبدأ ذلك العصر أو ذاك ومتى ينتهى ؟ من المستحيل ان نحدد حدثا واحدا او يوما معينا ونقول مثلا هنا ينتهى التاريخ القديم ويبدأ التاريخ الوسيط او هنا ينتهى التاريخ الوسيط ويبدأ التاريخ الحديث . فالتغييرات فى التاريخ تمهيدية وليست فجائية والواقع ان ماضى الجنس البشرى عبارة عن قصة واحدة متصلة الحلقات ، وان تقسيم التاريخ الى

فترات مختلفة بغرض تسهيل عمليه الدراسة أمرا لا يخلو من الخطأ فان ذلك يجعلنا نميل الى الاعتقاد بوجود مراحل انفصال حاسمة فى الامور الانسانية ،كما يجعلنا نبالغ فى اهمية حدث معين. فعلى الرغم من ان الكثيرين من كتاب التاريخ قد جروا على تمييز التاريخ القديم عن الوسيط فى عام ٤٧٦م وهى السنة التى تحدد نهاية الامبراطورية فى الغرب على ايدى البرابرة الجرمان، الا أن العلماء الذين حددوا هذا التاريخ لم يعلقوا عليه أهمية بالغة بل رفضوه بمجرد الاشارة لمرحلة الانتقال من الحضارة الرومانية القديمة الى حضارة العصور الوسطى . وهناك آراء عن نهاية العصور الوسطى وبدء العصور الحديثة فحدد البعض لذلك عام ١٤٥٣ وهو العام الذى استولى فيه السلطان محمد الفاتح العثمانى على مدينة القسطنطينية ،كما حدد البعض الآخر عام ١٤٩٢ وهو العام الذى اكتشف فيه كريستوفر كولمبس العالم الجديد.

ولكل من هذين التاريخين اهميته الخاصة دون شك ،ولكن يجب أن ندرك تماما ان الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة لم يحدث فجأة ، بل كان على شكل عملية تطور تاريخية دامت أكثر من قرنين،وان هذه العملية لم تعتمد على حدث واحد معين ولا على دافع واحد سواء أكان هذا الدافع أم ذاك الحدث سياسيا أو اقتصاديا او اجتماعيا أو فنيا.

النهضة الاوروبية :

والواقع ان بين كل عصرين تاريخيين عظيمين تأتى فترة انتقال تحدث فيها التغييرات العظيمة التى تميز بين نوعين فى النهاية ،

ولكنها فى العادة تظهر وتنمووتتطور تدريجيا شأنها فى ذلك شأن الكائن الحى حتى تنضج ويتم نموها. وفترة الانتقال من العصور الوسطى الى الحديثة قد أطلقت عليها عدة أسماء فسميت احيانا باسم The Decline of Medieval Europe واحيانا The Renaissance (The Beginning of Modern) وكلمة Renaissance كما تدل عليها الكلمة الاجنبية معناها تجدد الميلاد Rebirth أى عودة الحياة او البعث او الولادة الجديدة. ويتضح من هذا أن تعريف النهضة الاوروبية ليس بالامر السهل، فانها ليست حادثا معينا وانما هى حركة شاملة ظهرت واتجاه جديد فى تفكير الناس وأعمالهم ومعيشتهم جعلتهم يتحررون تدريجيا من قيود ما ألفوه فى العصور الوسطى. ولقد وقعت كل هذه التغييرات التى نقلت العالم الاوروبى من العصور الوسيطة الى الحديثة فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر. ولقد كانت هناك عوامل مساعدة شجعت على حدوث هذا التغيير من أهمها : انحلال الامبراطورية والبابوية، ونهضة الشعوب وتمتعها بقسط من القوة السياسية، ثم نشأة الممالك الحديثة نتيجة لظهور الأمم وقيام الحكومات الملكية.

وكلمة Renaissance لها مدلولان، مدلول واسع والآخر ضيق، والمدلول الاخير استعمله الايطاليون خاصة وقد عنى هذا اللفظ بالنسبة لهم بعث الآداب والفنون والعلوم الكلاسيكية اليونانية والرومانية والاهتمام بدراستها من جديد. ذلك أن الايطاليين قد شعروا بأن العلوم الكلاسيكية والآداب والفنون كذلك قد انعدمت على اثر وقوع غزوات الجرمان والقبائل الاخرى فى

القرن الثالث والرابع والخامس وانه بعد مضى عدة قرون على اثر اندثار هذه العلوم الكلاسيكية بعثت هذه من جديد على يد بترارك والكثيرين غيره من الذين اهتموا بدراستها . وظهرت النهضة بهذا الشكل فى ايطاليا وانتشرت منها الى غيرها من الدول الاوروبية الى ان اصبحت ايطاليا معلمة للعالم فى احياء الدراسات القديمة وساعد ذلك بالتالى على تغيير العقلية الاوروبية كلها مما أدى الى تطورات اخرى من الكشف الجغرافى والاصلاح الدينى وازدياد المعرفة الانسانية . على ان نظرة الايطاليين الى النهضة بهذه الصورة هى نظرة قاصرة بلا شك فالنهضة كانت حركة أعظم من هذا ، وقد شملت تغييرات خطيرة فى شتى مرافق الحياة وغيرت من معالم المجتمع الاوروبى . والكلمة بمدلولها الاوسع تشمل كل التغييرات التطورات على المجتمع الاوروبى فى النواحى المختلفة من نظم الحكم والحالة الاجتماعية والعلوم والفنون والفلسفة والدين والأدب ، فهيأت حضارة العصور الوسطى لتصير بالتدريج حضارة العصور الحديثة . فعصر النهضة اذن هو عصر ظهور الفرد وعصر ظهور وانتعاش الآداب القديمة وعصر الفن والبناء وعصر المخاطر والكشوف الجغرافية وعصر بداية العلم الجديد وعصر النقد والتهكم على الاوضاع القائمة وكذلك عصر ظهور الكنائس المحلية المستقلة عن سلطة البابا كما حدث فى انجلترا أو المانيا وغيرها من البلاد ، وعصر ظهور المخترعات الحديثة مثل البوصلة او الاسطرلاب Astorlabe .

وقبل مناقشة خصائص النهضة الاوروبية علينا ان نبين لماذا ظهرت النهضة الاوروبية فى مدن شبه الجزيرة الايطالية قبل غيرها من

مدن أوروبا؟ وفى الواقع يرجع ذلك الى اسباب كثيرة نذكر منها :

١ - الرخاء الاقتصادى: لقد شاهدت مدن ايطاليا الشمالية تقدما سبقت به غيرها من مدن اوروبا ،فكان يسودها حالة انتعاش فكرى واقتصادى منذ القرن الحادى عشر نتيجة لسيطرتها على تجارة التبادل بين الشرق والغرب فى اعقاب الحروب الصليبية .وكانت مظاهر الحياة فى شبه الجزيرة الايطالية تختلف عنها فى البلاد الاوروبية الاخرى حيث ساد نظام الاقطاع الذى اعتمد على الزراعة كأساس للحياة الاقتصادية . اما فى الدويلات الايطالية فقد ظهرت الرأسمالية وبدلا من سيطرة طبقة النبلاء الاقطاعيين وكبار رجال الكنيسة تولى مقاليد الحكم فى هذه الدويلات الايطالية رجال من ذوى النفوذ من اهل المدن،وعلى ذلك فكان من الطبيعى أن يتحول الكثير من الناس عن تقاليد العصور الوسطى بما فيها من تقشف وزهد الى الاهتمام بالحياة الدنيوية والتمتع بها ودراستها .

٢ - بعث الحضارة القديمة : كان من الطبيعى انتقوم حركة بعث الدراسات القديمة فى بلاد كانت هى نفسها مهدا للحضارة الرومانية القديمة . ولقد ربط الكثير من الآثار الأدبية والفنية القديمة أهل ايطاليا بتاريخهم القديم ،وسيطر على اذهانهم اعتقاد راسخ بأنهم حفدة الرومان وورثتهم وانهم اجدر الناس بالقيام على احياء تراث الرومان واستعادة أمجادهم .

٣ - قيام حكومات قوية مستنيرة فى المدن : من الخصائص التى تميزت بها الحياة السياسية فى ايطاليا انقسام البلاد الى دويلات سياسية وقيام حكومات مستنيرة فيها ،واحتدم بينها التنافس على

تشجيع الآداب والفنون ، وقد حكمت فيها أسرات تركت بصماتها قوية فى تاريخ البلاد ، فنذكرمنها على سبيل المثال: اسرة ميدتشى Medici وقدحكمت فلورنسا ،وأسرة فيسكونتى Visconti وقد سيطرت على ميلان (١٢٧٧ - ١٤٤٧) ،وأسرة بورجيا Borgia وقد قبضت بيد من حديد على الولايات البابوية . ولجأ كثير من حكام هذه الأسر الى النظام الاستبدادى اسلوبا فى الحكم للاحتفاظ بسلطتهم . ومن هنا اطلق عليهم اسم "الطغاة" وعلى حكمهم "حكم الطغاة" وعلى الرغم من هذا الطابع الاستبدادى الذى اتسم به حكمهم فقد كان من أبرز ما تميزوا به هو تشجيعهم العميق للعلماء والادباء والفنانين ومن اليهم . وكان بلاط اولئك الطغاة تهوى اليه افئدة هؤلاء الاعلام مما ساعدهم على مزيد من النبوغ والابداع والانتاج .

٤ - تأسيس المكتبات :حدث تنافس بين المدن المختلفة فى انشاء المكتبات واقتناء انفس الكتب وأغلى المحفوظات وأبدع الصور . فقد شيد كوزمودى ميدتشى (Cosmo de Medici) مكتبة فى مدينة البندقية خلال الفترة التى كان منفيا بها ،ودعم مكتبة سان كو فى فلورنسا وجمع لها المحفوظات ،واهتم البابا نيقولا بمكتبة الفاتيكان واقتنى لها الكتب القديمة النادرة حتى أصبحت المكتبة تضم على عهده قرابة ١٢ ألف مجلد .

٥- المجامع العلمية :ظهور ونمو ما يعرف باسم المجامع العلمية او الاكاديميات ،وقد إسهمت فى نشر الدراسات الاغريقية واللاتينية ، اذ كانت بمثابة حلقات ثابتة للبحث والتدريس يلتقى

فيها الاساتذة ويلقون المحاضرات تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة يشترك فيها الاستاذ وطلابه الدارسون،ولقد حوت هذه المجامع العلمية ألوانا مختلفة من الدراسات القديمة مثل الفلسفة الاغريقية والموسيقى والرسم،وكانت الاكاديمية أشبه ما تكون بجامعة غير رسمية .

وقد تنافست الأسرات الحاكمة في المدن المختلفة في انشاء المجامع العلمية وتدعيمها ودعوة كبار الاساتذة لزيارتها والقاء المحاضرات بها، وقد فاقت فلورنسا سائر المدن في هذا المضمار بفضل رعاية اسرة ميدتشي للآداب والفنون فأنشأ كوزيمو دي ميدتشي اكاديمية افلاطون،وكانت اشهر الاكاديميات التي شهدتها شبه الجزيرة الايطالية . وبعد وفاة كوزيمو تعهد حفيده لورنزو هذه الأكاديمية وكان يجمع اعضاءها تارة في قصره في فلورنسا ،وتارة في بيته الخاص كما تأسست في روما عام ١٤٦٠ أكاديمية على يد جوليوس لاتيوس Julius Loetus وجعلت مقرا للدراسات التاريخية والآثار، كما شهدت نابولي تأسيس أكاديمية على يد الفونس الخامس حاكم نابولي . وتخصصت هذه الاكاديمية في دراسة الآداب . وقامت اكاديمية اخرى في البندقية اسمها الاكاديمية الجديدة أسسها الدومانوزيو Aldo Manuzio واهتمت بالدراسات الاغريقية واخرجت بعضا منها الى عالم الطباعة ،لأن مؤسسها ألدو كان صاحب دار طباعة فدفع الى مطابعه ببعض الكتب القديمة ،ولقد كانت الطباعة التي دخلت ايطاليا في عام ١٤٦٥ من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار النهضة الفكرية في ايطاليا .

٦ ـ **الموقع الجغرافى** : اكتسبت شبه الجزيرة الايطالية اهمية كبرى بسبب مركزها الجغرافى ،فهى تقع فى وسط البحر المتوسط الذى قامت على ضفافه أقدم الحضارات وأعرقها ،وفى وقت كان فيه هذا البحر مركز النشاط الاقتصادى فى العالم ،وكانت المدن الايطالية هى حلقة الاتصال بين اوروبا وبين الحوض الشرقى للبحر المتوسط وبلاد الشرق كانت بفضل موقعها من اقرب الاقاليم الاوروبية الى الدولة البيزنطية . فكان العلماء البيزنطيون يذهبون الى ايطاليا اما أساتذة زائرين يلقون المحاضرات وينشرون عن الدراسات الانسانية ألوانا متعددة ،واما مهاجرين الى ايطاليا للاقامة الدائمة . ومن ناحية اخرى كان الايطاليون المهتمون بالعلم ينزحون الى الدولة البيزنطية للتعمق فى دراسة اللغة الاغريقية وآدابها وفنونها ثم يعودون الى بلادهم حملة المشاعل الفكرية .

٧ ـ **طبيعة الشعب الايطالى** : كان لدى الشعب الايطالى ميل طبيعى للحياة الفنية بكل صورها وأشكالها . فقد فتن بالموسيقى والرقص والاغانى والتصوير والنحت والعمارة والشعر وغير ذلك من أنواع الآداب والفنون . اما الحياة العسكرية والمعارك الحربية فقد باعد الشعب الايطالى بينه وبينها وعهد حكامه بها الى جنود مرتزقة كانت غالبيتهم من الالمان والسويسريين . وقد أوجد ذلك الميل الفنى فى الشعب الايطالى ثم عمقته العوامل السابقة ،وفى مقدمتها الرخاء الاقتصادى والحياة المرحة التى كانت تموج بها قصور الامراء حكام المدن الايطالية والناس على دين ملوكهم أو

أمرائهم. وقد أدت هذه العوامل وغيرها مجتمعة الى تفجير طاقات عقلية وفنية، وظهرت مواهب متفتحة نحو الفن أخذ الحكام الامراء بيد اصحابها وأجزلوا لهم العطاء ولذلك برز الموهوبون الخلاقون المبدعون الذين عاشوا وانتجوا فى مجتمع حساس مرهف .

٨ - ومن اهم العوامل التى ادت الى [illegible] النهضة فى ايطاليا أيضا ، هو ان شبه الجزيرة كان مقرا للبابوية . فعلى الرغم من أن روما فقدت مركزها السياسى كعاصمة للامبراطورية الرومانية الغربية منذ عام ٤٧٦ ، فانها غدت فى العصور الوسطى مقر البابوية وقبلة العالم المسيحى الغربى. وكان سقوط الامبراطورية قد جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة التى التف حولها المسيحيون فى الغرب طوال القرون التالية ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيل بحمايتهم الامر الذى اضفى على شبه الجزيرة الايطالية مكانة ممتازة لم تتوافر لغيرها من البلاد الاوروبية . وهكذا كانت الزعامة الدينية للبابا عاملا هاما اكسب الايطاليين شعورا بنوع من السيطرة الدينية على بقية انحاء اوروبا . وقد إصاب الايطاليون كسبا آخر من الناحية المادية نتيجة وجود مقر البابوية في بلادهم ، اذ كانوا يظفرون بمعظم وظائف الكنيسة وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة منها . ولقد كان من الممكن ان تقف البابوية موقف المعارضة من النهضة وتعمل على وأدها لولا انها تحولت فى نهاية العصور الوسطى الى مايمكن تسميته "**أمارة علمانية**" ذات اطماع سياسية واسعة تعتمد على الغدر والنفاق واشعال نار الحروب ابتغاء اخضاع اجزاء من شبه الجزيرة الايطالية سياسيا للبابا . وهكذا أصبح البابا

ـ بجانب صفته الدينية كرأس للكنيسة المسيحية الغربية ـ حاكما دنيويا لا يختلف عن الملوك والامراء المعاصرين له : فكانت له اقاليم يحكمها ويسيطر عليها بواسطة اجهزة حكومية تابعة له دب فى اوصالها الفساد، وكان له بلاط يعج بالموظفين وتفوح منه رائحة المجون والفسق. وبينما كان المسيحيون فى شمال اوروبا يستهجنون انغماس البابوية وبلاطها فى الملذات ، كان الايطاليون ينظرون الى هذا الانحدار الخلقى الذى تردت فيه البابوية كأنه أمر عادى. وكان كل مايثير اهتمام الايطاليين هو استمرار بقاء المقر البابوى فى روما كى تتدفق على بلادهم الاموال التى يجىء بها من البلاد الاوروبية مبعوثو البابوية . وكان البابوات ينفقون بعضها فى النهوض بالعلم ونشر المعرفة بانشاء المكتبات وشراء المخطوطات واقتناء الكتب واقامة الأكاديميات وجمع الكنوز الفنية وتجميل مدينة روما نفسها بعد الاهمال الشديد الذى تعرضت له ردحا طويلا من الزمن . ومن ثم آخذ البابوات ينافسون الامراء الايطاليين فى تشجيع الآداب ورعاية الفنون،وكان الادباء والفنانون يهرعون الى بلاط البابا يطمعون فى كرم العطاء. ويطلق على هؤلاء البابوات فى التاريخ الاوروبى الحديث اسم " بابوات النهضة "،مثل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) والبابا ليو العاشر(١٥١٣-١٣٥١) الذى شيد كنيسة القديس بطرس ؛

ونتيجة لهذه العوامل التى اوجزناها وعوامل اخرى قامت فى ايطاليا نهضة ثقافية عظيمة فى الناحية الادبية والفنيه ،وبقيام تلك النهضة ارتحل الى ايطاليا طلاب العلوم والفنون من آنحاء

اوروبا المختلفة ، كما ان النهضة قد تعدت حدود ايطاليا الى بقية اوروبا حيث اخذت طريقها فى النمو و التقدم ،لأن هذه الدول ايضا كانت قد بدأت فى التخلص من تقاليد العصور الوسطى وأصبحت مهيأة لقبول النهضة الجديدة .

ولايفوتنا أن نشير هنا بصفة خاصة الى اثر العرب و الحضارة الاسلامية فى قيام النهضة الاوروبية ،و الدور الذى أسهم به العرب فى قيام حركة احياء الدراسات القديمة التى سنشير اليها عند الحديث عن خصائص النهضة الاوروبية .ولولا العرب لكان من الممكن ان يقضى على كل ما تركه اليونان والرومان من حضارات قديمة وتراث انسانى عظيم . ولقد قام المسلمون بتوصيل الحضارات القديمة الى غرب اوروبا فى اواخر العصور الوسطى وذلك بعد ان اضافوا اليها الكثير مما توصلوا اليه فى الفنون و العلوم المختلفة وكانوا بذلك حلقة الاتصال بين حضارة العصور القديمة و العصور الحديثة .

كما ان جزءا كبيرا من النهضة الاوروبية التى قامت فى القرنين الثانى عشر و الثالث عشر ويطلق عليها اسم "النهضة الوسيطة " يرجع الى اثر الحضارة التى نشرها العرب فى جنوب اوروبا حيث درس بعض علماء اوروبا ونقلوا فلسفة القدماء وعلوم العرب . وهؤلاء العلماء بالتالى بفضل ما نشروه من علومهم مهدوا الطريق للتقدم الثقافى الاوروبى الحديث وهكذا اخذت الحضارة الاسلامية تزحف الى اوروبا منذ اواخر القرن الحادى عشر الميلادى ،وسلكت فى طريقها عدة معابر اهمها ثلاثة ،هى : شبه جزيرة ايبيريا أولا ، وجزيرة صقلية ثانيا ، وبلاد الشرق الادنى ، وما ارتبط بها من

حروب صليبية ثالثا . فكانت البلاد التى تخضع للحكم العربى فى الاندلس كمدينة طليطلة Tolido مثلا من أهم المراكز للحضارة الاسلامية فى العالم ،كما كانت ملتقى الطلاب من مختلف الجهات فقد نزح اليها كثير من طلاب العلم من المسيحيين والمسلمين الاوروبيين على السواء والتحقوا بمعاهدها . ولقد ادى قيام النهضة الوسيطة الى تمهيد طريق الرقى وتحرير العقل الاوروبى من القيود الثقيلة التى فرضتها عليه الهيئات والانظمة المختلفة وأصبحت النفوس مهيأة لقبول الانقلاب العظيم الذى حدث فى بداية القرن الرابع عشر اى النهضة الاوروبية الحديثة .

خصائص النهضة :

اما عن خصائص النهضة الاوروبية فمن الممكن ان نقسمها الى عدة نواحى :

اولا : الناحية الثقافية :

١ ـ تمتاز فترة عصر النهضة عن العصور الوسطى بظهور روح البحث والتشكك والنقد والاهتمام البالغ باحياء الأدب اللاتينى والاغريقى القديم . كما تمتاز فترة عصر النهضة بظهور الحركة الانسانية (Humanist Movement) وحركة احياء الدراسات القديمة وتشمل هذه الحركة عنصرين اساسيين هما الدراسات الاغريقية والدراسات اللاتينية . ولقد وصفا احد كبار مؤرخى عصر النهضة الـ Humanists القائمين بهذه الحركة بقوله :

The Humanists were the midwaives of the new culture, the culture of renaissance اى كان الانسانيون

مولودو الثقافة الحديثة وهىثقافة عصر النهضة ،ولم تكن الحركة الانسانية حركة شعبية ،كما انها لم تنبثق من داخل الجامعات بل ظهرت خارجها ،وكان هذا الوضع امرا طبيعيا لأن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها الى دراسة العلوم العملية وبخاصة الطب والقانون . وقد ظلت الجامعات حقبة طويلة معادية للدراسات الانسانية ،واعتمدت هذه الدراسات على التشجيع المادى والادبى الذى اضفاه حكام المدن الايطالية على المشتغلين بها. وهكذا بدأ اهتمام الناس يتغير بعد أن كان قاصرا فى العصور الوسطى على علم اللاهوت والقانون الكنسى والرومانى والفلسفة ، فأصبحوا اكثر ميلا للتمتع بالجمال والقيم الدنيوية الانسانية. وقد استهوت الدراسات الاغريقية واللاتينية افئدة الكثيرين من الاوروبيين فى ذلك الوقت،واعتقدوا انها اروع وأرقى وأجمل ما يمكن ان تنتجه عقول البشر،وان الفرد لا يمكن ان يتبوأ مكانا عليا فى المجتمع مالم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات وقامت الحركة الانسانية على دراسة المخطوطات القديمة .وكانت الكاتدرائيات والكنائس والاديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات ،وكانت على نوعين : المخطوطات الاغريقية والمخطوطات اللاتينية ،وقد نشط البحث أولا عن المخطوطات اللاتينية فى شبه الجزيرة الايطالية وفى سويسرة والولايات الألمانية وغيرها من أجزاء اوروبا . اما المخطوطات الاغريقية فقد اتجهت الانظار الى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ونشأت تجارة واسعة نشيطة للمخطوطات،وكانت القسطنطينية قبل سقوطها فى يد الاتراك العثمانيين مركز هذه التجارة ، وكان يقصدها عملاء من حكومات

المدن الايطالية يقتنون المخطوطات الاغريقية او دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الاغريقية فى القسطنطينية ويجمعون اثناء دراستهم عددا وافرا من المخطوطات . وهذه الحقائق التاريخية تنفى بكل تأكيد الخطأ الشائع بين جمهرة المؤرخين وهو ان سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح العثمانى قد أدى الى انتقال الثقافة الاغريقية الى اوروبا ، والى ظهور حركة الاحياء فى ايطاليا . ولكن مجئ الثقافة الاغريقية الى اوروبا انما كان فى الحقيقة قبل ذلك كما ان حركة التنقيب عن المخطوطات القديمة قد ظهرت فى ايطاليا قبل سقوط القسطنطينية بحوالى خمسين عاما . ومن الحقائق الثابتة ايضا انه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكرى بين الدولة البيزنطية وبين المدن الايطالية التى اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب .

وسارت فى نفس الوقت حركة احياء الدراسات اللاتينية قدما نحو الازدهار ، لأن الايطاليين كانوا ينظرون الى اللغة اللاتينية على انها لغة الحضارة الرومانية ، وكان وراء هذه الدراسات عالم ايطالى يدعى بترارك Petrarch (Petrarque) (١٣٠٤-١٣٧٤) ، انصرف الى دراسة اللغة اللاتينية حتى سيطر عليها سيطرة تامة . واستطاع بترارك بفضل تمكنه من هذه اللغة ان يتذوق الاتجاهات الانسانية التى حفلت بها كتابات الرومان . وقد قام بترارك بجمع المخطوطات اللاتينية والنقوش وعمل جاهدا على نشر الدراسات الانسانية وتشجيعها حتى اطلق عليه "والد الانسانية" ونجح فى تكوين مدرسة فكرية تنتمى اليه وتتكون من مثقفين

متحمسين للدراسات الانسانية ،وقد ألف بترارك باللغة اللاتينية ملحمته الشهيرة افريقيا التى سرد فيها حوادث الحروب التى اندلعت بين روما وقرطاجنة ،ولكن لم يتح له اكمالها .

ومما ساعد على انتشار الدراسات الانسانية وذيوعها اختراع الطباعة التى تعتبر من اعظم الاختراعات التى شهدتها الانسانية واسهمت فى اثراء الحياة العقلية على مرالعصور. وكان من الممكن طبع الكتب القديمة التى رخص ثمنها واصبح من السهل على المتأدبين او الانسانيين تداولها. ويعود الفضل فىاستعمال الحروف المتحركة فىالطباعة الىكل من يوحنا جوتنبرج (John Gutenberg) حوالى عام ١٤٥٠ من أهالى ماينز Mains ولوران كوستر Coster من اهالى هارلم بهولنده ولقد انتشر هذا الاختراع فىربوع اوروبا فى عصر لم يتقيدبحقوق الاختراع. ففىعام١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروف معينة الى ايطاليا ، ودخلت الطباعة باريس فىعام١٤٧٠ ووصلت الى لندن فى عام ١٤٧٧ والى استوكهلم فى عام ١٤٨٣ ومدريد فىعام ١٤٩٩ . وكان الانجيل هو أول الكتب التى طبعت فى عام١٤٥٤. وقال البعض بأنه حين انتهى القرن الخامس عشر كان يوجد فىاوروبا ما يقرب من تسعة ملايين كتاب مطبوع. ولقد اكتشف الورق ايضا فى عصر النهضة ،وكان النجاح فى صنعه هو الذى مكن الطباعة من اداء رسالتها .

ومما يجدر ملاحظته ايضا هو ان صاحب المطبعة كان يجمع بين المامه التام بفن الطباعة وبين العلم الغزير والثقافة الواسعة ومن ابرز اعلام الطباعة الايطاليين الدوس مانوتيوس

Aldus Manutius (١٤٤٩-١٥١٤) الذى تعمق فى دراسة اللغتين الافريقية واللاتينية، واصبح متخصصا فى النقد والنحو وتاريخ الأدب وعلم الاخلاق .

٢ - ظهور اللغات الحديثة :

كانت اللاتينية هى لغة العلم والكتابة فى العصور الوسطى دون بها العلماء ثمرات انتاجهم، ثم تضاءل استخدامها حتى اصبحت مقصورة على رجال الكنيسة فقد عمد بعض الكتاب والادباء المتحررين من قيود العصور الوسطى الى الكتابة بلغة شعوبهم فنشأت فى شبه الجزيرة الايطالية وفرنسا واسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الاصل اللاتينى، وظهرت فى شمال اوروبا لهجات اخرى ترجع الى أصل تيوتونى، وعمد علماء كل لغة الى تكوين كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها حتى اصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب بها، واصبح الاهتمام بهذه اللغات القومية الوليدة مظهراً من مظاهر النزعة القومية وعاملا هاما ساعد على نشر الافكار الجديدة التى اتت بها النهضة . ففى ايطاليا كتب دانتى Dante (١٢٦٥ - ١٣٢١) كتابه الخالد "الكوميديا الالهية " باللغة الايطالية، وفى فرنسا كتب مونتيين Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢) باللغة الفرنسية رسائل رائعة فى الفلسفة والاخلاق . وفى انجلترا وضع جفرى تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠) قصص كانتربرى Canterbury Tales باللغة الانجليزية . هذا بالاضافة الى غيرهم ممن ظهروا فى مختلف البلاد الاوروبية وكتب كل منهم بلغة شعبه .

٣ ـ الاثار وعلم التاريخ :

لقيت الآثار الرومانية اهتماما كبيرا بها فيعصر النهضة والمحافظة عليها من التلفوالضياع بسبب تعرضها لعبث النبلاء وغيرهم من طبقات الشعبه ولكن فى عصر النهضة شعر الناس بالقيمة الفنية الرائعة لهذه الآثار وأخذ العلماء ينقبون عنها وظهر عدد من المؤلفات تناولت تاريخ الآثار الرومانية وتخطيط روما القديمة وعادات الرومان القدماء. كما شهد عصر النهضة ايضا اهتماما كبيرا بعلم التاريخفتطورت مناهج البحث التاريخى وظهرت مدرسة جديدة فىالنقد التاريخى كان من أهم مظاهرها البحث الذى قام به أحد الايطاليين ،وهو لورنزو فالا عن" هبة قسطنطين " وهى وثيقة قيل انها ترجع الى القرن الثانى أو الثالث الميلادى واستند اليها البابوات فى العصورالوسطى فى صراعهم مع الاباطرة حول حقهم فىالسلطة الزمنية . ولكن النتيجة الهامة التى خرج بها هذا البحث هيان الوثيقة مزورة وبذلك تتهاوى جميع ادعاءات البابوات وقد تكونت مدرسة تاريخية فى فلورنسة أخرجت عديدا من الكتب التاريخية فى موضوعات شتى

٤ ـ الفنون الجميلة :

لقد سبق الايطاليون فى مجال الفنون الجميلة ،واليهم يرجع الفضل فىاحياء الفنون التى كانت مزدهرة فى العصور القديمة ولقد قام الفنانون الايطاليونبكشف النقاب عن الآثار القديمة ولذلك فهم أصحاب الفضل الاولفى ابتكارالفن الحديث،اذ تحرروا من قيود العصورالوسطى وتقاليدها المتزمتة ،وكرسوا كل طاقاتهم

المبدعة فى الارتفاع بمستوى الفنون الجميلة الحديثة الى اسمى درجات الكمال وبخاصة فى فنى النحت والتصوير. ويعتبر ليونارد دافنتشى Leonardo de Vinci ومايكل انجلو Michael Angelo ورفائيل Rafael اعظم الفنانين الايطاليين فى عصر النهضة.

ولقد تحرر هؤلاء الفنانون وأخرجوا صورا تنبض بالحياة أبرزوا فيها جمال الوجه البشرى وسائر أجزاء جسم الانسان وصوروا جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة. فكان ليوناردو دافنشى مثلا (الذى ولد فى فلورنسة ١٤٥٢ - ١٥١٩) اكثر عظماء النهضة براعة من نواح كثيرة فكان رساما ونحاتا وعالما مخترعا متقدما على عصره بعدة قرون، وكان مهندسا وموسيقيا ومبتكرا فى فن الرقص، وكان كيميائيا ومؤلفا لكتاب من اقدم كتب التشريح. وللأسف فقدت معظم صور دافنشى، ولكن العالم عرف عبقريته من صورته المشهورة "العشاء الاخير" الموجودة فى متحف ميلانو ومن صورة موناليزا Mona Liza المحفوظة فى متحف اللوفر بباريس وهى سيدة من نابولى تدعى موناليزا جيراردينى Gherardini تزوجت فى السادسة عشرة من عمرها على كره منها احد ضباط مدينة فلورنسه يسمى فرانشيسكو زانوبى دل جيوكندا Del Gioconda. وقد استغرق رسم هذه الصورة اربع سنوات أثبت فيها الفنان أدق التفاصيل بالرسم والالوان حتى خرجت الصورة معجزة فنية خالدة. وقد شرع دافنشى نظرياته فى الفن فى رسالته الشهيرة فى التصوير، ومما قاله فيها: " ان اهم القواعد التى تقوم عليها نظرية التصوير كلها ان تكون اعمال الشخص المصور معبرة عن حالته النفسية كالرغبة والاحتقار والغضب والرحمة وما الى ذلك " .

أما الشخصية الاخرى فهى شخصية ميكل انجلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) الذى اشتهر بتعدد الجوانب الثقافية مثل دافنتشى ولكن ذاعت شهرته فى النحت وهو لا يزال غلاما. ولما ذاعت شهرته آواه لورنزو ميديتشى فى قصره وعين له مرتبا. وقد اثرت فيه وقت ما خطب سافونا رولا Savona Rola ولكن يبدو انه خشى ان يحوله سافونا رولا عن عقيدته ، فخرج الى البندقية قبل ان يتولى سافونا رولا حكم فلورنسة ، ثم انتقل منها الى روما حيث صنع تماثيله الشهيرة للالهة الوثنية ، ولكن استشهاد سافونا رولا اثر فى نفسه تأثيرا شديدا ، فقضى السنين التى تليت هذه الحادثة فى نحت المجموعة الرخامية الشهيرة التى تمثل العذراء والطفل .

وبينما كان مايكل انجلو عبوسا حزينا ساخطا على العالم كان معاصره العظيم رفائيل (١٤٨٣-١٥٢٠) فنانا سعيدا. وقد عين فى عام ١٥١١ رئيسا لمهندسى كنيسة القديس بطرس فى روما ، ولم ينقطع عن العمل فى نقشها طول حياته. وعلى الرغم من أنه مات وهو فى سن الشباب الا إنه جسد العبقرية الايطالية فى فن التصوير بما خلفه من آثار فنية رائعة . وخير مايعرف به الآن صورة البابا يوليوس الثانى، وعذراء سيستين Sistine وعذراء انسيدى Ansidei وهى محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن، وقد بيعت بسبعين الف جنيه .

ولقد تنكب انجلو طريقة دوناتيللو (Donatello) (١٣٨٦ - ١٤٦٦) - وهو الفنان الذى دشن نتاج النهضة فى فن النحت - التى اتسعت فى سذاجة بصورة العالم المنظور المباشر، فأخذ

يبحث في اسرار عن الحقيقة الكامنة وراء المظاهر. ومن أشهر اساتذة فن النحت ايضا الذين أنجبهم عصر النهضة لورنزى جيبرتى Lorenzo Ghiberti (١٣٧٨ - ١٤٥٥) .

وبالنسبة لفن العمارة فلم يندثر طوال العصور الوسطى، بل ظل قائما مزدهرا معتمدا على نماذج الفن القديم. ولكن فى عصر النهضة ظهر الاتجاه الى احياء الدراسات والفنون القديمة ، وانعكس هذا الاتجاه على فن العمارة ، فأدخلت الخصائص والرسومات الهندسية التى كان يتبعها الاغريق فى مبانيهم القديمة .وشهدت فلورنسة هذا التطور الكلاسيكى فى فن البناء فى النصف الأول من القرن الخامس عشر ومنها انتقل الى بقية انحاء شبه الجزيرة الايطالية .وقد نبغ فى فن العمارة فى مطلع النهضة فيليب برينلسكو Burnellesco (١٣٧٧ - ١٤٤٦) الذى يعتبر رائدا فى هذا الميدان ومن أهم آثاره المعمارية هى القبة التى تتوج بها كاتدرائية فلورنسة مسقط رأسه .

٥ - التمتع بملذات الحياة والانغماس فيها :

وهناك مظهر من مظاهر عصر النهضة لايمكن اغفاله ، الا وهو التغيرات العميقة التى احدثتها النهضة فى المجتمع الاوروبى وعلى وجه الخصوص فى ايطاليا . اذ برز دور النساء فى مجتمع النهضة ،واصبحت السمة الظاهرة فيه تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة ونعيمها . ونتيجة لانطلاق روح الخيال فى رجال عصر النهضة ونموه نموا عظيما ان استهان الناس بالآداب العامة وخرجوا على التقاليد والاخلاق. فلم يتقيد اهل ذلك العصر

بالروابط الزوجية. وليس معنى ذلك ان الناس انصرفوا عن حياة الاسرة نهائيا، بل احتفظوا بها كعنصر تقليدى فى حياة المجتمع ولكنهم الى جانب ذلك أرادوا ان يعيشوا احرارا يمتعون انفسهم الى اكبر حدد ممكن، واصبح من الامور المألوفة ان يتطلع كلا الزوجين الى حياة العشق والهوى بعد الزواج. وكانت تحدث احيانا فواجع ومآسى وقتل وغدر وانتقام عنيف. كما ظهر الانحلال الخلقى ايضا فى الاغانى العاطفية المبتذلة العبارات المفضوحة المعانى. وقد عبر مارتن لوثر عن انتشار هذه الآثام تعبيرا مهذبا جاء فيه " ان كل من يذهب الى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التى تصيبه من جراء ما يرى هناك".

وأصبح من الأمور المألوفة ايضاً ان يخالف الافراد أوامر الحكومات التى سيطرت على الشعب بالعنف والقوة تارة، وبالخداع والحيلة تارة اخرى. وامتدت هذه الحالة الشاذة الى رجال الدين والكنيسة. ولم يعد هناك مايمنعهم من ان يشتركوا فى اعمال النهب والقتل والاعتداء على النساء. ولم يعد اهتمام الكنيسة موجها الى الدين والى مساعدة الفقير. وعاش الباباوات انفسهم حتى قبل نهاية العصور الوسطى، عيشة مخالفة لقواعد الدين والاخلاق. ونتيجة لهذا التدهور الخلقى الشديد ظهر رد فعل هذه النهضة فظهرت فى ايطاليا وفى خارجها حركات دينية تصوفية ترمى الى اصلاح المجتمع من الناحية الدينية والخلقية والسياسية. ويمثل هذا الاتجاه الاخير اى نحو التمسك بالفضيلة الراهب جيروم سافونا رولا Jerome Savonarola (١٤٥٢ –

١٤٩٨) الذى جاء الى فلورنسه من فرارا Ferrara والتحق بنظام الرهبان الدومنيكان فى ديرسان ماركو. وفى فلورنسة اغضبه اهتمام اهلها باحياء تراث القدماء واشادتهم بآثار افلاطون وارسطو، وانكارهم فى مناقشاتهم بعض اسس الديانة المسيحية. كما كره النهضة ونظر اليها على انها السبب فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى اصاب المجتمع. ولقد قال" ان الكنيسة ذاتها هى المسئولة المجرمة لتأثرها وخضوعها لمادية العصر" وساعدت كتابات سافونا رولا الفلسفية والدينية التى طبعت فى تلك الفترة على ذيوع صيته بين الناس، وعملت على اجتذاب المثقفين الذين ظلوا مترددين بازائه. واكتظ المستمعون اليه فى كاتدرائية فلورنسة حتى بلغوا ١٠٠٠٠ نفس. وعندما وعظ سافونا رولا الناس فى موسم الصوم الكبير فى عام ١٤٩١ ندد صراحة بجشع رجال الدين وحرصهم على جمع الذهب. وقال ان الفقراء مضطهدون مثقلون بأعباء لا قبل لهم بها، ومنهم من يطالب بأن يدفع ضرائب تبلغ ضعف دخله فى حين ان الاغنياء لا يدفعون الا مبالغ زهيدة وهم الذين يفرضون الضرائب تحقيقا لمصالحهم الشخصية دون رعاية مصلحة الشعب وهكذا وقف سافونا رولا وجها لوجه امام لورنزو، وبدأ بينهما كفاح صامت خفى، وكان كفاحا بين المبادىء وطرق التفكير وأسلوب الحياة العملية. ومضى سافونا رولا فى وعظه فهاجم القمار والمقامرين وحمل على المرابين، وتكلم عن ميلاد المسيح، وآثار شعور الناس بتنديده بما لقيه من التعذيب على ايدى اليهود.

وبعد وفاة لورنزو فى عام ١٤٩٢ لم يحتمل ابنه بييرو ـ الذى

لم تكن له ملكات ابيه فى ادارة شئون تسكانيا وفى حفظ التوازن فى ايطاليا - وجود سافونا رولا على الدوام فى ايطاليا، وحاول ابعاده ولكنه فشل . وسيكون للغزو الفرنسى لايطاليا فى القرن الخامس عشر أثر مهم فى حياة سافونا رولا، فستتاح له الفرصة لكى يخرج من ميدان الوعظ والخطابة الى ميدان الواقع العملى. وبعد ان ذاعت أنباء استسلام بييرو للملك شارل ملك فرنسا - سخط أهل فلورنسة وأخذوا يتجمعون فى الشوارع، وتطلعوا الى سافونا رولا لايجاد سبيل للنجاة من الاخطار . فخرج من عزلته وخاطب الناس قائلا: "انظروا هذا سيف الله مصلتا على رقابكم، هذه تنبؤاتى قد تحققت وبدأ عقاب الله .... أيا فلورنسة لقد انتهى زمن الغناء والرقص، هذا وقت سكب الدموع من اجل خطاياك، خطاياك يا فلورنسا وخطاياك يا روما وخطاياك يا ايطاليا هى التى جلبت هذا العقاب الآن . فأعلنوا بندمكم وصلوا لله وكونوا متجدين.." وسقطت الحكومة واصبح سافونا رولا رجل الساعة وتمكن من انقاذ فلورنسة من الغزو والسيطرة الفرنسية. واستعان به الفلورنسيون لابداء النصح والمشورة للحكومة والشعب بوضع نظام حكم ديمقراطى سليم. كما رأى سافونا رولا انه من المستحيل الغاء العادات القديمة الغاء تاما ورأى من المناسب تحويلها وجهة اخرى واستخدامها لاغراضه. فأبدل الاغانى الوثنية بأناشيد دينية، ووضع لهم نظاما عسكريا. فكل فرقة منهم تمثل احد احياء المدينة، ولها رئيس من بينهم، واستقبل اعضاء السنيوريا Sigonoria هؤلاء الرؤساء، وبذلك أدرك الاولاد ان لهم اهمية فى نظر الحكومة، فامتلأت نفوسهم حماسة وفخرا. وهكذا جعل سافونا رولا من اولاد فلورنسا نوعا من "بوليس الاداب"

وكلفهم اتباع بعض التعليمات ،فأصبحوا يذهبون بانتظام الى الكنائس وامتنعوا عن حفلات السباق وعن المراقص والمساخر، وارتدوا ابسط الملابس وقصوا شعورهم حتى مستوى الاذن. ومضى سافونا رولا في خطته فكان يجمع في الميادين العامة في فلورنسة الكتب المخالفة للمسيحية ويشعل فيها حرائق عامة . ويرى بعض الباحثين أن حركة سافونا رولا هذه تمثل السلوك المسيحي المضاد لتيار النهضة وقد ادت حملته على البابوية بوجه عام وعلى البابا اسكندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣) بوجه خاص الى اتهامه بالكفر كوسيلة للتخلص منه ، وقد تم اعدامه في أحد ميادين فلورنسة في مايو عام ١٤٩٨ واحراق جثته .

ثانيا - الناحية السياسية :

من المسائل البارزة التي نراها انحلال النظام الاقطاعي الذي ساد في العصور الوسطى وقيام ملكيات قومية ذات سلطة مركزية وعلى اساس قومي . ولقد نجحت دول غرب اوروبا مثل انجلترا وفرنسا واسبانيا والاراضي المنخفضة في توحيد المملكة وبسط السلطة المركزية في انحاء البلاد ، ثم جاء عصر النهضة فساعد على دعم القوى الباعثة للقومية واستكمال الشخصية المستقلة للأمم وتمكنت هذه الأمم من تكوين الامبراطوريات العظيمة في العصور الحديثة قبل غيرها ،فان تحقيق وحدتها قد ساعدها على ذلك دون شك، ولقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر نمو نظم الحكم ونشوء الدولة الوطنية الحديثة ولم تكن فكرة العصر الحديث عن معنى الدولة والامة مفهومة في العصور الوسطى كما نفهمها حاليا ،فالأمم

الحديثة كالأمة الفرنسية والانجليزية والاسبانية وغيرها لم تكن اذ ذاك الا فى دور التكوين ولم تتنبأ الى شخصيتها المستقلة ووحدتها وكيانها الا فى اواخر تلك العصور. وقد استغلت الملكيات فى غرب اوروبا الطبقة الوسطى فى دعم مركزها تجاه النبلاء (أمراء الاقطاع) وتجاه كبار رجال الدين. فوجدت فى كل من أمراء الاقطاع ورجال الدين مصدر خطر يهددها لأن ولاء الجماهير موزع بين الملكية والكنيسة. وكان افراد الطبقة الوسطى لايتصورون بقاء امتيازات النبلاء ورجال الدين، ومن ثم تلاقت مصلحة الملكيات مع مصلحة افراد الطبقة الوسطى فى دول غرب اوروبا للحد من امتيازات الطبقتين الاخريين. وقدم افراد الطبقة الوسطى الاموال اللازمة للملكية لكى تنفذ بنجاح الاهداف المشتركة. كما استفادت الملكية استفادة كبرى من اختراع البارود الذى كان من نتاج عصر النهضة وعجز نظام الفروسية الذى اعتمد عليه امراء الاقطاع من الوقوف امام هذا التطور الحربى الجديد. وكان من اهم النتائج المترتبة على هذا الاكتشاف هى سرعة تدهور النظام الاقطاعى وانهيار نظام الفروسية واختفاء طبقة رقيق الارض Serfs وازدياد نمو الروح القومية واستخدام اللغات القومية على نطاق واسع، وقيام الملكيات ذات الحكومة المركزية الموحدة.

كما اختفى فى عصر النهضة اصحاب النظريات السياسية السائدة فى العصور الوسطى الذين كانوا يعتقدون بأن المسيحية كلها تكون دولة واحدة ويحكمها البابا والامبراطور بتفويض من الله، يشرف الأول على الشئون الدينية والثانى على الشئون الدنيوية وظهرت

نظريات سياسية كان بعضها معروفا من قبل لبعض الملوك مثل لويس الحادى عشر ملك فرنسا (١٤٦١ -١٤٨٣) وتبيح استخدام كافة الوسائل الخلقية وغير الخلقية لتحقيق اهداف الحاكم، وفيها تجاهل تام لتعاليم الاديان واخضاع جميع المبادىء للمصلحة السياسية على ان الجديد فى تلك النظريات ان سياسيا من فلورنسة هو ميكيافللى وجد فى نفسه الجرأة على تسجيلها فى كتابه "الأمير" مطالبا بتطبيق هذه السياسة تطبيقا حرفيا لتنفيذ الوحدة الايطالية التى كانت تهفو اليها نفسه .ونادى سياسى انجليزى هو توماس مور بنظرية تقول ان الهدف من قيام الحكومة هو السهر على مصالح المحكومين ، وتأسيسا على هذه النظرية فان افضل الحكومات هى اقدرها على هذا الواجب .وقد وضح هذه النظرية فى كتابه " عالم الكمال " Utopia صور فيه الدولة المثالية وشرح انظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

أما بالنسبة لألمانيا وايطاليا فكانتا تكونان فى العصور الوسطى الامبراطورية الرومانية المقدسة ،وقد تداعى نفوذ الامبراطور فيهما خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر لأن الامبراطور واجه فى المانيا خصوما اشداء هم حكام الامارات الاقطاعية التى كانت وحدات سياسية ،كان بعضها ذا طابع دينى يحكمه اسقف اوكبير اساقفة ، والبعض الآخر ذا طابع علمانى يحكمه أمير .ومن ناحية اخرى كان بعض هذه الوحدات السياسية عبارة عن مقاطعة كبيرة ،والبعض الآخر لم يكن يتجاوز مدينة . ولما جاءت النهضة الاوروبية حاول الامبراطور الاستعانة بالمدن وأفراد

الطبقة الوسطى لدعم مركزه تجاه الأمراء ورجال الدين وكانـــوا يسيطرون على الارض ويحكمون الامارات الاقطاعية ،ولكن كان هـــؤلاء الحكام أحرص على الاحتفاظ بإماراتهم وامتيازاتهم من تحقيـــق وحدة سياسية فعلية تجمع شتات الوطن الالمانى . وظلت المانيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ممزقة الى وحدات سياسية تجاوز عددها ٣٥٠ وحدة تشكل خليطا غير متجانس فى التكويـــن الجغرافى والاتجاه السياسى والمستوى الاقتصادى ،ولكن جمعـــت بينهما الجرمانية فى الجنس وفى اللغة،وعلى ذلك لم يكن للنهضة تأثير على الاوضاع السياسية الداخلية فى المانيا. أما ايطاليا فعلى الرغم من ان مدنها كانت مهدا لمولد النهضة وازدهارها، فانها لم تستفد شيئا من النهضة سياسيا. فلم تقم بها حكومـــة مركزية موحدة تبسط نفوذها على سائر انحاء البلاد ولكنها ظلـت موزعة بين وحدات سياسية ناصب بعضها البعض العداء، وخضع بعضها للنفوذ الاجنبى المباشر حينا ،واكثر من ذلك اصبحت ايطاليـــا ميدانا لصراع رهيب بين ملكى فرنسا واسبانيا من اجل السيطرة على اوروبا ، وهذا ما يعرف باسم " **الحرب الايطالية** " .

ثالثا الناحية الاقتصادية :

صاحب النمو فى الحركة الاقتصادية اتساعا فى نطاق التجارة الاوروبية الأمر الذى أدى الى الكشوف الجغرافية التى حدثت فـى اواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ومهـــدت الطريق لانتشار الحضارة الاوروبية فى جميع انحاء العالم وقـد نتج عن الثورة التجارية التى اعقبت حركة الكشوف الجغرافيـــة

تغيير كبير فى النظم الاقتصادية الاوروبية ـ فبدلا من الاقتصاد الذى قام فى اوروبا الوسطى وكان اقتصادا زراعيا ذا كفاية محلية Self Sufficent يسوده الركود، وجدت نظم اقتصادية ذات طابع تجارى زراعى متداخل، وقد اصبحت هذه النظم الاخيرة هى القائمة فى القرون الثلاثة التالية لهم وكانت الاساس الذى قامت عليه الثورة الصناعية .

حركة النهضة خارج ايطاليا :

وضحنا فى المحاضرات السابقة كيف ان المدن المتناثرة فى شبه الجزيرة الايطالية اصبحت مهدا للنهضة والتطور الفكرى والثقافى ، ولكن مظاهر الحضارة فى ايطاليا اخذت تخبو فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر عندما بدأت الحروب الايطالية التى كانت مظهرا من مظاهر التنافس الدولى بين فرنسا واسبانيا . فمنذ ان غزا شارل الثامن ملك فرنسا ، ايطاليا فى عام ١٤٩٤ أصبحت ايطاليا ميدانا لهذا الصراع الذى استمر من عام ١٤٩٤ حتى عام ١٥٥٩ . كما كان استيلاء قوات الدولة الرومانية المقدسة على روما فى عام ١٥٢٧ ايذانا بانهيار النهضة الايطالية . اما العامل الثانى الذى اسهم فى تدهور النهضة الايطالية فكان ظهور حركة الاصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فى المانيا . وقد نقم البابوات على تلك الحركة واعتبروها ثمرة من ثمرات حركة احياء العلوم والآداب والفنون القديمة ، ولذلك قام البابوات بمعارضة الحركة الانسانية

ولكن قبل ان يبدأ اضمحلال النهضة فى ايطاليا تسربت روحها

ومظاهرها الى ما وراء جبال الألب الى جهات متفرقة من القارة الاوروبية وذلك عن طريق الطلاب الذين كانوا قد جاءوا من انحاء اوروبا الى المدن الايطالية ينهلون من مراكز النهضة. وقاموا بعد عودتهم الى بلادهم بنشر تلك الافكار والآراء الجديدة. وكان اكبر داعية للنهضة خارج ايطاليا هو ارزمس Desiderius Erasmus (١٤٦٧- ١٥٣٦) وهو عالم هولندى ولد فى روتردام، تنقل للتدريس بين ايطاليا وانجلترا كما زار سويسره وباريس وكان من اهم اعماله اخراج نسخة الكتاب المقدس اليونانية (العهد الجديد) مصحوبة بترجمة لاتينية من عنده . وكان اررمس يرى ان الدراسات الانسانية وسيلة لغاية هى أصلاح المجتمع الاوروبى وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية التى كانت ترتكب جهارا. وكان يهدف من وراء نشر النسخة الاغريقية الاصلية للانجيل هو ان يعود الناس فى اوروبا الى المسيحية الاولى فى بساطتها ونقائها. وكان يدرك ادراكا تاما التدهور الذى اصاب الكنيسة نتيجة سلوك كبار رجال الدين وحياة البذخ والفساد، ولذلك كان اررمس فى طليعة الرواد الذين دعوا الى الاصلاح الدينى، كما كان يرى فى التعليم أرقى مهنة ومن كتاباته المشهورة تقريظ الجهالة The Praise of Folly ولعله اشهر مؤلفاته (١٥١٢) والامثال Adgia (١٥٠٠) والاحاديث Colloquia (١٥٢١)، وكلها ملأى بالنقد الساخر الموجه الى المساوىء المنتشرة فى عصره لاسيما بين رجال الكنيسة ، وقد توفى فى مدينة بال بسويسره عام ١٥٣٦، وقد اطلق عليه بعض المؤرخين فولتير اللاتينى.

---

١ - أما بالنسبة مثلا لانتشار النهضة فى المانيا، فلم تجد

الدراسات الانسانية فى الاوساط العلمية والدينية اول الأمر ظروفا ملائمة تنمو فيها على الرغم من تشجيع بعض الحكام للقائمين بهذه الدراسات . فقد حدث معارضة رجال الدين الالمان من انتشار هذه الدراسات على نطاق واسع وقد ربطوا بين الدراسات الانسانية وبين ايطاليا باعتبارها مهد الدراسات الانسانية منذ بدأت النهضة وكان الالمان بوجه عام ورجال الدين بوجه خاص يشعرون بمقت شديد لرجال الكنيسة فى روما نظرا لما كان يتناقله الناس فى احاديثهم ومجالسهم من اخبار تدل على تدهور رجال الكنيسة فى روما ،وعلى هذا النحو نرى ان النهضة فى المانيا اتجهت اتجاها علميا ودينيا لأن الالمان لم يقنعوا بمجرد التقليد ،بل انكبوا على الدراسة العلمية والدينية معا بدلا من الاقتصار على الدراسات الانسانية وقد تمثلت نزعة الالمان العلمية فى يوحنا مولر Muller (١٤٦٣ - ١٢٥٦) الذى اختص بدراسة الفلك ووضع عدة تقويمات بحرية وارشادات فلكية افادت المستكشفين البرتغاليين والاسبانيين . كما ظهر فى المانيا يوحنا روكلن (Reuchlin) (١٤٥٥ -١٥٢٢) أحد أعلام الفكر الالمانى الحديث وقد تخصص فى الدراسات الافريقية واللاتينية فى روما وغيرها من مدن ايطاليا وفى باريس وبال ،وجاهد فى نشر هذه الدراسات بين الالمان ، كما اهتم باحياء دراسة اللغة العبرية . واهتم بدراسة هذه اللغة لخدمة الديانة المسيحية على اساس أن العبرية هى الوسيلة العملية لدراسة وتفهم كتاب "العهد القديم" وقد قام جدل بين روكلين وبين احد زملائه من المفكرين حيث هاجم زميله الدراسات الانسانية ولكن الرآى العام الالمانى وقف الى جانب روكلين. وعلى آية حال ادرك الالمان من خلال هذا الجدل العنيف

اهمية الدراسات الانسانية فىشرح الكتاب المقدس وبالتالى فى تفهم الديانة المسيحية على اساس سليم ،ومن هنا حدث ارتباط وثيق بين الدراسات الانسانية وبين الرغبة فى الاصلاح الدينى ،وهى رغبة جاشت فى صدور الجماهير الالمانية . ومن ثم اتخذ دعاة الاصلاح الدينـــــى الدراسات الانسانية وسيلة لتحقيق رغبتهم بعد ان كان رجال الدين يعارضون هذه الدراسات .

حركة النهضة فى فرنسا :

تسربت عوامل الحضارة فىايطاليا الى فرنسا ،منذبدأ الاتصال بينها وبين فرنسا بنزولشارل الثامن ايطاليا عام ١٤٩٤،ومن ثـــم أخذت حركة احياء الدراسات القديمة ،تؤتى ثمارها فى بناء الحضارة الحديثة فى فجرها الاول فىفرنساوكان العالم الايطالى جيـــــروم الياندر Jerome Aleandre الذىجاء الى باريس فى عام ١٥٠٨ ، وحاضر بجامعتها فى اليونانية واللاتينية والعبرية أول من نبـــه الاذهان فى فرنسا الى دراسة اللغات القديمة بصفة حاسمة . ثمتزايد اهتمام ملوك فرنسا بعد ذلك بالدراسات الانسانية فأنشأ كلية فرنسا Le College de France فى عام ١٥٣٠ فى باريس وعينوا لهـــــا اساتذة متخصصين فى اللغة الاغريقية بوجه خاص . ونشطت فى باريس حركة نشر الكتب الاغريقية وأسست مطبعة يونانية متخصصة لنشر هذه المؤلفات . وتذخر النهضة فى فرنسا بأسماء اعلامها المشهوريـــن مثل جيوم بوديه Guillaume Bude (١٤٦٧ - ١٥٤٠) وكان من أكبـر العلماء المتخصصين فىاللغة الاغريقية وهو الذى زين لفرنســـوا الاول ملك فرنسا انشاء كلية فرنسا . ومن بين هؤلاء الاعلام ايضــــا

فرنسوا رابليه Rabelaio (١٤٨٣-١٥٥٣) وقد تعلم الطب وأصبح استاذا فى علم التشريح،وكان اول من خالف أمر البابا وشرح جثة انسان .ونذكر ايضا فىسياق حديثنا عن اعلام النهضة فى فرنسا دوليه Dolet (١٥٠٩ - ١٥٤٦) الذى تخصص فى القانون والدراسات الكلاسيكية، وبيير ليسكو Lescot (١٥١٠ - ١٥٧٨) الذى تخصص فى الحفر وخطط عمارة اللوفر وبدأ فىبناشها ،ومما تجدر الاشارة اليه فىهذا المجال ايضا ان الانتاج الذىقام به علماء فرنسا فى عصرالنهضة كان مزجا بين القديم الذىيتمثل فى المخلفات الاغريقية والرومانية وبين الجديد الذى يتمثل فى خصائصهم الذاتية .ويتضح هذا الفارق بين الانتاج الايطالى والانتاج الفرنسى فى قطاع الادب والبناء والنحته

حركة النهضة فى انجلترا :

تأخر دخول الدراسات الانسانية الى انجلترا بعض الوقت بسبب انشغالها بحرب المائة عام (١٣٣٧- ١٤٥٣) مع فرنسا ،ثم بحرب الوردتين (١٤٦١ - ١٤٨٥) .وبعد انتهاء الحرب الاخيرة أخذت الدراسات الانسانية سبيلها الى انجلترا .وكان جماعة من الانجليز من اكسفورد قد ذهبوا الى ايطاليا ودرسوا اللغات القديمة فى فلورنسة والبندقية وروما . ولما عادوا اتخذوا من اكسفورد مكانا لالقاء محاضراتهم ونشر آرائهم الجديدة ،فأطلق عليهم اسم " مصلحو اكسفورد" Oxford Reformers ولقد حاضر ارزمس عندزيارته الاولى لانجلترا عام ١٤٩٩فى اكسفورد، ثم حاضر فيما بين ١٥١٠و ١٥١٣ فى جامعة كمبردج . ولقد اهتم مصلحو اكسفورد بالدراسات الادبية القديمة وطالبوا بتحرير الفكر الانسانى من القيود التى كانت

الكنيسة تفرضها على حرية البحث العلمي وحرية الفكر. ومن أعلام النهضة في انجلترا توماس كوليت Thomas Colet الذى لم يكن من الاساتذة المعروفين قبل سفره الى ايطاليا ولكن بعد عودته منها ادهش اساتذة اللاهوت في اكسفورد بأن اذاع انه ينوى المحاضرة في رسائل سانت بول في الجامعة وقام بادخال اللغة اللاتينية في جامعة اكسفورد. ومن الذين عملوا ايضا على نشر الدراسات الانسانية سير توماس مور More صاحب كتاب Utopia وكلاهما (مور وكوليت) كان صديقا لارزمس وتعاون الثلاثة على نشر الانجيل .

وانتقلت الدراسات الانسانية من جامعة اكسفورد الى جامعة كمبردج بواسطة ارزمس الذى كون حلقة من الدارسين الشغوفين بتلك الدراسات . وتعاقب بعد ارزمس عدد من صفوة الاساتذة الانجليز يحاضرون في اللغة الاغريقية حتى اصدر الملك هنرى الثامن في عام ١٥٤١ مرسوما ملكيا بانشاء خمسة كراسى استاذية في جامعة كمبردج للغة اليونانية والعبرية واللاهوت والقانون المدنى والطبيعة وفي النصف الاول من القرن السادس عشر اصبح كوليت عميدا لكاتدرائية سانت بول وأنشأ مدرسة سماها مدرسة سانت بول Saint Paul وأدخلت اليونانية واللاتينية القديمة في مناهج المدرسة. وعلى العموم أخذت النهضة في انجلترا طابعاً دينيا يستهدف خدمة المسيحية ،ولذلك لم تكن النهضة في انجلترا مقصورة على الآداب والفنون بل شملت ايضا الدين،وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة وبين الجمال والدين . وظهرت في انجلترا تراجم لاعلام الفكر القديم مثل هوميروس وبلوتارك وغيرهم،كما نقلوا كتابات أدباء ايطاليا

فىعصر النهضة . وعلىهذا المتقدم انجلترا خلال القرن السادس عشر روائع ادبية مبتكرة الىالدراسات الانسانية حتى جاء القرن السابع عشر فيبلغ الانتاج الادبى فىاللغة الانجليزية الذروة فى الروعة والابداع ،وقد تمثل ذلكفىانتاج وليم شكسبير Shakespeare (١٥٦٤ - ١٦١٦) .وجون ملتون John Milton(١٦٠٨ - ١٦٧٤).

حركة النهضة فى شبه جزيرة ايبيريا :

انتقلت بذور الحركة الانسانية الى شبه جزيرة ايبيريا عن طريق عدد غير قليل من التلاميذ الذينزاروا ايطاليا فى القرن الخامس عشر ،وكانت شبه جزيرة ايبيريا فى اوائل القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الانسانية كبقية جهات اوروبا ،ولكن الخوف من بوادر حركة الاصلاح الدينى دفع الامبراطور شارل الخامس ملكاسبانيا الكاثوليكى والبابا كلمنت السابع الـ عقد اتفاق فى بولونيا فى عام ١٥٣٠ استهدفا منه تصفية الحركة الانسانية ،ونجم عن هذا الاتفاق ان اصبحللدراسات الانسانية فىاسبانيا خصوم أعز نفرا وأقوى نفوذا واستعانوا بمحاكم التفتيش تنكل وتبطش بأصحاب الدراسات الانسانية وتعتبر اسبانيا مسئولة عنتأخرهذه الدراسات فى الاراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) لانها كانت تابعة لاسبانيا وفرض عليها نفس الحجر الذى فرض علىالدراسات الانسانية فى اسبانيا ،وما لبثت ان قامت الثورة فى الاراضى المنخفضة مطالبة بالاستقلال عناسبانيا وفى اثناء الصراع العسكرى المرير بينفيليب الثانى ملك اسبانيا وثوار الاراضى المنخفضة انشئت جامعة ليدن Leyden تخليدا لذكرىانتصار الهولنديين على الاسبان فى عام ١٥٧٤ وسرعان ما

اصبحت هذه الجامعة مركزا هاما للدراسات الانسانية ،واهتمت بالدراسات اللاتينية وبخاصة مايتصل منها بالتاريخ والآثار .

أما من اثر النهضة فى روسيا والبلقان الذى كان خاضعا للدولة العثمانية فلم يتعد بعض مظاهر فردية ،كما لم يحدث اى تغير فى المجتمع او نظم الحكم او الفنون او الدين أو الأدب . ومن هذه المظاهر الفردية صورة رسمها احد فنانى مدينة البندقية للسلطان محمد الفاتح ووضعت فى قصر السلطان فى استانبول،وتشييد قصر الكرملين فى موسكو وقد اقتبس تصميمه من ميلان .

عرض سريع لبعض أعلام النهضة الأوروبية الأوائــل

١ - دانتى اليجييرى Dante Aleghieri (١٢٦٥ - ١٣٢١)

لا تكتمل دراسة النهضة فى ايطاليا دون الاشارة الى أحـــد أعلامها الأوائل الذى بدأ به تاريخ الادب الاوروبى الحديث . كما يعتبر دانتى من رواد اللغة الايطالية التى كتب بها معظم انتاجه الادبى وكان قد وضع باللغة اللاتينية رسالة فلسفية سياسية أسماهــــا الملكية (de Monarchia) وقد قسمها الى لغتين : لغة عامية ولغة فصحى. ولقد ولد دانتى فى فلورنسة وتعلم فى بادوا وبولونـا فى شبه الجزيرة الايطالية ثم فى باريس واشتغل لفترة معينة فـــى الحياة السياسية فى فلورنسة ولكنه نفى من فلورنسة على ايدى أنصار البابا الذين تغلبوا على أنصار الامبراطور الالمانى ،فأخذ ينتقل من مدينة الى أخرى حتى توفى فى رافنا . وفى اثناء نفيه تعمق فـــى المطالعات الاغريقية واللاتينية وأخرج الكوميديا الالهيـــة (Divina Commedia) والتى تحدث فيها عن زيارة خيالية قـام بها للجحيم والجنة ،وتكلم خلالها مع نزلائها من رجال الأدب والعلم والدين والسياسة . والأساس فى الكوميديا الالهية هو الرغبة الدينية الشديدة فى معرفة اسرار الحياة الاخرى .

وقد نجح دانتى فى تصوير العدالة الالهية يوم الحشر أروع تصوير وتنقسم الكوميديا الالهية الى ثلاثة أقسام : الجحيم، المطهر (سور الجنة أو الاعراف) والفردوس ، وهذه الأجزاء الثلاثة تضم مائـــة أنشودة ، اربعا وثلاثين للجحيم وثلاثا وثلاثين لكل من المطهر (الاعراف)

والفردوس واختلفت تفسيرات الباحثين حول الاهداف التى من أجلها كتب دانتى الكوميديا الالهية ،فمنهم من يرى انه أراد تخليد اسم معشوقته ،ومنهم من يرى انه توخى التشفى والانتقام من أعدائه السياسيين ،على ان الفكرة التى يخرج بها دارس الكوميديا الالهية ان صاحبها أراد وعظ أبناء جيله الذين ضلوا سواء السبيل فأسرفوا فى ارتكاب المنكرات والجرائم وقد أراد أن يرشدهم الى السعادة الأبدية ،ويتضح هذا الوعظ من ثنايا ماجاء فى الكوميديا الالهية اذ قال : " انا ظللنا نرتكب الخطايا الى ان وافتنا المنية ، فاستنارت بصائرنا واستغفرنا لذنوبنا وتبنا منها الى الله " . والكوميديا الالهية بمثابة موسوعة أو دائرة معارف مصغرة تعرض فيها دانتى بأسلوب جذاب لشتى انواع المعرفة من مذاهب فلسفية واتجاهات سياسية ومبادىء دينية مر بها المجتمع على توالى العصور . فهى ثمرة لقاء فكرى بين الثقافات العربية والمسيحية واللاتينية والاغريقية . ولكن يظهر فيها بوضوح اثر التراث الشرقى العربى الاسلامى ، فقد نهل دانتى الكثير من هذا التراث الذى كان قد انتشر فى اوروبا منذ استيلاء العرب على اسبانيا ،وسرعان ما أصبحت الاندلس طريقا رئيسيا من طرق الثقافة العربية الاسلامية الى أوروبا منذ اواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

كما وضع دانتى رسالة باللغة اللاتينية سماها "الملكية" de Monarchia وقد قال فيها ان الحرب هى آفة التقدم وان السلام العالمى يجب ان يكون هدف الساسة ،وقال كذلك ان قيام الدولة العالمية أمر لا مناص منه لتحقيق السلام العالمى الذى يجلب

معه الخير والسعادة للبشرية .ووضع أيضا كتابا آخر باللغة الايطالية سماه "الوليمة" Il Convivio عالج فيه موضوعات شتى فى السياسة والحكمة والاخلاق والحب . وتتمثل الفلسفة السياسية فى مؤلفات دانتى فى ان مثله الاعلى فى نظم الحكم السياسية الامبراطورية الرومانية المقدسة ،وانه كان لا يحبذ قيام النظام الجمهورى ، وان هدفه سيطرة القانون لا الحرية .

٢ - نيكولا ميكيافيللى (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

ولد ميكيافيللى فى فلورنسة فى عام ١٤٦٩ من أسرة متوسطة الثراء. وحصل ميكيافيللى على قسط من التعليم أهله ليتدرج فى الوظائف الحكومية فى فلورنسة ،فعين سكرتيرا عاما للحكومة بعد أن استشهد سافونا رولا ،وأرسل رسولا فى عدة بعثات دبلوماسية دقيقة كان بعضها الى خارج ايطاليا،والبعض الآخر الى الامارات المختلفة فى شبه الجزيرة الايطالية لتنفيذ السياسة الخارجية لفلورنسة . وقد استفاد ميكيافيللى كثيرا من هذه البعثات الدبلوماسية ،فخبر الكثير من خفايا السياسة الدولية ، ولمس عن كثب اخلاق رجال السياسة ، وأضاف الى حصيلته العلمية الكثير من المعلومات والآراء السياسية وكان من بين الآراء التى خرج بها من تجاربه ان اعتماد دولة ما على دولة اجنبية فى الدفاع عن اراضيها يعتبر نكبة تؤدى الى ضياع الدولة الأولى .وبناء على ذلك رأى ان سلامة فلورنسة تتطلب انشاء جيش وطنى قوى بدلا من الاعتماد على الجنود المرتزقة ، وكان أمرا مألوفا فى تلك العصور استخدام الجنود المرتزقة فى الدفاع عن المدن

الايطالية وفى تكوين الجيوش الاوروبية عامة . وقد بذل ميكيافيللى جهدا مضنيا فى انشاء جيش قوى لفلورنسة دل على صدق وطنيته ورغبته فى حماية مدينته .

وحدث أن أراد البابا يوليوس الثانى الذى جلس على كرسى البابوية عام ١٥٠٣ اجلاء الفرنسيين عن ايطاليا ، وكان على فلورنسة ان تختار بين صداقة البابا الطموح وبين صداقة حليفتها فرنسا . واختارت فلورنسة صداقة فرنسا ،وأوفدت حكومة فلورنسة ميكيافيللى الى لويس الثانى ملك فرنسا لابلاغه استمساك فلورنسة بتحالفها مع فرنسا ،واشتعلت الحرب بين فرنسا وبين البابا يوليوس الثانى واستطاع اجلاء الفرنسيين عن ايطاليا ولكنه استبدل النفوذ الاسبانى بالنفوذ الفرنسى ، وكان من نتائج هذه الأحداث أن سقطت الجمهورية الفلورنسية وعادت أسرة ميديتشى الى الحكم ،وطرد ميكيافيللى من منصبه ، وأصبحت فلورنسة خاضعة خضوعا تاما للأسرة ممثلة فى الكاردينال جيوفانى ميدتشى . ورغم ذلك عرض ميكيافيللى خدماته على اسرة ميدتشى أملا فى استرداد وظيفته ولكن الحكومة الجديدة لم تقنع بعزله بل أمرت بنفيه مدة عام على ان يبقى فى حدود دولة فلورنسة ،ولما لم تسفر مساعيه فى العودة الى منصبه عن النتيجة التى كان يبتغيها رأى ان ينتقل بمواهبه وخبراته من ميدان السياسة الى ميدان التأليف . فشرع يؤلف فى منفاه كتاب "الأمير" وقدمه لأسرة ميدتشى ثم وضع كتابا آخر بعنوان " تاريخ فلورنسة "،وكتابا ثالثا بعنوان " فن الحرب " .

وعندما تطورت الاحداث بسرعة داخل فلورنسة ،وقام أهلها بثورة على أسرة ميدتشى وأعلنوا النظام الجمهورى تطلع ميكيافيللى الى استعادة منصبه القديم ،ولكن أعرض عنه رجال النظام الجديد لتعاونه السابق مع اسرة ميدتشى . وأثرت هذه الانباء فى نفس ميكيافيللى ومات حزينا فى عام ١٥٢٧ .

ويعتبر ميكيافيللى هو الذى وضع أساس الفلسفة السياسية التى كان لها اكبر الاثر فى تاريخ اوروبا حتى آخر القرن الثامن عشر ، وكتاب " الامير " الذى وضعه عبارة عن دراسة مستفيضة عن أصول الحكم وفن السياسة وشرح فيه الامانى القومية التى كانت تجيش بها نفسه وهى تحرير بلاده من الجيوش الاجنبية التى تحتلها ،وقيام وحدة سياسية تجمع شتات الوطن الممزق . وانشاء جيش وطنى قومى يحمى البلاد . والكتاب لا يقتصر على دراسة العصر الذى عاش فيه ميكيافيللى بل يتعرض للتاريخ القديم بوجه خاص يستقى منه مادة علمية غزيرة تؤيد الآراء السياسية التى يبسطها على امل ان يأخذ بها الامير الذى يأخذ بيد ايطاليا نحو الحرية والوحدة والاستقلال فهو يشير الى احداث معينة فى تاريخ اسبرطة واثينا وطيبة والفرس وامبراطورية الاسكندر المقدونى والامبراطورية الرومانية مما يدل على انه كان على علم موفور بالتاريخ القديم ونظريات وآراء فلاسفة العصور القديمة . فالكتاب يشتمل من ناحية على آراء استمدها من دراسة الماضى وتجارب الحاضر ، ويتضمن من ناحية اخرى نصائح وارشادات يقدمها للامير كى يسترشد بها فى حكمه ليصل الى أوفى قسط من القوة والمنعة .

والامير الذي يصفه ميكيافيللي في كتابه هو امير ايطالي ، لكنه يحمل سمات أمراء عصر النهضة ، وهو حاكم مستبد طاغية ، وهو في تقديره لا يمكن ان يكون الحاكم غير ذلك اذا اريد تحقيق الاهداف القومية على يديه .وهو يقصد بكلمة "الامير" ما نعبر عنه في الوقت الحاضر بلفظة "الملك" ولكنه ملك لدولة صغيرة أو دويلة لأن ايطاليا كانت لاتزال تعبيرا جغرافيا وكانت ممزقة الى وحدات سياسية صغيرة أو امارات . وخيل لميكيافيللي ان الصورة التي رسمها في كتابه للامير الذي ينقذ ايطاليا قد تستهوي خيال احد امراء اسرة ميدتشي فيأخذ على عاتقه عبء النضال القومي .

وتعرض ميكيافيللي في كتابه الى نظم الحكم واختيار افضل النظم التي تكفل النهوض ببلاده وقد تراءى له أن وطنه تمزقه الجيوش الاجنبية . ووضع بعض الشروط من كيفية قيام امير جديد بانشاء دولة جديدة . وكأن أول شرط طرحه هو مقدرة هذا الامير على ايجاد الوحدة السياسية بين الولايات الايطالية المختلفة سواء تمت الوحدة بالعنف وشن الحروب او بالاقناع والمسالمة . كما تعرض ميكيافيللي لموضوعات خطيرة منها مدى محافظة الامير على وعده . وقد جاءت كتابته تحريضا سافرا على نكث العهود اذ نصح الامير بألا يقيم وزنا لعهد قطعه على نفسه ، او لوعد التزم به اذا كان الوفاء بالعهد يعرضه للخطر ولأن الناس أشرار مناكيد لا يحترمون العهود والامير في حل من ان يتمسك بعهد او وعد .ثم قرر ميكيافيللي بعد ذلك أن الانسان لا يقدم على فعل الخير الا مكرها فلا مناص من استخدام الضغط والعنف بشتى صورهما وانواعهما حتى يمكن حجب نزعته الشريرة من

الظهور وحمله على فعل الخير ٠

ثم يقوم ميكيافيللى بعدذلك بعرض النظرية السياسية المشهورة وهى ان الغاية تبرر الوسيلة القذرة او مجموعة الوسائل القذرة التى يلجأ اليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة ٠ وقرر أن القوانين الخلقية وضعت لتقوم على ضوئها العلاقات بين الافراد فحسب اما السياسة فلا مكان فيها للاخلاق ٠ ويجوز لمن يريد انشاء دولة قوية وتدعيمها ان يلجأ الى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة وجميع انواع الجرائم ٠ وعلى هذا الاساس طالب ميكيافيللى بأن يكون الامير بارعا فى الكذب والغش ، وان يكون منافقا يتظاهر بالتحلى بالصفات الحسنة ٠ ويقول ميكيافيللى فى هذا الصدد " ان ما يضير الامير ان يتصف بهذه الصفات الحسنة وان يعمل على هواها ، فى حين انه من الخير له ان يبدو متحليا بها فقط" ٠ ويضيف الى ذلك انه لا حرج على الامير ان يأثم فى حق الدين والفضيلة والانسانية اذا رأى ان المحافظة على الدولة تتطلب منه ارتكاب مثل هذه الآثام ٠ ويروج ميكيافيللى فى كتابه لمسألة جد خطيرة فيقول اذا تمسك الامير بالفضائل فان هذه الفضائل ستقضى عليه لا محالة واذا مارس الرذائل وجعلها اسلوب الحكم فان هذه الرذائل ستجلب له الأمن والرخاء ٠ يقول انه يجدر بالامير أن يرهبه رعاياه ويخشون بأسه وسطوته بدلا من ان يكون محبوبا لديهم ، ويقول فى هذا الصدد: " ان البشر بصفة عامة قوم ناكرون للجميل وانهم قوم ٠٠ يميلون الى الكذب والغش والخداع ، ويطمعون فى الكسب ويتحاشون تعريض انفسهم للاخطار ٠٠ فهم يقفون الى جانبك طالما كنت تقدم لهم خيرا وطالما كان الخطر بعيدا ، فاذا اقترب الخطر وأحدق

بك فانهم يتنكرون لك ويركنون الى الفرار فتجد نفسك وحيــــداً.
والامير الذى يقنع بالاعتماد على الوعود ولا يصطنع الحيلة يبوء بفشل ذريع . ان الناس لا تبالى بالاساءة الى الامير الذى يجعل نفســـه محبوبا ، ولكنهم يخشون ان يمسوا بسوء الامير الذى يخشون بأسه".

ويقول ميكيافيللى للامير ان قوة الدولة فى قوة جيشها ، وللجيـش فى نظره مهمتان : حماية الامن الخارجى وتوطيد الامن الداخلى . وينصح ميكيافيللى الامير بالتزامة القسوة المتناهية مع جنود جيشـــه .
والحرب فى نظره هى اول شئ يجب ان يكون موضع تفكير الامير لانها المهنة الحقيقية لمن يتولى الحكم . وعندما فشل ميكيافيللى فى دعوته الدينية فى فلورنسة ولقى مصرعه وعى ميكيافيللى هذا الدرس القاسى وهو انه لابد لكل من يريد الاصلاح ان يكون له من قوة السلاح ما يجعله قادرا على فرض سياسته الاصلاحية

وتوجد فى كتاب الامير الازدواجية والمتناقضات . فميكيافيللى يبدو فى كتابه نصيرا للنظام الملكى وهو فى قرارة نفسه ومن بيـن ثنايا السطور جمهورى العقيدة والنزعة . ولقد فسر الباحثون هـذه الازدواجية تفسيرات مختلفة فيقول بعضهم ان مناصرته للنظام الملكـى هى وليدة نزعة عارضة استهدف منها التقرب الى الامير الجديد الــذى تولى الحكم فى فلورنسة ليعيده الى منصبه الذى عزل عنه . ويرى البعض الآخر انه كان يؤمن ايمانا راسخا بحاجة بلاده الى امير قوى الشكيمة شديد المراس يعيد اليها وحدتها السياسية ، ولن يكون هذا الامير البطل سوى حاكم فلورنسة الذى يهدى كتابه اليه . ويخرج هذا الفريق مـــن الباحثين الى القول بأن ميكيافيللى ينشد النظام الملكى لدولـــة

واحدة هي ايطاليا ولهدف واحد هو تحقيق وحدتها وفيما عدا ذلك فهو مؤيد قلبا وقالبا للنظام الجمهوري . اما بالنسبة للعوامل التي ادت الى تفضيل النظام الجمهوري على النظام الملكي فيتلخص في ان النظام الجمهوري يقوم على مبدأ تكافؤ الفرص بمعنى انه يفتح الباب امام اصحاب الكتابات بخلاف الحال في النظام الملكي الذي يقوم على مبدأ الوراثة بصرف النظر عن حظ الوارث من العلم او الكتابة ، كما ان النظام الجمهوري اكثر مرونة واسهل قابلية للتطور من النظام الملكي الذي يتصف بالجمود وعدم قدرته على تطوير نفسه . ويضيف ميكيافيللي ايضا ان الحكومة الجمهورية اكثر حرصا على الوفاء بالتزاماتها الدولية من الحكومة الملكية ، فقد يرى الملك ان من مصلحة أسرته التحلل من احكام معاهدة جماعية .

ويبدو من دراسة كتاب ميكيافيللي "الامير" انه خرج على تقاليد العصور الوسطى : فنبذ الناحية الدينية وتجاهل تعاليم الاديان السماوية وتغافل عن مقومات الانسانية وفي مقدمتها الاخلاق المثالية ، واخضعها جميعا للمصلحة السياسية ، وطالب بأن يكون الشعب آداة مسخرة في يد الحاكم وان تكون مصلحة الحاكم وهي مصلحة الدولة مقدمة على كل اعتبار آخر فهو ينادي بالسياسة الملتوية الغادرة الخائنة اذا كان في اتباعها محافظة على كيان الدولة ولا يقيم وزنا للسياسة الامينة الصادقة . ومما يؤخذ على ميكيافيللي انه اغفل ذكر المقومات الاخرى للدولة ، مثل الدين والثقافة والاقتصاد فهو لا يهتم الا بدعامتين : السياسة والجيش ، وهما ضروريتان للمحافظة على كيان الدولة .

ولكن ماهى الدوافع التى اثرت على ميكيافيللى وجعلته ينحو نحو ما يره البعض شططا فى الآراء السياسية ؟

١ - الدافع الاول هو الازمة النفسية المريرة التى كان ميكيافيللى يمر بها اثناء فترة نفيه وعندما كان يضع هذا الكتاب . فكان يعانى من الفقر والحرمان ولا يملك ماينفقه على زوجته وأولاده . وهذا تغير ملحوظ فى حياته لانه كان يشغل مكانة عليا فى داخل المجتمع الفلورنسى قبل ذلك .

٢ - كانت نفسه تجيش بعاطفة وطنية دافقة ، وحز فى نفسه ما رأى عليه وطنه من تفكك الى وحدات سياسية متعددة ، وما يسود هذه الوحدات من مشاحنات وحروب داخلية ، وغزو الجيوش الاجنبية لشبه الجزيرة الايطالية التى اصبحت ميدانا للصراع على السيطرة بين فرنسا واسبانيا . فتطلع الى قيام وحدة سياسية تضم جميع اجزاء شبه الجزيرة الايطالية فى دولة واحدة ذات حكومة مركزية واحدة .

٣ - كان العصر الذى كتب فيه ميكيافيللى كتابه عصرا حافلا بالمتناقضات . فكانت حركة احياء العلوم على إشدها ، وحركة الكشوف الجغرافية تسير قدما الى الامام ثم حل فى نفس الوقت الرخاء المادى الذى جاء معه الترف والانغماس فى الملذات والمجون والفسق . ولهذا اصبحت السمة البارزة المميزة لهذا العصر هى الانحلال الخلقى . ومما هو جدير بالذكر ان ميكيافيللى لم يكن وفيا لزوجته ، فانغمس فى المتع الجنسية التى اولع بها معاصروه ، واهتم بمفاتن الدنيا وكانت له مغامرات غرامية ، وكان ضميره يستيقظ من وقت لآخر فيشعر فى قرارة نفسه بسلوكه المعيب ، ولكنه كان يعترف بعجزه عن كبح

جماح نفسه .

وانقسم رأى الكتاب بالنسبة لكتاب ميكيافيللى الى قسمين :
فالقسم الاول هاجمه ونقده لأنه رأى أنه أسوأ مثل للسياسى الذى ينادى بمبادىء تنبو عنها الاخلاق ،وان الحكام المستبدين اتخذوا آراء ميكيافيللى ذرائع للجرائم السياسية الكبرى والاضطهادات الدينية . اما القسم الثانى فمدح الكتاب لأنه رأى أن ميكيافيللى كان أحد أعلام الفكر الاوروبى الحديث وانه كان رجلا وطنيا من الطراز الاول يعمر قلبه بالايمان بحق وطنه فى الوحدة وفى الحياة الحرة الكريمة . وهكذا يعتبر هذا القسم ان الاثر الذى احدثه كتاب الامير فى تاريخ العالم يكاد يضارع ماتركه كتاب العقد الاجتماعى لجان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) والذى قرر فيه ان الامة مصدر كل سلطة ،وان سلطة الحكومة مستمدة من سلطة الشعب ،ولقد لقيت آراء ميكيافيللى استجابة من عدد كبير من ملوك اوروبا . فقد سار على سنته فى عصر النهضة آل فلوا Valois فى فرنسا وجلسوا على العرش من عام ١٣٢٥ الى عام ١٥٨٩ ، وآل تيودور Tudor فى انجلترا (١٤٨٥ - ١٦٠٣). وسار فردريك الاكبر ملك بروسيا على نفس النهج السياسى الميكيافيللى ويقال انه وجدت نسخة من كتاب الامير ضمن مخلفات نابليون بعد معركة وترلو.وعلى اية حال اصبحت كلمة ميكيافيللية مرادفة الى الآن لمعنى التصرفات التى يشوبها الغدر والدهاء والانانية وغيرها من الصفات التى نادى بها ميكيافيللى وغدت كلمة ميكيافيللى تطلق على الشخص الذى يمارس فى حياته اسلوبا يقوم على الغدر والخيانة وما الى ذلك من عدم الالتزام

بالمبادىء الخلقية ابتغاء الوصول الى تحقيق اهدافه فيالحيــــاة

وعلى أية حال فان اوروبا فى المائتين والخمسين عاما التيأعقبت

موته كانت اما خاضعة للمبادىءالميكيافيللية او ثائرةعليها .

الفصل الثاني

التكوين السياسي لأوروبا ونشأة الدول الحديثة في بداية القرن السادس عشر

لقد لعبت الطبقة البرجوازية الناشئة دورا هاما فى نمو نظام الدولة الحديثة وتطورها الى نظام الملكية المطلقة وقيام الحكم المركزى . وكانت البرجوازية ظاهرة اجتماعية جديدة بدأت تلعب دورها لاقامة هذا اللون من الحكم من اجل مصالحها .ففى العصور الوسطى قام الطريق التجارى عبر جبال الالب بدور مهم اذ نمى تجارة التبادل بين منتجات الشرق ومنتجات اوروبا الشمالية .وأفاد كذلك المدن الواقعة على هذا الطريق بسبب النشاط التجارى ،فلقد قامت بها الصناعات لتحويل المواد الخام التى دخلت الى هذه المدن، الى سلع صالحة للاستعمال. وظهر بذلك عند طرف هذا الطريق التجارى عبر جبال الالب منطقتان رئيسيتان للصناعة ، واحداهما تشمل الاراضى المنخفضة وبلاد البلطيق والمانيا ، والاخرى فى ايطاليا الشمالية . وبذلك عرف هذا الطريق بأنه "السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا The Economic Spino of Europe وكان ثمرة هذا الرواج التجارى والصناعى ان ظهرت طبقة متوسطة اخذت تنمو وتقع على كاهلها عبء هذا النشاط، واستفادت منه كما حدث فى انجلترا وفرنسا والاراضى المنخفضة . وألف التجار جزءا هاما من تلك الطبقة التى تمكنت من السيطرة على المجتمع بفضل تركز النشاط الاقتصادى فى يدها ،وكان ذلك النشاط ممثلا فى التجارة والصناعة . وبفضل هذا

النمو الاقتصادى والاجتماعى اخذت الاعتبارات الجغرافية ،ثم اتفاق أهل الاقليم الواحد فى اللغة والجنس وغيره ،تعمل على تقسيم اوروبا الى مجموعة من الأمم،ولم يلبث ان ادى الاحساس بالمصلحة المشتركة، بجانب ذلك الى نموالشعور القومى Nationalisme

ورغبت هذه الطبقة المتوسطة فى انشاء الحكومة المركزية القوية التى تستطيع تنشيط التجارة الوطنية وفتح الاسواق ،وتصريف المتاجر وصون المعاملات ،وحفظ الأمن ،وتنظيم القضاء، ولم تكن هذه الطبقة تخشى وجود مثل هذه الحكومة طالما كانت فى ثراء وغنى يجعلان هذه الحكومة فى حاجة مستمرة الى معونتها المالية ،ورغم ان مثلها الاعلى فى الحكم كان بحكم تكوينها ، هو الجمهورية فقد رضيت بالتنازل عن هذا مؤقتا لحاجتها فى بداية نموها وتطورها الى الحكم القوى الذى يقضى على الفوض ويضم شتات المجتمع ؛ على ان هذه الطبقة رغم غناها كانت لا تزال تشعر بضعفها ازاء النبلاء القدماء، لذلك ارادت نظاما يكفل مواصلة النضال ضدهم وبذلك لم تر غضاضة حينئذ فى قبول الخضوع لملك مطلق فى سبيل سهره على مصالحهم. وعندما حاولت هذه الطبقة المتوسطة انشاء الملكية المطلقة للدولة الوطنية الحديثة كان قد طرأ على تكوين اوروبا الاقتصادى تغيير ذات له آثار بعيدة المدى ،ونجم عنه انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية ،انتقالا تدريجيا الى الجهة الغربية بدلا من امتدادها الاول من الشمال الى الجنوب فى اوروبا فانتقلت بسبب ذلك مراكز التجارة ،فى المنطقة الشمالية الغربية الصناعية فى اوروبا ، من بحر البلطيق الى الاراضى المنخفضة ،وذلك لانتقال

منطقة الاسماك حوالى ١٤٥٠ من بحر البلطيق الى بحر الشمال واعادة فتح الطريق التجارى عبر الالب من ايطاليا الى فرنسا . وهو الطريق الذى اغلقته حروب المائة عام ،بعد انتهاء هذه الحروب عام ١٤٥٣ هذا فضلا عما حدث خلال النصف الثانى من القرن الخامس عشر من قيام حركة الكشوف الجغرافية وتركز الحركة فى موانئ غرب اوروبا ، وفى السير منها غربا وشرقا ،فكان لهذا اثر ظاهر فى سرعة انتقال الطرق التجارية الى الجزء الغربى لاوروبا . ولقد آثر هذا الانتقال فى مدى أو درجة تقدم أو تأخر الدولة الوطنية الحديثة ،عندما اصبح نمو ورقى هذه الدولة أو تأخرها متوقفا على مدى قربها أو بعدها من هذه السلسلة الفقرية الاقتصادية .

أما الامم البعيدة قليلا من هذا المحور فكانت هى الامم الشبيهة بالموحدة ، وكانت ذات ميزات خاصة وان كانت تدخل مع ذلك ضمن المجموعة الاولى ، وتمثل هذه الامم الاراضى المنخفضة . ويلى ذلك الامم غير الموحدة ،وهى التى انعدم فيها اطلاقا وجود الحكومة المركزية لعدم توفر عواملها وكانت تمثل هذه المجموعة ايطاليا والمانيا والدول الاسكندنافية وروسيا وبولنده ، وفى الامم الموحدة استطاعت المدن الحصول على المركز السياسى ،كما حدث فى كل من فرنسا واسبانيا وانجلترا ، عند الحدود الزمنية الفاصلة بين العصور الوسطى وعصر النهضة . فكانت المدن تمد الملك بالمال اللازم فى نزاعه مع الامراء الاقطاعيين .

وهكذا اختلف التكوين السياسى للدول الاوروبية الحديثة فى القرن السادس عشر بين بلد وآخر تبعا لظروف كل منهما فى نموه

الاقتصادى والاجتماعى وموقعه الجغرافى خصوصا ، بعدا أو قربا مـــن المحور الاقتصادى الذى لعب دوره الكبير فى تكييف ذلك التكويـــن السياسى لكل أمة .

بعض الدول الاوروبية فى مطلع القرن السادس عشر

١ - الدولة العثمانية :

بالرغم من ان الدولة العثمانية كانت دولة اسلامية شرقية الا انها كانت تعد من ضمن الدول الاوروبية ، وذلك لتوسعها وسيطرتها على كثير من البلاد الاوروبية ،والواقع ان تاريخ أوروبا الحديث يبدأ فى وقت الزحف العثمانى على اوروبا من ناحية الشرق، ولقد بدأ ظهور العثمانيين فى التاريخ عندما دفعت غزوات المغول فى نهاية القرن الثالث عشر الشعوب التركية الاسلامية تجاه الشرق حيث سلكوا طريقهم الى المناطق الغربية الى ما وراء سيطرة المغول واستقروا فى الاناضول ،وفى حوالى عام ١٣٠٠ ظهرت فى عالم الاحداث امارة تركية صغيرة اسسها زعيمها "عثمان" حول مدينة "بروسة" فى الطرف الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ،وكان العثمانيون (نسبة الى عثمان) يعتبرون انفسهم فى حالة جهاد مع الامبراطورية البيزنطية التى استقروا على حدودها . ولقد تكاتفت العوامل التاريخية والجغرافية لتساعد على تطور الامارة العثمانية ،وفى مجال انشاء الدولة ، بمعنى التوسع الاقليمى وانشاء تنظيم سياسى قوى لعب الحكام دورا قياديا . وفى عام ١٣٢٦ - وهى السنة التى توفى فيها عثمان مؤسس الاسرة - احرز اتباعه أول غزو كبير لهم وذلك بالاستيلاء على المدينة البيزنطية الهامة بروسة والتى اصبحت بالتالى عاصمة الاسرة العثمانية . وفى عام ١٣٥٣ أغار خلفاء عثمان على اوروبا ،واستولوا على ادرنه وجعلوها حاضرتهم فى

اوروبا عام ١٣٦١، فقطعوا بذلك الطريق بين القسطنطينية وما خلف ادرنة من بلاد البلقان، وعزلوا عاصمة المسيحية الارثوذكسية عن الامم السلافية الارثوذكسية التى قد تجد فيهم خير احلاف لها. ولم يأت عام ١٤٠٠ على اية حال الاوكانوا قد مدوا حدودهم الشمالية الى نهر الدانوب فضلا عن استيلائهم على الجانب الاعظم من آسيا الصغرى ، وكادت القسطنطينية تسقط فى ايديهم لولا ان دهمهم فى هذه اللحظة سيل تيمورلنك وهزمهم هزيمة منكرة عند انقرة فى عام ١٤٠٢ وانتزع آسيا الصغرى من ايديهم، وان كانوا قد احتفظوا بأملاكهم فى البلقان .

وقد أخذ العثمانيون بعد عام ١٤٢٠ ينقلون من اوروبا الغربية الاسلحة النارية ، واستطاع السلطان محمد الثانى فتح مدينة القسطنطينية فى ٢٩ مايو عام ١٤٥٣، واصبحت مدينة الاباطرة ،ثالث وآخر عاصمة لبيت عثمان . كما استطاع محمد الثانى خلال فترة حكمه التى امتدت ثلاثين عاما (١٤٥١ - ١٤٨١) من ان يحرز الكثير من الاعمال بجانب هذا العمل العظيم .فالامبراطورية العثمانية ،كما يمكن ان نسميها الآن ، قد امتدت فى البلقان وبلاد اليونان. وبالاضافة الى ذلك اصبح البحر الاسود بحيرة عثمانية . ولقد قامت معظم فتوحاتهم على اكتاف قوة المشاة العسكرية التى كونها العثمانيون من ابناء المسيحيين الخاضعين لحكمهم والتى عرفت باسم الانكشارية . ولقد استطاع العثمانيون بعد ذلك السيطرة على معظم مناطق الشرق الاوسط بعد هزيمة الصفويين فى ايران فى موقعة جالديران عام ١٥١٤، وتمكنوا من احتلال سورية بعد موقعة "مرج دابق"

فى عام ١٥١٦، ثم احتلوا مصر فى العام التالى • وقد وصلت الامبراطورية فى عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) الى اقصى اتساع لها حيث وصل العثمانيون الى اسوار مدينة فيينا • أما نظم الحكم العثمانية فلقد اعتمدت على الثنائية اذ كان هناك فى داخل الامبراطورية هيئتان : الهيئة الحاكمة والهيئة الاسلامية •وكان السلطان على رأس الهيئة الحاكمة ، وتركزت فى يده كل السلطة ، واستمر الامر على هذا النحو حتى بدأت مظاهر الضعف والانهيار تظهر فى داخل الامبراطورية بعد وفاة سليمان القانونى فى عام ١٥٦٦ وعند مجئ سليم الثانى الى العرش •

ولقد أثرت الدولة العثمانية فى اوروبا تأثيرا ملحوظا فى ناحيتين مهمتين • :

أ - كان نظام الحكم فيها هو نظام مركزى استبدادى ، بينما كان حكام اوروبا يحاولون القضاء على سيطرة وسلطة امراء الاقطاع وتركيز السلطة فى ايديهم ، وبذلك وجدوا فى النظام العثمانى مثلا يحتذى •

ب - عندما كانت الامبراطورية العثمانية دولة قوية فى بداية نشأتها وقامت بتوسعاتها فى اوروبا فاننا نجد ان معظم الدول الاوروبية قد بدأت تتكتل ضد هذا الخطر من جانب دولة اسلامية شرقية •وكانت نظرة اوروبا تجاه الدولة الناشئة المتوسعة نظرة دينية لازالت قائمة على مدى العلاقة بين المسيحية والاسلام حيث لم تكن الحروب الصليبية التى قامت فى العصور الوسطى قد غابت بعد عن الاذهان اذ كان هم اوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر هو التكتل والوقوف

ضد الخطر العثمانى وانقاذ الدول الاوروبية من السيطرة العثمانية وبذلك فاننا نجد ان قوات السلطان سليمان قد فشلت فى الاستيلاء على مدينة فينا التى وصلتها فى ٢٧ سبتمبر عام ١٥٢٩، وسرعان ما انسحبت منها فى ١٥ اكتوبر. ولقد قام العثمانيون بمحاولة أخرى فى مدى قرن ونصف اى فى عام ١٦٨٣ ولكنهم فشلوا أيضا . ولقد ظهر الآن تقدم اوروبا عسكريا بينما كانت الامبراطورية العثمانية فى حالة تأخر مستمر وبذلك أوقفت اوروبا التقدم العثمانى . وكان فشل العثمانيين أمام فينا للمرة الثانية حاسما حيث تقدم النمسويون وحلفاؤهم الى المناطق العثمانية فى المجر واليونان وعلى سواحل البحر الاسود وانتصروا على العثمانيين فى موقعة موهاكس Mohacs عام ١٦٨٧ وفى موقعة زنتا Zenta عام ١٦٩٧ وعقدت بينهما معاهدة كارلوفيتز Carlowitz عام ١٦٩٩ والتى كانت أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية كدولة مهزومة ، وبدأ ما يعرف باسم المسألة الشرقية يظهر الى حيز الوجود منذ ذلك الوقت .

والمسألة الشرقية تعنى فى قاموس السياسة الاوروبية ضعف الدولة العثمانية ومحاولة الدول الاوروبية تقسيم ممتلكاتها والقضاء عليها وبذلك فقد اصبح يطلق على الامبراطورية العثمانية فيما بعد اسم رجل اوروبا المريض The sick man of Europe ولقد بدأ التهديد الروسى للامبراطورية فى القرن السابع عشر فى عهد بطرس الاكبر، عندما حاولت روسيا الحصول على مركز لها فى المياه الدفيئة . وكان ذلك بداية مرحلة طويلة من الحروب بين روسيا والامبراطورية العثمانية ، وكانت من أهم المظاهر التى ميزت تاريخ اوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، غير انه

كانت هناك دول تنادى بمبدأ المحافظة على كيان الدولة العثمانية كانجلترا مثلا ،وكان لورد بامستون (Palmerston) أحد وزراء الخارجية البريطانيا فى القرن التاسع عشر هو الذى قنن تلك السياسة .

٢ - المانيا :

اشتوطن المانيا منذ بدء العصور الوسطى عدد من القبائل الجرمانية التى هاجمت الدولة الرومانية القديمة فى القرون الأولى وقد ظهر من هذا العنصر شارلمان Charlemagne (٧٧١ - ٨١٤) الذى نجح فى تكوين امبراطورية واسعة مترامية الاطراف وتوجه البابا امبراطورا عام ٨٠٠م ومنذ قيام الدولة الرومانية المقدسة على يد شارلمان أثرت فى تاريخ المانيا عوامل كثيرة كان اهمها العامل الجغرافى . فكانت الملكية الالمانية اقوى ملكية فى اوروبا فى العصور الوسطى ولكنها اصبحت اضعفها شأنا فى القرن الخامس عشر . ولقد قسمت الامبراطورية بين ابناء شارلمان بمقتضى معاهدة فردان عام ٨٤٣م وتولى العرش بعد ذلك الملك الالمانى أوتو الأول Otto 1 عام ٩٦٢م ، وتوجه البابا وأنشأ امبراطورية مقدسة ،لكن سرعان ما تلاشت سلطة الامبراطور واصبحت سلطة صورية وانقسمت المانيا الى اكثر من ٣٠٠ ولاية بعضها خاضع للكنيسة والبعض يحكمه امراء وأحيانا وجد اكثر من امبراطور واحد .

وظلت اللامركزية قائمة فى المانيا على اساس التقسيمات الاقليمية حتى اواخر القرن التاسع عشر ، ولكن كان فى المانيا من العناصر ما أهلها بعد ذلك للوحدة القومية ،وقد تمثلت احداها خير

تمثيل فى المجلس الامبراطورى اوالديت Diet وهو مجلس يمثل الامارات ، وكان مشكلا من ثلاث طبقات : الاولى كانت من الناخبين Electors الذين كانمن حقهم انتخاب الامبراطور،والثانية من الامراء ورجال الدين،والثالثةمن المدن الامبراطورية (أى التى يكون رئيسها الاعلى الامبراطور نفسه) . وكان من بين هذه العناصر ايضا وجود الامبراطور كملك ، وانلم يكن يقوى على فرض سيادته على الاقطاع القوى ، فقد كان يسعى دائما لتوطيد نفوذه وانشاءحكومة مركزية موحدة ،ولم يستطع الامبراطور تحقيق رغبته فى العصور الوسطى بسبب كفاحه مع البابوية ،وضعف الامبراطورية نفسها .وعندما تولت آسرة الهابسبرج Hapsburg شئون الامبراطورية بعد سقوط اسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufenعام ١٢٧٣، كان من المنتظر ان تصلح احوال المانيا ولكن ذلكلم يحدث ، بلاستمر النزاع فى عهد هذه الاسرة على تاج الامبراطورية حتى استطاعت سويسرة الخروج عليها من دائرة نفوذ الامبراطورية الرومانية المقدسة ،فلما اعتلى مكسمليان الاول - من اسرة الهابسبرج العرش (١٤١٣ - ١٤١٩) أعاد للامبراطورية كثيرا من هيبتها المفقودة ،ويعتبر حكمه فترة انتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة . وحتى سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٨٠٦، بقى تاريخ الامبراطورية وراثيا فى اسرة الهابسبرج. وكانت هناك ولاياتمتعددة فى داخل المانيا . فبالاضافة الى النمسا وجدت براندنبرج Brandenburg وسكسونيا Saxony وبفاريا Bavaria وفورتمبرج Wurtemburg ومنحت اسرة الهوهنزلرن Hohenzollern حكم امارة براندنبرج عام ١٤١٥، وآسست لنفسها ملكية قوية فى بروسيا ظلت تحكم المانيا

بعد حركة توحيد المانيا The Unification of Germany عـــام ١٨٧٠ حتى انهيارها فى اعقاب الحرب العالمية الاولى .

٢ - حالة ايطاليا فى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث :

كانت ايطاليا كألمانيا تتبع الدولة الرومانية المقدسة من الناحية الاسمية واشتركت مع المانيا من حيث ان وحدتها القومية لم تتم الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكانت ايطاليا فى بادئ الامر قلب الامبراطورية الرومانية القديمة التى شملت بلادا كثيرة فى اوروبا وآسيا وافريقيا وتركت تراثا حضاريا عظيما للحياة الانسانية فى شتى النواحى . ثم بدأت هذه الامبراطورية فى الانهيار بسبب هجمات الجرمان وسقوط روما فى ايديهم فى بداية القرن الخامس الميلادى. وعندما كون شارلمان امبراطوريته الواسعة كانت ايطاليا جزءا منها وذلك فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى . وبعد تقسيم الامبراطورية فى عام ٨٤٣ أصبحت ايطاليا من نصيب احد ابنائه ، كما انها صارت جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة فى عهد أوتو Otto فى النصف الأول من القرن العاشر . لكن لم يبق نفوذ الاباطرة قويا فى ايطاليا وأخذ فى الضعف .وأخذت الولايات الايطالية المختلفة فى الخروج على نفوذ الامبراطور حتى لم يصبح الا نفوذا شكليا فى القرن الثانى عشر وترتب على ذلك ان انقسمت ايطاليا الى وحدات صغرى واستمر هذا الانقسام السياسى واضحا حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

والواقع انه منذ بداية القرن الثانى عشر وخلال عصر النهضة

تميز تاريخ ايطاليا بوجودنظم سياسية تشابه تلك التى وجدت فى بلاد اليونان فى التاريخ القديم. لقد وجدت عدة مدن ومقاطعات مستقلة نشأ بينها صراع عنيف كما نشأت منافسات سياسية حزبية فى المدينة الواحدة ،وكان لوقوع ايطاليا على الطريق التجارى بين الشرق والغرب وشروق الحضارة الحديثة فيها مبكرا ،عن سائر أوروبا اثرفى التعجيل بتفكك وحدتها تفككا انبعث من نموها السريع .وكان ضعف الاقطاع وعدم انتشاره فى ايطاليا من اكبر العوامل التى ساعدت على هذا النموالسريع . وعلى هذا وجدت عدة مدن ومقاطعات مستقلة نشأ بينها صراع عنيف كما نشأت منافسات سياسية حزبية فى المدينة الواحدة . وكانت الدويلات الرئيسية فى ايطاليا فى عصر النهضة هى البندقية وممتلكات البابوية ومركزها روما وميلان وفلورنسة وقد احرزت هذه المراكزمكانا متفوقا على الدويلات الاخرى المجاورة . كما يجب الا نغفل اهمية المدن الايطالية الاخرى مثل جنوه وفيرونا Verona وفيرارا Ferrara . فكان لهذه المدينة الاخيرة نشاطها السياسى وكانت فى سياستها صورة مصغرة للدويلات الرئيسية السابقة الذكر. وبالاضافة الى ذلك كانت هناك عدة امور يجب ملاحظتها فى تاريخ تلك الفترة مثل :

١ - كان الايطاليون قديما يقاتلون بأنفسهم لكنهم كفوا فى عصر النهضة عن ممارسة القتال شخصيا واستخدموا طوائف من الجنود المرتزقة ، ذلك لأنهم قد آثروا الاشتغال بالتجارة والصناعة وجمع الثروة ،واتجهوا لدراسة الادب والفنون،ولذا استخدموا هؤلاء الجنود من عناصر مختلفة وغالبا كانت من السويسريين - وكان يقودهم قوادا يعرفون باسم (Condottieri) . وقد امتازت

هذه الفرق من الجنود المرتزقة بمهارتها فى القتال وبالشجاعة والمحافظة على النظام .

٢ - لم يتقيد الايطاليون بالاخلاق واتبعوا فى السياسة الوسائل التى توصلهم الى اهدافهم سواء وسائل العنف أم القتل أم القسوة ، وحتى البابوات انفسهم قد اتبعوا هذه الوسائل فقتلوا أعداءهم ومثلوا بهم .

٣ - كان لازدياد الثروة فى المدن الايطالية نتيجة لنشاط التجارة ان انقسم الشعب فى المدينة الواحدة الى طبقتين متنازعتين ، الاولى وهى طبقة الـ Popolo Grosso والثانية هى الـ Popolo Minuto ، وكانت الاولى هى الطبقة الثرية أما الاخرى فكانت تتكون من العناصر الفقيرة من اصحاب المهن المختلفة ومنهم الخبازين والنجارين وصناع الاحذية وغيرهم ، وقد قام صراع بين الطبقتين أدى الى الكثير من الشغب والمتاعب الداخلية . ولتحقيق الامن والنظام فى الداخل عهد بادارة شئون المجتمع الى شخص Signora أو أشخاص Signori وقد تمكن بعض هؤلاء الرجال من ذوى الكفاءة من القبض على زمام الامور .

وكانت هناك ولايات خمس رئيسية فى ايطاليا هى البندقية وميلان وفلورنسة والولايات البابوية ومملكة نابولى .

أما عن البندقية Venice فكان لها تاريخا مجيدا فى عصر النهضة الاوروبية وعرفت هذه المدينة باسم ملكة الادرياتى Queen of the Adriatic واشتغل اهلها منذ القدم بالتجارة ، وقد

منحتها الدولة البيزنطية امتيازات تجارية ،ولم يكن للبندقية أملاك فى نفس ايطاليا ، ولذا لم تنشأ بها ارستقراطية من أمراء الاقطاع ، كما كان الحال فى معظم البلاد الاوروبية الوسيطة . ولقد اشترك البنادقة فى الحركة الصليبية ،وازداد تبعا لذلك نفوذ البنادقة في الشرق الادنى .ومنذ فترة مبكرة تحدت مدينة جنوة — تلك المدينة التجارية الايطالية الهامة — النفوذ البندقيفاستحوذت على امتيازات تجارية فىالقسطنطينية بعد سقوط الامبراطورية اللاتينية فى الشرق عام ١٢٦١،كما انتهىالصراع بينهما حول النفوذ فى البحر الاسود بانتصار البندقية على جنوه عام ١٢٨١. ولقد اكتفت البندقية حتى القرن الرابع عشر بأنتعيش فىمعزل عن سائر الاراضى الايطالية معتمدة على مستعمراتها التجارية خارج ايطاليا .وعندما توغل العثمانيون فى البلقان اصطدموا بالبنادقة ،ومن ثم عملت البندقية على توجيه عنايتها الى اراضى ايطاليا نفسها .وكان لكشف طريق رأس الرجاء الصالح اثركبير عليها اذ ضاع جزءكبير من الثروة التى كانت تحصل عليها . ومن اهم خصائص البندقية فى عصر النهضة هو تمتعها بالوحدة والاستقرار الداخلى ،وقد خالفت فى ذلك اغلب الدويلات الايطالية الاخرى وخاصة فلورنسة التى عانت من الحياة الصاخبة ، ولم يعرف بالبندقية الصراع الداخلى بين الاحزاب بالشكل الذى وجد فى الدويلاتالاخرى. وقد تركزت السلطة فى يد الاقلية الغنية القوية وكانعلىرأسها الدوج Doge ، وهو اصلا ممثل الامبراطور البيزنطى ، وكانت سلطته فى بادئ الامر قوية ولكن الى جانبه وجد المجلس الكبير، وقدتكون من افراد من اغنىالعائلات وعمل المجلس علىالحد من سلطة الدوج، وكان للمجلس حق اختيار

هذا الحاكم ، والى جانب المجلس الكبير وجد مجلس العشرة ،وكان يختاره كذلك المجلس الكبير للمحافظة على الامن العام للدولة . وبفضل هذه النظم السياسية تمتعت البندقية بحياة داخلية مستقرة واعتمدت قوتها الدولية على بحريتها واسطولها الذى كان اعظم اسطول فى اوروبا . اما فى قوتها البرية ،فقد اعتمدت كلية على الجنود المرتزقة ، وكان هذا الوضع مصدر متاعب لها فى تاريخها وخاصة فى الفترة المتأخرة .

أما ميلان فكانت مركزا زراعيا عظيما فى سهل لمبارديا الخصيب فى شمال ايطاليا . وبعد انتعاش حركة التجارة فى أواخر العصور الوسطى جذبت هذه المدينة اليها عددا كبيرا من التجار ورجال الاعمال من كل انحاء العالم التجارى من البندقية وجنوة وفلورنسة وغيرها . وكانت ميلان مركزا اقتصاديا هاما كذلك فى عصر النهضة . وكان لازدهار التجارة وتفوق الصناعة والمركز الجغرافى الممتاز لميلان اهمية خاصة فى السياسة الايطالية . فقد عمد حكام بيت هابسبرج وملوك فرنسا الى الاستيلاء عليها اثناء الحروب الكبرى التى قامت فى القرن السادس عشر . وفى اوائل القرن الرابع عشر تولى حكم ميلان اسرة الـ Visconti وسرعان ما أصبح لهذه الاسرة حكما وراثيا فى ميلان .وحكموا حكما عسكريا استبداديا واعتمدوا على استعمال الجنود المرتزقة ، وقد جر ذلك عليهم المخاطر حيث استحوذ بعض قواد هؤلاء الجنود على السلطة مثلما حدث فى حالة فرانشيسكو سفورزا Francesco Sforza (١٤٥٣) الذى تزوج ابنة آخر ممثل لعائلة الـ Visconti فى أواخر

القرن الخامس عشر، وقد امتازهذا الرجل بالذكاء وقوة الشخصية وتمكن منتأسيس اسرة سفورزا كأسرةحاكمة فى ميلان. ثم استولى الفرنسيون على المدينة فى عام ١٥٠٠ وانتزعها منهم بعدئذ الامبراطور شارل الخامس (امبراطورالمانيا وملك اسبانيا) فى عام ١٥٢٢، وبقيت منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٧١٤ تابعةلاسبانيا ، وفى هذه السنة ضمت الى النمساوظلت خاضعة لها حتى الغزوالنابليونى لايطاليا .

أما فلورنسة وتسمىاحيانا بمدينة الزهور، فتعتبر من عدة نواحى اعظم الدول التىوجدتفىعصر النهضة ، وتمتاز فى عصر النهضة بوجود اروع الآراء السياسية ، فامتاز اهلها بالعمق فى التفكير والبراعة فى النقد والقدرة على الانتاج الفنىوروح السخرية والدهاء. وقد أخذت هذه العقلية تعمل باستمرار على تغيير الحياة الاجتماعية والسياسية فى فلورنسة التى شاهدت انقلابات سياسية عنيفة بشكل فاق ما ورد فىالدويلات الايطالية الاخرى. وقداشتد فى فلورنسة الصراع بين الديمقراطيةوالأوليجركية (اى حكم الاقلية ـ وكان اليونان القدماء يستعملونهذا اللفظ للدلالة على الحكومة التىتتولاها اقلية منالاعيان Oligarchy). ووجدت نقابات للصناع واصحاب الحرف ،كما وجدت حكومات متنوعة من شعبية وديمقراطية وارستقراطية ، بل قد اتخذت احيانا طابعا دينيا مثل تلك الحكومة التى اسسها سافونا رولا. وعمل سافونا رولا ـ كما اشرنا قبل ذلك ـ على العناية بمصالح الشعب ،فخفض الضرائب وأوجد العمل للمتعطلين ، وجمع كتب الفساد والحلىوالملابس

الفاخرة وحرقها . وقامت بين السكان طائفة اخذت تطالب بالرجوع الى عصر آل ميدتشى واستفاد البابا اسكندر السادس - الذى طالما ندد سافونا رولا بخطاياه - من هذا القلق المتزايد، وحرض البابا أهل فلورنسة ضد سافونا رولا فى عام ١٤٩٨ ، فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته. وبعد ثلاثين عاما من وفاة سافونا رولا ضاع استقلال فلورنسة وضمت الى دوقية تسكانيا (Tuscany) التى استمرت من القرن السادس عشر الى ايام الثورة الفرنسية تابعة للامبراطورية . وكان من اشهر حكام اسرة الميدتشى كوزيمو Cosemo ولورنزو Lorenzo وقد اشتهر الاخير بمساعدته وتشجيعه للفنانين والعلماء والادباء. وقد اعتمدت فلورنسة فى تكوين ثروتها على تقدم أهلها فى الصناعة وخاصة صناعة المنسوجات الصوفية، وكذلك على المهارة فى المعاملات المالية والتجارية، ولكن كان من اكبر عيوبها الاعتماد على الجنود المرتزقة

أما الولايات البابوية فكانت تسمى كذلك Patrimony of St.Peter

ولقد اهتم البابوات بتكوين ملك دنيوى لهم بأواسط ايطاليا ونجحوا فى ذلك وشملت املاكهم المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الادرياتى ، وشملت مدنا مهمة منها روما وأسيسى (Assisi) وانكونا (Ancona) وغيرها . ولكن المدن الواقعة داخل ممتلكات البابوية لم تشارك المراكز الايطالية الاخرى فى نشاطها التجارى وتقدمها الصناعى ، فقد كانت بلادا زراعية قبل اى شئ . وميز الاملاك البابوية كذلك ان النظام الاقطاعى قد بقى فيها قويا ، كما امتلأت حياتها بالحزبية . وكانت اعظم نقط ضعف

الدويلات الكنسية هى نوع حكومتها ،فعلى رأسها وجد البابا أو البابوات وكان هؤلاء عادة عند توليهم لمنصبهم شيوخ مسنين،ولم تكن البابوية وراثية وقدنتج عنذلك عدم وجود سياسة واحدة ثابتة . وعلاوة على هذا فان المشاكل التى واجهت البابوية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين قد اضعفت من سلطان البابا فتجاهل الحكام الاقطاعيون والحكومات المدنية السلطة المركزية للبابوية . وتمكنت العائلات الارستقراطية المحلية من تأسيس حكم استبدادى وخاصة اثناء غياب البابوية فى افينيون . وعلى كل ، فقد قامت الاملاك البابوية بدور كبير فى التطور الثقافى فى عصر النهضة ،فشجع بعض البابوات العلوم والاداب والفنون مما ساعد على بدء النهضة والتمهيد لها. وقد كان ذلك امرا عظيما ،فان البابوات فى أول الامر قد قاوموا العلم الحديث . ولكن جرفهم التيار فأخذوا فى نشر فلسفة ارسطو بعد ان كانوا يقاومونها ،وهذه الفلسفة قد لاءمت التقدم الفكرى الحديث اكثر من فلسفة افلاطون الشعرية التى سيطرت على الناس فى العصور الوسطى، فبقيام الدول الاوروبية الحديثة وانتشار حركة النهضة، ضعف نفوذ البابوية فى اوروبا ،ولذلك اتجه البابوات الى ايطاليا ذاتها وعملوا على توحيد جهودهم للسيطرة عليها بدلا من السيطرة على اوروبا كلها. ولكن ذلك كان شرا على ايطاليا لأن البابوات قد قاموا بكثير من الفتن والدسائس فى الولايات الايطالية لبسط سلطانهم عليها وتنصيب اقاربهم على رأس هذه الامارات . ونتيجة لهذا الاضطراب تنافست على ايطاليا فرنسا واسبانيا وتأخرت الوحدة الايطالية بالتالى .

ويمتاز التاريخ الانجليزى منذ هذه السنة حتى عام ١٤٥٠ بالصراع بين الملكية والنبلاء والشعب ونمو السلطة المركزية فى نفس الوقت ونتيجة لذلك نمت الحياة البرلمانية فى انجلترا بشكل لم يعرف له مثيل فى سائر الدول الاوروبية . ولقد تم اجتماع كلمة الاشراف (امراء الاقطاع) ورجال الكنيسة وفيما بعد العامة كذلك على تقييد سلطة الملكية فأصدرت الملكية فى عام ١٢١٥ ما يعرف باسم العهد الاعظم Magna Carta (اساس الدستور الانجليزى) ، واقدم العهود التى دونت بها قبل كل شىء حقوق وامتيازات البارونات ثم الكنيسة ثم العامة . وتعهد الملك فى هذا العهد بما يلى :

١ - احترام حقوق الاشراف ، واعلن انه لن يفرض ضريبة غير الضرائب الاقطاعية المعتادة الا بموافقة المجلس الاعظم الذى يمثل طبقات الامة .

٢ - تعهد بألا يقبض على احد أو يسجنه ما لم يقرر ذلك مجلس مختص او محكمة قانونية . ولو ان العهد الاعظم لم ينفذ بحذافيره ، فانه اصبح للملك مجلس اعظم من رجال الكنيسة والاشراف والفرسان الى ان جاءت سنة ١٢٩٥ وعقد اجتماع يمثل الكنيسة والاشراف والشعب ويقرب كثيرا من شكل البرلمان الحالى .

وقد حدثت حرب الوردتين Wars of the Rises عام ١٤٥٥ احتى عام ١٤٨٥ بين اسرتى لانكستر Lancaster (وكانت شارتها الوردة الحمراء) ويورك York (وشارتها وردة بيضاء) وكانت هذه الحرب بمثابة انتحار من جانب طبقة الاشراف والنبلاء الانجليز ، اذ قضى على عدد كبير منهم ، وعقب انتهاء هذه الحرب (بعد انتصار لانكستر)

اما بالنسبة لنابولي ، فكانت تشغل الجزء الجنوبي من ايطاليا ، وقد كونت مع صقلية مملكة مستقلة عن باقي ايطاليا وسميتا حينئذ بالصقليتين ، ولعبتا دورا مهما في نشأة الادب وتطور الفكر الايطالي ، واستمدت مملكة نابولي وصقلية ثقافتهما من العرب والنورمانديين ، ومن الملوك البارزين في تاريخها فردريك الثاني Frederic II الذي حكم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وقد اسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤ ، وكان مهتما بجمع المخطوطات العربية واليونانية وأمر بترجمتها الى اللاتينية . وفي نهاية القرن الثالث عشر ، تدخل الفرنسيون في شئون هذه المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الايطالية ونازعتهم السلطة هناك اسبانيا

٤ - انجلترا

تعرضت انجلترا منذ تاريخها القديم لغارات مختلفة وأصبحت في فترة تحت حكم الرومان ، ثم استوطنت بها بعد ذلك العناصر الانجلوسكسونية ، وجاءت بعد ذلك موجة من النورمانديين واستقروا بالبلاد منذ عام ١٠٦٦ ، ولقد كان الفتح النورماندي في هذه السنة حدث هام في التاريخ الانجليزي كله ، فبينما ظلت انجلترا الى ما قبل الفتح النورماندي لا يربطها بالقارة الاوروبية سوى علاقات واهية ، اذ هي صارت بعد ذلك الفتح الى اواخر العصور الوسطى مرتبطة بفرنسا اشد الارتباط . وفي تلك العصور شاعت المؤثرات الفرنسية وسادت بين الامم . فبعد انتصار وليم النورماندي على الملك ادوار التقي Edward the Confessor عند بلدة هيستنجز Hastings اعترف به مجلس الدولة The Witan ملكا على انجلترا .

ظهرت اسرة التيودور Tudors ، حيث توج قريبهم هنرى تيودور (وهو يمت بصلة الى اسرة لانكستر) ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع وحكم من ١٤٨٥ الى ١٥٠٩ وكان هنرى قد جاء الى انجلترا بمساعدة البلاط الفرنسى . وتمكن افراد اسرة تيودور (١٤٨٥- ١٦٠٣) بعد ضعف سلطة الاشراف الانجليز، نتيجة للحرب السابقة من حكم انجلترا حكما مطلقا ،فكان ملوك هذه الاسرة اصحاب الكلمة النافذة فى سياسة البلاد الداخلية والخارجية لا يقف فى طريقهم اشراف ولا هيئات برلمانية ، اذ كان الاشراف قد قضى على سلطتهم فى الحرب الاهلية السابقة ، وكان البرلمان قد اقنعته تلك الحروب بأن يترك للملوك السلطة الكافية لضبط الامن وحماية البلاد من الغزو. وفى عهد هنرى السابع بدأت انجلترا تمهد لبسط نفوذها على الجزر البريطانية ، وتعقد صلات وثيقة بأوروبا ، وتتطلع الى آفاق واسعة فى الاستكشافات والتجارة فيما وراء البحار. فاكتشف جون كابوت John Cabot بتكليف من الملك نيوفوند لاند عام ١٤٩٦، وهى اقدم ممتلكات التاج البريطانى فى امريكا. وعلى اساس هذا الكشف ادعت انجلترا لنفسها حق احتلال هذه الاجزاء الواسعة من امريكا الشمالية بعد ذلك بأكثر من مائة عام. وتبعت اسرة التيودور فى الحكم اسرة ستيوارت Stewart . وفى الواقع يرجع الى ملوك انجلترا من التيودوريين الفضل فى تحويلها الى دولة قومية ذات مصالح فى العالم الجديد.

٥ - فرنسا :

كانت فرنسا جزءا من الدولة الرومانية حتى اغارت عليها قبائل الفرنجة فى القرن الخامس الميلادى ، ومن اشهر حكامهم شارل مارتل

وحفيده شارلمان. وكانت فرنسا بعد عهده بلدا اقطاعيا وليس للملكية فيها الا نفوذ ضعيف وذلك الى ان اخذت الملكية فى فرض نفوذها على حساب الامراء الاقطاعيين ، وخاصة اثناء حرب المائة عام التى قامت بين انجلترا وفرنسا فى اخريات العصور الوسطى (١٣٣٨ -١٤٥٣) وخرجت منها فرنسا قوية ،وبدأ نمو الروح القومية فى البلاد. وكان لوى الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) ،ممن عملوا على اضعاف سلطة الامراء الاقطاعيين، فلم يكن قد مضى على توليه العرش وقت طويل حين واجهه تآلب خطير من النبلاء الساخطين (عرف بعصبة الصالح العام) يقوده شارل كونت شارلوا (الملقب بالجسور)، ووريث دوقية برجنديا Burgandy. واستطاع لوى بذكائه الخارق ان يكسب خصومه فى باريس بما اظهره من دلائل الصفح الحكيم وبذلك استطاع ان يعتمد على باريس وان يواجه جميع اعدائه الذين دبت الفوضى فى صفوفهم. وكان من حسن حظ لوى ان شارل الجسور لم ينجب ذكرا ولهذا فبوفاته عام ١٤٧٧ آلت برجنديا الى العرش الفرنسى ، كما آلت اليه دوقية بريتانى بعد ذلك وأصبحت فرنسا بعد وفاته دولة متماسكة قوية مأمونة الحدود من كل جانب ،كما انهى حكمه عهد العصور الوسطى فى فرنسا .

وخلف لوى شارل الثامن وحكم حتى اواخر القرن الخامس عشر (١٤٨٣ - ١٤٩٨) وقد تبعه فى مواصلة تلك السياسة (اى فرض السلطة المركزية على حساب الامراء الاقطاعيين). كما عمد هذا الملك الى توسيع نفوذ فرنسا عبر جبال الالب ، وغزا ايطاليا وبدأ الصراع بين فرنسا وآل الهابسبرج للسيطرة على اوروبا . وفى بداية العصور

الحديثة تم توحيد فرنسا على اساس قيام الحكومة الملكية ذات السلطة المركزية الثابتة لها. ومن اهم اعماله عزمه على فرض سلطان فرنسا على ايطاليا، وهكذا تبدأ حروب فرنسا فى ايطاليا (١٤٩٤ - ١٥١٩).

٦ - اسبانيا :

امتد حكم روما الى شبه الجزيرة الايبيرية، ثم أسس القوط الغربيون دولة بها ثم جاء العرب وازدهر حكمهم فى تلك البلاد. ولكن دولتهم هناك بدأت فى الانحلال وقوت الامارات المسيحية مركزها على حساب قوى الاسلام، واستولت على عدد من المدن الاسلامية ومنها قرطبة فى النصف الاول من القرن الثالث عشر. وقبل النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت اسبانيا مقسمة الى مقاطعات يحكم كل منها ملك مستقل. فكانت هناك نافار Navarre واراجون Aragon وكاستيل Castile ثم البرتغال، وفى الجنوب كانت توجد الاملاك العربية. وبدأ عهد جديد لاسبانيا المسيحية عندما اتحدت اراجون مع كاستيل (قشتالة) بالمصاهرة فى أواخر القرن الخامس عشر، اذ تزوج فرديناند ملك أراجون من ايزابيلا Isabella اخت ملك كاستيل عام ١٤٦٩، وقد خلق هذا الزواج وحدة اسبانيا. ولتقوية هذه الوحدة تابع الاسبان تقدمهم فى شبه الجزيرة الايبيرية واستولوا على غرناطة فى عام ١٤٩٢.

ويعد حكم فرديناند وايزابيلا فترة عظيمة فى تاريخ اسبانيا فالكشوف الجغرافية فى امريكا قد اعطتها ممتلكات شاسعة واتخذ فرديناند وازابيلا من تزويج بناتهما من امراء البرتغال وانجلترا

وفرنسا والنمسا وسيلة لتحقيق سياستهما الخارجية ،وانتهى هـــذا بأن آل تاج اسبانيا الى الهابسبرج. فابنتهما جوانا Joanna صارت زوجة لفيليب الابن الاوحد للامبراطور مكسمليان . وموت الابن الاوحد لفرديناند وايزابيلا ، ثم موت ايزابيلا(١٥٠٤) وفردينانـد (١٥١٥) جعل العرش الاسبانى يؤول الى شارل بن جوانا وحفيد مكسمليـــان الذى تولى الملك باسم شارل الاول ، ولكن بموت مكسمليان وكـــان ابنه قد تبعه من قبل ، صار شارل الاول امبراطورا باسم شارل الخامس فى يونيو عام ١٥١٩.

الفصل الثالث

حركة الكشوف الجغرافية

كانت حركة الكشوف الجغرافية التى تم جزء كبير منها فى القرن الخامس عشر هى اهم نتيجة عملية للنهضة الاوروبية . فلقد تمكن الملاحون الاوربيون من التوصل الى نتائج هامة فى مجال الكشف الجغرافى وفى تاريخ العالم ، مثل اكتشاف الامريكتين ابتداء من عام ١٤٩٢ واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨.

ولقد كانت معلومات اهل اوروبا عن العالم ضئيلة ، ومعظمها من نسج الخيال وخاطئة فى مجموعها وكان ذلك يرجع بطبيعة الحال الى عدة عوامل من أهمها :

١ – قصور وسائل المواصلات عن التغلغل فى انحاء العالم .
٢ – ضعف مقدرة الانسان على الملاحة فى اعالى البحار .
٣ – سطحية معلومات اهل اوروبا فى علم الفلك
٤ – الحياة فى مجتمع مغلق والانفصال بين العالم المسيحى والعالم الاسلامى.

ولذلك اقتصرت معلومات الاوروبيين على اوروبا والاقاليم التى يسكنها "الكفرة" من المسلمين كما كانوا يسمونهم . اما بقية القارات فكانت غير معروفة لديهم ، واستمدوا معلوماتهم عن آسيا وافريقيا من التجار الايطاليين الذين كانوا يترددون على موانى مصر والشام من اجل التجارة الشرقية ، ولقد انتشرت بعض الافكار الخرافية فاعتقدوا

بأن المحيط الاطلسى والبحار الجنوبية مأوى الشياطين والجن والوحوش ،وهكذا صور لهم الوهم والخيال الوانا من الاخطار والمخاوف . وكل المصورات الجغرافية التى وضعها الاوربيون فى القرن الحادى عشر تبين أنهم كانوا يعتقدون ان الارض عبارة عن قرص منبسط، مركزه بيت المقدس يحيط به البحر ،وكان هذا التصور امتدادا للافكار التى سادت قبل ذلك. فكتب كوزماس Cosmas (٥٤٧) كتابا عرف باسم Christian Geography استخدم فيه توراة موسى برهنة ان الارض منبسطة وان القدس فى وسطها .

الدوافع التى ادت الى قيام حركة الكشوف الجغرافية :

ادت عوامل كثيرة الى ظهور حركة الكشوف الجغرافية وتنشيطها وتتلخص هذه العوامل او الدوافع فيما يلى :

اولا - الدافع الاقتصادى :

كان الدافع الاقتصادى فى مقدمة الدوافع التى ساعدت على ظهور تلك الحركة ونموها ، اذ حاول الاوروبيون التخلص من الرسوم الجمركية الباهظة التى كانت تفرضها سلطنة المماليك ، فى مصر والشام على التجارة الشرقية عند مرورها فى هذين البلدين . وكانت هذه السلع الشرقية ذات اهمية كبرى بالنسبة لاوروبا ،فلقد اشتملت على التوابل والعطور العربية والاقمشة الحريرية والبن والسجاجيد والاحجار الكريمة والعقاقير الهندية مثل الافيون والكافور والصمغ ،وهى مواد كان الصيادلة الاوروبيون يستخدمونها فى اعداد الدواء. وكانت معظم هذه السلع الشرقية تسلك طريقين رئيسيين الى اوروبا فى العصور الوسطى،

كان أولهما طريق الخليج العربي حيث كانت سفن المسلمين تحمل المتاجر الى البصرة ، ثم تنقل برا الى بغداد حيث تعبر نهر دجلة والفرات ، ثم تتجه القوافل غربا نحو ثغور الشام . اما ثانيهما فكان طريق البحر الاحمر الذي تمر فيه السفن حتى السويس ثم تنقل المتاجر عبر الصحراء الى القاهرة ومنها الى الاسكندرية واحيانا الى دمياط . وكانت السفن الايطالية تنقل هذه المتاجر من الموانى المصرية والشامية الى المدن الايطالية ، وكانت سفن جمهورية البندقية تحمل الجزء الاكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية حيث تعرض فى سوق ريالتو Rialto الذى غدا من أشهر اسواق التجارة فى حوض البحر المتوسط ، وتمكنت جمهورية البندقية بفضل علاقتها الوطيدة مع سلطنة المماليك فى مصر والشام من ان تحتكر معظم المتاجر الشرقية ، وجنت من وراء ذلك ارباحا خيالية ، ولقد اثار هذا الازدهار الذى حصلت عليه البندقية رغبة ملحة فى اوروبا فى القضاء على الاحتكار الذى كان يمارسه تجار البندقية فى نقل المتاجر الشرقية ، وتطلع التجار من رعايا دول اخرى غير البندقية الى النزول الى ميدان التجارة الشرقية والحصول لانفسهم على جزء كبير من هذه الارباح الطائلة ، لأن التجار الاوروبيين فى ذلك الوقت كانوا يعيشون عيشة الملوك من الأرباح الخيالية التى كانت تدرها تلك التجارة ، فكان البهار يساوى وزنه فضة ، وكان الناس فى اوروبا يصفون الرجل الغنى بأنه كيس بهار . ومما ساعد التجار فى الوصول الى الشرق فى بداية العصور الحديثة للاستفادة من هذه الارباح التى حصل عليها تجار البندقية ظهور الدولة الاوروبية الحديثة التى اصبحت تشعر بالعزة القومية

وتريد ان تبسط سيطرتها على غيرها من الامم .

ثانيا - الدافع الديني :

كان الدافع الدينيمن اهم العوامل التى شجعت على القيام بحركة الكشوف الجغرافية . وكانت البرتغال واسبانيا اسبق الدول فى القيام بالكشف الجغرافىلأن الناحية الدينية لعبت دوراكبيرا فىتخطيط سياسةهاتين الدولتين،وكانت تكمن فى هذه الناحيةالدينية روح صليبية جارفة . فكانتالبرتغال مثلا تهدف الى تحويلالمسلمين فىغربافريقيا وغيرها من المناطق الآهلة الى المسيحيةالكاثوليكية اما اسبانيا فكانت تبغى نشرالمسيحية وفق المذهب الكاثوليكي بين السكان الاصليين والوثنيين فيما وراء البحار. وقداستهدفت هذه الروح الصليبية ايضا تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكيوفصلها عنالكنيسة القبطية الارثوذكسية بمصر .

ولقد تجلت فكرة التعصبالديني والروح الصليبية فىاسبانيا فىعام١٤٦٩ عندما تزوج فرديناند حاكماراجون من ايزابيلا حاكمة قشتالة ، وكان ذلك بمثابة مولددولة اسبانيا المتحدة فى التاريخ الحديثه وبدا فعلا سياسة الاضطهاد الديني والقضاء على كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكى.وكانت اول الاعمال التى قاما بها الاستيلاء على غرناطة ،وهى آخر معقل للمسلمين فى شبه جزيرة ايبيريا وبعد طرد المسلمينمن الاندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا تحمسا وشراسة فى مطاردة المسلمين خارجها،وانتقلنشاطهم الى شمالافريقيا وغربيها ،وراودتهم الآمال فى محاصرة الاسلام عن

طريق البحر والقضاء عليه . وظفرت حركة الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من البابوات الذين اصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك اسبانيا والبرتغال الحق فى ملكية كل اقليم جديد، وتورط بعضهم فى هذه المراسيم فوصفوا الاسلام بأنه طاعون The Plague of Islam وطالبوا ببذل الجهود لتنصير سكان المناطق التى كشفت أو سوف تكتشف والحيلولة بينهم وبين اصابتهم بطاعون الاسلام، وبالاضافة الى ذلك كان البابوات يعدون المشتركين فى الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب فى اليوم الآخر(٢).

ارسل البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) فى عام ١٤٥٤ مرسوما الى ملك البرتغال اشتمل على ما اطلق عليه اسم "خطة الهند" وهى تقوم على اعداد حملة صليبية نهائية تشنها اوروبا الكاثوليكية للقضاء قضاء مبرما على الاسلام .

ثالثا ـ الرغبة فى زيادة المعلومات الجغرافية :

سيطرت على الاوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية ، وكان سبب ذلك هو ما توصلت اليه اوروبا من تقدم فى فنون الملاحة والمعرفة الجغرافية المتزايدة والاهتداء الى آلات لا غنى عنها للقيام برحلات بحرية طويلة، فقد عرف الاوروبيون بوصلة الملاحة وعمم استعمالها فى حوالى منتصف القرن الخامس عشر ، والاسطرلاب (وهو جهاز لتقدير المسافات وتعيين الاتجاهات فى عرض البحر) ،وكذلك الدفة المتحركة لعبور البحار . ومما شجع على القيام بحركة الكشوف ايضا تلك الرحلات التى قام بها الاوروبيون منذ

القرن الثالث عشر فى آسيا مثل رحلة ماركوبولو Marco Polo وكان ماركوبولو (من اهالى البندقية) هو اول اوروبى توغل نحو الشرق فى اماكن كان بعضها مجهولا، وقد امتدت الرحلة من ١٢٧١ حتى عام ١٢٩٥ واتجه من شواطئ آسيا الصغرى الى قلب الصين ومن بلاد المغول الى سومطرة وسيلان وبلاد الهند وفارس . وعقب عودته من رحلته وضع كتابا بالفرنسية اطلق عليه اسم "كتاب العجائب " ونشر فيه الكثير من القصص المثيرة عما شاهده من كنوز الثروة فى البلاد التى زارها ومنتجاتها الزراعية والصناعية وتقدم التجارة، وكان من اهم نتائج رحلة ماركو بولو انها اوضحت للاوروبيين ان الكرة الارضية تختلف كل الاختلاف عما تصوره الاولون، وانه توجد فى اقصى اطراف آسيا بلاد تمتاز بكثرة سكانها وفخامة ثروتها، وتتابعت بعد ذلك رحلات الكثيرين من الاوروبيين الى بلاد الشرق وتحققوا من صدق ما ذكره ماركوبولو.

الكشوف البرتغالية

وساعد البرتغاليون على القيام بحركة الكشوف الجغرافية ما تلقوه عن فنون البحار وما تعلموه عن بناء السفن الكبيرة ، كما وقعت فى ايدى هنرى الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠) أو Don Hanrique الذى تزعم حركة الكشوف نسخة من كتاب رحلة ماركوبولو اهداها اليه اخيه دون بيدرو Don Perdro . كما تلقى البرتغاليون فنون الملاحة من الجنويين الذين قاموا باول محاولة للطواف حول ساحل افريقية ، ففى عام ١٢٩١ أبحر اوجولينو دى فيفالدى Ugolino di Vivaldo من اهل جنوه فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق

البحرى الى الهند، ولكن السفينتين تحطمتا فى مواجهة الساحل الافريقى . وبالاضافة الى ذلك سيطرت على هنرى الملاح الروح الصليبية المنتشرة فى ذلك الوقت، اذ جاء فى مستهل المرسوم الذى بعث به البابا نيقولا الخامس فى عام ١٤٥٤ الى هنرى: " ان سرورنا العظيم ان نعلم ان ولدنا العزيز، هنرى، امير البرتغال قد سار فى خطى ابيه الملك جون، بوصفه جنديا قديرا من جنود المسيح ليقضى على اعداء الله واعداء المسيح من المسلمين الكفرة....".

ولم يكن فى استطاعة البرتغال وهى بلاد صغيرة فقيرة ان توسع حدودها البرية. اذ كانت هذه الحدود مشتركة مع جارتها اسبانيا فلم يبق الا ان تتوسع من ناحية البحر بالتجارة والاستعمار. ولم يهتم هنرى كثيرا بالخرافات التى كانت سائدة فى ذلك الوقت مثل القول بأن الرجل الابيض عندما وصل الى منطقة معينة على شاطئ افريقيا تنقلب بشرته الى اللون الاسود من شدة حرارة الشمس التى تجعل المياه تغلى حول سفينته وتهب عليها ريح عاصف تحمل لهبا محرقا يدمر السفينة تدميرا. فأسس أكاديمية بحرية ومرصدا على الطرف الجنوبى لشاطئ البرتغال، وزودهما بمجموعة ضخمة من المراجع والخرائط واستقدم صفوة العلماء والجغرافيين، وكان يجمع المعلومات من كل ربان عائد من رحلة بحرية، وصنفت هذه المعلومات كلها فى ملفات خاصة. وخرج هنرى من دراساته بفكرة تناقض الرأى السائد عند علماء الجغرافيا فى ذلك الوقت، والذين كانوا يعتقدون أن افريقيا ملتصقة بالقطب الجنوبى، وانه لاسبيل الى الطواف حولها من ناحية الجنوب. وانصرف هنرى الى بذل الجهود لتحسين بناء السفن

وفى بضع سنوات انزلت الى البحر سفن قوية تراوحت حمولتها بين ثمانين طنا وبين مائة طن .

وفى عهد الامير هنرى الملاح بدأت الخطوات الاولى فى الكشوفات الجغرافية واستطاع البرتغاليون الوصول الى ماديرا ثم جزر الازورا ، ثم وصلوا فى عام ١٤٤٦ الى مصب نهر السنغال والى الرأس الاخضر ، واستطاعوا الوصول الى بلاد غانا ، وانطلق التجار والملاحون يقتنصون اهالى هذه البلاد وينقلونهم الى اسواق اوروبا ليبيعوهم عبيدا . ولقد لقيت تلك الرحلات تشجيعا عميقا من الامير هنرى الملاح طوال حياته حتى توفى عام عام ١٤٦٠ بعد ان نجح فى بث روح جديدة فى الشعب البرتغالى واصبحت بلاده رائدة الدول الاوروبية فى مجال الكشوف الجغرافية .

وبعد وفاة هنرى اجتاز البرتغاليون خط الاستواء الى رأس كاترين فى عام ١٤٧١ وتأكدوا ان القارة الافريقية تمتد وراء هذا الخط وان الملاحة فى هذه المناطق ليست عملية انتحارية ،كما كان يعتقد الكثيرون . وفى عام ١٤٨٢ وصلوا الى مصب نهر الكونغو واحتكرت البرتغال الحق فى الملاحة الساحلية اى بمحاذاة الشاطئ الافريقى حتى غينيا . وفى عام ١٤٨٦ خطت الكشوف الجغرافية البرتغالية خطوة هامة فى مجال الكشف الجغرافى اذ قام بارثلميو دياز برحلة وصلت الى الطرف الافريقية الجنوبى ،واجتاز رأس الرجاء الصالح . ولكن دياز لم يستطع المضى فى رحلته لانه واجه تمردا خطيرا من البحارة البرتغاليين ، فقطع رحلته وعاد الى البرتغال .

وبعد فترة ركود استأنف البرتغاليون جهودهم فى مواصلة الكشوف الجغرافية ابتغاء الاهتداء الى طريق بحرى متصل الى الهند حول افريقيا. واوفد عمانويل الثانى ملك البرتغال فى عام ١٤٩٧ الرحالة فاسكو دا جاما Vasco da Gama الذى وصل باول رحلاته المشهورة الىالهند بطريق يدور حول افريقيا. ففى مارس ١٤٩٨ وصل داجاما الى موانئ شرق افريقيا وكان منها موزمبيق وممبسة وماليندى . وكانت هذه الثغور غاصة بالتجار العرب . ومن ثغر ماليندى اتجه الىالهند بمساعدة ملاح عربى،فوصل فى مايو عام ١٤٩٨ الى ثغر كاليكوت (قاليقوط) Calicut على الساحل الغربى للهند المسمى ساحل ملبار. وبعد ان أقام داجاما قرابة ثلاثة شهور فى كاليكوت قرر العودة الى البرتغال ، فوصلها فى سبتمبر عام١٤٩٩ وهو يحمل كنوزا من الاحجار الكريمة والسلع الهندية وغيرها.

وبوصول البرتغاليين الىالمحيط الهندى فى عام١٤٩٨أقاموا لأنفسهم مراكز تجارية مسلحةفى افريقيا الشرقية وفى الساحل الغربى للهند وفىجزرالمحيط الهندى والخليج العربى ،وعملوا على بسط سيطرتهم العسكرية والتجاريةعلى هذه المنطقة ابتغاء احتكار تجارة الشرق ونقلها الى اوروبا عبرالطريق الجديد. وفىعهد الملك البرتغالى عمانويل السعيد(١٤٩٥-١٥٢١)خرجالفاريز كابرال Alvarez Cabral فىرحلة من قادش فى مارس عام١٥٠٠ الى شرق افريقيا والمحيط الهندى وأراد قائد الرحلة ان يتجنب خليجغانا فضل الطريق وانحرف نحو الجنوب الغربى،فاذابه يصل الى البرازيل وحقق لبلاده كسبا كبيرا. وأعقب هذا الكشف ارسال حملاتكشفية لهذه البلاد الجديدة بعث بها الملك

عمانويل ووقع اختياره على رحالة آخر هو امريجو فيزبوتشـــــى Amerigo Vespucci قام بعدة رحلات واطلق اسمه علـــــى الامريكتين .

وتوالت رحلات كابرال وداجاما ،وعندما نشط البرتغاليـــون على ساحل الملبار شرع المغاربة المسلمون يبحثون عن طريق آخــر الى متاجر الشرق الاقصى ، واستخدموا طريقا جديدا من الشواطـئ العربية والافريقية الى ملقا Malacca (اى الى ساحل شبه جزيرة الملايو الغربى) متحاشين ساحل الملبار. ولذلك قـــرر البرتغاليون الاستيلاء على مفاتيح الشرق الاقصى بالاستحواذ علـى مراكز المسلمين فى الشاطئين الافريقى والعربى وفى هرمز وفى عدن. اى ان خطة البرتغاليين الجديدة كان معناها مهاجمة الملاحـة الاسلامية فى جميع وجوه نشاطها بدلا من مناصبة العداء لامير واحـد معين ، وقد قام بتنفيذ هذه السياسة كل من فرنسوا الميــدا (١٤٥٠ - ١٥١٠) والبوكيرك Albuquerque (١٤٥٣ - ١٥١٥) الذى استولى على جوا فى نوفمبر عام ١٥١٠ على ساحل الملبار.وقـد جعلها البرتغاليون منذ ذلك الوقت المركز الرئيسى لممتلكاتهـم الاسيوية .

الكشوف الاسبانيـــة .

وفى الوقت الذى اهتمت فيه البرتغال بحركة الكشـــف الجغرافى اتجهت اسبانيا ايضا الى هذا الميدان. وشق كريستوفـــر كولومبس Colombus (١٤٥٠ - ١٥٠٦) وهو من اهالى جنوه-

طريقه في المحيط الاطلسي لحساب فرديناند وايزابيلا ملكي اسبانيا بعد انحصل على مساعدتهما. وتختلف اسبانيا عن البرتغال في مجال الكشوف، فبينما قام المواطنون البرتغاليون بعبء ارتياد البحار كشفا لطريق ملاحية جديدة، وبحثا عن ممتلكات جديدة، كانت اسبانيا تدين بهذا الفضل الاجنبي عنهاهو كولومبس. كان ملاحا مثقفاوتوفر علىدراسة الخرائط، وخرج من دراساته وتجاربه، بفكرة علمية جديدة هي انه اذا ابحر غربا منمضيق جبل طارق عبر المحيط الاطلسي، استطاع ان يصل الشواطئ الشرقية لآسيا. ومنذ عام ١٤٧٩ شرع كولومبس بعرض مشروعاته للقيام برحلة استكشافية في المحيط الاطلسي (او الغربي كما كان يسمى في ذلك الوقت) لاستكشاف ارض جديدة اعتقدبوجودها ولكنه لم يلق تأييدا من البرتغال، غيرانه لم ييأس وعاود السعي لدى ملكي اسبانيا واسفرت مساعيه عنقبول مشروعه .

وكانت الاسباب الدينية والاقتصادية هي التي دعت فرديناند وايزابيلا الى قبول مشروعكولومبس. وكان الطابع الديني يغلب على سياسة هذين الملكين وكان لقبهما " الملكان الكاثوليكيان"

خرج كولومبسفي اغسطسعام ١٤٩٢ من ميناء بالوس Palos في غرب اسبانيا ووصل في اكتوبر الى احدى جزر باهاما Bahama واطلق عليها اسم سان سلفادور San - Salvador ثم كشف بعدها كيوبا وهايتي Haiti التي اطلق عليها اسم Espanola أي اسبانيا الصغيرة. وفي مارسعام ١٤٩٣ عاد الى اسبانيا وهويعتقد انه وصل فعلا الى طرف العالم الشرقي . وفي سبتمبر من نفس العام قام كولومبس برحلته الثانية لاحتلال الاراضي الجديدة واستعمارها

لاستخراج الذهب ، ولنشر المسيحية . فوصلت الحملة الى اسبانولا، وكشفت جمايكا وعادت الى اسبانيا فى عام ١٤٩٦.

وقام كولومبس برحلته الثالثة فى عام ١٤٩٨ ثم الرابعة والاخيرة فى عام ١٥٠٢ وكان دعاة المسيحية يرافقون هذه الرحلات الاستكشافية للقيام بمهمة نشر الدين المسيحى بين سكان البلاد الاصليين . وكان كولومبس قد خسر كثيرا من سمعته الطيبة منذ رحلته التالية بسبب وشايات اعدائه . ولانه اضطر الى استخدام الرقيق فى الممتلكات الجديدة فأثار بعمله هذا غضب ايزابيلا، وأهمل امره وتوفى فى عام ١٥٠٦.

وكان لرحلات كولومبس اثران، اولهما ان الملوك الكاثوليك عملوا على تثبيت ملكيتهم لهذه الاراضى الجديدة بخاصة عندما نشط البرتغاليون فى استكشافاتهم . وكان البرتغاليون حريصون على الاحتفاظ بالاقاليم الجديدة ملكا خاصا لهم ولكن ظهر لهم منافس جديد يحاول الاستحواذ عليها . ومما زاد الموقف تعقيدا ان البرتغال كانت قد ظفرت من البابا فى روما بمرسوم بابوى يخولها الحق فى تملك جميع القارات والجزر التى تكتشفها البرتغال فيما وراء رأس بوجادور واقر هذا المرسوم ثلاثة باباوات اخرون، ورأى البرتغاليون عدم جدوى المرسوم البابوى الذى منحهم جميع البلدان الواقعة فى طريق الهند من الشرق اذ كان الاسبان قد سبقوهم من الغرب وانتزعوا منهم الهند . وكادت الحرب تقع بينهما لولا ان لجأت الدولتان الى البابا اسكندر السادس تلتمسان تدخله بينهما لتسوية المسألة تسوية سلمية .

وقد أصدر البابا مرسوما تقرر بمقتضاه اتخاذ خط وهمى للتقسيم بين ممتلكات الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية ،ويبدأ هذا الخط من القطب الشمالى الى القطب الجنوبى ،ويمر على بعد مائة فرسخ الى الغرب من جزر الرأس الاخضر ،فيكون من نصيب اسبانيا كل الاقاليم التى تقع الى غرب هذا الخط الوهمى ،وتكون الاقاليم التى تقع الى شرقيه من نصيب البرتغال. لكن طعنت البرتغال فى هذا التقسيم وتدخل البابا مرة اخرى بين اسبانيا والبرتغال وقرر نقل الخط الوهمى للتقسيم بين ممتلكاتهما الى نقطة تبعد ٣٦٠ فرسخا غرب جزر الرأس الاخضر. وعلى ضوء هذا القرار البابوى ، عقدت فى ٧ يونيو ١٤٩٤ معاهدة توردسيلاس Tordesillas بين اسبانيا والبرتغال لتثبيت ذلك الخط الوهمى بين ممتلكات هاتين الدولتين وكان من نتائج تنفيذ تلك المعاهدة أن وجد وضع شاذ، ذلك كان البرازيل عندما اكتشفت اصبحت من نصيب البرتغال ، لان هذا الخط الوهمى يمر بالشاطئ الشمالى لامريكا الجنوبية ،ولم يفكر احد فى ذلك الوقت ان هذا الخط الوهمى سوف يقسم امريكا الجنوبية وانه سيجعل من البرازيل مستعمرة وواجهة برتغالية لقارة ستصبح اسبانية .

اما الاثر الثانى لرحلات كولومبس ، فكان فتح الطريق لرحلات الافراد والمغامرين، فاستطاع الرحالون الجدد بين عامى ١٤٩٩، ١٥٠٨ الوصول الى اسبانولا ثم الى مصب نهر الامازون ، وبرزخ بناما وحول كيوبا . وتلى ذلك توطن الاسبان بامريكا الوسطى وامريكا الجنوبية . وكان فى مقدمة هؤلاء المغامرين الجدد بلباو Balbao

الذى شاهد المحيط الهادى واعلن امتلاكه باسم ملك اسبانيا (١٥١٣) ودى سوليس de Solis الذى بلغ شواطىء البرازيل ووصل الى مصب نهر لابلاتا . واستولى الاسبان مثلا على المكسيك فى عام ١٥٢١.

رحلة ماجلان حول العالم :

توفى فردينا ند ملك اسبانيا وتولى عرش اسبانيا بعده حفيده شارل الاول عام ١٥١٦، الذى بلغت الكشوف الجغرافية فى عهده الذروة حين نفذ اكبر مشروع جغرافى ظهر فى العالم الى ذلك الوقت وهو الطواف حول العالم فى رحلة بحرية متصلة وفى اتجاه واحد والعودة الى مكان بدء الرحلة . ويقترن هذا المشروع باسم ماجلان Magellan (١٤٧٠-١٥٢١) وهو برتغالى سبق له الاشتراك فى حملة البرتغال على الهند بقيادة الميدا . وكان ماجلان يرى انه فى الاستطاعة الوصول الى جزر التوابل فى الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول الطرف الجنوبى لامريكا وليس عن طريق الشرق بالطواف حول الطرف الجنوبى لافريقيا .

صادف ماجلان عقبة فى سبيل تنفيذ مشروعه ، فقد كان مغضوبا عليه من ملك البرتغال فاتجه الى البلاط الاسبانى وعرض على شارل الاول ملك اسبانيا مشروعه . ورحب الملك بهذا المشروع وفى ٢٢ مارس ١٥١٨ وقع شارل العقد المبرم بين التاج من ناحية وبين ماجلان من ناحية اخرى . وكان من بين النقاط التى تم الاتفاق عليها اعطاء ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التى يكتشفها وحرستين اذا تجاوز عدد الجزر المكتشفة ستا . وفى اغسطس عام ١٥١٩ اقلعت حملة ماجلان - وعددها خمس سفن - من ميناء سان

لوكار San Lucar ،واتجهت فى المحيط الاطلسى جنوبا ثم عرجت فى اتجاه الجنوب الغربى ثم الى ريو دى جانيرو فى البرازيل ثم الى مصب نهر ريو دى لابلاتا ،وسارت بمحاذاة الساحل الشرقى لامريكا الجنوبية ،ووصلت السفن الى خط عرض ٤٩ درجة جنوبا . ثم واصلت الحملة سيرها نحو الجنوب بمحاذاة الشاطىء الشرقى لامريكا الجنوبية وفى اكتوبر عام ١٥٢٠ اكتشف مضيق ماجلان،وفى نوفمبر من نفس العام دخلت السفن المحيط الهادى،وقد اطلق عليه ماجلان الاسم Pacifique لانه وجده قليل الاعاصير التى تكثر فى المحيط الاطلسى. وابحرت السفن شمالا فى اتجاه الغرب ووصلت الى جزر الفلبين -وهى مجموعة من جزر الملايو فى بحر الصين - واطلق عليها هذا الاسم تكريما لفيليب ابن الامبراطور شارل الخامس الذى سيلى عرش اسبانيا باسم فيليب الثانى . وقد اعتقد ماجلان انه وصل الى جزر التوابل ولكنه كان قد اخطأ فى تقدير درجات العرض وابتعد عشر درجات شمالا عن الطريق المؤدى الى جزر التوابل . وادى هذا الخطأ الى نتيجة هامة هى ان جزر الفلبين اصبحت من ممتلكات اسبانيا وقد اشتعلت الحرب بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٩٨ ادت الى ضياعها منها وانتقالها الى ممتلكات الولايات المتحدة .

وفى اثناء الرحلة مات ماجلان فى ابريل ١٥٢١، وتولى قيادة الحملة احد رجالها وهو جون سباستيان ديلكانو John Sebastian de Cano وفى نوفمبر من نفس العام وصلت الحملة الى جزيرة تيدور Tidor احدى جزر التوابل التى كانت حلم ماجلان. وفى ٢٢ فبراير عام ١٥٢٢ غادرت الحملة جزر التوابل فى طريق عودتها الى اسبانيا ، فعبرت المحيط الهندى، ومرت برأس الرجاء الصالح .

ولقد اثبتت هذه الرحلة ان السير فى اتجاه واحد سواء أكان ذلك من الشرق أم من الغرب لابد أن يؤدى الى المكان الذى بدأ منه الانسان رحلته ، وبذلك استقرت فى الاذهان الحقيقة الجغرافية وهى كروية الارض وايقن الجميع ان هناك قارتين عظيمتى الاتساع هما امريكا الجنوبية تقعان بين اوروبا وآسيا . كما فتحت رحلة ماجلان الشرق الاقصى امام اوروبا بطريق ملاحى متصل ، كما انها ربطت بين العالم الجديد وبين الشرق الاقصى باكتشاف الممر الذى يعرف باسم ماجلان فى اقصى الطرف الجنوبى من امريكا الجنوبية .

وهكذا سبقت اسبانيا والبرتغال باقى الدول الاوروبية فى القرن السادس عشر فى مضمار الاستعمار والتجارة ، ولكن بعد القرن السادس عشر اخذت البرتغال واسبانيا فى الضعف تدريجيا فى الوقت الذى اخذت فيه قوى الهولنديين والفرنسيين والانجليز فى النمو واصبحت الدول البحرية الاستعمارية الكبرى فى اوروبا .

نتائج وآثار حركة الكشوف الجغرافية :

اولا - بعد ان كان البحر المتوسط هو الطريق الرئيسى للتجارة فى العصور الوسطى بل مركز النشاط السياسى . انتقل هذا المركز بعد حركة الكشوف الجغرافية الى المحيط الاطلنطى الذى اصبح طريق التجارة العالمية فى العصر الحديث ، وبالتالى انتقل مستقبل اوروبا الاقتصادى من مدن البحر المتوسط من البندقية وجنوه اللتين كانتا تقومان بتوزيع التجارة الشرقية التى كانت تأتى من الهند والشرق الاقصى عن طريق مصر ، واكتسبتا من وراء هذه التجارة ثروة

طائلة ، الى امم الغرب الناشئة ، الى البرتغال واسبانيا ثم هولندا وانجلترا وفرنسا التى كانت تقع على الطريق الغربى للدنيا القديمة واصبحت في قلب العالم بعد الكشوف الجديدة . ونظمت فى المحيط الاطلنطى خطوط ملاحية بين اوروبا والعالم الجديد ومنطقة المحيط الهندى ،ويطلق فى التاريخ الاقتصادى على هذه الحركة اسم "الثورة التجارية The Commercial Revolution وتدفقت على اسواق اوروبا نتيجة لذلك منتجات الشرق بكميات اوفر وبأسعار اقل مما كانت تعرض به قبل اكتشاف الطرق الملاحية الجديدة .

ثانيا- اما النتيجة الثانية فقد تمثلت فى حركة التوسع التجارى التى ظهرت على اثر فتح اسواق جديدة ، وقد زادت كمية المعادن الثمينة ولاسيما الذهب والفضة ،واتخذت طريقها الى اوروبا وساعد ذلك على ان يحل النقد محل المبادلة فى البيع والشراء، وتدفقت كميات عظيمة من معدن الفضة على اوروبا نتيجة للاستكشافات الاسبانية على وجه الخصوص . وكانت الفضة فى أواخر القرن الخامس عشر قد اخذ وجودها يقل كثيرا فى اوروبا بسبب الحاجة المستمرة اليها من مدة طويلة من اجل استيراد المتاجر من الشرق فتعطلت الحياة الاقتصادية عموما بسبب قلة النقد (العملة) .وكان هذا النقص فى الفضة احد الاسباب التى جعلت الاوروبيين يجدون فى البحث عن طريق توصل الى موطن تجارة الشرق الاصلية من غير حاجة الى وساطة العرب اوغيرهم من الذين سيطروا على طرق التجارة القديمة ،وارغموا الاوروبيين على ان يدفعوا اثمانا باهظة للسلع التى يحتاجونها وفى عهد فيليب الثانى (١٥٥٦-١٥٩٨) تدفقت الفضة بكثرة على الموانى

الاسبانية خاصة بعد اكتشاف مناجم الفضة فى بوتوسى Potosi فى بوليفيا عام ١٥٤٥، وفى عهده اصبحت اسبانيا القناة التى تجرى منها الفضة الى بقية اوروبا ومنذ ذلك الوقت بدأ عصر الفضة فى اوروبا. وظلت الفضة خلال الخمسين سنة التالية تسيطر على تطور الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فى اوروبا. وأحدث تدفق الفضة ثورة فى الاسعار Price Revolution وارتفعت الاجور واثمان السلع وتكاليف المعيشة والحياة. تحسنت الحالة الاقتصادية فى اوروبا بوجه عام واخذت محصولات جديدة ترد اليها كالذرة والبطاطس والكاكاو والتبغ ،واصبحت عاملا اساسيا فى الحياة الاقتصادية .

ثالثا - تكونت امبراطورية برتغالية واخرى اسبانية ،وفتح باب الاستعمار امام الدول الاوروبية الاخرى التى لم تلبث ان دخلت الميدان لتأخذ بنصيب من الاملاك الجديدة ، ودعا هذا الى التنافس والتطاحن فى البحار ،وازداد نتيجة لذلك اهتمام الدول بانشاء الاساطيل البحرية باعتبارها الوسيلة الاولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار، فانتقل مركز التوازن الدولى من البر الى البحر.

رابعا - سادت بين الدول نظرية استغلال المستعمرات لصالح الدول المستعمرة وسيطرة الرجل الابيض التى تبيح تملك الارض التى تسكنها شعوب غير اوروبية وغير مسيحية وجعل ارادتها وجهود ابنائها مسخرة لارادة الشعب المالك وللسياسة التى يريد انتهاجها . وقد ادى ذلك الى تذمر السكان وثورتهم فى النهاية طلبا لرفع نير الاستعمار الذى كان فاتحة لسيل من الهجرة من اوروبا الى الاصقاع الجديدة.

خامسا - قاسى سكان البلاد الاصليون الكثير من المستعمرين، وكان هذا الانتصار كارثة عظمى عليهم فى الكثير من الاحوال وخاصة فى امريكا الشمالية حيث قضت على الكثير منهم الحروب والاوبئة الاوروبية، ومن بقى منهم اضطر للعيش فى معزل عن المستعمرين واخذ عددهم فى التضاؤل حتى لم يبق منهم الآن الا عدد قليل فى غرب الولايات المتحده الامريكية وكندا. وكان الحال اخف وطأة فى امريكا الجنوبية اذ بعد هدوء الزوبعة الاولى التى قامت على اثر الفتح والاستعمار اخذ السكان الاصليون يختلطون بالاسبان والبرتغاليين وتعلموا لغتهم واعتنقوا ديانتهم، ومن ذلك الامتزاج نشأ الجيل الحاضر .

وبعد ذلك عمل الاسبان والبرتغاليون على التبشير بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى بين اهالى المكسيك وامريكا الجنوبية، وكان فى ذلك اكبر تعويض للبابوية والكنيسة الكاثوليكية عن نفوذها الذى ضاع فى كثير من جهات اوروبا بعد ظهور حركة الاصلاح الدينى .

سادسا: اثرت حركة الكشوف الجغرافية بدرجة كبيرة على مركز مصر التجارى وكان العرب قد اهتموا اهتماما بالغا بالتجارة التى درت عليهم ثروات طائلة بصفتهم وسطاء بين الهند والصين من ناحية واوروبا من ناحية اخرى، وسيطروا على التجارة العالمية فى العصور الوسطى حيث كانت تنقل تجارة التوابل والحرير الى اوروبا عبر الطرق الهامة المارة بالمنطقة العربية. ولقد جنت مصر من هذه التجارة الكبيرة الغنية، واصبحت الضرائب المفروضة على هذه التجارة موردا هاما من موارد المالية المصرية، وظل الامر كذلك حتى شاهد

العالم التحول الواضح من البحر المتوسط الى المحيط الأطلسي .
وعندما فتح هذا الطريق الجديد في عام ١٤٩٨ حاول مماليك مصر ويدهم في ذلك البنادقة الذين عانوا ايضا من جراء هذا الكشف ، أولا بالوسائل الدبلوماسية ثم بالحرب ، القضاء على هذا الخطر البرتغالي .ولكن جهودهم باءت بالفشل اذ استطاع البرتغاليون ايقاع الهزيمة بالاساطيل المصرية وتوغلوا حتى الخليج العربي و البحر الاحمر. وفي عام ١٥١٥ وقعت مسقط وهرمز والبحرين في ايدي البرتغاليين -

على أية حال لم يستطع الشرق العربي استعادة طرق مواصلاته مرة اخرى حتى القرن التاسع عشر . ولقد نتجت عن تحول طريق التجارة آثار متعددة ، اذ أقفرت أسواق القاهرة و الاسكندرية من تلك الحركة التجارية الهائلة وحرمت حكومة مصر من تلك الضرائب التي طالما تمتعت بها ، كما فقد الاهالي الفوائد الكثيرة التي كانوا يجنونها من نقل هذه المتاجر. وبينما اخذت دول غروب اوروبا في التوسع والاستعمار ازدادت مصر ضعفا واضمحلالا وانتهى الامر بالاحتلال العثماني لها في عام ١٥١٧.

أما حياة سورية الاقتصادية ، فكانت عرضة لتدهور متواصل نتيجة لهذه الكشوف الجغرافية .واضطر التجار السوريون بعد ذلك أن يجعلوا جل اعتمادهم على التجارة البرية. وأخذت من مدينة حلب في طريق الازدهار، اذ كانت رأس الخط التجاري الذي ينتهي الى بغداد فالبصرة . وهكذا تمكنت حلب من التفوق على دمشق الى حين بينما استطاعت الاسكندرونة وطرابلس ان تنتزعا من بيروت مكانة مرفأها التجاري بل ان حلب بقيت حتى في القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الأوسط.

الفصل الرابع

الحرب الايطالية

(أو التنافس الدولى بين فرنسا واسبانيا)

١٤٩٤ - ١٥٥٩

مقدمة

تعتبر الحروب الايطالية التى نشبت بين فرنسا واسبانيا فيما بين ١٤٩٤و١٥٥٩ مظهرا من مظاهر التنافس الدولى بين هاتين الدولتين من اجل السيطرة والنفوذ فى اوروبا والرغبة فى التوسع الاقليمى داخل القارة. ولقد كانت شبه الجزيرة الايطالية ميدانا لتصارع الدولتين خلال المراحل الاولى من مراحل الحرب، غير انها تطورت بعد ذلك الى صراع اوروبى اتسع نطاقه وانتقل الى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الايطالية. وكانت ايطاليا كما وضحنا من قبل - مجرد تعبير جغرافى، ولم تتمكن من اقامة الوحدة السياسية حتى بداية السبعينات من القرن التاسع عشر. ولقد أدى تفتت ايطاليا السياسى الى حدوث آثار بعيدة المدى فى السياسة الدولية وفى السياسة الاقليمية الخاصة بالدويلات الايطالية. اما من ناحية السياسة الدولية، فقد ارتبط التفتت السياسى بالضعف العسكرى، ومن ثم تطلعت الدول الموحدة الى غزو شبه الجزيرة الايطالية التى اصبحت مطمعا للدول ومسرحا للصراع الدولى. وانعكست هذه الاطماع على العلاقات الدولية، فنشطت الدول فى الدخول فى احلاف عسكرية وايجاد تكتلات دولية، وظهر مبدأ سياسى سيكون السمة البارزة فى السياسة الدولية فى اوروبا فى القرن السادس عشر

ونقصد بذلك مبدأ المحافظة على التوازن أو توازن القوى بين الدول
The Balamce of Power (Equilibre des Pouvoirs)
ومعنى هذا المبدأ هو انه اذا بلغت احدى الدول الاوروبية درجة من القوة والسيطرة تهدد أمن الدول الاخرى والسلام العام فانه يجب على هذه الدول ان تتحالف فيما بينها ضد الدولة الأولى .

أما من ناحية العلاقات السياسية بين الدويلات الايطالية فقد كان هناك نزاع مستمر بينها كان مبعثه المنافسة والبغضاء مثل النزاع الذى حدث بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول امتلاك روماتا Romagna الواقع بينهما ،وارادت البندقية امتلاك دوقية ميلان لوفرة محاصيلها وغزارة مواردها ،وتطلعت الولايات البابوية فى فترات معينة الى ضم فلورنسة اليها . ولقد لجأت الدويلات الايطالية الى تطبيق مبدأ التوازن الدولى فى ايطاليا للحيلولة دون تفوق وسيطرة دويلة على باقى الدويلات الاخرى.ومن ذلك يتضح ان مبدأ توازن القوى قد طبق فى القرن السادس عشر فى نطاقين: نطاق دولى على مستوى القارة الاوروبية وبين دولها الكبرى،وفى نطاق محلى داخل ايطاليا بين الدويلات الايطالية .

الوضع الدولى فى اوروبا عند قيام الحرب الايطالية :

كانت فرنسا واسبانيا قد تطلعتا الى ايطاليا لتحقيق هدفين هما : التوسع الاقليمى بالاستيلاء على ممتلكات جديدة فى شبه الجزيرة الايطالية ،ثم السيطرة والتفوق السياسى فى القارة الاوروبية .وساعد الدولة الوطنية الحديثة ذات الحكومة المركزية التى تكونت فى كل

من فرنسا واسبانيا على تحقيق ذلك انه كان لفرنسا بعض المزاعم يدعيها ملكها بخصوص وراثة عرش ميلان ونابولي، وانه كان لاسبانيا كذلك ادعاءات في وراثة عرش نابولي كما انها كانت تطمع في امتلاك ميلان لثروتها وغناها .

واختلف موقف الدول الاوروبية الاخرى من الحروب الايطالية طبقا للقدر الذى يمس مصالحها مباشرة . فانجلترا كانت لاتزال تحتفظ منذ ايام حروب المائة عام بثغر كاليه فى الاراضى الفرنسية ، وكان ملكها هنرى الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) يخشى ضياع كاليه اذا قويت فرنسا وتمكنت من اجلاء الانجليز عنها . وكان هنرى الثامن يبغى من التدخل فى الحروب الايطالية الحصول على زعامة سياسية لانجلترا بين الدول . أما الامبراطور مكسمليان الاول (١٤٩٣ ـ١٥١٩) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فكانت املاكه فى اقليم التيرول متاخمة لجمهورية البندقية ولذلك كان يخشى ان تتأثر مصالحه بأى تغيير سياسى يقع فى شبه الجزيرة الايطالية . وكان يخشى تفوق نفوذ جمهورية البندقية أو تسلط دولة كبرى على شبه الجزيرة الايطالية . كما وجد اهل سويسره فى هذه الحرب مجالا للعمل امام ابنائها للانخراط فى الجيوش المحاربة كجنود مرتزقة . وكان السويسريون اشهر جنود مرتزقة فى اوروبا ، وأصبحوا مضرب الامثال فى الشجاعة والاقدام وتحمل المصاعب والتمسك بالنظام ، مما جعل منهم قوة عسكرية ضاربة رهيبة تنافست الدول المتحاربة فى اوروبا على استخدامهم فى جيوشها كجنود مرتزقة ، وأصبحوا اعظم المحاربين مقدرة وأشدهم بأسا على الاطلاق فى اوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر . وأما بالنسبة للدويلات الايطالية ، فلم تقف موقفا سلبيا ازاء

الصراع العنيف الذى خاضته الدولتان المتنافستان، فقد انضمت بعض الدويلات الى اسبانيا ، وانضم البعض الآخر الى فرنسا .

وعندما بدأت هذه الحروب الايطالية مرت فى دورين، بدأ أولهما من سنة ١٤٩٤ وانتهى فى عام ١٥١٥، وقد حاولت فرنسا فى هذا الدور تحقيق ادعاءاتها فى وراثة عرش كل من مملكة نابولى، ودوقية ميلان، فوقع الهجوم الفرنسى الاول على مملكة نابولى فى عهد شارل الثامن ملك فرنسا ، ووقع الهجوم الثانى على دوقية ميلان فى عهد الملك لويس الثانى عشر، وقد اتخذت هذه الحرب شبه الجزيرة الايطالية ميدانا لها .

أما الدور الثانى فقد بدأ فى عام ١٥١٥، أى بارتقاء فرنسوا الأول عرش فرنسا ، وانتهى فى عام ١٥٥٩ بتوقيع معاهدة كاتو-كمبريسيس (Cateau-Cambrésis) وقد دار فيه النزاع بين الاسرتين الكبيرتين اللتين تنازعتا السيطرة والتفوق السياسى فى أوروبا وهما اسرة الهابسبرج Hapsburg النمسوية والتى اشتد بأسها عندما انتخب شارل ملك اسبانيا امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٥١٩، واسرة الفالوا Valois الفرنسية ذات الاطماع الواسعة فى ايطاليا. وحول هذا النزاع بين الهابسبرج والفالوا ، توزعت جميع الدول الاخرى ،تبعا لمبدأ التوازن الدولى ،ولذلك انتقلت الحروب الايطالية ، فى هذا الدور، من مجرد حوادث محلية مسرحها ايطاليا الى نضال اوروبى واسع النطاق فى ميادين متعددة .

الدور الاول (١٤٩٤ – ١٥١٥)

عندما تولى عرش فرنسا الملك شارل الثامن (١٤٨٣– ١٤٩٨) بعد وفاة لويس الحادى عشر، وكانت الملكية الفرنسية قد وطدت دعائمها وسيطرت على موارد الدولة الى حد فاق سيطرة اية دولة اخرى فى أوروبا على مواردها، وكانت لفرنسا قوات مسلحة تدين بالولاء العميق له، كانت تحت تصرفه، كما طورت فرنسا سلاح المدفعية الفرنسية اثناء الحروب التى خاضتها ضد انجلترا بحيث وصل هذا السلاح الى درجة من الكفاية والقوة لم يبلغها اى جيش فى اوروبا فى ذلك الوقت .

وكان شارل ذا اطماع واسعة اذ أراد ان يقوم بأعمال يبهر بها اعين معاصريه ويخلد ذكراه فى التاريخ مستغلا فى ذلك قوة السلاح الرهيب الذى فى يده ونقصد بذلك سلاح المدفعية . وتجاهل شارل الثامن مطالب السياسة الداخلية والخارجية واهتم بايطاليا لأنها كان لها بريق فى نظره : فهى ارض التاريخ القديم، وهى البلاد التى شهدت مولد النهضة الاوروبية، واعتقد ان الايطاليين سوف يرحبون به كمنقذ لهم من الاستبداد الذى يشكون منه وان البلاد الايطالية سوف تغمر خزائنه بالأموال والخيرات، وسيكون فى استطاعته اعادة الحكم الجمهورى الى فلورنسة وتخليص نابولى من نير الاسرة المالكة فيها .

وهكذا تكاتفت عدة عوامل لتجعل من المغامرة الايطالية مشروعا محببا الى شارل الثامن . وبالاضافة الى ذلك كان للأسرة الحاكمة فى فرنسا ادعاءات بخصوص وراثة العرش فى نابولى ووراثة العرش فى ميلان . ولم تكن هذه الادعاءات تقوم على اسانيد قوية ولكنها كانت سببا

دبلوماسيا وعسكريا كافيا لأنيولىشارل الثامن وجهه شطر الجزيـــــرة الايطالية ولكى يستطيع العمل بحرية تامة فى ايطاليا رأى من الأفضـل عقد سلسلة من المعاهدات مع انجلترا والدولة الرومانية المقدسة وقـد سجل على نفسه فى هذه المعاهدات تنازلات مالية واقليمية استرضـــاء لهذه الدول .

وقد سنحت الفرصة لملك فرنسا للتدخل العسكرى فى ايطاليـــا عندما تنازع على السلطة فى ايطاليا مغامر عسكرى له اطماع سياسيـــة واسعة ويدعى لودوفيكو سفورزا Ludovico Sforza مع جـــان جاليازو Jean Galeazzo فاستنجد الاول بشارل الثامن ملك فرنسا بينما استنجد الثانى بفرديناند الاول ملك نابولى . وأوفد لودوفيكـو سفـورزا بعثة دبلوماسية الى ملك فرنسا طلبت اليه ممارسة حقوقه على عرش مملكة نابولى . ولقد كانت هذه الادعاءات تقوم على اســاس أن شارل كونت مين وبروفنس ain et Provence هو الوارث الشرعـى لعرش نابولى وانه قد تنازل فى عام ١٤٨١ من حقه فى الوراثة الى لويس الحادى عشر ملك فرنسا ،وقد ورثها عن هذا الاخير ابنه شارل الثامـن ملك فرنسا فى ذلك الوقت .

وشجعت الوعود التى قطعتها بعثة لودوفيكو على نفسها شـــارل الثامن فقرر التدخل وزحف على ايطاليا عبر جبال الالب . وفى سبتمبـر ١٤٩٤ نزل الجيش الفرنسى فى بيدمونت واجتاح الجيش الفرنسى فلورنسة وبيزا دون ان يلقى مقاومة تذكر، واطاح بحكم اسرة ميدتشى وكان الحاكم وقتذاك هو بيير دى ميدتشى Pieere(Piero)de Medici وأعلـــن

قيام النظام الجمهوري فى فلورنسة . وباشر الراهب الثائر سافونا رولا نشاطه الدينى فى ظلال الجمهورية كما سبق أن أشرنا . وواصل الجيش الفرنسى زحفه على العاصمة الايطالية ، وفى ٣١ ديسمبر ١٩٤٤ دخل شارل مدينة روما ، ثم غادرها فى طريقه الى نابولى التى دخلها فى ٢٢ فبراير عام ١٤٩٥.

وهكذا اصبحت فرنسا سيدة الموقف فى شبه الجزيرة الايطالية بعد هذه الحروب الخاطفة التى اعتبرها البعض نزهة حربية .

وادت الانتصارات السريعة التى احرزها شارل الثامن فى ايطاليا الى قيام تحالف دولى ضد فرنسا . فتكتلت الولايات الايطالية لكى تتخلص من السيطرة الفرنسية فكونت فى مارس عام ١٤٩٥ حلف البندقية League of Venice وكان اعضاء هذا الحلف هم البندقية وميلان والبابا اسكندر السادس ومكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وفرديناند الثانى ملك اسبانيا ، ويلاحظ ان لودوفيكو سفورزا حاكم ميلان الذى استنجد بملك فرنسا وشجعه على الزحف على ايطاليا قد انقلب عليه ، لانه حدث أثناء الزحف الفرنسى ان توفى منافسه فى حكم الدوقية فجأة (جان جليازو) فخلا الجو أمامه وانتفت بذلك مبررات التدخل العسكرى الفرنسى . أما بالنسبة للامبراطور مكسمليان فقد ساءه هذا الكسب السياسى والعسكرى الذى نالته فرنسا فى شبه الجزيرة الايطالية . اما فرديناند الكاثوليكى فقد كانت له هو الآخر ادعاءات فى عرش نابولى .

علم شارل الثامن بهذه المحالفة - وكان فى نابولى فى ذلك

الوقت ، ولكنها كانت مفاجأة اليمة له اذ ان مركزه اصبح فيغاية الحرج. وادرك شارل ان الموقف يزداد خطورة وتعقيدا اذا مكث في ايطاليا ، فقرر العودة الى فرنسا، وخرج من نابولى في ٢٠ مايو عام ١٤٩٥. والتقى الجيش الفرنسي اثناء انسحابه بجيش الحلف عندفورنوفو Fornovo ولكنه تمكن منمواصلة الانسحاب الى فرنسا. ولقد كانت هذه المعركة كسبا لاشك فيه للقضية الايطالية، لأنها خلصت البلاد من الاحتلال الفرنسي او حالت على اقل تقدير دون جعل ايطاليا منطقة نفوذ فرنسي، وأخليت نابولى والمراكز الاخرى من الحاميات الفرنسية.

وعندما مات شارل في ابريل ١٤٩٨ لم يكن لفرنسا شئ من المكاسب الاقليمية فيايطاليا. اماحلف البندقية فقد تفككت عراه بعد انحقق هدفه ،ولأن الخلافات بين الدول الاعضاء في الحلف عادت أعنف ما تكونبعد خروج الفرنسيين منشبه الجزيرة الايطالية .

وتولى عرش فرنسا بعدوفاة شارل ابن عمه لويس الثاني عشر (١٤٩٨ - ١٥١٥) ، وكانيطلق عليه قبل توليه العرش دوق اورليان . وانتهج الملك الفرنسي الجديدنفس السياسة الخارجية التوسعية ، أي المضي في تنفيذ المشروعات الايطالية التي كان قد تبناها سلفه شارل الثامن . وكانت حملته الاولى على دوقية ميلان تحت ستار الادعاء بأن له حقا في وراثة عرش هذه الدوقية ، اذ كان ينتمي من جهة جدته فالنتين فيسكونتي Valentine Visconti الى اسرة فيسكونتي وكانت هذه الاسرة تحكم دوقية ميلان قبل اسرة سفورزا. وكانت الظروف الدولية مهيأة للتدخل العسكري الفرنسي في ايطاليا :فالعلاقات كانت قد تدهورت بين جمهورية البندقية وبين لودوفيكو سفورزا حاكم ميلان

وانضمت البندقية الى فرنساوكذلك حدث تقارب بين البابا اسكندر السادس وبين فرنسا تحول الى اتفاق بينهما على المصالح. ونجح لويس الثانى عشر فى عقد اتفاق مع كل من انجلترا وفرنسا لتقفا على الحياد فى الصراع المرتقب كما عقد هدنة مع مكسمليان الأول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

وبعد أن أتم لويس الثانى عشر هذه الاجراءات السياسية والعسكرية عبر الجيش الفرنسى جبال الالب فى اغسطس ١٤٩٩ واتجه نحو ميلان التى احتلها الجيش الفرنسى دون صعوبة تذكر، واستخلصوها من لودوفيكو سفورزا الذى وقع اسيرا فى ايدى الفرنسيين. وتمكنت فرنسا باستيلائها على دوقية ميلان من السيطرة على شمالى ايطاليا. ولكن ما لبث ان تحول لويس الثانى عشر بأطماعه الى مملكة نابولى يبغى ضمها اليه حتى تستكمل فرنسا سيطرتها على شبه الجزيرة الايطالية شماليها وجنوبيها. ولكن الطريق الى مملكة نابولى لم يكن معبدا، فقد وجد ان فرديناند الكاثوليكى ملك اسبانيا يريد الاستيلاء عليها لنفس الاسباب التى يتذرع بها لويس الثانى عشر، وهى أن له الحق فى وراثة عرش نابولى.

ولكن تمكن ملكا فرنسا واسبانيا تجنب الصراع الحربى وعقدا معاهدة سرية تحت رعاية البابا اسكندر السادس وتسمى معاهدة غرناطة Grenade فى نوفمبر عام ١٥٠٠، واتفقا فى هذه المعاهدة على ارسال حملة عسكرية مشتركة لغزو مملكة نابولى واقتسامها بعد النصر عليها، كما اتفقا على ان يتخذ ملك فرنسا لنفسه ايضا لقب ملك

نابولى وان يتخذ فردينانده ملك اسبانيا لنفسه لقب الدوق الكبير .

ولم تستطع نابولى مقاومة الغزو العسكرى ، فعندما بدأ الفرنسيون هجومهم تساقطت تباعا مدن مملكة نابولى بما فيها العاصمة ووقع ملك نابولى فى الاسر وتنازل عن جميع حقوقه للويس الثانى عشر ملك فرنسا ولما انتهت العمليات العسكرية بانتصار فرنسا واسبانيا تصادمت مصالح هاتين الدولتين واشتعلت الحرب بينهما ، وهكذا تحول حلفاء الأمس الى خصوم ألداء . ومنى الفرنسيون بهزائم متعاقبة وطردوا من نابولى التى انفرد الاسبان بالاستيلاء عليها . واعترف الفرنسيون فى مارس عام ١٥٠٤ بامتلاك الاسبان لنابولى ، وعندئذ بات الفرنسيون لايملكون فى ايطاليا غير ميلان وحدها .

غير ان الموقف السياسى تغير بعد ذلك بصورة ادت فى النهاية الى ضياع ميلان ذاتها من الفرنسيين . فبعد وفاة البابا اسكندر السادس اعتلى كرسى البابوية فى أول نوفمبر ١٥٠٣ بابا طموح هو يوليوس الثانى Julius II (١٥٠٣ - ١٥١٣) ترك بصماته قوية سواء فى ايطاليا او فى الحياة السياسة الدولية . فأراد هذا البابا أن يقوم بدور ايجابى فى الحياة السياسية فى ايطاليا وكان من نتائج محاولته أن تراحمت على ايطاليا المحن والكوارث . وكان يوليوس الثانى من أصل جنوى ، ومن المعروف ان جنوه من الدويلات الايطالية التى نافست البندقية فى ميدان التجارة الشرقية منافسة قوية ، ولذلك كان البابا يشعر نحو جمهورية البندقية بحقد دفين ، فى نفسه ، ورأى أنها بسطت سلطانها على اراض فى شبه الجزيرة الايطالية كانت فى يوم ما ضمن الممتلكات البابوية ، وكان هذا البابا حريصا غاية الحرص على ان يزيد من رقعة

مساحة الولايات البابوية ، كما ان حكومة جمهورية البندقية كانت تمارس فى ادارة شئون كنيستها سلطات استقلالية دون الرجوع الى كنيسة روما ، وهو أمر كان يتعارض مع السياسة العليا للبابوية على عهد يوليوس الثانى ، ولهذه الاسباب اخذ يوليوس الثانى منذ وصوله الى كرسى البابوية يعمل لتأليف محالفة ضد البندقية . وفى ديسمبر عام ١٥٠٨ تألفت ضد جمهورية البندقية محالفة كمبراى League of Cambrai من البابا وفرديناند الكاثوليكى ، والامبراطور مكسمليان ، ولويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وبعض الدويلات الايطالية ، وبقيت فلورنسة على الحياد . ولقد لقيت سياسة البابا يوليوس الثانى استجابة من معظم الدول الاوروبية لانها كانت لها أطماع فى البندقية . فبالنسبة للويس الثانى عشر ملك فرنسا كانت البندقية حلما جميلا يراود خياله ورأى فى السيطرة عليها تعويضا من الخسارة التى لحقت به فى مملكة نابولى ، أما مكسمليان الاول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فقد رأى ان البندقية قد مدت أملاكها فى القارة الاوروبية أكثر من اللازم ، وانها وضعت يدها على اراض كانت اصلا تتبع الدولة الرومانية المقدسة وانضمت فلورنسة الى هذا التحالف لحقدها على البندقية ، فلقد كان لفلورنسة نشاط واسع ومتعدد فى عالم المال ودنيا الاقتصاد ، واشتهر ابناؤها ببراعتهم فى الاعمال المصرفية ، ووجدوا منافسة عنيفة من البندقية فى المواطن التى امتد اليها نشاطهم ونفوذهم مثل الأراضى المنخفضة ومنطقة البحر الأسود .

وكانت فرنسا اولى الدول الاعضاء فى هذا الحلف استعدادا للدخول فى الحرب فأرسلت جيشا كبيرا تمكن من ان يوقع هزيمة ساحقة

ـجيش البندقيه فى المعركة اجنادلو Agnadello فى مايو عـ ١٠م ١٥٠٩ . وحاولت البندقيه عقد الصلح ولكن رفض كل من البابا وملك فرنسا وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة الاستجابة الى هذا الطلب ولكن كان من حسن حظ البندقية ان انقذها من الفناء وقوع الخلاف بين الحلفاء بعد انتصارهم ثم تحول البابا عن خطته بعد ان ادرك خطأ السياسة التى انساق اليها حين دعا دولا اجنبية لغزو الاراضى الايطالية كما وجد انه نجح فى تحقيق أهدافه من حلف كمبراى . اذ استولى على المواقع والمناطق التى اراد ان يجعل منها مراكز امامية للدفاع عن ممتلكات البابوية فأصبح الاستمرار فى الحرب بالنسبة له ضد جمهورية البندقية غير ذى موضوع ،وادرك ان بقاء جمهورية البندقية بأسطولها البحرى المتفوق يعتبر بمثابة درع يحمى المسيحيين وايطاليا وبقية اوروبا من خطر الاتراك العثمانيين .كما ان موقع البندقية الذى يتيح لها السيطرة على معظم المداخل الشمالية لايطاليا من وسط اوروبا يجعل منها مركزا استراتيجيا هاما يحمى شبه الجزيرة الايطالية من الغزو الفرنسى او الالمانى. وكانت ميلان - وهى على مقربة من البندقية - مطمع انظار ملكى فرنسا واسبانيا ، يريد الاول تثبيت دعائم الحكم الفرنسى فى ربوعها ،ويبغى الثانى الاستئثار بها دون الفرنسيين، ورأى البابا ضرورة الابقاء على البندقية وقال فى هذا الصدد اذا لم تكن البندقية قد وجدت على وجه الارض فيجب بناء بندقية أخرى.ولكل هذه الاسباب عقد البابا صلحا منفردا مع البندقية فى ابريل عام ١٥١٠ وبذلك انفرط عقد محالفة كمبراى .

وقد اثار هذا التحول غضب مكسمليان الاول امبراطور الدولة

الروماسية المقدسة ، ولويس الثانيعشر ملك فرنسا اللذين اعتبرا هذا التصرف من جانب البابا لونامن الوان الغدر والتخلى عن القضية التي حارب من اجلها . وقرر الامبراطور والملك المضى فى الحرب .وقد رد البابا عليهما باعلان عزمه على طرد هؤلاء المتبربرين من ايطاليا وظهر البابا امام الايطاليين بطلا من ابطال القومية الايطالية ،ووقفت الى جانبه فى هذه المرحلة البندقية واسبانيا . ولكن استدعى لويس الثاني عشر الكرادلة الفرنسيين المقيمين فى روما ،وبدأ فى الأفق انقسام ديني خطير يتهدد كنيسة روما . وفى ١٠ اكتوبر ١٥١٠ قامت الجيوش الفرنسيه بمحاصرة البابا فى مدينة بولونا فى شمال ايطاليا حيث كان يقيم . ولكى يتخلص من هذا الموقف الحرج طلب الصلح كسبا للوقت وتراجعت الجيوش الفرنسية دون ان تخوض المعركة . ولكن استؤنف الهجوم الفرنسى مرة اخرى فى مايو عام ١٥١١ ، واضطر البابا الى التقهقر الى روما امام الفرنسيين ،وأخطأ الفرنسيون عندما توقفوا عن مطاردته الى روما واتخذوا بدلا من ذلك تدبيرا آخر هو دعوة مجلس من الكرادلة فى بيزا ليعلن عزل يوليوس الثانى من البابوية .

ووجه الخطأ فى ذلك ان هذه الحركة الانفصالية فى الكنيسة ساعدت على تقوية مركز يوليوس بدلا من اضعافه ، وقد استطاع البابا أن يستميل اليه الاعوان ليعقد محالفة جديدة فى هذه المرة موجهة ضد فرنسا ، وبذلك اذاع البابا فى ٥ أكتوبر عام ١٥١١ نبأ تكوين ما اطلق عليه اسم الحلف المقدس The Holy League وتكون من فرديناند الكاثوليكى ملك اسبانيا ، وهنرى الثامن ملك انجلترا وجمهورية البندقية والقوات السويسرية المرتزقة ثم انضم الى الحلف

بعد قليل الامبراطور مكسمليان الاول .

وبلحصت اهداف هذا الحلف فى المحافظة على سيادة الكنيسة والقضاء على الحركة الانفصالية التى اوجدها مجلس الكرادلة فى بيزا واستيلاء البابا على الاقاليم والمدن التى تطمع فرنسا فى امتلاكها او فى استرجاعها (مثل بولونيا وفرارا) واستيلاء ملك اسبانيا على اقليم نافار حتى تستكمل اسبانيا حدودها الطبيعية من ناحية جبال البيرانيز . ثم طرد الفرنسيين من شبه جزيرة ايطاليا كلها الى ما وراء جبال الالب تطبيقا لمبدأ التوازن الدولى . ونص فى قرار انشاء الحلف ضد فرنسا على الاجراءات التنفيذية التالية .

اولا - يقوم ملك اسبانيا بمهاجمة فرنسا فى جبهتين : فى شمال ايطاليا وفى اقليم نافار فى اقصى الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا . وبذلك يضطر لويس الثانى عشر ملك فرنسا الى تشتيت قواته المسلحة .

ثانيا - يتكون جيش الحلف المقدس من ٣٦ ألف مقاتل .

ثالثا : يدفع البابا ودوج البندقية كل شهر عشرين ألف قطعة من العملة الذهبية المسماة دوقا Ducats لمساندة المجهود الحربى .

رابعا - تقدم جمهورية البندقية اربع عشرة سفينة وتقدم اسبانيا اثنتى عشر قطعة من اسطولها البحرى .

خامسا - يتولى القيادة العامة لقوات الحلف المقدس نائب ملك اسبانيا فى نابولى واسمه Raymond de Cardona.

ونجح الحلف المقدس فى تحقيق اغراضه ، فأخلى الفرنسيون ميلان (ماعدا قلعتها) وتساقطت املاك فرنسا فى شمال ايطاليا وعبرت فلول

الجيش الفرنسى جبال الالب فيطريق عودتها الى فرنسا .واستولى الاسبان على نافار(١٥١٢) . واذاكان يوليوس الثانى قد نجح فى طرد القوات الفرنسية منشمال ايطاليافقد ظل فى شبه الجزيرة الايطالية جنود سويسريون واسبان وجنود المان تابعون للامبراطور. ولقد لفت احد الكرادلة نظر البابا الىاكتظاظ ايطاليا بالجنود الاجانب ، فثارت ثائرته على هذه الملاحظةوقال انه سوف يطرد الاسبان من نابولى ولعله كان يفكر فى عقد احلافجديدة وتفجير حروب جديدة ،ولكن كان الموت أقرب اليه من هذه المشروعات فتوفى فى ٢١ فبرايرعام١٥١٣.

وكانت المشكلة التىواجهها البابا الجديد ليوالعاشر Leo X (١٥١٣ - ١٥٢١) هى تحديد موقفه منفرنساواسبانيا. وكان التزام الحياد بين هذين المعسكرين أمرا متعذرا: فالاسبان وطدوا أقدامهم فىجنوبايطاليا وشمالها ،وكانت فرنسا ترنو بأبصارها نحو دوقية ميلان تريداسترجاعها لنفسها.وعلى اية حال ،كانت تصرفات لويس الثانى عشر ملك فرنسا هى التىحددت للبابا الجديد الخط الذى يسير فيه . فقد عقد ملك فرنسا فىمارس عام ١٥١٣ حلف بلوا League of Bloix مع جمهورية البندقية تقررفيه قيام تحالف عسكرى يستهدف التوسع الإقليمى للدولتينمعا فى شبه الجزيرة الايطالية: فتسترد فرنسا سهل لمبارديا وتستعيد البندقية ممتلكاتها القديمة التى كانت لها فى القارة الاوروبية. ورد البابا على هذا الحلف بحلف مضاد عقدهفى نفس السنةوهو حلف مالين Malines وتتكون من الولايات البابوية ومكسمليان الاول وفرديناند ملكاسبانيا وهنرى الثامن ملك انجلترا.وكان هذا الحلف موجها ضد فرنسا وسرعان ما اشتعلت الحرب فى مايو عام ١٥١٣.

زحفت قوات فرنسا والبندقية على شمال ايطاليا متجهة نحـــو ميلان ولكن لقى الجيش الفرنسي في يونيو ١٥١٣ هزيمة منكرة على مقربة من مدينة نوفار Novare على يد جيش من الجنود السويسريين وانسحب الجيش الفرنسي عائدا على فرنسا. أما جيش البندقية فقد تقهقــر الى المدينة بادوا وظلت البندقية تكافح سنة كاملة قوات الامبراطـور .
وفى نفس الوقت كانت فرنسا تلقى هزائم اخرى على ارضها على يـــد الانجليز فى اقليم نورماندى فى شمال فرنسا . ولكن عندما فشـــل الفرنسيون فى استرجاع ميلان ، عقد لويس الثانى عشر الصلح مع البابا الجديد ليو العاشر، ثم مع اسبانيا والامبراطور، واخيرا مع ملـــك انجلترا فى اغسطس ١٥١٤. وقد تقرر فى هذا الصلح الاخير أن يتـــزوج لويس الثانى عشر الاميرة مارى الاخت الصغرى لملك انجلترا لتغـــدو ملكة على فرنسا. ولم ينعم لويس بهذا الزواج اكثر من ثلاثة أشهـــر اذ توفى فى ١ يناير عام ١٥١٥.

وبوفاة لويس الثانى عشر ينتهى الدور الاول فى الحــــروب الايطالية ويمكن تحديد نتائجه على النحو التالى :
اولا - اخفقت فرنسا فى سياسة التوسع الاقليمى فى ايطاليا،فهى لـــم تفشل فى بسط سيطرتها على ايطاليا فحسب ، بل خرجت هى نفسها من شبه الجزيرة الايطالية .
ثانيا- نالت اسبانيا اقاليم ذات مواقع استراتيجية هى نابولـــى واقتسمت ميلان مع السويسريين، كما انها اغارت على نافار الواقعة على حدودها الشمالية .
ثالثا- امتلكت البابوية اقليم رومانا ولم تلبث ان حققت نصرا سياسيا حين عادت اسرة ميدتشى مرة اخرى الى الحكم فى فلورنسة وكان البابـا ليو العاشر ينتمى الى هذه الاسرة ،فظفر بالسيطرة على فلورنسة التى قطعت

علاقاتها مع فرنسا .

الدور الثانى من الصراع بين فرنسا واسبانيا
(١٥١٥ - ١٥٥٩)

استغرق الدور الثانى من أدوار الحرب اربعة وأربعين عاما ، ولذلك سنقسمه الى أربع مراحل حتى يمكن تتبع احداثها .

المرحلة الاولى :

وتبدأ بارتقاء فرنسوا الاول عرش فرنسا عام ١٥١٥ الى انتخاب شارل الاول ملك اسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس عام ١٥١٩. اعتلى فرنسوا الاول (١٤٩٤-١٥٤٧) عرش فرنسا فى عام ١٥١٥ بعد وفاة لويس الثانى عشر، وكان من أسرة فالوا- أورليان، أى الفرع الاصغر لأسرة فالوا ،وتذرع بحقوق له موروثة فى دوقية ميلان،ولم يجد له فى هذه المغامرة الايطالية من حليف سوى جمهورية البندقية ، بينما تحالفت ضده الامبراطورية الرومانية المقدسة واسبانيا والبابوية . واستخدم هؤلاء الحلفاء الجنود السويسريون المرتزقة . ولكن فرنسوا انتصر على الحلفاء فى موقعة مارينانو Marignano بالقرب من ميلان فى ١٣ سبتمبر عام ١٥١٥ ،ولقد أسفرت هذه المعركة عن عدة نتائج هامة تتلخص فيما يلى :

١ - اتفاق بولونا Le Concordat de Bologne

عقد فرنسوا الاول مع البابا ليو العاشر اتفاقا فى اغسطس عام ١٥١٦ ، وبمقتضاه تعهدت فرنسا بدفع الاموال الكنسية الى البابا ، اذ كانت فرنسا قد توقفت عن دفعها منذ عام ١٤٣٨ ،كما تقرر فى هذا الاتفاق تخويل ملوك فرنسا الحق فى تعيين رجال الدين فى المناصب

الكنسية العليا فى فرنسا . وقد عادهذا الاتفاق بالنفع على الجانبين فقد حصلت البابوية علىمورد مالى ضخم كانت محرومة منه طيلة قرن من الزمان تقريبا ، وفى نفس الوقت ازداد نفوذ الملكية الفرنسية وظل الاتفاق معمولا به الى نهاية القرن الثامن عشر (أى الى قيام الثورة الفرنسية) .

٢ - اعجب السويسريون بشجاعة فرنسوا وعقدوا معه معاهدتين فى عام ١٥١٥ وعام ١٥١٦ تعهد فيهما السويسريون بألا يشتركوا فى أى حرب ضد ملك فرنسا فى مملكته أو فى ميلان او فى اقليم آخر تابع له .ودفع لهم ملك فرنسا النفقات التى تكبدها الجنود السويسريون فى هذه الحرب.

٣ - حقق فرنسوا الاول لفرنسا تفوقا ونفوذا فى شمال ايطاليا ،فقد عقد فى اغسطس عام ١٥١٦ معاهدات مع الإمبراطور مكسمليان الأول ومع البندقية كفلت له الاحتفاظ بميلان وجنوه ،وأصبحت له سيطرة تامة فى اقليم لمبارديا فى شمال ايطاليا . وفى اعقاب هذه الاتفاقات أبرم فى ١٣ أغسطس ١٥١٦ معاهدة نويون (Noyon) مع شارل آرشيدوق النمسا ووارث عرش اسبانيا منذ وفاة مليكها فرديناند الكاثوليكى . وقد جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرة فرنسية وان يكون صداق هذا الزواج الجزء الخاص من مملكة نابولى الذى يدعيه لنفسه فرنسوا الأول .

ولكن لم تمض سنوات على هذا الهدوء الذى ساد العلاقات بين فرنسا واسبانيا بعد موقعة مارينانو حتى وقع حادث هام أدى الى تصعيد الصراع بين هاتين الدولتين ، اذ شغر منصب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة بوفاة الامبراطور مكسمليان الاول فى ١٢ يناير عام ١٥١٩ . وكان هذا المنصب يشغل بطريق الانتخاب لا الوراثة ،وكانت عملية انتخاب الامبراطور مقصورة على سبعة من حكام المقاطعات الالمانية الهامة

أطلق عليهم "اسم الناخبون" (Elctors) وجرى العرف على أن يكون الامبراطور الذى يشغل هذا المنصب من اصل جرماني اصيل ولكن ظهر اتجاه جديد يقول انه لايوجد اساس قانوني او دستورى يجعل هذا المنصب مقصورا على الجنس الجرماني بحيث تستبعد من الترشيح لهذا المنصب الخطير العناصر الاخرى . وتمشيا مع هذا الاتجاه رشح فرنسوا الاول بنفسه لمنصب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ونافسه فى هذا الترشيح شارل الاول ملك اسبانيا وكان قد تولى عرشها عام ١٥١٦ . كما زج هنرى الثامن بنفسه فى معركة الانتخابات ،ولكنه آثر بعد قليل الانسحاب منها ،وأصبحت المنافسة محصورة بين شارل الأول ملك اسبانيا وبين فرنسوا الاول ملك فرنسا .

وبذل الملكان المتنافسان الوعود للناخبين السبعة ،وتأرجح موقف بعضهم بين ملك فرنسا وملك اسبانيا ازاء اغراء المال والمطامع السياسية . وعلى أية حال اجتمع المجلس الامبراطوري او الدايت(Diet) فى فرانكفورت فى يونيو عام ١٥١٩ وتغلبت الوطنية الالمانية على الناخبين السبعة ، فانتخبوا بالاجماع فى ٢٨ يونيو من نفس العام كبير أسرة الهابسبرج النمساوية وهو شارل الاول ملك اسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ،واطلق على نفسه اسم الامبراطور شارل الخامس

المرحلة الثانية :

يأخذ الصراع فى هذه المرحلة (١٥١٩-١٥٢٩) مظهر النضال بين اسرة الهابسبرج ممثلة فى امبراطور الدولة الرومانية وبين فرنسا . ورأت فرنسا ان انتخاب شارل ملك اسبانيا امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة قد أتاح لاسبانيا سيادة عابرة فى العالم فى اوائل العصر الحديث ،كما انها اعتبرت ذلك اخلالا خطيرا بمبدأ التوازن الدولى اذ

اصبح شارل الخامس يحكم اكثر من نصف اوروبا الغربية عدا الممتلكات الشاسعة فى العالم الجديد، وغدا قوة رهيبة تتهدد فرنسا ،لأن أملاك الامبراطور اصبحت تحيط بفرنسا من كل جانب ، فضلا عن تنافس هذين العاهلين على املاك برجنديا (وهى دوقية تقع فى شرق فرنسا وعاصمتها ديجون Dijon) وتسابقهما على دوقية ميلان.

ونتيجة لذلك تحولت انظار العاهلين الى هنرى الثامن ملك انجلترا وأخذ كل منهما يسعى لضمه الى جانبه فى الصراع المرتقب . وانتهز الامبراطور شارل الخامس فرصة سفره بحرا من اسبانيا الى الاراضى المنخفضة ليتسلم التاج الامبراطورى فى مدينة أكس لاشابل ، فتوقف فى ميناء دوفر حيث اجرى مفاوضات مع الملك هنرى الثامن، وتمكن الامبراطور من استمالته الى جانبه نظير بعض العروض الاقليمية المغرية . فعرض الامبراطور على ملك انجلترا الانضمام اليه فى مقابل استيلائه على نورماندیا وبیکاردیا فی شمال فرنسا. كما سارع ملك فرنسا من ناحية اخرى الى اجراء اتصالات تمهيدية مع ملك انجلترا لضمه الى صفه ، ولكن رفض ملك انجلترا ان يرتبط بوعد صريح بقيام تعاون عسكرى بين البلدين فى ذلك الوقت .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين شارل الخامس وفرنسوا الاول فى عام ١٥٢١ ودفعت فرنسا بجيشها الى شمال ايطاليا وكان يضم جنودا مرتزقة سويسريين، ولكن اضطر هذا الجيش الى اخلاء ميلان نتيجة لعنف هجوم القوات الامبراطورية وأبيد الجيش الفرنسى على مقربة من ميلان فى ٢٧ ابريل عام ١٥٢٢. وبعد هذه الهزيمة اعلنت إنجلترا فى ٢٩ مايو ١٥٢٢ انضمامها الى جانب الامبراطور. وفى تلك الفترة ايضا عقد الامبراطور اتفاقا مع الكونستابل شارل دوق بربون ،قائد عام الجيش

الفرنسى وأحد النبلاء الاقطاعيين الثائرين على الملك فرنسوا الاول.
وقد نص الاتفاق على ان يقوم الكونستابل بتحريك ثورة فى فرنسا للاطاحة بحكم فرنسوا الاول فى الوقت الذى يهاجم فيه شارل الخامس وهنرى الثامن ملك انجلترا الاراضى الفرنسية • ونص الاتفاق ايضا على أن يستولى هنرى الثامن ملك انجلترا على مقاطعات معينة فى فرنسا ثم يتوج فى باريس ، كما يسترد الكونستابل الاراضى التى انتزعت منه ، ويضيف اليها اراض جديدة تكون هذه وتلك نواة لانشاء مملكة مستقلة فى جنوب فرنسا تشمل بصفة مبدئية مقاطعتى بروفانس Provence ودوفينيه Dauphine .

وأعد فرنسوا خطة لمهاجمة ايطاليا والزحف على ميلان ولكنه تلقى هزيمة كبيرة فى بافيا فى ٢٤ فبراير عام ١٥٢٥ والتى تعتبر أشهر معركة فى تاريخ اوروبا فى القرن السادس عشر • كما ان نتائج المعركة كانت بمثابة كارثة قومية نزلت بفرنسا ، اذ وقع الملك فرنسوا فى الاسر وأرسل الى اسبانيا حيث ارغم هناك على توقيع معاهده مدريد فى ١٤ يناير ١٥٢٦• وقد جاءت الصياغة القانونية للمعاهدة فى خمسين مادة ولكننا سنشير فقط الى اهم ما جاء فيها على النحو التالى .

اولا : يتنازل فرنسوا الاول عن اراض فرنسية واسعة فى شرق فرنسا هى دوقية برجنديا (وهى غير مقاطعة كومتيه برجنديا أو فرانش كومتيه) •

ثانيا : يتنازل فرنسوا الاول عن كل ادعاءاته على ميلان وجنوه ونابولى وفلندرا وارتوا •

ثالثا : يتعهد فرنسوا الاول بعدم مساعدة نافار •

رابعا : يسترد الكونستابل شارل دوق بوربون جميع الاراضى التى صادرها منه ملك فرنسا •

خامسا : يقدم فرنسوا الاول ولديه وهما ولى عهده والابن الثانى هنرى - كى يقيما فى اسبانيا كرهينة او كضمان لتنفيذ أحكام المعاهدة تنفيذا سلميا .

سادسا : يتعهد فرنسوا الاول فى حالة عدم تنفيذ المعاهدة بأن يسلم نفسه فورا للسلطات الامبراطورية تمهيدا لاعادته للأسر .

سابعا : يتزوج فرنسوا الاول شقيقة شارل الكبرى اليانور .

ثامنا : يتم تنفيذ المعاهدة فى خلال ستة اسابيع وبذلك اطلق سراح الملك فعاد الى فرنسا فى مارس ١٥٢٦؛

وهكذا اعطت معركة بافيا ومعاهدة مدريد للامبراطور تفوقا سياسيا واسعا لم تشهد له اوروبا مثيلا منذ ايام الامبراطورية الرومانية المقدسة. وقد قضى ذلك الموقف على مبدأ التوازن الدولى فى أوروبا وجعل حلفاء الامبراطور يعيدون النظر فى موقفهم من الامبراطور نفسه . ومن ناحية اخرى وضع حكام الامارات الايطالية من الاجراءات الاستبدادية التى كان يلجأ اليها قادة الجيش الامبراطورى ،كما ثار السكان فى كل انحاء شبه الجزيرة الايطالية بسبب الجرائم المنكرة التى كان يرتكبها فى وضح النهار جنود الامبراطور. وعمل ايضا على زيادة هذا السخط البابا كلمنت السابع (Clement V11) (١٥٢٣-١٥٣٤)وكان شديد الرغبة فى دعم قبضته على الولايات الايطالية وفى تطهير شبه الجزيرة واعادة التوازن الدولى فى غرب اوروبا ولهذا وقع حكام الامارات الايطالية فى ٢٢ مايو عام ١٥٢٦ حلف كونياك League of Congnac لتخليص ايطاليا من نفوذ الامبراطورى ووقفت الى جانب البابا البندقية وفلورنسة واسرة سفورزا فى ميلان وسائر الامارات الايطالية الاخرى. وقد انضمت فرنسا وانجلترا الى هذا الحلف ،وتجدد الصدام المسلح ،ولكن اثناء ذلك ثار جنود شارل بسبب تأخر مرتباتهم

فنهبوا روما فى مايو ١٥٢٧ ،وحاصروا البابا فى حصن سان انجلو. ومع ان فرنسوا الاول أحرز بعض الانتصارات وامكنه تخليص البابا من الاسر الا انه انهزم فى النهاية فى موقعة لاندريانو Landriane شمالى فرنسا فى ٢١ يونيو ١٥٢٩ ،واضطرالى عقد الصلح مع الامبراطور شارل الخامس فى كمبراي فى ٣ أغسطس ١٥٢٩ ،ولقد اطلق على هذه المعاهدة ايضا سلم السيدات لأن المفاوضات التى دارت فى مدينة كمبراى تولتها عن الجانب الفرنسى الملكة الوالدة لويز Louise وعن الجانب الامبراطورى مارجريت النمسوية عمة الامبراطور شارل الخامس وحاكمة الاراضى المنخفضة . ولقد اطاحت هذه المعاهدة بمبادىء هامة جاءت فى معاهدة مدريد وكان من اهم ماجاء فيها :

١ - يتخلى الامبراطور شارل الخامس عن ادعاءاته فى برجنديا وتحتفظ فرنسا لنفسها بهذا الاقليم مما يعتبر نقضا صارخا لمعاهدة مدريد

٢ - يتخلى الملك فرنسوا الاول عن ادعاءاته فى ايطاليا وعن حقوقه الاقطاعية فى ارتوا وفلندرا ،وان تكف فرنسا عن التفكير فى اية محاولة لاسترداد مدينتى ليل ودوويه (Douai)

٣ - يطلق الامبراطور سراح الاميرين الفرنسيين من الاعتقال فى مقابل فدية كبيرة بلغت مليونى قطعة ذهبية من فئة الكورونا .

٤ - يتزوج الملك فرنسوا الاول اليونور ارملة ملك البرتغال وشقيقة الامبراطور .

وعلى أية حال كان صلح كمبراى كسبا سياسيا للامبراطور شارل الخامس فقد حقق اهدافه فى غرب الراين وجنوب الالب ،واصبحت له السيطرة على ايطاليا . كما سادت العلاقات الودية بين الامبراطور شارل الخامس والبابا كلمنت الذى قام بتتويج الامبراطور شارل الخامس فى مدينة بولونا فى شمال ايطاليا . وتفرغ الامبراطور ايضا لتدبير شئون أسرته

لرشح اخاه فرديناند خلفا له على عرش الامبراطورية ،كما عين ابنه فيليب خلفا له على عرش اسبانيا ومستعمراتها فى العالم الجديد.

المرحلة الثالثة :

وتشمل الصراع بين اسرتى الفالوا والهابسبرج خلال السنوات الاخيرة من حكم فرنسوا الاول(١٥٣٠-١٥٤٧).

كان من أهم المظاهر التى طرأت على السياسة الدولية بعد صلح كمبراى ظهور الامبراطور شارل الخامس على مسرح السياسة الاوروبية بمظهر الامبراطور فقط،فقد ترك جانبا وبصفة مؤقتة المنافسات القديمة التى كانت بين اسبانيا وفرنسا ،وصرف جهوده لاعادة الوحدة الدينية الى اجزاء الامبراطورية بالقضاء على المذاهب الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكى والمحافظة على حقوق ونفوذ ومصالح اسرة الهابسبرج فى كل من المانيا وايطاليا. وقد تمثلت المشاكل الداخلية والخارجية التى واجهها الامبراطور فى تفاقم حركة الاصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فى المانيا ،وفى ازدياد خطر الاتراك العثمانيين سواء فى القارة الاوروبية او فى حوض البحر المتوسط،وفى اغارة سكان شمال افريقيا الذين جمعوا صفوفهم تحت امرة خير الدين بربروسة - على شواطئ اسبانيا ونابولى .

ومن ناحية اخرى لم يؤد صلح كمبراى الى ايجاد تسوية سياسية دائمة للعلاقات بين الامبراطورية الرومانية المقدسة وبين فرنسا .فلم يقبل فرنسوا الاول ان يتنازل عن كل ادعاءاته فى ايطاليا بوجه عام وفى دوقية ميلان بوجه خاص ،بل انه عقد قران ابنه الامير هنرى فى عام ١٥٣٣ على كاترين دى ميدتشى وهى ايطالية ولها اطماع سياسية بعيدة واعتبرت هذه الزيجة بمثابة ضربة سياسية موجهة الى شارل الخامس فى ايطاليا لانها تؤدى الى تدعيم النفوذ الفرنسى فى ايطاليا ،وبخاصة

ان العروس كانت من اسرة البابا كلمنت السابع . ومما ادى الى تعقيد الموقف بين الأمبراطور وملك فرنسا ان الاخير فقد ابنه الاكبر وولي عهده عام ١٥٣٦، فانتقلت ولاية العهد الى الابن الثاني الامير هنري زوج كاترين دي ميدتشي . ولذلك كانت معاهدة كمبراي اقرب ما تكون الى هدنة مؤقتة . فتجدد الصراع بين الامبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الاول على اثر وفاة فرنشيسكو سفورزا دوق ميلان في نوفمبر عام ١٥٣٥ وادعى كل منهما ان له الحق في هذه الدوقية . وقامت بينهما الحرب ولكن عقد الطرفان في ١٨ يونيو عام ١٥٣٨ هدنة في نيس Nice لمدة عشر سنوات ولكن لم يمر اربع سنوات فقط على هذه الهدنة حتى استؤنف القتال من اجل دوقية ميلان ايضا وذلك عندما أعطى شارل الخامس هذه الدوقية لابنه فيليب في عام ١٥٤٢.

ومع ان الفرنسيين احرزوا في بادىء الامر بعض الانتصارات العسكرية مثل معركة سيريزول Cerisoles في بيدمونت في شمال ايطاليا في ١٤ ابريل عام ١٥٤٤، فقد تقدمت جيوش الامبراطور وحليفه هنري الثامن ملك انجلترا في لكسمبورج على حدود فرنسا الشرقية وهي من ممتلكات شارل الخامس وزحفت على الاراضي الفرنسية حتى اقتربت من باريس . ولكن رأى شارل الخامس ان يعقد الصلح مع فرنسوا لانه لم يكن مطمئنا لحليفه هنري الثامن بسبب مشاغله الدينية في المانيا كذلك وفي ١٨ سبتمبر عام ١٥٤٤ اسفرت مفاوضات الصلح عن عقد معاهدة كرسبي Crespy واشتملت المعاهدة على ما يلي :

١ ـ تترك فرنسا بيدمونت وسافوى .

٢ ـ يتنازل الامبراطور شارل الخامس عن كل ادعاءاته في برجنديا .

٣ ـ حل المشكلة الشائكة التي طالما ادت الى اشعال الحرب بين الدولتين ونعني بها مشكلة ميلان. ويقوم هذا الحل على تدبير

زواج سياسى بين الابن الاصغر لملك فرنسا - وهو الدوق اورليان وبين ابنة الامبراطور او ابنة اخته ، وتكون الاراضى المنخفضة هى الصداق الذى تقدمه العروس فى الحالة الاولى ودوقية ميلان فى الحالة الثانية ،وبذلك تحقق فرنسا آمالها فى ميلان أو فى التوسع الاقليمى فى اتجاه الشمال الشرقى . ولكن لم يقدر لهذه الترتيبات النجاح اذ توفى الدوق اورليان فى العام التالى لتوقيع المعاهدة .وفى مارس عام ١٥٤٧ توفى فرنسوا الاول وخلفه على عرش فرنسا ابنه هنرى الثانى (١٥١٩ - ١٥٥٩).

المرحلة الرابعة :

وتبدأ من اعتلاء هنرى الثامن عرش فرنسا فى عام ١٥٤٧ الى توقيع معاهدة كاتوكمبريسيس عام ١٥٥٩.

اعتلى هنرى الثانى (١٥١٩ - ١٥٥٩) عرش فرنسا عند وفاة والده فرنسوا الاول وكان قد تزوج فى عام ١٥٣٣ من كاترين دى ميدتشى (١٥١٩- ١٥٨٩) وهى من فلورنسة وتنتمى الى اسرة ميدتشى التى حكمت فلورنسة . وكان هنرى فى داخل فرنسا كاثوليكيا متعصبا لمذهبه يتعقب الخارجين على هذا المذهب وينكل بهم ،ولكنه كان فى سياسته الخارجية نصيرا للبروتستانت فى المانيا نكاية فى شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وكانت اول مشكلة خارجية واجهته بعد اعتلائه العرش هى مواجهة نتائج الانتصار العسكرى الذى احرزه الامبراطور شارل الخامس فى معركة مهلبرج(Mahlberg) فى ٢٤ ابريل عام ١٥٤٧ على الامراء الالمان البروتستنت . وبدا الآن ان المانيا بل اوروبا اصبحت فى قبضة الامبراطور الامر الذى اوجد حالة خطيرة فى الموقف الدولى. وساد

الاعتقاد فى ذلك الوقت بأن الانقسام الدينى الذى كان يهدد المانيا اصبح فى طريق الزوال وستعود المانيا الى الوحدة الدينية فالسياسية وقد اثار ذلك مخاوف ملك فرنسا الذى لم يكن يتصور قيام دولة المانية موحدة على الحدود الشمالية الشرقية لفرنسا وتكون مصدر خطر على فرنسا • ولذلك كان الخوف من قيام الوحدة السياسية فى المانيا من ناحية ،والرغبة فى المحافظة على التوازن الدولى فى القارة من ناحية اخرى من اهم المسائل التى دفعت ملك فرنسا الى صدام عسكرى مع الامبراطور شارل الخامس •

وفى نفس الوقت تدهورت العلاقات بين الامبراطور شارل الخامس وبين البابا بول الثالث (١٥٣٤ - ١٥٤٩) اذ ارعج انتصار الامبراطور فى معركة مهلبرج البابا لانه خشى ان يودى هذا الانتصار الى توطيد نفوذ الامبراطور فى أرجاء شبه الجزيرة الايطالية واخضاع الكنيسة والولايات البابوية لسلطة الامبراطور •

وفى العام التالى تفاقم الخلاف بينهما وبلغ الذروة عندما اصدر الامبراطور في ١٣ مايو عام ١٥٤٨ نظام العقيدة المؤقتة (Interim) لانهاء النزاع الدينى فى المانيا • وكان هذا النظام يهدف الى التقريب بين البروتستانت والكاثوليك ،ولذلك اشتمل على بعض التساهل المحدود ارضاء للبروتستانت • فغضب البابا وأراد قبل كل شئ تحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية ذاتها •ودخل البابا فى مفاوضات مع هنرى الثانى للقيام بحرب ضد الامبراطور فى ايطاليا بعد ان كان البابا من اول الساعين لوقف الصراع بين الدولتين •ووافق ملك فرنسا على ان يعمل على طرد قوات الامبراطور من بارما وبياكنزا اللتين اغتيل حاكمهما وكان ابنا غير شرعى للبابا بول ،وبسبب أحد

افراد اسرة البابا محله

ولكن هنري الثاني كان مشغولا في ذلك الوقت في الحرب مع انجلترا وقامت تلك الحرب لان البلاط الاسكتلندي الكاثوليكي - الخاضع لنفوذ ماري لورين ملكة اسكتلنده وهي فرنسية الاصل - امتنع عن تنفيذ خطوبة ماري استيوارت (ابنة جيمس الخامس ملك اسكتلنده وماري لورين) الى ادوارد السادس ملك انجلترا - الدولة البروتستنتية . وردت انجلترا على ذلك بارسال حملة عسكرية اوقعت الهزيمة بالاسكتلنديين في موقعة بينكي (Piankie) في سبتمبر ١٥٤٧. وتطلعت اسكتلنده الى مساعدة فرنسا بسبب الروابط العائلية التي كانت تربط بينهما . وعقدت الملكة ماري لورين خطوبة ابنتها التي كانت تبلغ من العمر ثمان سنوات على ولي عهد فرنسا في اغسطس عام ١٥٤٨ وبعثت بها اليه . وقاومت انجلترا هذا التقارب خوفا من ان ينضم التاج الاسكتلندي الى التاج الفرنسي فقامت الحرب بين فرنسا وانجلترا واستمرت حتى مارس عام ١٥٥٠. وخسرت انجلترا في هذه الحرب ثغر بولوني في شمال فرنسا ، في مقابل حصولها على مبلغ من المال من فرنسا . وكان لهذا الانتصار اثر كبير في تشجيع هنري الثاني بعد ذلك على القيام بعمل حاسم ضد الامبراطور شارل الخامس .

عمل هنري الثاني اذن على اثارة المتاعب في وجه الامبراطور ورفض ان يتعاون معه لانجاح المجمع المسكوني العام المنعقد في مدينة ترنت لتسوية الخلاف الديني بين الكاثوليك والبروتستانت ، كما شجع الامراء الالمان البروتستانت على مقاومة الامبراطور. واختار هنري الثاني ميدانا جديدا للحرب غير شبه الجزيرة الايطالية هو حوض نهر الراين ونهر موزيل Moselle احد فروع نهر الراين . وكان هذا الاختيار من جانب هنري الثاني ، لانه يكفل له الحصول في يسر على عون الجماهير الالمانية البروتستانتية ومساعدة الامراء الالمان. وعقد

هنري الثانى مع الامراء الالمان محالفةفى شامبورد (Chambord)
فى يناير ١٥٥٢. ثم رقع موريسناخب سكسونيا المعاهدة نهائيا مع
فرنسا فى فريدوالد (Friadwald) فى عام ١٤فبراير عام١٥٥٢.ويرجع
اهمية هذه المعاهدة الىانها اولاختبار حقيقى لسياسة المحافظة على
توازنالقوى فىاوروبا. وقدظهرت هذه السياسة خلال المائة سنة التالية
وكانمناهم نتائجها انقاذ فرنسا منخطر الهابسبرج فىالنهاية
وتحطيم قوة هذه الاسرة. اما الاهميةالثانية لهذه المعاهدة فهى قد
نصت علىان يستولى ملك فرنسا بكلسرعةممكنة على المدن التى كانت
فى املاك الامبراطور دائماوفىكل وقت ،وبالرغم من ان اللغة الالمانية
لم تكن اللغة المألوفة بها وهىكمبراى وتول ومتز وفردان. وقدعلق
احد المؤرخين الفرنسيين علىتلك المادة التى نصت على ان يحتفظ ملك
فرنسا بهذه المدن بصفته نائبا او وكيلا للامبراطوريةبقوله أنها
بمثابة الميثاق الذى يسجل لفرنسا حقوقها الطبيعية والتى لا تسقط
بالتقادم اى بمضى المدة على جميع ارجاء اقليم اللورين الفرنسى.
وهكذا كانت تلك المعاهدة صفقةرابحة فى تاريخ فرنسا القومى،لأنها
مدت نفوذ فرنسا الى الالزاس Alsace واللورين وجعلت ضم هذين
الاقليمين الى فرنسا مطلباقوميا لا يحيد عنه ساسة فرنسا منذ ذلك
الوقت حتى الوقت الحاضر

وفى ١٢ فبراير عام ١٥٥٢ اعلن هنرى الثانى الحرب على
الامبراطور شارل الخامس واستولىالجيش الفرنسى بسهولة على تول
ومتز وفردان، واستولى موريس ناخب سكسونيا على أوجربرج ،وصاريطارد
الامبراطور فىالتيرول، فالتجأ الامبراطور شارل الخامس الى حماية
أخيه فردیناند الذى كانيحكمفىالمانيا ونال منذ عام ١٥٣١ لقب ملك
الرومان King of the Romans تمهيدا لانتخابه امبراطورا للدولة

الرومانية المقدسة بعدوفاة اخيه شارل الخامس . وقد توسط فردينانـد بين الامبراطور والامراء الالمان الذين ادركوا مغبة تغلغل فرنسا فـي الاراضى الالمانية وتدهور نفوذ الامبراطور فيها ،وتقطيع اوصـــال الامبراطورية الرومانية . وانتهت هذه الوساطة بعقد معاهدة بســاو (Passau) فى اغسطس عام ١٥٥٢ بين الامبراطور والامراء الالمــان على اساس منح هؤلاء الامراء استقلالا فى المسائل الدينية والسياسيــة

فشل الامبراطور بمساعدة الامراء الالمان فى استرداد مدينة متز، وسارت الحرب عموما مع فرنسا ضد مصلحة الامبراطور حتى اضطر شارل الى عقد هدنة فى فوسيل(Vaucelles) مع الفرنسيين فى ٥ فبراير ١٥٥٦ لمدة خمس سنوات ووافق بمقتضاها الامبراطور على ان يترك فى يـــد الفرنسيين جميع فتوحاتهم من متز الى كورسيكا . وبذلك واجه الامبراطور "الوجود" الفرنسى فى منطقة كان يعتبرها اقليما المانيا خالصا ،وعجز عن ازالة هذا الوجود ،وكان اخفاقه الحربى امام اسوار متز آخر معركة فى حياته فقد قرر التنحى عن الحكم والتنازل عن العرش وقضاء البقية الباقية من حياته فى عزلة دينية فى احد الاديرة .وفى اكتوبر عـــام ١٥٥٦ تنازل عن الحكم نهائيا على ان يخلفه ابنه فيليب الثانـــى فى حكم اسبانيا وايطاليا والاراضى المنخفضة والممتلكات التى جاءت بها الكشوف الجغرافية ،فى العالم الجديد . كما تنازل الامبراطـــور لاخيه فردينانـد عن تاج الامبراطورية وترك له حكم المانيا والنمسا .

حمل فيليب الثانى الذى تولى عرش اسبانيا عام ١٥٥٦ عبء الصراع ضد فرنسا . وبجانب هذا الصراع خلف له والده ملكا شاسعا فى اسبانيا، والاراضى المنخفضة وهى بلجيكا وهولندا ،ونابولى وميلان فى شبه الجزيرة الايطالية ،ومستعمرات اسبانيا فى جزر الهند الغربية وامريكا الوسطـى وامريكا الجنوبية .

وعلى أية حال لم يستمر السلام طويلا لأن البابا الجديد بول الرابع Paul IV الذى ارتقى كرسى البابوية فى عام ١٥٥٥ - كان يكره الاسبان عموما والامبراطور خصوصا ويريد ان يطهر ايطاليا من كل سيطرة اجنبية ، وان يجعل من اللغة الايطالية اللغة الوحيدة المستعملة فى ارجاء شبه الجزيرة الايطالية . ولذلك طلب البابا بول الرابع مساعدة فرنسا له فى محاربة الاسبان ولقى هذا الطلب استجابة فورية وحارة من هنرى الثانى ملك فرنسا على الرغم من ان هدنة فوسيل التى كانت قد عقدت بين هنرى الثانى وبين الامبراطور فى ٥ فبراير ١٥٥٦ لم يكن قد انقضى اجلها . وزحف الجيش الفرنسى على مملكة نابولى، وبدأت العمليات العسكرية فى سبتمبر عام ١٥٥٦ وبذلك كانت فرنسا هى الدولة البادئة بنقض هدنة فوسيل . وتحرك القائد الاسبانى الدوق الفا Alva من مملكة نابولى نحو روما ،ولكن نزعته الدينية القوية واحترامه العميق للبابا حالت دون اقدامه على تدمير مدينة روما وعرض شروط وقف القتال وابرام الصلح وقبلها البابا وكان اهمها :

١ - يقبل البابا بول الرابع وضع ايطاليا تحت الحماية الاسبانية .
٢ - انهاء المحالفة المعقودة بين البابا وفرنسا .
٣ - يقبل البابا استقبال فيليب الثانى ملك اسبانيا كابن بار مطيع من ابناء الكنيسة .

وبذلك تدعم نفوذ فيليب الثانى فى انحاء شبه الجزيرة الايطالية

أما النصر الثانى الذى حققته اسبانيا على فرنسا فكان على الارض الفرنسية نفسها ،فبادرت فرنسا باعلان الحرب على اسبانيا فى آخر يناير عام ١٥٥٧، وقام فيليب الثانى ملك اسبانيا بزيارة انجلترا كى يستميل ملكها وزوجته مارى تيودور الى الوقوف بجانبه فى الحرب واستجابت انجلترا ،واعلنت الحرب على فرنسا فى يونيو ١٥٥٧ وانهزمت

الجيوش الفرنسية هزيمة بالغة بالقرب من سان كانتان San Quentin في ١٠ أغسطس ١٥٥٧ وانفتح الطريق الى باريس نفسها. ولكن ذلك لم يتحقق لعدة عوامل ،كان في مقدمتها: ان فيليب لم يزحف على باريس مباشرة ،بل انصرف لاحكام الحصار حول مدينة سان كانتان والهجوم عليها ، وبذلك اضاع وقتا ثمينا واصبح لدى فرنسا من الوقت متسع لاعادة تنظيم قواتها العسكرية .ومن ناحية اخرى انتشر التذمر بين الجنود المرتزقة الذين اشتركوا مع الجيش الاسبانى بسبب تأخر صرف مرتباتهم. وابدت الفرق الانجليزية التى كانت مع الجيش الاسبانى رغبتها فى العودة الى انجلترا .

وظفر الفرنسيون بنصر حاسم على الانجليز ، اذحاصروا ثغر كاليه بعد ان استطال احتلال الانجليز له لمدة قرنين. وسقط الثغر فى أيدى الفرنسيين ورفع العلم الفرنسى عليه فى ٨ يناير عام ١٥٥٨.وبذلك تمكن الفرنسيون من طرد الانجليز من آخر معاقلهم فى الاراضى الفرنسية التى كانت قد تبقت لهم بعد حرب المائة سنة . وعلى الرغم من ذلك فقد هزم الفرنسيون هزيمة بالغة على يد جيش فلمنكى تؤيده مدفعية الاسطول الانجليزى فى بحر الشمال وذلك بالقرب من جرافلين Gravelines فى يوليو عام ١٥٥٨، وكان بعد هذه الهزيمة ان بدأت مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والاسبان .

ومما سهل الاتفاق بين الطرفين ، وفاة الملكة مارى تيودور فى نوفمبر عام ١٥٥٨ واعتلت عرش انجلترا الملكة اليزابيث ،ولم تعد هناك حاجة تدعو فيليب الثانى الى التمسك بضرورة ارجاع كاليه الى انجلترا . وادركت الملكة اليزابيث ان اسبانيا ليست متحمسة لمساعدة انجلترا على استرجاع كاليه من الفرنسيين ، يضاف الى ذلك وجود عدد كبير من النبلاء الفرنسيين أسرى فى ايدى الاسبان بعد استيلائهم

على مدينة سان كانتان . وبذلك تضافرت كل الظروف الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية على خلق الجو الصحى لاجراء مفاوضات الصلح، وبدأت هذه المفاوضات فى اكتوبر عام ١٥٥٨ بعد هزيمة الفرنسيين فى جرافلين وانتهت بتوقيع معاهدة كاتو كمبريسيس (Cateau - Cambresis) فى ٣ ابريل عام ١٥٥٩. وتعتبر هذه المعاهدة أول تسوية عامة اوروبية فى التاريخ الحديث . ولقد تضمنت هذه المعاهدة بعض المبادئ الهامة سنحللها فيما يلى :

اولا : تنازلت فرنسا عن كل ادعاءاتها فى شبه الجزيرة الايطالية وسلمت بالنظام الذى ارسى قواعده من قبل شارل الخامس للحكم الاسبانى فى ايطاليا فظلت اسبانيا محتفظة بكل من ميلان فى شمالى ايطاليا ونابولى في جنوبيها . وبذلك اخلت فرنسا الطريق امام اسبانيا لاحكام سيطرتها الفعلية على شبه الجزيرة الايطالية . كما وافقت فرنسا على التنازل عن سافوى وبيدمونت الى القائد العسكرى الذى كان يقود الجيش الاسبانى واجتاح به شمال فرنسا فى عام ١٥٥٧ وهو دوق سافوى ويسمى عمانوئيل فيليبرت Emmanuel Philibert . وقد اهتمت المعاهدة بأمر تزويجه ، فنصت على ان يتزوج من اخت ملك فرنسا وان يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها هو تنازل فرنسا له عن دوقية سافوى وكانت تشمل اقليمى سافوى وبيدمونت . ويعتبر هذا الدوق هو المؤسس الحقيقى لدولة بيدمونت ،وكانت تسمى ايضا مملكة سردينيا وقد قامت هذه الدويلة الى حد كبير وبمضى الايام كدولة حاجزة بين فرنسا وايطاليا ،وستلعب دورا حاسما فى قيام حركة الوحدة الايطالية فى القرن التاسع عشر .

وكان تنازل فرنسا عن سافوى وبيدمونت خسارة كبيرة لفرنسا لاسيما انهما كانا بمثابة بوابة كبيرة تتسلل منها فرنسا الى شبه

الجزيرة الايطالية . وقد قيل فى تبرير تنازل فرنسا عنهما ان فرنسا كانت فى حاجة ماسة الى السلم لتسترد انفاسها من حروب مضنية استطال امدها ، كما قيل ان الانقسام الدينى فى فرنسا بين الكاثوليك والهوجونوت - وهم بروتستانت فرنسا - كان قد تفاقم خطره وبات يتطلب تركيزا من اهتمام هنرى الثانى لمواجهته .

وتقرر فى المعاهدة ان تحتفظ فرنسا بمدينتى تورين Turin وكاسال Casal وبعض الاماكن لفترة زمنية كضمان لتنفيذ المعاهدة وفى الواقع فان ما قررته بخصوص الوضع السياسى فى شبه الجزيرة الايطالية كان نصرا رائعا لاسبانيا بقدر ما كان اخفاقا بالنسبة لفرنسا

ثانيا : لم يرد ذكر فى المعاهدة للاسقفيات الثلاث : متز وتول وفردان وهى ذات اهمية استراتيجية بالغة . وكان سبب هذا الصمت بالنسبة لهذه الاسقفيات الثلاث هو مسألة قانونية بحتة . فهذه الاسقفيات من الناحية الرسمية تابعة للدولة الرومانية المقدسة ، ولم تكن هذه الدولة طرفا فى المعاهدة . وانما كانت المعاهدة مبرمة بين فيليب الثانى ملك اسبانيا وبين هنرى الثانى ملك فرنسا ، ولايملك اولهما الحق فى تقرير مصيرها بصفة رسمية . ويلاحظ ايضا ان فرديناند الاول امبراطور الدولة الرومانية المقدسة قد وقف موقفا سلبيا ازاء هذه المسألة الهامة . ولذلك طبق الطرفان سياسة الامر الواقع على هذه الاسقفيات الثلاث وتنحصر هذه السياسة فى استمرار احتلال فرنسا لها ، ونجم عن ذلك ان استمرت الاسقفيات الثلاث من الناحية الاسمية والقانونية الشكلية تابعة للدولة الرومانية المقدسة ، ومن الناحية الفعلية تابعة لفرنسا . وعلى اية حال كان احتلال فرنسا لهذه المراكز

كسبا عسكريا و اقتصاديا كبيرا لفرنسا ، فهو تدعيم للنفوذ الفرنسي بها .

ثالثا : قررت المعاهدة ان تحتفظ فرنسا بثغر كاليه لبضع سنين ثم يعاد النظر فى وضع هذا الثغر .

رابعا : قررت المعاهدة عقد زواجين سياسيين استكمالا للتسوية السياسية وضمانا لتنفيذها على اكمل وجه . وكانت العروسان هما ابنة ملك فرنسا واخته فنصت المعاهدة على ان يتزوج فيليب الثانى ملك اسبانيا عروسا جديدة هى اليزابيث ابنة هنرى الثانى ملك فرنسا وكاترين دى ميدتشى . ويلاحظ ان فيليب كان قد فقد زوجته مارى تيودور ملكة انجلترا ، ولم يكن قد مضى على وفاتها سوى بضعة شهور . وقد استهدف الزواج الجديد توثيق عرى الصداقة بين فرنسا واسبانيا . ومع ذلك فقد توفيت اليزابيث عام ١٥٦٨ . وتقرر ايضا فى المعاهدة زواج دوق سافوى من مرجريت اخت ملك فرنسا . ولكن شرط الزواج الذى وضع ضمانا لتنفيذ المعاهدة كان سببا غير مباشر فى مصرع هنرى الثانى ملك فرنسا ، اذ مات فى يوليو ١٥٥٩ اثناء مباريات المبارزة التى اقيمت بمناسبة عقد القرانين الملكيين . ثم يختطف الموت الملكة اليزابيث زوجة فيليب الثانى ، ولحقت هذه الزوجة الفرنسية بالزوجة الانجليزية مارى تيودور ملكة انجلترا واصبح فيليب الثانى مرة آخرى ارملا ينشد زواجا ثالثا جديدا .

ولم يؤد صلح كاتوكمبريسيس الى قيام تحالف بين فرنسا واسبانيا كما كان يرتجى ، فظلت العداوة والشكوك بين الدولتين اكثر من قرن ونصف قرن ، ولم تكن هناك وحدة هدف او وحدة مصالح بين الدولتين ، وقد ظلت تلك العداوة العامل المؤثر فى السياسة

الاوروبية طوال هذه الفترة .

ويتضح مما سبق ان الحروب الايطالية لم تكن معارك حربية بقدر ماكانت معارك دبلوماسية تمثلت فى سعى المعسكرين المتحاربين سعيا حثيثا لتكوين محالفات سياسية واحلاف عسكرية . وقد نشطت الدبلوماسية الاوروبية نشاطا واسعا امتد الى الدول والدويلات التى انزلقت الى ميادين الصراع الحربى او تلك التى التزمت الحيدة فى بعض مراحل الحروب . واذا كانت الحروب الايطالية تمثل مرحلة هامة فى فن الخطط الحربية (التكتيك الحربى) مثل تطوير استخدام سلاح المشاة وسلاح المدفعية فانها تمثل بدرجة اكبر الدبلوماسية الاوروبية فى القرن السادس عشر وما اقترنت به من ارساء مبادىء فى بعض الاحيان وتقاليد فى احيان اخرى، وعلى سبيل المثال نذكر من المبادىء التوازن الدولى ، ومن التقليد ،عقد الزيجات السياسية بين اعضاء الأسرات الحاكمة فى الدول الاوروبية كوسيلة للتقريب بين دولتين اوغلتا فى الخصومة .

الفصل الخامس

حركة الاصلاح الدينى

The Reformation

بعد سنتين من موقعة مارينانو Marignano سنة ١٥١٥ ظهرت فى المانيا حركة كان لها فى اوروبا نتائج اكثر من النتائج التى خلفتها الحروب الايطالية ، ففى سنة ١٥١٧ بدأ الصراع بين مارتن لوثر ضد مزاعم البابوية وقوة الكنيسة الكاثوليكية . على انه تجدر الاشارة هنا الى ان حركة الاصلاح الدينى لم تحدث فى اوروبا فجأة ، اذ تعرضت الكنيسة الكاثوليكية منذ نشأتها الاولى الى اخطار متعددة . لقد تمثل الخطر الاول الذى تعرضت له الكنيسة فى عصورها الاولى فى شكل الجدل الذى اثير حول طبيعة المسيح ، وانتشار الاسلام وسقوط القسطنطينية فى ايدى العثمانيين . ولكن لم تضعف هذه الاخطار الكنيسة بل كانت من عوامل تماسكها وقوتها حتى تتمكن من مواجهة الضغط الموجه ضدها من الخارج

وفى القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين وجهت ضربات عنيفة للكثير من النظم التى سادت فى العصور الوسطى . فالامبراطورية البيزنطية التى احتلت المكان الاول فى العصور الوسطى حتى منتصف القرن الحادى عشر فى النواحى السياسية والاقتصادية والفكرية قد اخذت فى الضعف والانحلال الى ان انهارت كلية امام غزوات العثمانيين التى انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ . أما البابوية التى ظلت آمدا طويلا فى العصور الوسطى ولها المنزلة الاولى فى شتى نواحى الحياة دينيا ودنيويا ، وبلغت منتهى قوتها فى عهد البابا جريجورى السابع Gregory VII ثم البابا اينوسنت الثالث Inocent III الذى قال "انه لا اخلا لانسان فى العالم مالم يخضع

للبابا فاسا قيصروالامبراطورالحقيقى صاحب السيادة على جميع امراء الارض " قد اصابتها فى هذه الفترة الاخيرة الكثير من التغيير ، حقيقة انها لم تسقط وتطوىصفحتها مثلما كان الحال مع الامبراطورية البيزنطية ، اذ ان بقاؤهاقد دام الىزماننا هذا ، الا ان سلطانها قد ضعف ضعفا كبيرا عما كان عليه من قبل ولم يصبح لها من السيادة الكنسية ماكان لها من قبل .

عندما انتقل البابا من روما الى مدينة افينيون Avignion بجنوب فرنسا اثناء صراع البابوية مع الامبراطور، اصبحت البابوية بالتالىتحت نفوذ ملوك فرنساواستمر الامر بهذا الشكل من عام١٣٠٥الى عام ١٣٧٨ وسميت هذه الفترة باسم مدة الاسر البابلى Bebylonic Captivity وقد عرضها هذا الوضع الجديد لكثير من الانتقادات وبالتالى لاضعاف شأنها ونفوذها ، ولم يقتصر الامر على ذلك بل جاء ما يعرف باسم The Great Schism (أى الانشقاق الدينى الكبير) ، وقداستمر منعام ١٣٧٨ حتى عام ١٤٤٧حيث وجد بابا فى افينيون وآخر فى روما ،وانقسم العالم الكاثوليكى الى معسكرين متنازعين الامر الذى ادى الى قيام حركة المجالسالدينية الكبرى Conciliar Movement - وهذه حركةهامة اشترك فىالقيام بها جماعة من المخلصين من رجال الكنيسة الكاثوليكية لاصلاح حال الكنيسة الغربية . ولكنها باءت بالفشل فىعدد من الامور التى قامت تلك الحركة من اجلمعالجتها .واثناء ذلك وجهت الانتقادات للبابوية كما قامت عدة جماعات من المسيحيين الغربيين بالخروج علىسلطانها ونبذ مبادئها الى ان جاء القرن السادس عشر الميلادى وقامت الثورة البروتستانتية التىتسببت فى خروج نسبة كبرى من

سكان اوروبا الكاثوليك على سلطان البابوية وتأسيس كنائس مستقلة عنها وضياع سلطان البابوية نهائيا فى اجزاء كبيرة من اوروبا.

لقد انكمشت البابوية الى مجرد امارة ايطالية ذات مصالح محدودة ومحلية. فاعتبر البابوات انفسهم فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر امراء لروما والولايات البابوية فقط، بعد ان كانت لهم مكانة عالمية. وبذلك لا يكون من المغالاة فى شئ ان نقول بأن فشل حركة المجالس فى تحقيق الاصلاح الكنسى قد عجل بقيام الثورة البروتستانتية فى القرن السادس عشر.

وفى الفترة التالية ، اى منذ اعتلاء نيقولا الخامس كرسى البابوية عام ١١٤٧ الى وقت قيام حركة الاصلاح الدينى بزعامة مارتن لوثر اشتدت المطالبة بالاصلاح. وقد اتجهت تلك المطالبة تحاول اصلاح الرأس والاعضاء، اى البابا ورجال الكنيسة لأن فضيحة الانشقاق الدينى الكبير كانت أمرا لا يحتمل ، ولأن الناس ضجوا من ضخامة الايرادات التى يتمتع بها رجال الكنيسة ، ومن جسامة الاموال التى كانت تؤخذ منهم لتنتقل بعد ذلك الى جيوب رجال الدين. ولقد كانت البابوات فى المدة مابين ١٤٤٧ و ١٥١٨ اى الى الوقت الذى قامت فيه حركة الاصلاح مسئولين الى حد كبير عن اثارة تلك الحركة فى غرب اوروبا ، ولا نعنى بذلك ان البابوات جميعا فى هذه الفترة كانوا منغمسين فى الرذيلة ، اذ من الثابت ان من بين عشر بابوات اعتلوا كرسى البابوية فيما بين عامى ١٤٤٧ و ١٥١٢ كان ثمة اثنان منهم فقط هما اسكندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣) ويوليوس الثانى (١٥٠٣-١٥١٥) يعتبران بحق مسئولين عن معظم الضرر الذى لحق بمركز البابوية قبل قيام حركة الاصلاح الدينى مباشرة ، ولو ان جميع البابوات قد آثروا مصلحة الاسرة

الاسرة التي ينتمي اليها كل منهم على مصلحة الكنيسة . ومما اثار غضب الناس من البابوية وجعلهم ينقدونها بشدة هو ان البابوية فقدت تلك الصفة العالمية التي كانت لها من قديم الزمن في العالم المسيحي

وقد لاحظنا اثناء عرضنا للحروب الايطالية مدى تدخل البابوات في الشئون السياسية ، مما ترتب عليه وجود احزات متضاربة أساءت الى العلاقات بين الولايات الايطالية المختلفة . فتدخل الكنيسة في الشئون السياسية قد اضر بمصالح ايطاليا وكذلك الحال بالنسبة لالمانيا . ولقد دفع عنصر النهضة الناس الى التحرر والنقد وطبقوا ذلك ايضا على الدين فناقشوا اقوال الكنيسة وتصرفاتها ،وظهر ذلك في المانيا بصفة خاصة لاسباب متعددة .

تبلورت مفاسد الكنيسة في المانيا في اتجاهها الديني والاقتصادي فاحتدمت فيها فكرة الاصلاح الديني ،ومن خلال هذه الظروف الخاصة بالمانيا ،بدت الكنيسة بتعاليمها طغيانا مثيرا ، يشل نمو الحياة والفردية ، وقد تهيأت المانيا اذ ذاك بعوامل خاصة مكنتها من التعبير عن الاتجاه الاصلاحي الديني ، حتى انتقل على يديها من مجرد الفكرة الى صورة الحركة الثائرة البناءة ، التي تجد في فرض الاصلاح الديني والاقتصادي على الكنيسة ،وتمكن المجتمع من التوازن في مجرى تقدمه الحضاري .وكانت المانيا في تكوينها السياسي ، محرومة من الحكم المركزي القوى اى من السلطة التي تحميها ضد طغيان الكنيسة واستغلال الدين من اجل الاقتصاد ،بينما كان غيرها من دول غرب اوروبا ينعم بالتقدم الاقتصادي ويتمتع بالحكم المركزي الذي قطع شوطا كبيرا في الحد من سلطات الكنيسة فيه . فبتطور الدولة ووجود الحكومة المركزية بدأ الانفصال

بينهما وكان يرجع ذلك الى قدرة الحكام على اخضاع الكنيسة لهم وبدأ ذلك قبل ظهور مارتن لوثر مثلا فى وجود الكنائس الوطنية فى انجلترا واسبانيا مثلا .

أما المانيا فقد كانت مرتعا لخرافات ولسلطات رجال الدين الاقتصادية ،ولم يكن ثمة ما يحول دون ايقاف ادعاءاتهم ،وقد زادت سيئاتهم حدة فى نظر الناس عندما اخذت حياتهم الاقتصادية فى الانحطاط سيما بعد ارتفاع الاسعار فى القرن السادس عشر ،كنتيجة لتدفق عنصرى الذهب والفضة المستوردين من الخارج نتيجة للتوسع الاوروبى وللكشوف الجغرافية ،فى وقت حرمت فيه المانيا من السلطة المركزية التى تحول دون تمادى رجال الدين ،فى فرض الضرائب ،والاستغلال المالى ،وناءت فيه كواهل المانيا بعبء التدهور الاقتصادى .

حقيقة كان ثمة لون من الوعى القومى المحدود ،ممثل فيما كان للحكام اذ ذاك من سلطات ،فى المقاطعات والمدن الحرة ،اذ كانت لها نفس السلطات التى كان يمارسها الملوك الوطنيون ،ولكنها لم تكن من القوة بشكل يوقف هذا التيار الغاضب من الكنيسة ، ولا كانت من القدرة حتى تحول دون اتخاذ الخرافات الدينية والاستغلال الاقتصادى . لذلك كان انعدام الحكم المركزى فى المانيا ،من الاسباب الرئيسية التى مهدت لقيام الثورة ضد الكنيسة الكاثوليكية لحاجة المانيا لمن يحول دون فساد وادعاءات هذه الكنيسة كما كان للملكيات الناشئة مثلا .

وبينما كانت الكنيسة تتمتع بالثراء وتنقل ايراداتها الى ايطاليا لعبث رجال الدين ،كانت المانيا تعانى من هذا الاضطراب الاقتصادى الكبير الذى نجم عن انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية ،من الشمال الغربى لأوروبا الى غربها . فمنذ ان بدأت تلك السلسلة تنتقل تدريجيا

الى اوروبا الغربية كانت الطبقة المتوسطة التى سلبت منها ثروتها عند بداية هذا الانتقال ،تواجه مشكلة خطيرة هى مشكلة التوفيق بين فقرها الناجم من انتقال مراكز الثروة الى الغرب ،وبين املها فى استعادة المركز الاجتماعى المحترم الذى كان لها فى العصور الوسطى عندما كانت المانيا واوروبا الوسطى لا تزال غنية عموما ،لذلك شمل التذمر هذه الطبقة ،من الاوضاع الجديدة ،هذا فضلا عن ان الفقر الذى اصاب الطبقة المتوسطة ،لم يلبث ان ادرك ايضا طبقة الفرسان فى المانيا التى كانت تتألف اذ ذاك من المقاتلين والمحاربين فى العصور الوسطى وعندما تفككت المانيا فى بداية العصور الحديثة الى امارات محلية تحت سيطرة الامراء فقد الفرسان اهميتهم القديمة ،ونزلت مرتبتهم الى مجرد مقاتلين يعتمدون فى عيشهم على النهب والسلب ، وبذلك امتلأت نفوس الفرسان ايضا بالتذمر ٠ اما عن الامراء فكثرت مطالبهم المالية لسد نفقات الادارة وغيرها فى اماراتهم، وقد اشتد تذمرهم عندما وجدوا ان اغلب موارد الارض فى اماراتهم قد اصبحت فى يد كنيسة اجنبية عنهم كانت تحرم الناس من خيرات بلادهم٠ واما طبقة الفلاحين فى المانيا فلم تكن اقل فى تذمرها عن تذمر هذه الطبقات عندما وقع على كاهلهم عبء المطالب المالية بأجمعها لسد حاجات الامراء والفرسان والطبقة المتوسطة ٠ لقد كانت الكنيسة تمتلك ثلث مساحة الارض فى المانيا وجعل ذلك لها سلطانا كبيرا فى تلك البلاد ٠

وكان البحث فى المانيا عن اقناع دينى للاجابة عن سؤال هام وهو : How can I be saved (كيف يمكن ان أنقذ) أقوى فى المانيا عنه فى اى مكان آخر ،ولقد وجد ذلك تعبيرا فى شكل النقد

الخطير للكنيسة ورجالها لفشلهم فى تحقيق هذا الاقتناع. كما أستاءت مجموعة كبيرة من العلمانيين المتعلمين من القيود التى فرضتها عليهم، ولقد بدأ الناس يشعرون بأن المساوئ المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت اذ ذاك على جانب كبير من الخطورة. ولقد استطاع الرجل العلمانى ان يقرأ لنفسه بعد ان اصبح فى مقدوره أن يتعلم الاغريقية بل العبرية ايضا، وبذلك تسنى له ان ينفذ من وراء اللغة اللاتينية وهى اللغة الرسمية للاكليروس الرومانى الى اللغتين الاصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس. ومن هنا لم يكن هناك بد من ان تظهر فكرة ان العلمانى المفاضل يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهان.

لهذا فقد اتجه النشاط الالمانى الى مقاومة التدخل الاجنبى فى صورة البابا، ومحاولة ابعاده او القضاء عليه فظهرت حركة الاصلاح الدينى كأحسن تعبير عن روح المقاومة الالمانية لنفوذ الكنيسة الدخيل. ولم تكن حركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر فى المانيا هى اولى الحركات التى قامت لاصلاح الكنيسة الكاثوليكية. فلقد دفعت اوضاع الكنيسة قبل ذلك عددا من المسيحيين الاتقياء لاتباع حياة من التقشف والزهد سعيا وراء حياة خيرة، وأخذ آخرون فى المجاهرة بانتقاد البابوية. وفاقت كلا من هاتين الجماعتين جماعة ثالثة تشككت فى سلطة البابوية وبعض المبادئ التى فرضتها الكنيسة وانتهى بها الامر بالخروج من الكنيسة والتحول الى جماعات هرطقية بالنسبة لوجهة نظر الكنيسة وذلك مثلما حدث فى حالتى جون ويكلف John Wycliffe وجون هس John Huss. والواقع انه اذا كانت

الاحوال السياسية والاقتصادية فى اوربا اكثر ملاءمة لكان من المحتمل

جدا أن يكون Wycliffe أو Huss البوهيمى مؤسسا الثورة البروتستانتية (Protestant Revolt) بدلا من مارتن لوثر ولكن الاحوال الاوروبية لم تكن ملائمة بعد، كما ان المصلحين السالفى الذكر كان فى آرائهما تطرف وبعد عن المبادىء الكنسية المعترف بها بين كاثوليك عصرهما. ثم ان ثورة لوثر التى كانت فى بادىء أمرها ذات طابع محافظ قد صادفت نجاحا فى القرن السادس عشر الميلادى أى فى ذلك الجو الذى انتشر فيه عدم الرضا عن البابوية والكنيسة بسبب انغماسهما فى المتع الدنيوية، وبسبب انتشار المفاسد بين رجالهما، أما آراء ويكلف وهس فكانت منذ بادىء أمرها تعد متطرفة بالنسبة لمجتمع القرن الرابع عشر الذى عاشا فيه، ذلك المجتمع الذى كان لا زال يرجو اجراء اصلاحات من داخل الكنيسة على ايدى المشتركين فى المجالس الدينية العامة. وعلى كل حال فقد كانت لآرائهما آثارها فى تكوين آراء المصلحين الذين جاءوا من بعدهما امثال مارتن لوثر وكلفن Calvin . وهكذا انمت الثورة البروتستانتية فى تربة ممهدة مهدها تعاليم وآراء المهرطقين الذين جاءوا فى القرن الرابع عشر الميلادى.

جون ويكلف John Wycliffe (١٣٣٠-١٣٨٤): كان ويكلف استاذا فى جامعة اكسفورد واحد كبار المشتغلين بعلم اللاهوت وقبل ان يصبح هرطقيا اشتهر امره بانجلترا، وكان يعد احد كبار العلماء والوعاظ فيها. ومن الممكن ان نحدد المراحل المختلفة لتطور آرائه المتطرفة فى علم اللاهوت حتى عام ١٣٧٤. كان موقف ويكلف لا غبار عليه بالنسبة للكنيسة، وكان يشغل منصب استاذ علم اللاهوت فى جامعة اكسفورد، وكان اول دافع دعاه لمعارضة البابوية أمرا سياسيا فى

طابعه _ فلقد عارض الانجليز بشدة ميول باباوات افينيون للملكية الفرنسية التى كانت على عداء مع انجلترا فى ذلك الوقت (كانت مشتركة معها فى حرب المائة عام) وصدر المرسومان Staturtes المشهوران وهما مرسوم برايمونير Prasmunire ومرسوم بروفيزوز Provisors وقد صدرا فى اواخر القرن الرابع عشر، وحرم بمقتضاها على البابوية حق تعيين رجال الكنيسة الانجليزية ،كما حرم على اولئك الالتجاء للبابوية للبت فى القضايا والمنازعات كما جرت عليه العادة من قبل .ومنذ بداية حرب المائة عام، امتنعت انجلترا عن دفع مبلغ السبعمائة مارك التى كانت انجلترا تدفعها للبابوية كجزية سنوية منذان اعترف الملك يوحنا بالبابا انوسنت الثالث Inocent III كسيد اقطاعى له. وفى عام ١٣٧٤ وقع الاختيار على ويكلف ليكون احد سفراء الانجليز فى الاجتماع الذى عقد مع ممثلى الحكومة الفرنسية والبابوية للمفاوضة وعقد الصلح بين انجلترا وفرنسا ، وعند عودته من هذه البعثة اصدر أول مؤلفاته التى جعلته هرطيقا بالنسبة للكنيسة وفى هذا المؤلف يقول ويكلف فى نص مشهور عنه" ان حق الملكية الانجلزية فى حكم البلاد يرجع لحق الغزو وان ذلك لم يكن فى اصله منحة من البابوية وان البابوية بعد ان اثبتت فشلها فى الدفاع عن تابعها الاقطاعى ضد اعدائه (الفرنسيين) قد اخلت بالعقد الاقطاعى القائم بينهم. واتهمها ويكلف بأنها عاونت ذلك العدو ضد ملك انجلترا _ وقال بأن البابوية قد اصبحت تدين بالتبعية الاقطاعية لملك فرنسا عن الاراضى التى كانت تملكها فى انجلترا _ كما قال بأن البابا انوسنت الثالث عندما تسلم انجلترا من الملك يوحنا كان بهذا العمل يعتبر كشخص مرتش ،وان عمل

يوحنا لم يكن قانونيا ، اذ لم يكن له الحق فى تسليم البلاد على هذا الشكل بدون موافقة نبلاء البلاد.

واختتم كتابه بقوله "انه لايمكن القول بأن يكون دفع انجلترا مبلغ ٧٠٠ مارك للبابوية عن جرية سنوية ذلك ان هذا المبلغ لايتناسب ابدا لكى يكون جزية سنوية عن بلاد عظيمة كانجلترا. وقال بأن هذه كانت فى اصلها مجرد هبة من انجلترا للبابوية .وصادفت هذه الآراء رواجا كبيرا بين الانجليز الذين كان شعورهم ثائرا ضد الملكية الفرنسية وبالتالى البابوية فى افينيون التى كانت تتعرض من وقت لآخر لنفوذ هذه الملكية ، وهكذا اصبح ويكلف بطلا للقضية القومية.

كانت هذه الآراء التى جاء بها ويكلف تعتبر هرطقة ثابتة بالنسبة للكنيسة الانجليزية القائمة ولقد امر رئيس اساقفة كانتربرى Canterbury بأن يودع ويكلف السجن الى ان تدرس حالته امام البلاط البابوى. وقد درست كلية اللاهوت فى جامعة اكسفورد كتاباته وقررت صحة آرائه وان كان قد خانه التعبير عنها. ويبدو أن مهاجمة البابوية والكنيسة لآرائه قد دفعته الى التطرف فى آرائه وقال بأن الاصل فى الكنيسة هو عبارة عن هيئة من المؤمنين الاتقياء عامة وليس فقط رجال الكنيسة. وذهب الى ابعد من هذا فقال بأنه لا البابا ولا القس يمتلك ان يصدر قرار الحرمان وأن الاله وحده هو الذى يمتلك سلطة الحرمان . كما قال بأن سلطة الغفران ترجع للاله فقط وانه لايمكن لأى رجل من رجال الكنيسة ان يدعى انه يستطيع ان يغفر الخطايا كما انكر شرعية الاعتراف وسبق مارتن لوثر فى القول بأن التوبة الحقيقية فى قلب المؤمن المخطىء تكفى بأن يغفر الله له الذنوب" ، وانه لا يلزم لتحقيق ذلك أن يلجأ المخطىء لرجل الكنيسة

ويعترف له .

ان الكثير من هذه الآراء تتفق معما هومعترف به في المبادىء البروتستانتية فى عصرنا هذا ،لكنها فى القرن الرابع عشر كانت تعتبر متطرفة للغاية . وعلى كل فقد صادفت آراء ويكلف قبولا عظيما بين الكثيرين ونظمت جماعة من تلاميذ ويكلف عرفوا باسم The poor Priests واشتهروا باسم اللولارديين Lollards أى المملحين الانجليز وانتشروا فى انجلترا داعين الى اعتناق آرائه ومبادئه - ولقد حاكم رئيس اساقفة كانتربرى ويكلف فى عام ١٣٨٢، وأعلن بعض آرائه كهرطقة والبعض الآخر غير صحيح . ولقد ابدى ويكلف فى آخر ايام حياته استعداده للذهاب الى روما استجابة الى امر بابوى بارساله الى روما لمحاكمته هناك ،ولكنه لم يستطع القيام بذلك بسبب الشلل الذى نزل به وتوفى اخيرا فى عام ١٣٨٤ وبعد موته تعرضت مؤلفاته للمحاكمة وأمر باحراقها فى بداية القرن الخامس عشر .

جون هس John Huss (١٣٧٢-١٤١٥) واذا كانت حركة ويكلف قد قضى عليها فى انجلترا الا ان مبادئها قد انتقلت من القارة الاوربية الى بوهيميا ،حيث اصبحت اساسا لتعاليم هس . ووجدت فى بوهيميا فى الجزء المتأخر من القرن الرابع عشر حركة رد فعل تشيكية ،نتيجة لاعتداءات وتصرفات رجال الكنيسة والتجار ورجال السياسة من الجرمان الذين جاءوا الى البلاد مع حكم الاسرة اللكسمبرجية . وقد امتزجت تعاليم هس مع الشعور القومى التشيكى، ولذا فقد صادف هذا الرجل نجاحا كبيرا هناك وربما كان من المعقول بادىء الامر فهم الاسباب التى ادت الى انتشار الهرطقة الانجليزية فى بوهيميا دون فرنسا او المانيا ولكن لتعليل ذلك نذكر ان Ann of Bohemia وهى اميرة

من البيت الملكى فى بوهيمياقد تزوجت من ريتشارد الثانى Richard II ملك انجلترا ،واخذت معها الى انجلترا جماعة من القساوسة البوهيميين. وبعد موتها عادت هذه الجماعة الى بوهيميا واحضرت معها مؤلفات وآراء جون ويكلف .

وقد اهتم اساتذة جامعة براغ Prague بهذه التعاليم والآراء ومن هؤلاء الاساتذة كان جون هس استاذ الفلسفة فى هذه الجامعة وكان واعظا محبوبا ،وقد تركت كتابات ويكلف اثرا قويا فى نفس هس الذى ترجم الكثير من آراء المصلح الانجليزى ويكلف الى اللغة التشيكية . ولقد أمر البابا فى عام ١٤٠١ بجمع كل كتابات ويكلف التى وجدت فى بوهيميا وامر كذلك باحراقها واعترض هس .فأصدر البابا ضده قرار الحرمان. لكن هس اصر على موقفه وواصل نشر تعاليمه ،ولما حاول رئيس الاساقفة فى بوهيميا قمع حركة هس لم يصادف فى ذلك نجاحا وذلك بفضل مساعدة ملك بوهيميا .

وفى عام ١٤١٢ تطور امر هس عندما اصدر البابا يوحنا الثالث والعشرين صكوك الغفران Indulgences لبيعها ، وذلك لكى يجمع الاموال للصرف منها على حروبه ضد نابولى، ولكن هس وان لم يعترض على نظرية صكوك الغفران مثلما فعل مارتن لوثر فى القرن السادس عشر الا انه ندد بالصكوك التى تصدر لغرض كهذا واعترض على استعمالها فى هذا الشأن . وقد كتب كتابا عن الكنيسة ضمنه معظم مبادئه وآرائه وبشكل عام كانت تماثل آراء ومبادئ ويكلف فيما يختص بعدم شرعية الطقوس الدينية التى كان يباشرها رجال الكنيسة . كما قال "بأنه لا يجوز ان يكون للبابوات اى قوة دنيوية ويجب ألا يتدخلوا فى السياسة والايشنوا الحروب". وقد جاء هس بآراء خاصة حيث قال:

" ان الكنيسة لا تتكون من رجال الدين بل من كل من يختارهم الله لانقاذ ارواح البشر من احياء واموات". كما ادخل هس في الكنيسة مبدأ القضاء والقدر ذلك المبدأ الذى قد أدانته الكنيسة كهرطقة في القرن التاسع الميلادى والمبدأ الذى اعترف به كلفن في القرن السادس عشر.

على ان خصوم هس وجهوا اليه تهمة الهرطقة (الزندقة) وعقد مجلس كنسى خاص هو مجلس كونستانس Council of Constance من ١٤١٤ الى ١٤١٥ في مدينة كونستانس وقد شمل جدول اعماله ثلاثة امور رئيسية وهى القضاء على الانقسام الدينى والاصلاح الكنيسى والقضاء على الحركات الهرطقية المنتشرة اذ ذاك. ولقد حاكم هذا المجلس جون هس وأمر باعدامه. كما امر المجلس باحراق كل كتبه وسلمه الى امير مدينة كونستانس الذى نفذ فيه حكم الاعدام في عام ١٤١٥.

وجاء دور مصلحين آخرين في النصف الثانى من القرن الخامس عشر، فسلطوا الاضواء على مخازنى الكنيسة وفضائحها وابرزوها للرأى العام. وكان اشهر المهاجمين للكنيسة عنفا الراهب سافونا رولا (١٤٥٢ -١٤٩٨) وقد سبق ان اشرنا اليه من قبل. وقد كتب هذا المصلح الدينى يقول ان الفساد يبدأ في روما ثم يمتد ليشمل رجال الدين على بكرة ابيهم، ويمضى يصف في اسهاب الانحراف الخلقى الذى تردى فيه افراد هذه الطبقة ويذهب في هجومه على البابوية الى اتهام البابا اسكندر السادس بأنه غير مسيحى وانه ملحد لا يؤمن بوجود الله.

وهكذا فقدت الكنيسة المكانة العالية التي كانت قد تبوأتها واهتز الاساس الروحى والاخلاقى الذى اقامت عليه نفوذها بل جبروتها في العصور الوسطى، وبات المسيحيون في دول غرب اوروبا يتحدثون عن ضرورة اصلاح الكنيسة والقضاء على الانحرافات الخطيرة التى ظهرت بين

رجالها وتطوير نظمها وتنظيم علاقاتها مع ارجاء العالم المسيحى .

وكان هناك اتجاهان لاصلاح الكنيسة : الاتجاه الاول هو ان يقوم رجال الكنيسة انفسهم باصلاح الكنيسة من المفاسد التى لوثتها . ويسمى هذا الاتجاه الاصلاح من الداخل .وكان قوام هذا الاتجاه عقد المجامع الكنسية تباعا وفى فترات متقاربة نوعا ما ،ويطلق عليها " حركة المجامع الكنسية " ولكن فشلت هذه الوسيلة ، وكان على رأس المطالبين باصلاح الكنيسة دون الخروج عليها او الانفصال عنها ديريديريوس ارزمس Desiderius Erasmus (١٤٦٧ - ١٥٣٦) زعيم الدراسات الانسانية بلا منازع . شن حملة عنيفة على مفاسد الكنيسة الكاثوليكية وكان هذا الرجل عالما وداعية رصاحب رسالة يهتم اهتماما زائدا بالسلوك الاخلاقى لدى الفرد قبل اهتمامه بأية صفة اخرى قد تضفى عليه ثراء أو جاها . ولم يكن فى اوروبا عالم يدانيه فى قوة تأثيره على افراد جيله . وقد اوتى موهبة فى استخدام الاسلوب التهكمى فى كتاباته التى وضعها فى لغة لاتينية سهلة ،وسخر موهبته هذه فى الحديث عن فضائح ومعايب رجال الدين وجعلهم موضوعا للتهكم والسخرية والاحتقار والتسلية وكان لكتاباته سلطانا استهوى الشدة معاصريه ،وكان ارزمس معاصرا لمارتن لوثر وسار معه فى نفس الاتجاه الاصلاحى، ولكن سرعان ما افترقا بعضهما عن بعض : قاد لوثر حركته الدينية وانتهى بالخروج على كنيسة روما ، بينما ظل ارزمس على ولائه لهذه الكنيسة معتقدا انه فى الامكان اصلاح نظمها وقوانينها ورجالها وألا يفرض عليها الاصلاح من خارج الكنيسة بل يجئ اليها من داخلها اى من رجال الدين انفسهم ،ولم يدر بخلد ارزمس ان يخرج على الكنيسة .ولكن كتاباته اساءت الى الكنيسة لانها كشفت عن نواحى الضعف بل التدهور الذى اصاب رجالها ،وجعل الدعوة الى

الاصلاح والتغيير تجد استجابة سريعة من الرأى العام الاوروبى .

اما الاتجاه الثانى فهو ان يفرض الاصلاح على الكنيسة فرضا على ايدى رجال من خارجها ويسمى هذا الاتجاه الاصلاح من الخارج. وكان على رأس الداعين الى الاخذ بهذا الاتجاه مارتن لوثر فى المانيا وزونجلى فى زيورخ بسويسرا وكلفن فى فرنسا ثم فى جنيف بسويسرا .

وهكذا رأينا انه قد تضافرت عدة عوامل على قيام وانتشار حركة مارتن مثل تدهور الكنيسة الكاثوليكية فى روما ، وروح النقد والتحرر من القيود التى فرضتها الكنيسة على حرية البحث والتفكير ، وموقف حكام المانيا فى الوحدات السياسية العديدة ، وهو موقف املته رغبتهم فى التخلص من سيطرة كنيسة روما وتدخل البابا من ناحية ، وتطلعهم الى الاستئثار بأموال الكنيسة وممتلكاتها الشاسعة من ناحية ثانية ، وصكوك الغفران. وكانت هذه الصكوك هى السبب المباشر فى قيام الحركة الدينية التى حمل لواءها مارتن لوثر وتطورت تطورا سريعا الى حركة دينية ثورية .

مارتن لوثر وحركة الاصلاح البروتستنتى (١٤٨٣ - ١٥٤٦) :

ولد مارتن لوثر فى العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ فى آيزليبن Eisleben وهى بلدة صغيرة فى مقاطعة سكسونيا بالمانيا وكان والداه فقيرين يشتغلان بفلاحة الارض وقضى طفولته وصباه فى حياة تزاحمت فيها عليه اسباب التعاسة والفقر والبؤس ، ولكن اتيح له حين بلغ اشده ان يلتحق بجامعة ارفورت Erfurt حيث درس القانون. وكانت هذه الجامعة قد ادخلت فى مناهجها الدراسات الانسانية القديمة كما نظمت فى رحابها دراسات دينية متعمقة . وظل لوثر فى هذه الجامعة اربع سنوات وحصل على درجته الجامعية ، ثم بدا له ان يغير طريقه

فجأة ، فدخل فى يونيو عام ١٥٠٥ ديرا يتبع طائفة القديس اوغسطين، واصبح راهبا ينتمى الى هذه الطائفة الدينية ،وكان عمره اذ ذاك اثنين وعشرين عاما ، وتوفر على العبادة من صوم وصلاة ،وأخذ نفسه بأسباب الزهد والتقشف وتعذيب النفس ابتغاء التخلص من خطاياه والظفر برحمة الله وعكف على دراسة الكتب المقدسة دراسة مستفيضة ،وكذلك كتابات القديسين اوغسطين وبرنار.وفى عام ١٥٠٨ تسلطت على نفسه رغبة جامحة فى الالتحاق بجامعة وتنبرج Wittenberg ليستكمل دراساته فى اللاهوت ، وكانت مشاعره الدينية والقومية هى التى اوحت اليه بالاتجاه الى هذه الجامعة : فقد كانت تحت اشراف الطائفة الدينية التى ينتمى اليها وهى طائفة القديس اوجسطين.وكان فردريك ناخب سكسونيا هو الذى أنشأ هذه الجامعة عام ١٥٠٢، وكانت وقتذاك احدث واصغر جامعة فى المانيا ثم هى جامعة نشأت فى المدينة التى ينتمى اليها لوثر.
ولكن واجهت هذه الجامعة صعوبة بعد انشائها من قلة عدد طلابها ،فان المدينة التى قامت الجامعة فى رحابها كانت مدينة صغيرة لايتجاوز تعدادها ثلاثة آلاف نسمة ،و لا يستطيع هذا العدد الصغير من السكان أن يمد الجامعة بأعداد كافية من الطلاب ، وقد بلغ عدد طلابها فى احدى السنوات ستة وخمسين طالبا ،ومع ذلك فقد كانت الاقدار تدخر لمدينة وتنبرج وجامعتها مستقبلا زاهرا. اما المدينة فقد قامت بدور قيادى لاحدى حركات الاصلاح الدينى فى العالم. وقد اصبحت جامعة وتنبرج مركز الاشعاع الفكرى فى المانيا للتعاليم اللوثرية ،والمعهد العلمى الاول لهذه الدراسات فى اعلى مستوياتها. وكانت الحركة اللوثرية قد جاءت بمبادىء مستقاة من الانجيل رأسا ونبذت الخرافات والتقاليد التى درجت عليها الكنيسة فى روما عصورا وادهارا.ومما هو جدير

بالذكر ان بعض اعضاءهيئة التدريس فى جامعة كمبردج فىانجلترا قد استهوتهم تلك الآراء والمبادىء والتعاليم التى تجد لها سندا فى نصوص الانجيل. وكان دورهؤلاء الاساتذة من العوامل المساعدة التى ادت الىتحول انجلترا الىالمذهب البروتستنتى .

وأتيحت لمارتن لوثر فرصةزيارة مدينةروما حين اوفد فى عام ١٥١١ فىمهمةرسمية ممثلالطائفة القديس اوغسطين. وعين رئيساللمنطقة ديرية تضم احدعشر ديرا من الاديرة التابعةلهذه الطائفة . وفى اثناء مهمتهفى روما تبرك بزيارة كل الاماكن المقدسة فيها. ولكن هاله انهيار المعايير الاخلاقية لدى رجال الدين ومن بينهم البابوات وقد علق عليها رآه فىروما بجملة معبرة فقال : " ان كل منيذهب الى روما يشعر بأنعقيدته الدينية تترنحتحت الضربات التى تصيبه منجراء ما يرىهناك" وعاد لوثرالىوتنبرجوقلبه مفعم بالسخط على رجال الكنيسة . وفىالسنة التالية (١٥١٢) عين استاذا لكرسى اللاهوت فى جامعةوتنبرج،وجعل رسالته الاولىفىالحياة التدريس والوعظ،وقد اصاب فىكلا الميدانين نجاحا رائعا.وقد هداه تفكيره اثناء قيامه بالتدريس الجامعى الى انالانسان ملىء بنوازع الشر،وليس فىمقدورالانسان ان يكون متصلا بالله الا اذا كانقلبهعامرا بالايمان باللهوان الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوبجميعا اذا تاب الانسانالمؤمن اليه،وانه لا خلاص للانسان الا بالايمان برحمة الله. وان الغرض من الصلاة وسائر انواع العبادات ليسالتخلص من الذنوب ، ولكناسداء الحمد والشكر للاله الرحيم. وتعرف هذه العقيدة باسم عقيدة التبرير بالايمان Justification by Faith .وقد اخذ لوثر على الكنيسة انها _ فى احسن حالاتها وافضلها_ تحض الناسعلىالاعمال الصالحة ، ولكنها تهمل ارشادهم الى الايمان الصحيح.

وسنحت الفرصة لاظهار هذه العقيدة بشكل حاسم فى عام ١٥١٧، عندما اخذ الراهب يوحنا تتزل Tetzel ، وهو من اتباع الطائفة الدينية التى تسمى الدومنيكان يبيع صكوك الغفران لحساب البابوات ولحساب بعض الامراء. ولقد امسك تتزل بالصكوك فى يده ولوح بها فى الهواء وقال مخاطبا الفلاحين السذج الذين التفوا حوله انهم اذا ما أسهموا عن طواعية واشتروا صكوك الغفران ،فان كل تلال مدينة انابورج Annaburg - وهى مدينة المانية فى مقاطعة سكسونيا - ستستحيل الى كتلة هائلة من فضة صافية. وبلغت الوقاحة بهذا الراهب مداها حين قال ايضا مخاطبا الجماهير ان الرجل اذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل. واثارت هذه التصريحات مكامن السخط فى نفس مارتن لوثر، فتحرك لمهاجمة صكوك الغفران وانتهز فرصة اجتماع الاهالى على عادتهم فى كنيسة وتنبرج فى ٣١ اكتوبر ١٥١٧، وهو يوم الاحتفال بعيد الشهداء، وعلق على باب الكنيسة احتجاجا ضافيا ،يتضمن خمسة وتسعين بندا ،ضد صكوك الغفران. واذاع أمر هذه الوثيقة وطبعت بمعرفة صديق له ووزعت فى طول البلاد وعرضها. وفى هذه الوثيقة هاجم لوثر الغفران كعملية دينية تمارسها الكنيسة الكاثوليكية فى صورة تتنافى مع المسيحية الحقة. وهاجم الاركان الثلاثة التى قامت عليها الكنيسة وفكرة الغفران وهى التوبة والندم Repeatence والاعتراف بالذنوب Confession وتكفير الذنب Satisfaction وقرر لوثر فى جرأة مثالية ان البابا لايستطيع غفران الذنوب ، وان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يغفر الذنوب جميعا. وفى اثناء المناقشة التى تمت بين لوثر وبين الراهب يوحنا تتزل صرح لوثر بأن الكتاب المقدس

وحده هو المصدر وهو القانون الذى يجب الاعتماد عليه فى تفسير جميع المسائل الدينية . وهكذا لم يطالب لوثر باصلاح نظم الكنيسة ، بل طالب باصلاح العقيدة الكاثوليكية ذاتها ، فكأنه هاجم الكنيسة فى نفوذها ونظمها وشرائها غير المشروع وفى عقيدتها معا . وكان لهجومه على هذه الصكوك صدى بعيد فى نفوس المسيحيين لأن مساوئ رجال الدين كانت قد استشرت وفاحت رائحتها بحيث لم يكن فى استطاعة احد الدفاع عنها دفاعا خالصا بريئا من الاغراض النفعية .

وقد بذلت محاولة لالقاء القبض على لوثر وترحيله الى روما . ولكن اخفقت هذه المحاولة بفضل تدخل فردريك ، ناخب سكسونيا الذى لم يقبل اطلاقا ان يحاكم احد من رعاياه فى روما . ورأى البابا ان يسلك مع لوثر طريق الاقناع . وفعلا ارسل البابا اليه الكاردينال كاجيتان Cajetan وحاول ان يقنعه باخطائه فى مهاجمة الكنيسة ، كما حاول ان يغريه على ان يتعهد بعدم العودة الى ترديد آرائه . واجاب لوثر بأنه على استعداد لتحكيم احدى الجامعات الكبرى فى النزاع الذى شجر بينه وبين البابا . ومضت سنة ١٥١٨ فى محاولات ومفاوضات ومناظرات للتوفيق بين لوثر وبين كنيسة روما ولم تسفر عن نجاح ، واطلق على هذه الحركة اسم "مشادة الرهبان" . وفى السنة التالية ظهر بما لا يدع مجالا للشك إن الإنفصال عن كنيسة روما اصبح امرا لا مفر منه ونظمت مناظرة بين لوثر وبين حنا ايك Ech وهو احد كبار انصار الكنيسة الكاثوليكية واختيرت مدينة ليبزج مقرا للمناظرة وقد اقيمت فى خلال شهر يوليو ١٥١٩ وجرت المناقشة حول نقطتين اساسيتين : رياسة البابا لكنيسة روما ، والمدى الذى تصل اليه سلطات البابا الروحية والمدنية على العالم المسيحى . وصرح لوثر بأن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع

مستحدثة لم تكن معروفة على عهود الرسل الاولين، وقرر ايضا ان المجامع الكنسية وغيرها من المجالس الدينية ليست معصومة من الخطأ .

واتخذ لوثر تباعا عدة خطوات عملية لتنفيذ الاصلاح الديني. فوجه في سنة ١٥١٩ الدعوة الى حكام الولايات الالمانية من الامراء ومن اليهم كي يتزعموا هذه الحركة الاصلاحية . ومعنى هذه الدعوة ان مارتن لوثر قد صحت عزيمته على ارغام الكنيسة على قبول الاصلاح على ايدى اناس من غير رجالها ، اى اصلاح الكنيسة من الخارج، طالما انها لم تستجب للدعوات المكررة باصلاح نفسها بنفسها. وكان عدد كبير من حكام المقاطعات في المانيا معدا من قبل لتأييد هذه الحركة الاصلاحية بل والترحيب بها قلبا وقالبا نظرا للمكاسب السياسية والمادية التي تعود عليهم من ورائها .

وحدد لوثر عدة مبادىء لحركة الاصلاح الديني التي دعا اليها، وكان من بين هذه المبادىء :

اولا : اخضاع رجال الدين للسلطة المدنية

ثانيا: ليس للبابا الحق في احتكار تفسير الانجيل .

ثالثا: اباحة الزواج للقس وقد تزوج لوثر فيما بعد عام ١٥٢٥ باحدى الراهبات واسمها كاترين بورا Bora

رابعا: اباحة الطلاق للمسيحيين .

خامسا: عدم انشاء اديرة جديدة والغاء عدد من الاديرة القائمة، وتحويل نزلائها الى الحياة المدنية ، ثم اعلن الغاء الديرية والرهبنة وكان زواجه تطبيقا عمليا وتدعيما لهذا الالغاء.

وكان المبدأ الاول ذا اهمية قصوى ، فهو احياء الشعور القومي في المانيا ، لان اخضاع رجال الدين للسلطة المدنية يؤدى الى مزيد من النفوذ

السياسى لحكام المقاطعات الالمانية ومزيد من اموال المؤسسات الدينية ـ سواء المؤسسات الكنسية او الديرية ـ فى المانيا يذهب الى خزائن اولئك الحكام ينفقون منها على شئون الحكم والادارة وما الى ذلك بدلا من تحويلها الى كنيسة روما التى اصبحت فى نظر الشعب الالمانى كنيسة اجنبية فقدت طابعها العالمى وتحولت الى كنيسة ايطالية .

ولقد اتخذ لوثر خطوة اخرى اذ اراد ان يحسم الموقف كتابة بدلا من المناظرات فوضع فى عام ١٥٢٠ ثلاث رسائل تسمى" الرسائل الثلاث العظمى فى حركة الاصلاح الدينى" . كانت الرسالة الاولى عبارة عن نداء وجهه باللغة الالمانية الى قادة الفكر من غير رجال الدين فى المانيا حثهم فى هذا النداء على الشروع فى اصلاح الكنيسة بأنفسهم دون الاعتماد على رجال الكنيسة ، وهو ما يعبر عنه بالاصلاح من الخارج . وكان عنوان هذه الرسالة " الى هيئة النبلاء المسيحين من الامة الالمانية بصدد اصلاح العالم المسيحى" . وكانت الرسالة الثانية قد وضعها باللاتينية رسالة غريبة عنوانها "حرية الرجل المسيحى" . ووجه الرسالة الى البابا ليو العاشر على انها نداء للسلام .وكانت الرسالة الثالثة باللغة اللاتينية ايضا وجهها الى رجال الفقه الدينى ،ووضع عنوانا لها "مقدمة عن الاسر البابلى الكنسى " .

وازاء هذا التحدى السافر الذى بدأ من لوثر واصراره على موقفه اصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان Excomunication ضد لوثر

مجلس ورمس Worms(١٥٢١)

طلب البابا الى شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة تنفيذ قرار الحرمان البابوى تأسيسا على ان لوثر يقيم فى اقليم

سكسونيا الداخل فى اراضى هذه الدولة . ورأى الامبراطور ان يعرض الموضوع على المجلس الامبراطورى (الدايت) . فوجه الدعوه لاجتماع المجلس فى مدينة ورمس - وهى مدينة المانية تقع على نهر الراين - ودعا لوثر كى يحضر امام المجلس فى ١٧ ابريل ١٥٢١ ، ومنحه الامبراطور امانا شخصيا يتيح له السفر من مدينة وتنبرج الى مدينة ورمس والاقامة فى المدينة الاخيرة فى اثناء فترة انعقاد المجلس الامبراطورى ، ثم العودة الى بلدته دون ان يلقى القبض عليه او يتعرض له احد بسوء .

واستجاب لوثر لهذه الدعوة ، ومع ذلك فقد اقام حفلا كبيرا فى ميدان احد الاسواق العامة فى مدينة وتنبرج وذلك فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ وأمام الجمع الحافل الذى حضر الحفل احرق لوثر قرار الحرمان البابوى الصادر ضده . كما اعمل النار فى مجلدات عديدة تشمل مجموعات كاملة من المراسيم البابوية والقوانين الكنسية بينما كان الطلبة وسائر الحاضرين يرتلون الاناشيد الدينية شكرا لله . وبهذا الاجراء بلغ التحدى مداه ، وانقلبت حركة لوثر الى حركة قومية تقف فى وجه كنيسة اجنبية هى كنيسة روما ، وسرعان ما اصبح لوثر زعيما وطنيا .

كانت هناك مسائل اخرى غير مسألة لوثر مدرجة فى جدول اعمال المجلس الامبراطورى فى ورمس ، ولكن احتلت مسألة لوثر مكان الصدارة فى اعتبار الجميع ومن جهة اخرى كانت هذه هى اول مرة يحضر فيها الى المانيا شارل الخامس بعد انتخابه وتتويجه امبراطورا للدولة الرومانية المقدسة . وزاد فى حرج موقفه انه لم يكن امامه سبيل للاختيار بين موقفين : اما ان يؤيد حركة دينية اتخذت سريعا الطابع القومى الالمانى ويكون الامبراطور فى هذه الحالة زعيما لثورة المانية قومية ضد كنيسة روما ، واما ان يتصدى لسحق هذه الحركة على اساس انه سليل اسرة

هابسبرج وملك اسبانيا الكاثوليكية وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة والحق ان تقاليد اسرته وتقاليد منصبه الملكى فى اسبانيا ومنصبه الامبراطورى فى المانيا وتربيته المحافظة وعاطفته الدينية كل اولئك لم يترك له مجالا للاختيار، بل ان كل الاعتبارات املت عليه خطة العمل وهى ضرورة القضاء على الحركة باعتبارها هرطقة فى نظره، وتلاقت رغبة الامبراطور فى هذا الصدد مع رغبة معظم اعضاء المجلس .

وكان من حسن حظ لوثر ان الدستور الالمانى كان فى معظم فصوله حبرا على ورق . فقد ظل حكام الوحدات السياسية العديدة فى المانيا يناضلون قرونا متعاقبة من اجل الابقاء على البعثرة السياسية فى المانيا حفاظا على امتيازاتهم واستقلالهم واصبح كل امير حر اتجاه قرارات المجلس الامبراطورى ينفذ ما يروقه منها ويتجاهل ما عداها . وعلى ذلك فان زمام الموقف فيما يختص بلوثر كان فى يد فردريك ناخب سكسونيا، وقد صحت عزيمته على احاطة لوثر بسياج من الحماية فلا تمتد يد بسوء الى شخصه .

كان توجيه الدعوة الى مارتن لوثر للحضور امام المجلس الامبراطورى فى ورمس مثار استياء رجال الدين . وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى انه ليس هناك داع لمسائلته من جديد اوسماع اقواله بعد ان ادانه البابا باصدار قرار الحرمان ضده . اما الامبراطور فكان له رأى آخر هو وجوب اعطاء لوثر فرصة اخيرة لعله يذكر او يخشى . وقد ظهر لوثر امام المجلس الامبراطورى مرتين: وجهت اليه فى المرة الاولى ـ وكانت فى ١٧ ابريل ١٥٢١ ـ عدة اسئلة من بينها : هل الكتب الموضوعة على المنصة من تأليفه ؟ وهي رغب فى التراجع عن الآراء الواردة فيها ؟ وقد طلب لوثر امهاله فرصة للرد على الاسئلة . وفى اليوم التالى اعلن

انه لا يستطيع التراجع عن اي موضوع تعرض له فى كتاباته . ولم يمض وقت طويل حتى اصدر الامبراطور بيانا مؤرخا ١٩ ابريل ١٥٢١ أعلن فيه سخطه على الحركة اللوثرية واتهم لوثر بأنه يبغى ان يزعزع ايمان المسيحيين بدينهم وهو ايمان تمسكوا به منذ اكثر من الف سنة . وفى ٢٦ مايو ١٥٢١ صدر قرار ورمس Elict of Worms بطرد لوثر خارج القانون واهدار دمه باعتباره هرطيقا عنيدا مشاغبا يعرض أمن الدولة الداخلى والخارجى لاخطار فادحة ، كما تضمن قرار ورمس حظر تداول كتب لوثر ومنع قراءة جميع كتاباته .

وتزايدت الاخطار المحدقة بمارتن لوثر بصدور قرار مجلس ورمس ، وعادت الى الاذهان النهاية المفجعة التى انتهت اليها حياة المصلح الدينى التشيكى هس Huss . فلقد اظهر الامبراطور للسلطات المحلية رغبته فى احترام الامان الممنوح لمارتن لوثر طوال الفترة المحدده له والذى له فى ان يبرح آمنا مدينة ورمس ، ولما انقضت مدة الإمان طلب الامبراطور من الامراء حكام المقاطعات الالمانية الا يمتنعوا فحسب عن تقديم أية مساعدة للوثر ، بل طالبهم بالغاء القبض عليه وتسليمه للسلطات الامبراطورية . وفى هذا الوقت العصيب اعطى فردريك ناخب سكسونيا حمايته لمارتن لوثر فأنزله فى قلعة ورتبرج Wartburg وهى قلعة اقيمت فيها تحصينات محكمة . وقد ظل هذا الناخب حتى وفاته فى عام ١٥٢٥ وفيا لمبدئه مقيما على عهده ، وهو عدم التضحية بمارتن لوثر فأضفى عليه حماية جعلته بمنأى من بطش البابوية والامبراطورية معا

وقضى لوثر فى مخبئة ـ قلعة ورتبرج ـ تسعة اشهر فى تفكير عميق ونشاط ذهنى جم ، فقام بترجمة الانجيل كله الى اللغة الالمانية . وأتاحت هذه الترجمة قراءة الكتاب المقدس فى يسر وسهولة لعامة الشعب

الالمانى ، فتذوقوه دينا ولغة وادبا ،وكان لهذه الترجمة اثر كبير فى احياء الادب الالمانى، وجعلت من لوثر احد الرواد الاعلام فى النهوض باللغة الالمانية وأحد واضعى دعائمها. وفى اثناء عزلة لوثر فى قلعة ورتبرج اتصل به فيلسوف المانى متعمق فى الدراسات الاغريقية وهو فيليب ملانكتون Melanctton . توثقت الصلات بينهما حتى اصبح اقرب اخصاء لوثر وقد كان له نعم المساعدة فى وضع فلسفة واضحة للاصلاح اللوثرى ، وقد اطلق عليه لقب اب الكنيسة اللوثرية ولم يكن فى طباعه ذلك العنف الذى عرف عن لوثر .

واذا كانت الظروف السياسية التى احاطت بالمانيا ساعدت على انتشار الحركة اللوثرية فان الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى سادت ارجاء المانيا جعلت الحركة تأخذ من مسارها اتجاهات معينة واوضاعا معينة فيخرج من انصارها طوائف من السكان وتلتحق بها طوائف اخرى. ورأى بعض الالمان فى الحركة اللوثرية الفرصة لتنفيذ آراء خاصة كانوا يؤمنون بها ،ثم جاءت هذه الحركة التحررية الدينية لتشجعهم على المجاهرة بها. ورأى غيرهم - وهم كثرة عددية ساحقة - فى الحركة اللوثرية فرصة مواتية لتحقيق مغانم لهم أو تحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية. ولجأ هؤلاء وأولئك الى العنف وسيلة لتحقيق مطالبهم ،ووقعت مصادمات انقلبت الى ثورات هادرة اريقت فيها الدماء وانزعج لوثر من هذا التطور الذى لحق بحركته ،وكان حريصا على تحريرها من الاغراض الاخرى ، واضطر الى الخروج من مخبئه لكبح جماح الجماهير وكان من اهم حوادث الاضطرابات ثلاث حركات : المطالبون باعادة التعميد، وحركة الفرسان، وثورة الفلاحين .

١ - المطالبون باعادة التعميد .

طالبت هذه الطائفة بعدم الاكتفاء بتعميد الاطفال ، والتعميد هو تعطيس الطفل فى الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس وهو الاب والابن والروح القدس وقالت هذه الطائفة ان تعميد الاطفال وهم فى سن مبكرة لايتمشى مع تعاليم الانجيل . وطالبت فى عام ١٥٢٥ باعادة تعميدهم مرة اخرى حين يبلغون الحلم ، وكانت حجة افراد هذه الطائفة فى اعادة التعميد ان اركان الحياة الدينية الصحيحة لا تتوفر الا فى التعميد المتأخر . وقد اطلق على رجال هذه الطائفة اسم " المطالبون باعادة التعميد ". ونادوا بآراء اخرى غير اعادة التعميد وانظلت التسمية الاولى عالقة بهم . ومن هذه الآراء : لايجوز للمسيحى ان يشهر السلاح فى وجه مسيحى ، لايجوز لمسيحى ان يقاضى اخاه المسيحى ، بل يجب ان تسوى المشكلات بينهما بالتراضى ، تحريم اداء اليمين . وقد بدأت هذه الحركة اول الامر فى جنوبى المانيا ثم اتخذ اصحاب هذه الحركة مدينة مونستر مركزا لنشاطهم ، وانضم اليهم آلاف الفقراء والسذج والبائسين ، وامتدت الحركة الى انحاء شتى من املاك الامبراطورية وتطرف بعض زعماء الحركة فنادى احدهم بالشيوعية وتعدد الزوجات وجعل من نفسه قدوة لانصار الحركة فكانت له ست عشرة زوجة .

وقد تطرفوا فى حركتهم ولجأوا الى اعمال العنف ووقعت اضطرابات دامية عرضت الحركة اللوثرية وانصارها للخطر . وقد تعاونت السلطات المدنية وعلى رأسها الامراء البروتستانت مع الهيئات الدينية فى سحق هذه الحركة وضرب القائمين بها دون شفقة او هوادة . وقد تخلصت مدينة موستر - قلعة القائمين بهذه الحركة - منهم فى يونيو ١٥٣٥ . ويذهب بعض المؤرخين الفرنسيين الى القول بأن المطالبين باعادة التعميد

كانوا بمثابة اليساريين المتطرفين فى الحركة اللوثرية

٢ ـ حركة الفرسان Knights

اعتاد الفرسان ان يعيشوا على الحروب وأن يحققوا لأنفسهم عن طريقها مكاسب وامتيازات ولما فقدت طائفة الفرسان الكثير من هيبتها وقوتها وامتيازاتها بسبب انحلال نظام الاقطاع، اخذت فى مهاجمة الفلاحين ونهب ثروات التجار حتى امسوا اخطر طبقة فى المانيا تهدد الحياة الاقتصادية وتهدد الامن والسلام فى البلاد. وعندما قامت الحركة اللوثرية وجدوا فيها فرصة لاسترداد نفوذهم وثرائهم واتخذ الفرسان من لوثر ذريعة لمهاجمة الكنيسة والاستيلاء على املاكها من ناحية والتحلل من سيطرة الامراء عليهم من ناحية اخرى. ومن ثم قاموا بحركة ثورية اضفوا عليها الطابع الدينى فاقتحموا الكنائس وحطموا ما كانت تزخر به من تماثيل وصور وزخارف وقد تزعم هذه الثورة فارسان المانيان هما فرانز فون سيكنجن Frenz Von Sickingen والريك فون هوتن Ulrich Von Huten وقد وضع الاثنان خطة حربية للهجوم على مدينة تريف Treves واستنجدا بالمدن المجاورة ولكن لم يجدا استجابة وفشل الهجوم على تريف وامتنع لوثر من تأييدهم بسبب الشدة والعنف الذى اتصفت به حركتهم. كما ان الامراء (كبار النبلاء) سرعان ما اتحدوا فيما بينهم كى يدفعوا عنهم هذا الخطر بالقوة المسلحة ثم ان حركة الفرسان هذه لم تجد اى عطف عليها من جانب الفلاحين الذين كرهوا الفرسان بسبب ما انزله هؤلاء بهم من ارهاق شديد. وأخيرا فشلت حركتهم عندما قتل سيكنجن وهرب هوتن الى سويسره سنة ١٥٢٣ ومات بها .

٣ - حرب الفلاحين :

كانت ثورة الفلاحين اعنف الحركات الثلاث على الاطلاق، وقد قام بها الفلاحون الالمان، ولم تكن هذه الثورة هي الاولى من نوعها في المانيا ،فقد سبق ان قامت ثورات على شاكلتها قبل ظهور الحركة اللوثرية لدفع المظالم التي انهالت على الفلاحين في ظل الاوضاع السائدة في المجتمعات الالمانية وقتذاك ٠ اما الثورة التي نشبت في سنتي ١٥٢٤و ١٥٢٥ عقب ظهور حركة مارتن لوثر فقد كانت ترجع الى حالة الفلاحين الالمان الذين كانوا لايزالون يعانون من قيود الاقطاع كرقيق الارض ٠ فكانت اموالهم وجهودهم واعمالهم موزعة بين الامراء ورجال الدين والفرسان يؤدون لهؤلاء وأولئك شتى انواع الضرائب نقدا وعينا وعملا،ويحرم عليهم ممارسة كثير من الحقوق ،وعلى سبيل المثال كان يحال بينهم وبين صيد الاسماك في الانهار والقنوات ،وصيد الحيوانات في الغابات بينما كانت تنتهك اراضيهم وبيوتهم واعراضهم ٠ فلما جاءت الحركة اللوثرية علق عليها الفلاحون اعذب الامال ،اذ كانت قد ترامت الى اسماعهم المبادئ والآراء التي كان ينادي بها لوثر مثل الحرية والانسانية والاخاء الجرماني والمساواة بين جميع الناس فاستهوتهم هذه الآراء كما طابت لهم مهاجمة لوثر لرجال الدين، وكان الفلاحون يشكون منهم مر الشكوى بسبب اسرافهم في فرض ضريبة العشور وغيرها من ضرائب ورسوم مختلفة الاسماء والفئات والانواع، اعتقد الفلاحون ان الحركة اللوثرية ستؤدي الى تحريرهم من الرق كخطوة اولى لتغيير احوالهم الاقتصادية والاجتماعية نحو نظام افضل ٠ ويلاحظ ان لوثر في بدء حركته لم يكن معاديا للفلاحين بل كان يعتمد عليهم ،وكان يفاخر بأنه ينحدر من ابوين اشتغلا بفلاحة الارض ٠

ومن العوامل التى ادت الى استفزاز الفلاحين ارتفاع اسعار حاجيات المعيشة ارتفاعا فاحشا ، واستغل الاقطاعيون هذا الغلاء ، وأصروا على أن يتقاضوا ضرائبهم عينا اى من نفس المحاصيل الزراعية .

ونتيجة لذلك وضع الفلاحون بيانا صدر فى مارس ١٥٢٥ ضمنوه مطالبهم وتمثلت فى اثنتى عشرة مادة كانت فى مجموعها تستهدف الالغاء الفورى لكثير من الالتزامات الاقطاعية المفروضة عليهم . وعلى الرغم من ان معظم هذه المطالب كانت تتسم بالطابع المادى الا ان الفلاحين كانوا يعتقدون فى قرارة نفوسهم ان اصلاح احوالهم المعيشية لن يتأتى إلا اذا تم إصلاح الكنيسة ، وعلى غرار ما فعل مارتن لوثر طالب الفلاحون ان تنظر مطالبهم فى ضوء ما ورد فى الكتاب المقدس .

بدأت ثورة الفلاحين فى الجنوب الغربى من الغابة السوداء وأخذت اول الامر الطابع المحلى احتجاجا على اسراف السلطات الحكومية فى فرض نظام السخرة على الفلاحين . ولكن سرعان ما انتشرت الثورة فى نطاق واسع واخذت الطابع العام وبلغت عنفوانها فى الاقاليم الواقعة فى الجنوب الغربى من المانيا وفى الحوض الاعلى لنهر الراين وحوض الدانوب الاعلى ، ثم امتدت صوب الشرق فى اقليم التيرول وكارنثيا احدى مقاطعات النمسا - ثم اتجهت صوب الشمال فى الاراضى السكسونية مسقط رأس مارتن لوثر والمقاطعة التى شهدت مولد حركته الدينية التحررية . وبلغت الثورة الذروة من الخطورة حين اندست عناصر اخرى فى صفوف الثوار تزعمتها وحولتها الى ثورة شيوعية جامحة . وكان فى مقدمة هذه العناصر الدخيلة المطالبون باعادة التعميد - وقد سبق ان تكلمنا عنهم - وكان على رأسهم توماس مونزر Munzer حاكم زويكو Zwichau وهى مدينة المانية . وقد نصب نفسه زعيما

لثورة الفلاحين ووضع امكانياته كلها لانجاح الثورة ،وسرعان ما استبان ان تأييده المطلق للثورة كان لتحقيق اهداف اخرى ، فقد اقام في احدى مدن المانيا (مولهاوسن) مجتمعا شيوعيا طارحا يحرم الملكية الفردية ويقوم على المساواة المطلقة بين الافراد ، وعلى شيوعية الملكية وغير ذلك من مبادىء لقيت استجابة سريعة من الفلاحين ونادوا الى استخدام القوة الكاسحة على اساس انها الوسيلة الوحيدة لاقامة المجتمع الشيوعي.

أما لوثر فقد انزعج انزعاجا شديدا من هذه الثورة ورأى فيها خطرا يتهدد حركته الاصلاحية الدينية ،فبدأ يقاومها بكل شدة لأن المطالب التى ارادوا تحقيقها وهى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية ، والمبادىء التى نادوا بها كانت فى نظره مطالب ومبادئ لا تمت بصلة لحركته الاصلاحية الدينية ،ومن شأنها ان تعرض هذه الحركة الاصلاحية الى اكبر الاخطار ، فوصف لوثر الثوار بأنهم " الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء " . وكانت هذه الثورة لذلك من اهم الاسباب التى جعلته يخرج من مخبأه . واخذ لوثر يخطب فى الناس ويطلب من الامراء (كبار النبلاء) ان يعملوا للقضاء على هذه الثورة . وسرعان ما اجتمعت قوة كبار النبلاء وصغارهم (الفرسان) ضد ثورة الفلاحين . وأخفقت هذه الثورة تماما عندما انهزم الثوار فى موقعة فرانكنهوزن Frankenhausen فى مايو ١٥٢٥ وأعدم توماس مونزر مع غيره من كبار قادة الثورة .

واذا كان مارتن لوثر قد حقق غرضه باخماد ثورة الفلاحين، فان سحق الثورة لم يقض على العداء الطبقى بين افراد الشعب الالمانى، بل انه ادى الى تعميق الفروق بين طبقات المجتمع . ويهمنا هنا ان نقرر أن

قطع دابر الثورة ترك آثارا عميقة فيمستقبل الحركة اللوثرية وفي التشكيل الاجتماعي لانصار هذه الحركة وفي دمغها بطابع العنف والاضطهاد الديني والتنكيلبالخصوص. لقد قام الفلاحون بثورتهم وعلقوا آمالهم على لوثر، ولكنهم لم يجدوا منه عونا او استجابة بل على النقيض مما كانوا يتوقعون ،لقوا معارضة وملت الى حد تحريض الامراء وكبار الحكام على ضرب الفلاحين بكل قسوة وعنف . ومنذ هذا الوقت - سنة ١٥٢٥ - فقدت الحركة اللوثرية هذه السمة التي لازمتها في سنواتها الاولى ونعني بها الشعبية العريضة ،فقدت الفرصة كي تكون حركة قومية بالمعنى المعروف . وتهاوى مركز لوثر كزعيم شعبي واضطر ان يسقط من حسابه هذه القوة الشعبية الهائلة وان يعتمد على افراد الطبقة الوسطى وهمسكان المدن وعلى الامراء الذين طالما نندد بمطالبهم وضعفهم ، كما اعتمد على الحكومات . اما الفلاحون، اما الكادحون في سبيل لقمة العيش فقد افتقدتهم الحركة اللوثرية التي وصمت نفسها بأنها حركة متعصبة بلمسرفة في تعصبها الديني ، فمما لا شك فيه أن حركة الفلاحين كانت ذات طابع سياسي واضح مما جعل بعض المؤرخين يصفون الفلاحين الذين اشتركوا فيها بأنهم ثوار سياسيون. ولكن مما لاشك فيه ايضا ان دوافع لوثر في مهاجمة ثورة الفلاحين كانت دوافع دينية اكثر منها دوافع سياسية .

وعلى الرغم من سحق ثورة الفلاحين فان المشكلة الدينية لم تحرز اى نجاح في سبيل ايجاد تسويةلها ، مما دعا شارل الخامس امبراطور الدولة الرومانية المقدسة الىتوجيه الدعوة لعقد المجلس الامبراطوري - الدايت - فيمدينة سبير Speire في بفاريا في يونيه ١٥٢٦ لبحث المسألة الدينية والنظرفي موضوعتنفيذ القرار الذى اتخذه

المجلس الامبراطوري الذى مقدفى ورمس فى يناير ١٥٢١ بطرد لوثر خارج القانون واهدار دمه وتحريم تداول مؤلفاته. واتخذ المجلس قرارين: اولهما وجوب عقد مجلس او جمعية وطنية فى وقت قريب لايجاد حل " للشرور الكثيرة التى لا تتحمل تأخيرا ". وكان هذا القرار محاولة لتاجيل بحث المشكلة الدينية ويتمشى مع الشق الاول من الاقتراح الذى ورد فى بيان الامبراطور. اما القرار الثانى فقد انطوى على مفاجأة اذ جاء فيه ان " لكل امير الحق فى ان يعيش وان يسلك فى موضوع قرار ورمس المسلك الذى سوف يسأل عنه امام الله وامام حضرة صاحب الجلالة الامبراطور. ومعنى هذا القرار ان صار لكل امير الحق فى ان يختار المذهب الدينى الذى يريده فى امارته. وعلى ذلك فقد اصبح لانصار لوثر فى المانيا بفعل هذا القرار ايضا مركز معترف به. وكان السبب فى صدور هذا القرار انضمام البابا كلمنت السابع الى حلف كونياك عام ١٥٢٦ ضد الامبراطور. والسبب الثانى لصدور هذا القرار هو أن الامبراطور كان يريد ايجاد نوع من المهادنة مع اللوثريين حتى تبقى الجبهة الداخلية فى المانيا سليمة فى الوقت الذى كان الاتراك العثمانيين يقرعون بشدة أبواب المجر. وقد تحقق فهم فعلا التصر المبين فى معركة موهاكس فى ٢٨ اغسطس ١٥٢٦.

ولكن لم يلبث ان تغير الموقف ، اذ تفاقم الموقف فى المانيا بالنسبة للكاثوليك لان الزمن كان حليفا قويا لاتباع لوثر. ورأى الامبراطور شارل الخامس ان يخطو خطوة اخرى لحل المشكلة الدينية التى باتت تهدد البلاد الالمانية بانقسام دينى مذهبى خطير. فوجه الدعوة لعقد المجلس الامبراطوري مرة اخرى فى سبير فى مارس ١٥٢٩ وهو الذى يطلق عليه دايت سبير الثانى. وفى هذا المجلس تقرر ان تكون قرارات

ورمس الصادرة فى ١٥٢١ نافذة المفعول ، ثم الغيت الحرية التى اعطيت للأمراء فى مجلس سبير الاول لاختيار المذهب الذى يريدونه .

وجاءت قرارات المجلس الامبراطورى الثانى المنعقد فى سبير ضربة اليمة للوثريين، فقد عصفت بالمركز القانونى الذى ظفروا به واطاحت بمكاسبهم وجعلت الغرم عليهم والمغنم للكاثوليك . وقرروا ـ ايمانا منهم بعدالة قضيتهم وتمسكا بمبادئهم ـ تحدى الامبراطور فاحتجوا على قرار مجمع سبير الثانى وقالوا اننا نحتج Nous Protestons - We Protest وكان بسبب احتجاجهم هذا ان صاروا يسمون بالمحتجين Protestants حتى الوقت الحاضر.

وفى ذلك الوقت كان الامبراطور شارل الخامس لايزال عند رأيه السابق وهو ضرورة تكوين جمعية وطنية تبحث جذور المشكلة الدينية وايجاد حل نهائى لها يرتضيه جميع الاطراف حفاظا على الوحدة الدينية للبلاد الالمانية ،ولكن الظروف الدولية التى احاطت بالامبراطور كانت تحول بينه وبين بذل مزيد من التركيز والاهتمام بهذه المسألة فخطر الاتراك العثمانيين بسبب زحف قواتهم الضاربة فى وسط اوروبا كان لايزال ماثلا،وكان التقارب بين سليمان القانونى وبين فرنسوا الاول ملك فرنسا يتهدد ممتلكات الامبراطورية من الشرق والغرب . ولهذا آثر الامبراطور ان يمضى فى سياسته السلمية تجاه المشكلة الدينية . وكان قد عقد معاهدة كمبراى او سلم السيدات فى ١٣ اغسطس ١٥٢٩ فوجه شارل الخامس الدعوة لعقد المجلس الامبراطورى ـ الدايت ـ فى مدينة اوجزبرج Augsburg وانعقد المجمع فى يونيو ١٥٣٠ للوصول الى حسم الخلافات الدينية . وفى هذا المجلس وضع فيليب ملانكتون مبادىء العقيدة اللوثرية بكل حذر واعتدال فيما يعرف باسم اعتراف

اوجزبرج Confession of Augsbur ولكن الامبراطور الذى كـــــان متأثرا بآراء الذين حوله من رجال الدين الكاثوليكى فى المجلــــس انحاز الى هؤلاء ، فرفض المجلس اعتراف اوجزبرج وصدرت أوامـــــر الامبراطور بتنفيذ قرارات مجلس ورمس الاول سنة ١٥٢١ والقضاء علـــى البروتستنتية . وفى اواخر عام ١٥٣٠ انفض مجلس اوجزبرج بعد ان أعطـــى الامبراطور البروتستنت مهلة قصيرة حتى يتخلوا عن آرائهم حقنا للدماء . وعندئذ اجاب الامراء البروتستنت على هذا الانذار بأن الفوا فيما بينهم اتحادا للدفاع عن مصالحهم ولرد القوة بمثلها ، عرف باسم حلـــــف شمالكى Schmalkal ic League فى سنة ١٥٣١.

وكـ ن تكوين حلف شمالكو تحديا صريحا من المقاطعات الالمانيـــــة البروتستانتية لسلطة الامبراطور شارل الخامس . وكان هذا الامبراطـــور فى موقف لا يمسح له بانتهاج خطة حربية لضرب البروتستانت . فقد اخذ خطـــر الاتراك العثمانيين يزداد بعد فترة قصيرة من الهدوء النسبى، وكانـــت الاحوال فى اسبانيا مضطربة ،وكان فرنسوا الاول ملك فرنسا يكيد كيـــدا للامبراطور لانه لم يرض عن خروج فرنسا من شبه الجزيرة الايطاليـــــة والنزول عن كل ادعاءاته عليها وعن اقاليم اخرى تقررت فى معاهدة كمبـــراى فى اغسطس ١٥٢٩.

ولذلك سعت الدبلوماسية الفرنسية الى ايجاد تقارب بين فرنســـــا وبين البروتستانت من ناحية وبين فرنسا والدولة العثمانية من ناحية اخرى. ولهذه الاسباب احجم الامبراطور عن مناوأة البروتستانت ،اتبـــع حيالهم سياسة اللين والمهادنة رجاء بقاء الجبهة الداخلية سليمـــــة ومتماسكة حتى يجتاز بسلام هذه الاخطار الخارجية التى تتهدده من يميـــن وشمـــــــال .

وفى هذا الوقت العصيب برزت روح دينية مسيحية عالية فى المانيا طالبت بتناسى الاحقاد والخلافات والوقوف صفا واحدا وتوجيه نشاط البلاد كلها لتدعيم المجهود الحربى ضد الاتراك العثمانيين وبدت هذه الروح فى جلسات المجلس الامبراطورى الذى عقد فى مدينة نورمبرج سنة ١٥٣٢ وصدرت عنه وثيقة هامة اطلق عليها سلام نورمبرج، وتمثلت فيها العاطفة الوطنية اروع ماتكون. فوصفت الوثيقة الاتراك العثمانيين بأنهم الخطر الداهم الذى يواجهه المسيحيون على بكرة ابيهم لا فرق بين كاثوليكى وبروتستانتى ، ومضت الوثيقة تقول انه يجب ان تتوقف فورا جميع المشاحنات والحروب الدينية داخل نطاق الامبراطورية وان يتناسى الجميع الماضى بخلافاته وان يصرف النظر عن الاجراءات القانونية التى اتخذت ضد ناخب سكسونيا واصدقائه. ومعنى هذه العبارة هو الغاء قرار مجمع ورمس باعدام مارتن لوثر والاجراءات التأديبية ضد ناخب سكسونيا الذى تزعم فكرة حلف شمالكلد .

وعلى هذا النحو خلق مجمع نورمبرج جوا صحيا لنمو وانتشار الحركة البروتستنتية فقد كان من اولى نتائج هذا المجمع ان دخلت تباعا عدة مدن كبرى زاهرة الى حظيرة المذهب البروتستانتى ومنها اوجزبرج وفرانكفورت وهامبرج وهانوفر د ورمبرج ، وبادن، الامر الذى ادى الى تدعيم المعسكر البروتستانتى تدعيما قويا تجاه المعسكر الكاثوليكى .

وعلى اية حال شهدت السنوات السابقة لعام ١٥٤٦ - وهو العام الذى اندلعت فيه الحرب الاهلية فى المانيا - عديد من المحاولات للتوفيق بين البروتستانت والكاثوليك ولكن عناد الطرفين المتنازعين وقف حجر عثرة فى سبيل ذلك. فقد كان البروتستانت يدركون ان حركتهم

قد اكتسحت معظم الاقاليم الالمانية واصبحوا يرفضون التساهل فى أية مسألة تعرض للبحث ، وكان الكاثوليك اكثر تشددا وتصلبا من خصومهم ويعتمدون على مجد قديم تعيش كنيسة روما على اسمه .

ومن المحاولات التى بذلت فى تلك السنوات نذكر محاولتين: تمثلت الاولى فى المجلس الامبراطورى الذى عقد فى مدينة راتزبون Ratisbon عام ١٥٤١ وحضر الامبراطور بنفسه جلسات هذا الدايت يحدوه أمل قوى فى ان يكون حضوره مما يساعد على الوصول الى تسوية سلمية . ولكن فض المجلس الامبراطورى جلساته دون نتيجة ايجابية تذكر . اما المحاولة الثانية فلاحت حين وجه البابا بول الثالث الدعوة للكاثوليك والبروتستانت لعقد مجمع دينى عام يسمى المجمع المسكونى اى مختص بالعالم المسيحى فى مدينة ترنت Trent فى اقليم التيرول عام ١٥٤٥ ، وقد رفض البروتستانت تلبية الدعوة لانهم رأوا ان الكاثوليك مسيطرون على هذا المجمع المسكونى وعند ذلك قرر الامبراطور انه لامناص من الاشتباك المسلح للقضاء على الانقسام الدينى الذى شطر البلاد الالمانية شطرين . وكان من العوامل المشجعة له على اتخاذ هذا القرار ان الموقف الدولى قد بات هادئا بعد ان عقد صلح كنسى فى سبتمبر عام ١٥٤٤ مع ملك فرنسا وبعد ان قل خطر الاتراك العثمانيين وعندئذ قرر الامبراطور نهائيا ان يستخدم القوة للقضاء على الانقسام الدينى الذى هدد ممتلكاته ، فأخذ يعبىء جيوشه . وبينما كانت الحشود العسكرية تأخذ طريقها الى ساحات القتال مات مارتن لوثر فى ليلة ١٧/١٨ فبراير عام ١٥٤٦ ، واما النزاع بين البروتستانت والكاثوليك فقد استمر فى الاعوام التالية حتى امكن الوصول الى تسوية فى صلح أوجزبرج فى فبراير عام ١٥٥٥ .

وانقسم البروتستنت بعد وفاة لوثر فانحاز موريس دوق سكسونية وهو قريب فردريك ناخب سكسونيا الى جانب الامبراطور، لوجود عداء بينه وبين اعضاء حلف شمالكلد، فخسرت جيوش البروتستنت بذهاب قائدها مدنيا وحلت بها الهزيمة فى موقعة مهلبرج Muhlberg فى ٢٤ ابريل ١٥٤٧ ووقع قواد الجيش البروتستنتى فى الاسر وباتت المانيا بأسرها تحت رحمة الامبراطور.

كان هذا النصر الساحق فرصة ذهبية امام الامبراطور لانهاء المشكلة على النحو الذى يريده، ولكنه حاول تسوية المشكلة ودياً بين الكاثوليك والبروتستنت وكان من اسباب هذا الموقف ان هنالك من جفاء شديد بينه وبين البابا بول الثالث الذى صار من اكبر المتخوفين من الاثار التى سوف تترتب على انتصار الامبراطور فى مهلبرج، ويخشى أن يؤدى هذا الانتصار الى اخضاع الكنيسة لسيطرة الامبراطور من جهة والى توطيد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا من جهة اخرى، فأخذ يتفاوض من اجل التفاهم مع هنرى الثانى ملك فرنسا ضد الامبراطور ويمكن أن نضيف بعض اعتبارات اخرى جعلت الامبراطور يجنح نحو السلم فقد كانت هناك قطاعات كبيرة من الرأى العام فى المانيا لا تزال على ولائها للمذهب البروتستنتى، وكان امراء المانيا جد حريصين على الابقاء على استقلالهم وامتيازاتهم وكانوا مستعدين لتأييد الحركة لتبرير اثر الانتصار الذى احرزه الامبراطور فى موقعة مهلبرج، وكانت الدول المتاخمة لالمانيا ما كانت لتقبل انشاء حكومة مركزية قوية فى المانيا تحت حكم اسرة الهابسبرج.

وعلى ذلك فقد دعا الامبراطور (الدايت) للاجتماع فى اوجزبرج فى مايو ١٤٥٨، وعرض فيه النظام الذى اراد ان يفرضه على البروتستنت

والكاثوليك معا والذى اراد ان يسرى العمل به فى المانيا مؤقتا وهو نظام ينطوى فى جوهره على التمسك بالعقيدة الكاثوليكية مع بعض التسامح لارضاء البروتستنت فى مسائل زواج القسس وتناول القربان والتبرير بالايمان. وقد سمى هذا النظام المؤقت Interim ولكن استنكر البابا هذا النظام ورفضته معظم المقاطعات الالمانية سواء البروتستانتية او التى احتفظت بولائها لكنيسة روما. فالمقاطعات الكاثوليكية رفضت رفضا باتا ان تمنح الرعايا البروتستانت المقيمين فى اراضيها التسهيلات التى جاء بها النظام المؤقت ، ومن ناحية اخرى عارضت المقاطعات البروتستانتية معارضة عنيفة ممارسة الطقوس الكاثوليكية فى اى جزء من الاراضى التابعة لها، واعتقد الفريقان ان التنازل او التساهل فى نقطة من نقط الخلاف معناه التنازل عن كل شئ ، فازداد كل منهما استمساكا بآرائه وتصلبا فى موقفه وتشددا فى مطالبه. وعلى ذلك اخفقت المحاولة السليمة التى بذلها الامبراطور بعد انتصاره فى مهلبرج لانهاء النزاع وديا بين الكاثوليك والبروتستانت بعد ان رفض كل من الفريقين "النظام المؤقت" ودخل الامبراطور تجربة جديدة هى فرض النظام المؤقت بالقوة المسلحة على المقاطعات البروتستانتية واستخدم قوات مسلحة اسبانية لضرب البروتستانت فى جنوبى المانيا ، اما فى شمالى المانيا فقد واجه الامبراطور مقاومة عنيفة من البروتستانت بزعامة مدينة مجدبرج. وهكذا اشتعل الموقف الداخلى وازداد تصدع الجبهة الداخلية فى وقت كان الموقف الخارجى يتدهور من سئ الى أسوأ بالنسبة للامبراطور وكان موريس دوق سكسونيا الذى لم يفد بشئ من انضمامه الى الامبراطور فى مقدمة الذين احتجوا على هذا النظام المؤقت ، ولم يلبث أن عاد

الى صفوف البروتستنت، فكسب هؤلاء بعودته اليهم قوة جديدة .

وسارت الحوادث بعد ذلك فى صالح البروتستانت ، وذلك لعدة اسباب

من أهمها : انشغال الامبراطور بمسألة الوراثة فى املاكه ، بين ابنه فيليب واخيه فرديناند، ثم انضمام الامراء البروتستانت الى هنرى الثانى ملك فرنسا فى معاهدتى شامبور ١٥٥٢ وفريد والد ١٥٥٢. وقد سبق ان ذكرنا كيف اضطر الامبراطور الى الالتجاء الى اخيه فرديناند الذى توسط فى عقد معاهدة بساو Passau مع موريس فى يوليو ١٥٥٢، وقد نص هذا الصلح ضمن شروطه على دعوة المجلس الامبراطورى للانعقاد فى بحر ستة شهور للوصول اذا امكن الى حل وتسوية لجميع المسائل المختلف عليها نهائيا ، ووافق شارل الخامس على عقد هذه المعاهدة. وفى النهاية عهد الامبراطور (شارل) الى اخيه فرديناند الوصول الى تسوية حاسمة مع خصومه ،وفى فبراير عام ١٥٥٥ دعى للانعقاد فى اوجزبرج ذلك المجلس الامبراطورى الذى سبق النص على دعوته فى معاهدة بساو وترأس فرديناند جلساته لتقرير الصلح مع الامراء البروتستنت ،وفى هذا المجلس تم صلح اوجزبرج .

وكان من اهم المبادىء التى قررها هذا الصلح حق كل اقليم فى اختيار عقيدته الدينية ، ويتفرع من هذا المبدأ الامتناع عن كل محاولة لفرض مذهب دينى واحد على جميع المقاطعات الالمانية ،واصبح لكل حاكم الحق فى اختيار المذهب الذى يريده فى اقليمه دون تدخل من جانب الامبراطور او المجلس الامبراطورى . ونص على تحريم استخدام العنف ضد اية ولاية فى الامبراطورية اعتنقت المذهب اللوثرى وكذلك الحال بالنسبة للولايات التى ظلت على ولائها لكنيسة روما معتنقة المذهب الكاثوليكى . وقرر صلح اوجزبرج كذلك ان احكام هذا الصلح

لا تسرى الا على الكاثوليك واللوثريين، كما قرر انكل فرد لايرضى بالمذهب الدينى الذى يقرره حاكم المقاطعة التى يقيم فيها هذا الفرد فعليه ان يهاجر منها الى ولاية اخرىتدين بالمذهب الدينى الذى يعتنقه وله ان يأخذ معه امواله ولا يمنع عن بيع امتعته قبل رحيله ولا يؤذى فى شرفه .

ومن المسائل الدقيقة التىاثارت مزيدا من الاهتمام تحديد مركز الاساقفة ومن اليهم منرجال الدين الذين كانوا يحكمون مقاطعات المانية ثم اعتنقوا المذهب البروتستنتى فانه لما ظهرت الحركة اللوثريةكان هناك اغراء قوىامام هؤلاء الحكام كى يتحولوا عن الكاثوليكية ، لأن اعتناقهم المذهب البروتستنتى كان يتيح لهم عديد االفرص للافادة من الوضع الجديد ، إذ فى ظل النظام البروتستنتى يصبحون حكاما علمانيين يرث ابناؤهم وحفدتهم مناصبهم فى الحكم ، وتصبح الولايات التى يحكمونها ذات نظام وراثى تؤول املاك الكنيسة فىهذه الولايات اليهموتنقطع صلتهم بكنيسة روما ،وقد استهوى هذا الاغراء المادى عددا كبيرا منهؤلاء الحكام من رجال الدين الكاثوليك وزاد من خطورة هذه الظاهرةكثرة عددالمقاطعات الالمانية التى كان يحكمها رجال الدين الكاثوليك، وقد تشعب البحث بخصوص هذه المسألة ماذا يكون مصير ممتلكات الكنيسة فىالمقاطعات الالمانية التى كان يحكمها حكام اساقفة ثم نبذوا الكاثوليكيةواعتنقوا المذهب اللوثرى؟ وعلى اية حال قرر صلح اوجزبرج فىالنهاية ان املاك الكنيسة فى المقاطعات التى تحولت الىاللوثرية قبل عام ١٥٥٢ تظل فى حوزة حكامها اللوثريين ،وأما املاك الكنيسة التى اخذت منها بعد عام ١٥٥٢ فهذه تعود الى الكنيسة الكاثوليكية فى روما، وصلح اوجزبرج

اذ يخول للاساقفة الحق فى احتيار المذهب الدينى الذى لايريدونه الا انه اشترط على كل اسقف يتحول الى المذهب البروتستانتى ان يترك اسقفيته ويفقد وظائفه الدينية وتبقى ممتلكات الكنيسة تابعة لروما وفى هذه الحالة يتم انتخاب اسقف آخر كاثوليكى يباشر سلطات منصبه ويستولى على ايرادات وممتلكات الكنيسة للانفاق منها فى الاوجه المخصصة لها .

والنظرة التحليلية لصلح اوجزبرج تبين انه كان محاولة لتسوية اخطر مشكلة واجهتها المانيا فى مطلع العصر الحديث وهى المشكلة الدينية . وقد اثبتت الاحداث التى تتابعت ان هذه التسوية لم تعمر طويلا فقد نجحت مدة ناهزت ثلاثا وستين سنة فى ايجاد جو من التعايش السلمى بين الكاثوليك والبروتستنت ، ثم قامت الحرب الدينية عنيفة مدمرة اشتركت فيها المانيا والدانمرك السويد وفرنسا وهى الحرب التى يطلق عليها حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨) وعلى ذلك يعتبر صلح اوجزبرج نهاية مرحلة من مراحل الصراع الدينى بين الكاثوليكية والبروتستانتية فى اوروبا .

ويضفى بعض المؤرخين والباحثين الاوروبيين على صلح اوجزبرج مبادىء سامية بعيدة عن نصوصه وروحه كل البعد ، فضلا عن انها لم تدر فى اذهان واضعيه ، فهم يقررون - خطأ بلا شك - ان هذا الصلح قد ارسى قواعد التسامح الدينى وانه قرر مبدأ الحرية للفرد . والحق ان الحرية الدينية التى جاء بها صلح اوجزبرج كانت مقصورة على حكام المقاطعات الالمانية ، ولم تمتد هذه الحرية لتشمل الافراد الذين كان عليهم طبقا لنصوص الصلح ان يعتنقوا مذهب الحاكم اذا رغبوا فى البقاء فى موطنهم ، فاذا اختلف مذهبهم عن مذهب الحاكم ولم

يرضوا عن مذهبهم بديلا كان عليهم ان يهاجروا مرولاينهم الى رلاية اخرى وفى الواقع فان هذه الهجرة الاجبارية مراحل العقيدة هى أبعد ما تكون عن الحرية الدينية للفرد ولا يخفف من وطأتها ما يردده بعض المؤرخين من انقسام المانيا اليما يزيد على ثلاثمائة وخمسين وحدة سياسية جعل امر الهجرة اكثر سهولة واقل متاعب من هجرة تتم فى دولة تنعم بالوحدة مثل فرنسا او اسبانيا . ولقد جاء صلح اوجزبرج متمشيا مع المبدأ القائل: "الناس على دين ملوكهم " .

ويلاحظ ايضا على صلح اوجزبرج انه لم يعترف الا بمذهب واحد خارج على كنيسة روما وهو المذهب اللوثرى ، فأصبح الاختيار امام حكام المقاطعات الالمانية محصورا بين المذهب الكاثوليكى وبين المذهب اللوثرى وتجاهل صلح اوجربرج انصار المصلحين الدينيين الآخرين مثل وتجلى الذى ظهر فى سويسرا وكذلك كلفن الذى ظهر فى فرنسا وكان له انصار عديدون فى جنوبى المانيا وغربيها وبذلك لم ينشىء صلح اوجزبرج مركزا قانونيا لانصار كلفن فى المانيا .

وتضمن الصلح احكاما كان اعمال النص فيها امرا متعذرا ،ونذكر على سبيل المثال انه لم تكن هناك سلطة تنفيذية جبرية ترد الى الكنيسة املاكها التى انتزعت منها بعد سنة ١٥٥٢ فصلح اوجزبرج لايعدو ان يكون اتفاقا بين الولايات الالمانية صدر فى صورة قرار من المجلس الامبراطورى . ودل تاريخ هذا المجلس على ان حكام المقاطعات الالمانية كانوا لا يلتزمون التزاما حرفيا بتنفيذ قراراته ،وكانوا ينفذون منها ما يتمشى مع مصالحهم ويهملون ما يتعارض معها . وفى الحالة التى نحن بصددها اهمل تنفيذ هذا النص ومضت على قدم وساق عمليات انتزاع ممتلكات كنيسة روما .وكان هذا التصرف من اهم الاسباب التى

ادت الى اندلاع الحرب الدينية المعروفة باسم حرب الثلاثين سنة .
ولقد دعم هذا الصلح الانقسام الديني بين الشعب الالمانى وجاء
هزيمة للبابوية ولكنيسة روما ،فقد انسلخ عنها نصف المانيا ،ولذلك
يعتبر صلح اوجزبرج احدمعالم تاريخ اوروبا الحديث .

الفصل السادس

انتشار حركة الاصلاح الدينى فى اوروبا

شقت الحركة اللوثرية طريقهاوسط المصاعب والاخطار والمنافسات السياسية بين حكام المقاطعاتالالمانيةوكوارث الحروب الدينية حتى انتهى بها الامر الىالاستقرار فى شمالى المانيا بوجه عاموعدد من المدنالهامة فى شمالى المانياوجنوبها ، كما استقر المذهب اللوثرى فى الممالكالاسكندنافية الشمالية (الدانمرك والسويد)واعتنق عدد كبير من المقاطعات السويسرية المذهب البروتستنتى، وحذت هولندا هذا الحذو، كما دخلتحركة الاصلاح الدينى انجلتراواسكتلندا وانفصلت هذه البلاد عن كنيسة روما ،اما الكاثوليكية فقد بقيت فى النمسا واقليم الراين وفرنساواسبانيا وايطاليا وبلجيكا وغيرها . وعلىالرغم من ذلك لميكن من نصيباللوثرية الذيوع والانتشار فى كل اوروبا لاسباب منها

١ - صعوبة فهم العقيدة اللوثرية التى عجز كثيرون عن تفسيرها خصوصا فىمسائل تناول القربان،والتبرير بالايمان .

٢ - اعتماد لوثر علىتعضيد الامراء فقط وامثالهم من اهل الطبقات الوسطى والدنيا فى اول الامر، مما جعل السواد الاعظممن الناس ينفضون من حوله .

٣ - عدم اهتمام لوثر بمسألة تحديد وتعريف العقيدة الجديدة.

٤ - عدم تفكيره فىنشر هذه العقيدة فى خارجالمانيا . وقد ادى ذلك الى وقوع الخلاف فىصفوف اللوثريينانفسهم بعد وفاة لوثر من جهة ، ثم الىصعوبة التغلب على الكاثوليكية المنظمة وبخاصة

عندما امتنع لوثر عن الالتجاء الى القوة والعنف فى نشر مذهبه. وقد ظهرت هذه النتيجة بجلاء عندما اخذت الكنيسة الكاثوليكية تنظم شئونها وتصلح مساوئها، وتستعد للنضال من اجل نشر مذهبها وتعاليمها بكل وسيلة .

ولكن النجاح الذى لقيه الاصلاح الذى نادى به مارتن لوثر بالطرق السلمية لم يلبث ان شجع على ذيوع وانتشار دعوات اخرى للاصلاح فى انحاء اوروبا على ايدى مصلحين كانوا يترددون فى استخدام العنف والقوة فى نشر العقائد والمذاهب الجديدة. وكان فى طليعة هؤلاء الريك زونجلى الذى انتشر مذهبه فى سويسرة والمانيا الجنوبية، وجون كلفن الذى انتشر مذهبه فى الجزء الباقى من اوروبا الوسطى والغربية، وخصوصا فى فرنسا والاراضى المنخفضة واسكندناوة الى جانب سويسرة ايضا.

زونجلى Ulrichzoingli (١٤٨٤-١٥٣١) وانتشار الزونجلية Zwinglianism

تدين حركة الاصلاح التى ظهرت فى سويسرة لرجل سويسرى يسمى الريك زونجلى اتخذ من مدينة زيوريخ فى سويسرة مركزا لدعوته. وتختلف نشأته عن نشأة مارتن لوثر اذ كان والد زونجلى عمدة المقاطعة، وعمل احد اعمامه رئيسا لاحد الاديرة، واشتغل عم له آخر قسيسا فى احدى المدن. واتيح لزونجلى ان يتلقى تعليمه فى مدارس وجامعات برنوفينا وبال وتأثر بالمعاصرين له من رجال الدراسات الانسانية وبخاصة ارزمس، وكانت تربطه به علاقة شخصية وثيقة. وتحت تأثير عمه انخرط فى سلك رجال الاكليروس، وترامت شهرته فى الخطابة الى مدينة زيورخ فاستدعى اليها واسند اليه فى ديسمبر ١٥١٨ منصب واعظ الكنيسة الكبرى فى مقاطعة زيورخ، وبرز اسمه منذ ذلك التاريخ

بروزا واضحا قويا فى الاوساط الدينية والسياسية والاجتماعية فى المقاطعة وتبوأ مكانا عليا .

وكانت مدينة زيورخ فى مقدمة المدن السويسرية ثراء وازدهارا بافست مدينة بال فى نشاطها التجارى وفى علاقاتها الاقتصادية مع المانيا ثم وكان معظم السفراء والامراء الاجانب والسياح الاثرياء يفدون الى مدينة زيورخ ويقضون اوقاتا ممتعة على ضفاف بحيرة زيورخ وينفقون بسخاء على ملذاتهم ولهوهم . وقد لمس زونجلى – بسبب اقامته فى زيورخ وعمله واعظا لكنيستها الكبرى – المتناقضات الموجودة فى المدينة ، واستبدت به الرغبة فى القضاء على المساوىء ، وسرعان ما قاد حركة اصلاح دينى انتهت الى نتيجة هامة لاتزال قائمة الى اليوم ، وهى انشقاق مقاطعات بأسرها من مقاطعات الاتحاد السويسرى على كنيسة روما وانقسام سويسرا الى فريقين : فريق بروتستنتى من انصار زونجلى ، وفريق كاثوليكى ، ويهمنا هنا ان نشير الى حقيقتين : اولاهما ان الحركة البروتستنتية فى سويسرة لا تدين فى نشأتها لمارتن لوثر بل كانت فى حقيقة أمرها حركة سويسرية تزعمها زونجلى ، وقامت مقاطعة زيورخ بدور بارز فى قيادة هذه الحركة سنوات طوالا . ولا ريب ان حركة الاصلاح الدينى فى سويسرة قد تأثرت بالاحداث الكبرى التى وقعت فى المانيا ولكنها احتفظت لنفسها بطابع خاص . اما الحقيقة الثانية فان الحركة الاصلاحية التى قادها زونجلى كان لها الى جانب صبغتها الدينية اهتمام عميق بالمشكلات السياسية وعناية كبيرة بالنواحى الاجتماعية والانتصاف للطبقات الكادحة من الحكام المترفين الذين عاشوا بمعزل عن الشعب وعلى ذلك فان حركة زونجلى لم تكن مجرد رد فعل لمساوىء الكنيسة بل كانت فى مجموعها حركة دينية سياسية اجتماعية قومية .

وقد وجه زونجلى نشاطه اول الامر لمحاربة الظاهرة التى كانت

قدتفشت بين الشباب السويسرى واستهوت افئدتهم وهى انصرافهم الى العمل جنودا مرتزقة فى صفوف جيوش الدول الاوروبية نظرا للمرتبات العالية التى كانوا يحصلون عليها ،واعلن انه من العار ان تهدر دماء السويسريين فى غير مصلحة قومية . ولقد لقيت هذه الآراء التى كان يرددها زونجلى استجابة من سكان زيورخ وعاهدوا انفسهم على الا يكونوا اتباعا مأجورين لملك فرنسا اولامبراطور الدولة الرومانية المقدسة او للبابا نفسه ..

- ولقد انتقلت حركة الاصلاح التى قام بها زونجلى الى عدد من مقاطعات الاتحاد السويسرى والى الاقاليم السويسرية التى لم تكن قد انضمت بعد الى الاتحاد ،فانضمت الى الحركة الدينية الجديدة بيرن Bern فى عام ١٥٢٨ وتبعتها فى السنة التالية بازل Base; ،كما انتشرت فى الاودية الايطالية وفى المانيا . وفى الوقت الذى تكونت فيه عصبة شمالكلد The League of Schmalkaldic فى فبراير ١٥٣١، بدأ زونجلى يعتقد بأنه بنى الله الذى اختاره لنشرهذا المذهب وبدأ يستعد لاستخدام الوسائل السياسية من اجل انتشار رغبة الاله فى زيورخ وفى كل انحاء سويسرة . وتمكن من السيطرة على مجلس مدينة زيورخ وادار شئونها الخارجية والداخلية بطريقة اوتوقراطية . ومن اجل نشر هذا المذهب الجديد، كان زونجلى قد قام بعقد عدد من المعاهدات تعرف باسم Burgrechte او Christian Civic Alliances (= اى الحلف المسيحى المدنى) من المقاطعات الاخرى . ففى عام ١٥٢٧ تحالفت زيورخ مع مدينة كونستانس Constance وتلتها محالفة بين كونستانس وبرن . وفى عام ١٥٢٩ انضمت كثير من المدن السويسرية الى الحلف المسيحى المدنى . وكان

رد الفعل فى الدوائر الكاثوليكية سريعا اذ كونت المقاطعات الكاثوليكية فى ابريل ١٥٢٩ ما عرف باسم الاتحاد المسيحى The Christian Union وبدأ زونجلى يجهز خططه للقيام بالحرب وبذلك قامت الحرب الاهلية فى سويسرة ففى يونيو ١٥٢٩ سارت قوات زيورخ البالغ عددها حوالى ٤٠٠٠ جندى الى كابل Kappel هى تقع على حدود زيورخ حيث قابلتها مجموعة من القوات الكاثوليكية ولكن عقدت هدنة بين الطرفين ، وتلى ذلك صلح كابل الاول فى ٢٦ يونيو ١٥٢٩ . وقد تقرر فى هذا الصلح ان يكون لكل مقاطعة مطلق الحرية فى اختيار مذهبها الدينى ، وجعل هذا النص مقصورا على الثلاث عشرة مقاطعة التى تكون الاتحاد السويسرى . اما الاقاليم السويسرية التى لم تنضم الى الاتحاد وقامت بعض المقاطعات بغزوها وحكمها بالتناوب فقد تقررت بالنسبة لها عدة مبادىء هامة نذكر منها هذين المبدأين :

١ ـ لا يكره احد على تغيير مذهبه الدينى .

٢ ـ يختار سكان كل منطقة او اقليم مذهبهم الدينى ويعتبر المذهب الذى يقع عليه اختيار الاغلبية المذهب الرسمى للاقليم ، وللاقلية فى هذه الحال الخيرة بين ان تخضع لرأى الاغلبية وبين ان تهاجر الى منطقة اخرى تدين بالمذهب الذى ارتضته الاقلية .

ولكن هذا الصلح لم يضع حدا لهذا الانقسام ، فقامت الحرب من جديد فى اكتوبر عام ١٥٣١ وقتل زونجلى فى معركة كابل التى انتصر فيها الكاثوليك وكان من نتائج هذه المعركة ان فقدت مقاطعة زيورخ بمصرع زونجلى زعامتها للحركة الاصلاحية فى سويسرة وأصبحت المقاطعة مهددة بالغزو من جيش المقاطعات الكاثوليكية ، ولكن تغلبت على الجميع روح الحكمة وعقد صلح كابل فى ٢٠ نوفمبر ١٥٣١ ، ويعرف هذا الصلح باسم صلح كابل الثانى . وقد تم عقد هذا الصلح بين زيورخ ومقاطعات الغابات

الخمس The Five Focest Cantons (اى الولايات التى كانيتالف منها الاتحاد المسيحى وهى اورى Uri ، وشفيتس Schwys ،وانتر فالدن Unter Valein وزوج Zug ولوسرن Lucerne واتفق على مايلى:

١ - سمح للولايات الخمس بالابقاء على عقيدتها المسيحية ،كما سمح لمدنية زيورخ بالابقاء على المذهب البروتستانتى .

٢ - تعهد الطرفان بالتخلى عن المعاهدات التى وقعاها مع الدول الاجنبية .

٣ - اجبرت الولايات البروتستنتية على الغاء التحالفات المسيحية المدنية ودفع نفقات الحرب وتعويضاتها .

وقد قام هذا الصلح على المبدأ القائل بحق كل اقليم أومقاطعة فى اختيار مذهبها الدينى،ولذلك يعتبر هذا الصلح مثالا احتذته الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد ربع قرن من الزمن حين عقدت صلح اوجزبرج عام ١٥٥٥ لتسوية المشكلة الدينية التى كانت تتفاقم يوما بعد يوم بين الولايات البروتستانتية والولايات الكاثوليكية فى المانيا .

وبوفاة زونجلى وبعقد معاهدة كابل الثانية فقدت الحركة البروتستنتية السويسرية الروح العسكرية التى اعتمدت عليها . وتحت زعامة انريك بولينجر heinrich Bullinger (١٥٠٤-١٥٧٥) - وهو زوج ابنه زونجلى وخليفته - لم تعد زيورخ مركز التجمع البروتستنت السويسريين ،بل أخذت برن وجنيف تظهران بالتدريج كالمراكز الرئيسية للحركة البروتستنتية .

جون كلفن John Calvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤) وانتشار الكلفينية فى فرنسا وجنيف :

بينما اقتصرت اللوثرية بدرجة كبيرة على المانيا والدول الاسكندنافية حيث ضعفت قوتها المحركة - اصبحت الكلفينية ، التى تطورت فى فرنسا

الانسانية التى انتشرت فى باريس بتشجيع من الملك فرنسيس الاول واستمر فى دراسة اللغتين اليونانية والعبرية ونشر على نفقته الخاصة تعليقه على رسالة سينكا الفيلسوف كاربعنوان:

Commontary on Senceas Treatise on Clemency(1532)

(وسينكا هو احد الفلاسفة ورجال الدولة المشهورين فى عهد الامبراطور نيرو Nero) ولايوجد فى التعليق الذى نشره اى دليل عن اتجاهاته البروتستنتية ،وعلى ذلك يمكننا القول بأن كلفن لم يظهر اى تعاطف نحو البروتستنتية قبل عام ١٥٣٣ ففى هذه السنة ارتبط ارتباطا وثيقا ب Gerard Roussel الذى سمح له فرنسيس الاول بعرض آرائه الخاصة عن الانجيل على جمهور فى اللوفر Louvre واتصل ايضا بجماعة الانسانية امثال Micholas Cop . وعندما طلب القبض على كوب بسبب هجومه على علماء السوربون الدينيين هرب الى بازل وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت ان كلفن كان له اتصال بكتاب كوب (Cop) ولما طلب القبض عليه هرب هو الآخر الى سانتون Saintonge حيث زار جاك لوفيفر Jacques le Fevre احد المصلحين الانسانيين المسنين فى نيكار Necar عاصمة نافار الفرنسية ولكنه عاد بعد ذلك الى نويون .

وفى عام ١٥٣٤ عندما قامت حركة اضطهاد البروتستنت الفرنسيين هرب كلفن الى استرازبورج Strassburg عن طريق ميتز Metz واستقر نهائيا فى بازل . وفى هذه المدينة التى اصبحت مدينة بروتستنتية منذ عام ١٥٢٩ اتصل كلفن ببعض الشخصيات البروتستنتية المهمة من امثال Nalfgeng Capito احد الاساتذة الانسانيين،وانريك بولينجر خليفة زونجلى. وفى بازل عكف على دراسة اللغة العبرية وقام بنشر

وجنيف قوة عدوانية تغلغلت في اجزاء كثيرة من غرب اوروبا والمانيا. وبدأ نمو هذه الحركة خلال الحقبة الاخيرة من حياة لوثر، واستمر نموها بقوة خلال الجزء الاخير من القرن السادس عشر كما فعلت اللوثرية خلال النصف الاول من هذا القرن".

ولد جون كلفن في ١٠ يوليو ١٥٠٩ في نويون Noyon في بيكاردي Picardy وهي تبعد ٦٠ ميلا في الشمال الشرقي من مدينة باريس، وتولى والده GErard Calvin مناصب هامة في نويون، وارسل ابناءه ومن بينهم جون الى المدرسة في المدينة حيث ظهر اهتمام جون بالدراسات الدينية، وفي عام ١٥٢٣ عندما بلغ جون الرابعة عشرة من عمره ارسله والده الى جامعة باريس، وبعد اتمام دراسته ذهب الى السربون Sorbonne حيث بدأ اهتمامه بالانجيل وبالدراسات الدينية، وبناء على رغبة والده ونتيجة لظروفه المالية ذهب جون في عام ١٥٢٨ الى اورليانز Orleans حيث تحول الى دراسة القانون، وفي اورليانز بدأ خويتهتم بالحركة الانسانية، وفي ١٥٢٩ ذهب الى بورج Bourges لكي يحضر محاضرات اشد اساتذة القانون الذي استخدم الطرق الانسانية في تعليمه، وكان لاقامته في هذه المدينة اهمية بالغة اذ تعرف على العالم اليوناني الالماني Melchior Wolmar الذي كانت له ميول لوثرية.

وفي عام ١٥٣١ عاد كلفن الى باريس، واثناء وجوده هناك علم بمرض والده الخطير فذهب الى نويون ولكن مات والده بعد ذلك بقليل، وكان لقرار الحرمان الذي صدر ضد والده من الكنيسة بسبب الاضطرابات في حسابات الكنيسة التي اشرف عليها والده اثر كبير في نفسه، وبعد وفاة والده لم يستمر كلفن في دراسة القانون وبدأ يهتم بالدراسات

الطبعة الاولى من كتابه " تعاليم الدين المسيحى" Institutes of the Christian Religion فى مارس ١٥٣٦٠ وهذا يتضمن احوال العقيدة الكلفينية ، واصول النظام الذى اراد كلفن انشاء الكنيسة الجديدة على اساسه .

ويبدو ان النصف الثانى من كتابه يعتمد الى حد ما على كتاب لوثر الاسر البابلى" The Babylonian Captivity . وفى الفصلين الاخيرين من الكتاب قام بهجوم شديد على الكاثوليكية .وطبع هذا الكتاب مرة ثانية ،وزيدت فصوله الى ١٧ فصلا ونشر باللغة اللاتينية فى استرازبورج فى عام ١٥٣٩٠ وقام كلفن بأول ترجمة فرنسية لهذا الكتاب فى عام ١٥٤١٠ وكان لنشر هذا الكتاب اثر هام وواضح ، اذ بدأ البروتستانت الفرنسيون يشعرون بوجود زعيم لهم قادر على ان يتحدث باسمهم .

واخيرا استقر به المقام فى جنيف حيث عمل على توطيد دعائم مذهبه الجديد، وظل مقيما بها حتى توفى فى عام ١٥٦٤٠ ويتلخص مذهب كلفن فى المبادىء الآتية :

١ - الكتاب المقدس وحده دون سواه هو المرجع الذى يعتمد عليه فى جميع المسائل الدينية .

٢ - السيد المسيح وحده هو الذى يشفع للناس لدى الله .

٣ - التبرير يكون بالايمان وليس بالاعمال .

وقد اتفق مذهب كلفن مع مذهب لوثر فى هذه المبادىء الثلاثة .

٤ - الايمان بقضاء الله وقدره ،فالله سبحانه وتعالى قد كتب جميع الاعمال التى تصدر عن كل انسان من مولده حتى وفاته فلا سبيل الى تغييرها ويسمى هذا المبدأ القدرية .

بين الكنيسة و الدولة فلا تتدخل الدولة فى شئون الكنيسة .

وكان كلفن يرى ان للكنيسة مهمة روحية ،وهى بذلك تختلف كل الاختلاف عن الحكومة التى لها مهمة علمانية اى غير دينية مباشره وتأسيسا على مبدأ الفصل بين الكنيسة و الحكومة تكون الكنيسة مستقلة تحكم نفسها بنفسها وهى التى تقرر نظامها وقانونها وطقوسها ولاتكون الكنيسة فى ظل هذا النظام الكلفنى مؤسسة خاصة برجال الدين دون سواهم، بل هى مؤسسة الجميع انها الجمهورية المسيحية ،يشترك العلمانيون مع رجال الدين فى ادارة شئون الكنيسة . والشعب هو الذى يختار القس وقد قسم كلفن مهام الكنيسة ورجال حكومتها بحيث ضمنت العلمانيين ورجال الدين معا على النحو الاتى :

أ - الوعظ والارشاد ويقوم به القس .

ب - تفسير الكتاب المقدس ويعهد به الى كبار العلماء من رجال الدين واطلق عليهم الدكاترة .

ج - مراقبة الجوانب الخلقية فى حياة الافراد ويقوم بها علمانيون.

د - رعاية الفقراء ويقوم بها علمانيون ايضا .

٦- ان وجود الحكومة العلمانية امر لا مناص منه فى المجتمع المسيحى للذود عن تعاليم الدين الصحيح.ولم يكن كلفن يهتم كثيرا بالشكل الدستورى الذى تأخذه الحكومة العلمانية ، فسواء عنده اذا كانت هذه الحكومة جمهورية اوملكية ،ديمقراطية او استبدادية طالما كانت تحقق الاهداف التى من اجلها قامت . وفى مقدمة هذه الاهداف الاهتمام بالدين وغرس مبادئه فى نفوس الافراد. وقرر كلفن انه واجب المسيحى هو الخضوع التام للحكومة الزمنية طالما كانت هذه الحكومة ملتزمة بحدود الدين. وكان معنى هذا الشرط انه اذا حادت الحكومة العلمانية عن الحق وخرجت على اوامر الدين كان من حق رعاياها ان يثوروا عليها

وهذا ما حدث فعلا عندما نظم اتباع كلفن مقاومة عنيفة فى فرنسا وفى الاراضى المنخفضة ضد الحكومة فى كل من هذين الاقليمين ٠

ولقد أتيحت الفرصة لان توضع تعاليم كلفن موضع التنفيذ لاول مرة فى جنيف ، وذلك عندما طلب وليم فارل Farel وهو احد دعاة الاصلاح بهذه المدينة من كلفن ان يعاونه فى تنظيم الكنيسة بها ،فاستقر كلفن بجنيف فى اواخر عام ١٥٣٦ ،ولكن سرعان ما صار الناس ينفرون من كلفن وفارل وينفضون من حولهما بسبب شدة او صرامة نظام الكنيسة التى اراد كلفن تأسيسها ،وعنف التعاليم التى اراد تطبيقها ٠فاضطر كل من كلفن وفارل الى مغادرة جنيف عام ١٥٣٨ ، ولكن لم يلبث ان عاد كلفن الى جنيف عام ١٥٤١ بسبب استدعاء شعبها له ، فبقى بها حتى مات كما ذكرنا قبل ذلك

والسنوات الاخيرة من حياة كلفن لا تتصل اتصالا وثيقا بمدينة جنيف ،فقد امتد نشاطه ليشمل حركة الاصلاح الدينى فى اتساعها وشمولها شتى انحاء اوروبا ٠واصبح كلفن هو القوة الموجهة لحركة الاصلاح الدينى فى فرنسا والاراضى المنخفضة وانجلترا واسكتلندا وبولندا ٠ وفى خلال السنوات الاخيرة التصق به رجل يصغره بعشر سنوات هو تيودور دى بز de Beze كان قد نزح الى جنيف عام ١٥٤٨ واصبح الساعد الايمن لكلفن، وكان اول رئيس للاكاديمية التى نجح كلفن فى انشائها عام ١٥٥٩ وسيقوم هذا الرجل بدور بارز فى صفوف بروتستانت فرنسا (١٥١٩-١٦٠٥)

وكانت الكلفينية بسبب شدة وصرامة تعاليمها ،وبسبب كفاحها ضد مخالفيها وبفضل النظام الدقيق الذى وضعه كلفن لكنيستها ، منبع القوة الدينية التى استطاعت ان تصمد فى النضال الطويل ضد الكاثوليكية بعد ان انتعشت كنيسة روما ٠ وقد حقق اتباع كلفن النصر فى حرب

الهوجونوت فى انحاء شتى من الاقاليم الفرنسية ،وهم الذين أنشأوا الكنيسة البروتستنتية فى فرنسا ،وهم الذين انتزعوا بكفاحهم المرير إستقلال هولندا من اسبانيا وامتداثرهم الى انجلترا واسكتلندا ، واخذت المقاطعات البروتستنتية فى سويسرة الشرقية بالحركة الكلفينية وجاب اتباع المذهب الكلفينى البحار والمحيطات فقاموا برحلات الى شمالى امريكا وجنوبى افريقيا حيث أسسوا المستعمرات ،وبرز أثرهم فى الاقاليم الشرقية الساحلية فى امريكا الشمالية منذ قامت السفينة ماى فلور My Flower برحلتها المشهورة عام ١٦٢٠ حاملة المضطهدين من البيوريتان على عهد جيمس الاول ملك انجلترا (١٦٠٣ - ١٦٢٥) واسسوا الاقليم الذى عرف باسم انجلترا الجديدة New England وكانت الحركة الكلفينية ايضا مصدرا استقى منه الفقه البروتستنتى مبادئ واضحة محددة تحديدا دقيقا .

الفصل السابع

حركة الاصلاح الكاثوليكى او الاصلاح الدينى المضاد
The Counter-Roformation(La Contre-Reforme)

حققت البروتستنتية مكاسب كبرى واكتسحت امامها الكاثوليكية ،فان ثلاثة ارباع المانيا قد نبذت ولاءها لكنيسة روما ،وقطعت انجلترا علاقاتها التى كانت تربطها بروما ،واعتنقت الدانمرك والسويد والنرويج الحركة اللوثرية وانتقلت حركة الاصلاح الدينى الى فرنسا وهولندا ، واجتذبت الآراء الجديدة جموعا غفيرة من سكان بولندا وبوهيميا ،ولم يقف الامر عند هذا الحد، فان شبه الجزيرة الايطالية لم تخل من انصار يؤيدون البروتستانتية قلبا وقالبا . وفى خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحى فى اوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا .

ولما استفاق الكاثوليك على الحقيقة التى كانت مروعة بالنسبة لهم، وهى انتشار البروتستنتية فى اوروبا طولا وعرضا ،ادركوا انه لم يعد فى الامكان تأجيل اصلاح الكنيسة الكاثوليكية الذى طالما تنادى اليه المصلحون قبل ظهور مارتن لوثر ومن بعده واتخذت البابوية منذ حوالى منتصف القرن السادس عشر اجراءات عملية لاصلاح الكنيسة ،وكان هذا الاصلاح هو رد فعل لحركة الاصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر وغيره من المصلحين، ولذلك يطلق على حركة الاصلاح الكاثوليكى عبارة الاصلاح الدينى المضاد، او الثورة الدينية المضادة فى القرن السادس عشر وتطلق عليها المراجع الانجليزية (Roman Catholic Reaction)

كان الاصلاح الدينى المضاد يختلف اختلافا تاما عن الاصلاح الدينى الذى بدأ فى المانيا على يد لوثر ثم انتشر الى اصقاع اخرى فى اوروبا

لقد كان الاصلاح الاخير حركة ثورية تناولت اساس العقيدة ونظم الكنيسة وطقوسها. اما الاصلاح الديني المضاد فكان يهدف الى تطهير الكنيسة الكاثوليكية مما لحق بها من ضروب الفساد في انظمتها وسلوك رجالها على ان يمتد الاصلاح فيشمل البابا ومن دونه من جميع فئات رجال الدين او حسب التعبير الذى تردد على السنة دعاة الاصلاح في ذلك العصر الرأس والاعضاء. وكان هناك اجماع في الاوساط الكاثوليكية على ان المجتمع الكنسي ينضح بهذه الصورة المعتمة من الانحلال والفساد، وكانت هذه الاوساط ترى اصلاح الكنيسة عن طريق القضاء على هذه المساوئ ابتغاء الابقاء على وحدة الكنيسة واسترداد مواقعها التى فقدتها واستعادة المكانة السامية التى تبوأتها البابوية في العصور الوسطى، ولكنها كانت حريصة على الا يؤدي الاصلاح المنشود الى اضعاف سلطة الكنيسة أو المساس بشخص البابا، فهو نائب المسيح على الارض وخليفة القديس بطرس فلم يكن هدف حركة الاصلاح الدينى المضاد هدفا ثوريا هو الاطاحة بالكنيسة والبابوية، اذ كانت حركة اتسمت بالطابع المحافظ الذى يحرص على ابقاء القديم على قدمه مع الاهتمام باصلاح النظم الكنسية وتجنب ادخال تغييرات اساسية في العقيدة. وهكذا كانت نظرة الكاثوليك الى اصلاح كنيستهم: العمل على ايجاد ادارة امينة مخلصة على درجة عالية من الكفاية والنزاهة والالتصاق بالدين.

لجأت البابوية في سبيل انهاض الكنيسة الى وسائل مشروعة ووسائل غير مشروعة، فمن الوسائل المشروعة عقد المجمع المسكوني لتحديد وتعريف العقيدة الكاثوليكية وتطوير نظم الكنيسة للقضاء على المساوئ والمفاسد التى لوثت سمعتها وكانت الوسيلة الثانية اصلاح المنظمات الدينية بعد ان لحقها التدهور وانشاء هيئات دينية جديدة لدعم

نفوذ البابوية والتمكين للمذهب الكاثوليكي بالوعظ والارشاد والتعليم وكان على رأس هذه المؤسسات جماعة اليسوعيين او الجزويت . أما الوسائل غير المشروعة فكان من بينها الفهرس وهو عبارة عن سجل يحوي اسماء الكتب والرسائل والمنشورات التي تعتبرها البابوية خروجا على المذهب الكاثوليكي، ولم تقنع البابوية خروجا على المذهب الكاثوليكي ولم تقنع البابوية بتحريم تداولها بين الجماهير بل عملت على احراقها ويعتبر هذا الاجراء بشقيه حجرا على حرية الرأي والنشر والنقد. ولجأت البابوية ايضا الى محاكم التفتيش التي كانت اداة تقتيل وسوط وتنكيل بالخارجين على كنيسة روما .

١ - مجمع ترنت :

كان من مظاهر سياسة التراخي التي اتبعتها البابوية اول الأمر ازالة الحركة اللوثرية ان البابا كلمنت السابع (١٥٢٣-١٥٣٤)- وهو من اسرة ميدتشي - هادن الحركة اللوثرية بسبب العداوة الشديدة التي اضطرمت بينه وبين الامبراطور شارل الخامس . ولما توفى هذا البابا في عام ١٥٣٤ انتخب مكانه اسكندر فارنيس Farnese واتخذ لنفسه اسم البابا بول الثالث (١٥٣٤-١٥٤٩) وكان دبلوماسيا ذا دهاء وله دراية واسعة بادارة الكنائس واعمال الديوان البابوي مدة ناهزت الاربعين عاما .
وباعتلائه كرسي البابوية ينتهي عهد بابوات النهضة ويبدأ عهد آخر تعاقب فيه عدد من البابوات عكف معظمهم على اصلاح الكنيسة والدفاع عن الكاثوليكية ومهاجمة البروتستنتية والكفاح ضد الاتراك العثمانيين بحيث لم ينته القرن السادس عشر حتى كان المد البروتستنتي قد توقف واستطاع معظم اولئك البابوات بما توفر لديهم من ادوات ووسائل ان ينقلوا نشاطهم الى ارض البروتستانت وان يستعيدوا للكنيسة الكاثوليكية بعض

مواقع كانت قد فقدتها .

وقد نبذ بول الثالث سياسة اسلافه بابوات النهضة وكرس وقته لاصلاح الكنيسة وعين عددا من الكرادلة الجدد عرف من ماضيهم بأنهم دعاة الاصلاح المخلصين ،وشكل لجنة ضمت صفوف من اعلام رجال الدين لاقتراح الاصلاحات المطلوبة ،واوفد في عام ١٥٣٥ الى المانيا مبعوثا ليعرض على الامبراطور شارل الخامس عقد مجمع مسكوني يدعى اليه ممثلون للبروتستانت فضلا عن الكاثوليك وقد واجه البابا عدة صعاب في عقد هذا المجمع المسكوني، كان في مقدمتها موقف كل من فرنسوا الاول ملك فرنسا وبروتستانت المانيا من هذا المجمع المقترح عقده ،ثم اختيار المدينة التي يعقد فيها المجمع جلساته . وفي عام ١٥٤٢ وقع الاختيار اخيرا على مدينة ترنت Trent ومع ذلك فان العداء الشديد بين الامبراطور شارل الخامس والملك فرنسوا الاول قد اخر اجتماع المجلس ،فلم يعقد جلسته الافتتاحية الا في ١٣ ديسمبر عام ١٥٤٥،واجتمع المجمع تحت رعاية البابا والامبراطور. ولم يحضر البابا جلسات المؤتمر على الرغم من تصريحاته المكررة بعزمه على الاشتراك فيه شخصيا ،وقد حضره نيابة عنه ثلاثة كرادلة ترأسوا جلساته .

وقد تعرض المجمع المسكوني لازمات عنيفة ،وتوقفت اعماله عدة مرات بلغت في احداها عشر سنوات واهتز مركزه اهتزازا شديدا وكادت تتبدد الآمال التي علقها عليه انصار البابوية ، مما جعل هذا المجمع من المجامع الفريدة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فقد استمر ثمانية عشر عاما (١٣ديسمبر ١٥٤٥-٤ ديسمبر ١٥٦٣) وعاصر خمسة بابوات تعاقبوا على كرسي البابوية في هذه الفترة .

وتنقسم قرارات المجمع الى مجموعتين : مجموعة تتعلق باصلاح نظام

الكنيسة ،ومجموعة تختص بتحديد العقيدة الكاثوليكية . وتتصل قرارات المجموعة الاولى بالبابا والكرادلة والاساقفة والقسس والرهبان ومن اليهم من طوائف السلم الكهنوتي وتنظيم حياتهم وتزويدهم بثقافات متخصصة . قرر المجمع ان سلطة البابا مستمدة من المسيح ،وتأسيسا على ذلك يكون للبابا السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية وقرر المجمع ان يكون الحد الادنى لسن الاسقف ثلاثين عاما ولسن القسيس خمسة وعشرين عاما ، وحرم زواج القسس وحتم على القسس والرهبان ان يتحلوا بالصلاح والتقوى وان يكونوا قدوة طيبة في اقوالهم وتصرفاتهم واسلوبهم في الحياة ، وجعل للاساقفة الحق في مراقبة سلوك القسس وتوقيع العقوبات عليهم اذا ارتكبوا ما يخل بقوانين الكنيسة او ما يتنافى مع الاداب العامة ، وحتم المجمع على الاساقفة ان يقيم كل منهم في مقر اسقفيته . وطبق هذا المبدأ على كافة رجال الدين على اختلاف درجاتهم وحرم الجمع بين عدد من الابرشيات ،في يد شخص واحد ، وقرر استخدام اللغة اللاتينية في الصلاة وانشاء مدارس كانت بمثابة معاهد تدريب دينية يتلقى فيها رجال الدين ثقافة دينية واسعة ليكونوا على علم عميق بواجباتهم رفعا لمستواهم العلمي والخلقي .

اما قرارات المجموعة الثانية فانصبت على تحديد المذهب الكاثوليكي وتمييزه عن المذهب البروتستنتي تمييزا تاما . رفض المجمع عقيدة التبرير بالايمان التي نادى بها لوثر ، كما رفض المجمع مذهب القدرية الذي اخذ به كلفن . ورفض ايضا ماكان يدعو اليه اتباع لوثر وكلفن من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده في تفسير العقيدة وغيرها من مسائل الفقه الديني . وقرر المجمع ان عقائد الكنيسة تستند اساسا الى الكتاب المقدس ثم الى التقاليد الكنسية القديمة ،وقرر ان النسخة

اللاتينية من الكتاب المقدس والتى تعرف باسم Vulgate هى النسخة الوحيدة المعتمدة. كما تعرض المجمع الى طائفة من المسائل تتصل بصميم العقيدة الكاثوليكية.

خرجت البابوية منتصرة من مجمع ترنت، فقد جدد هذا المجمع تعاليمها ووطد نظامها وقضى على عدد من المساوئ التى استشرت فى مجتمع الكنيسة الكاثوليكية، وانهى المناقشات الفقهية الدينية التى كانت تثار من وقت الى آخر فى اوساط الكاثوليك وتثير بينهم الضغائن واستعادوا ثقتهم بأنفسهم ودبت منذ ذلك الوقت روح من الحماس الدافق فى اوساط الكاثوليك سواء رجال الدين او العلمانيين وعقدوا العزم على الكفاح فى شتى صوره واشكاله ضد البروتستانت . وقد قضى المجمع على كل محاولة لحسم الخلاف المذهبى بين الكاثوليك والبروتستنت او التقريب بينهم اذ فصل المجمع فصلا حادا بين المذهبين ووضع حدا لمحاولات التوفيق واعادة الوحدة الى كنيسة روما. وتبعا لذلك فقد تعذر على المجمع اعادة البروتستانت الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، والواقع ان النيات لم تكن خالصة، وكان كل من انصار المذهبين متمسكا بآرائه لا يبغى عنها حولا، ولذكانت للبابوية اغلبية عددية فى المجمع وكان مندوبو البابا هم الذين يرأسون جلساته وتسللوا خططهم داخل اروقة المجمع وخارجه ولم يصدر قرارا الا بموافقتهم . وكثيرا ما احبطت مشروعات قرارات كانت تتعارض مع وجهات نظر البابا. والحق ان هذا المجمع قد اسدى خدمة جليلة للقضية الكاثوليك ولقد اعتمدت الكنيسة الكاثوليكية فى نشر العقيدة الكاثوليكية الصريحة ومقاومة العقائد المصلحة الاخرى، ومحاولة بسط سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على اوروبا من جديد على الادوات الآتية :

جماعة الجرويت ، والفهرس ،ومحاكم التفتيش .

٢ - الجزويت (Jesuits) اواليسوعيون

كان من دلائل انتعاش الكاثوليكية نشاط الطوائف ، او الجماعات الدينية القديمة مثل الفرنسسكان، والدومنيكان، ثم ظهور غير هذه من الطوائف والاحزاب الدينية الجديدة ،وكان الجزويت او اليسوعيون اهم هذه الجماعات الجديدة ذات الاثر البعيد فى المحافظة على كيان الكنيسة .ولقد نشأت حركة الجزويت فى اسبانيا ، وهى بلاد عرفت بأنها بلاد الرهبان. ومن بين الشعب الاسبانى المتعصب لكاثوليكيته ظهر رجل تكمن فى نفسه روح صليبية عارمة انشأ جماعة اليسوعيين اوالجزويت ويسمى دون انيجو لوبيز دى ركالدى Don Inigo Lopez de Recalde وقداشتهر فى التاريخ باسم اجناتيوس ليولا Ignatius Loyola (١٤٩١-١٥٥٦).

ولد ليولا من اسرة شريفة اسبانية ، واشتغل فى مطلع حياته فى بلاط الملك فرديناند الكاثوليكى صاحب اجرونه ، ثم التحق بخدمة الجيش الاسبانى على عهد الامبراطور شارل الخامس ،وجرح فى احدى المعارك فى عام ١٥٢١. فأجبره هذا الجرح الذى قضى عليه بالعرج طول حياته على الاعتكاف مدة قرأ خلالها كتب حياة او سيرة القديسين حتى اذا شفى من جرحه فى السنة التالية (١٥٢٢) عزم على ان يكرس حياته لخدمة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء. ثم حج الى بيت المقدس عام ١٥٢٤ وتوفر فى السنوات التالية على التزود من العلم والثقافة. فدرس فى جامعات برشلونة والكالا ثم التحق فى عام ١٥٢٨ بجامعة باريس ،وقضى فيها سبع سنوات درس خلالها الفلسفة وعلم اللاهوت وحصل على درجة الدكتوراه فى عام ١٥٣٤. وكان ليولا قد بدأ يفكر فى تأسيس جماعته المعروفة منذ ان

اعتزم الحج الى بيت المقدس وكان غرضه الظاهر استخدام هذه الجماعة في انتزاع بيت المقدس من ايدى المسلمين . وفى باريس جمع ليولا الاعوان حوله .وفى اغسطس ١٥٢٤ تألفت نهائيا الجماعة الجديدة وكان عدد اعضاؤها وقت تأسيسها سبعة فقط ، اما مبادؤهم فكانت الطهر والعفاف ، ونبذ الثروة والعيش فى فقر، وتعهد الاعضاء بمجرد الفراغ من دراستهم بأن يرحلوا الى بيت المقدس فى خدمة السيد المسيح، فاذا تعذر ذلك عليهم قدموا انفسهم لخدمة البابا على اساس الطاعة التامة لجميع اوامره ونواهيه . وعلى ذلك فانه عندما تعذر على الجماعة ان تحج الى بيت المقدس بسبب الحرب الدائرة مع العثمانيين ، عرض ليولا خدماته وخدمات جماعته على البابا على اعتبار ان المسيحية مهددة بسبب انتشار المذاهب البروتستنتية الجديدة باخطار اقرب فى اثارها المباشرة على الكنيسة من خطر العثمانيين .وكان مجئ ليولا الى روما فى اكتوبر ١٥٢٩ وذلك فى وقت كانت مشروعات البابا بول الثالث الاصلاحية تنبئ بتغيير ظاهر فى موقف الكنيسة التي صارت تريد الآن الاصلاح جديا مادام هذا الاصلاح لا ينال شيئا من نفوذ وسلطان البابوات انفسهم. وعلى ذلك فقد رحب البابا بقوليا خوانه واجاز لهم الخطابة والوعظ والدعوة للارشاد فى روما وفى ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ اصدر البابا بول الثالث مرسوما بابويا بالموافقة على جماعة الجزويت وعلى نظامها . وكان من خصائص هذا النظام الطاعة والولاء للبابا وتكريس حياة افراد الجماعة لخدمة الكنيسة وفى أى مكان يطلب منهم ذلك، ثم الطاعة والولاء كذلك لقائدهم الاعلى، والخضوع لنظام الحزب وعلى ذلك صار لقائد الجزويت الاعلى حسب هذا النظام السلطة التامة على بقية الاعضاء ،وعلى ان يستمع فى المسائل الهامة الى رأى مجلس يتألف من اكبر عدد مستطاع من الاعضاء قبل الفصل فيها ،وفى ابريل عام

١٥٤١ انتخب اجناتيوس ليولا رئيسا للجماعة ،ولقد بقى ليولا فى قيادة الجماعة حتى وفاته فى ٣١ يوليو ١٥٥٦.

ولقد تنوعت طرق الجزويت فى محاربة البروتستنتية . كان بعضهم يشتغل بالسياسة لخدمة البابوية ،فكان منهم مستشارون ووزراء ذوو نفوذ. على ان اكبر ميدان اصابوا فيه نجاحا رائعا كان ميدان التربية والتعليم. رأى اجناتيوس ليولا ان البروتستنت اعتمدوا فى مهاجمة كنيسة روما على دعامتين كبيرتين هما جهل رجال الدين الكاثوليك وفسادهم .ولهذا وضع خطته على اساس معالجة هذين الداءين بالتعليم السليم المتزن بين اعضاء الجزويت ،ثم رأى ان يمد جهوده التعليمية خارج هذا النطاق المحدود رغبة اعداد اجيال من الشباب الكاثوليكى يجمعون الى الثقافة الدينية كفاية عملية تأكيدا للصلة بين الدين والحياة وربطا بين العقيدة والسلوك. وقد جاءت خطط التعليم ومناهج الدراسة التى وضعها الجزويت بحيث تحقق للطالب ثقافة دينية عميقة وواعية الى جانب ثقافة مهنية تؤهله للمشاركة فى انواع النشاط والزيادة والقدوة الطيبة .ولذلك كانت مدارس الجزويت من انجح المدارس التى شهدتها اوروبا ،اذ امتازت بادارتها الحازمة ونظمها التعليمية ،وقد تفانى مدرسوها فى مهنة التدريس حتى فاقوا علماء النهضة الذين كانوا وقتئذ يحتكرون العلم.

وكان من اثر جهودهم ان انتعشت الكنيسة الكاثوليكية وثبتت سيادتها فى اوروبا وانتشر المذهب الكاثوليكى فى انحاء نائية من العالم مثل بعض جهات فى امريكا والشرق الاقصى ، كما نجحوا فى وقف تيار البروتستنتية بدرجة كبيرة فى كل من فرنسا وبولندا واملاك الهابسبرج ، ونجحوا كذلك فى القضاء على البروتستنتية عموما فى ايطاليا واسبانيا ،فبقيت كل منهما خاضعة للكنيسة الكاثوليكية .

٣ - الكتالوج او الفهرس (Index) :

كان منع تسرب الافكار الدينية الحديثة الى الكاثوليك من أولى الوسائل غير المشروعة التى اتخذتها البابوية لدعم كنيسة روما . وقد اثيرت هذه المسألة امام المجمع المسكونى العام المنعقد فى مدينة ترنت وقد اتخذت مناقشات الاعضاء اتجاها معينا هو بحث التدابير التى تؤدى الى منع تداول الكتب التى تتعارض مع المذهب الكاثوليكى او التى ترمى الى تغيير القوانين الكنسية او التشكك فيها . وقد اطلق عليها اسم الكتب المهرطقة ومعناها الكتب التى تحمل بين طياتها كفرا وزندقة . ولم يتخذ المجمع المسكونى قرارا محددا فى هذا الموضوع ، بل احاله الى البابا يتصرف فيه بما يتمشى مع المبادىء الكاثوليكية التى اقرها المجمع . ولكن افصح المجمع فى نفس الوقت من رغبته فى وضع كتالوج او فهرس يضم اسماء جميع الكتب التى تحرم قراءتها على جميع الكاثوليك .

ولم تغب هذه المسألة من اذهان رجال الكنيسة فى روما فقد كان البابوات فى اواخر القرن الخامس عشر يفرضون العقوبات على المؤلفين واصحاب دور الطباعة والنشر وكل من يضبط حائزا لكتاب من هذا القبيل . ومنذ عام ١٥٠١ فرضت البابوية رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة فى روما والولايات البابوية ، ثم تكلفت بهذه الرقابة محاكم التفتيش منذ عام ١٥٤٢ ، واصبحت الرقابة صارمة بكل ما تحمل هذه اللفظة من معان . كما ضمت ايضا مؤلفات ميكيافيللى وارزمس وكان المعنى المستفاد من اندراج الكتب فى الفهرس او الكتالوج هو وجوب احراق هذه الكتب .

وفى اثناء الفترة التى توقفت فيها جلسات مجمع ترنت وامتدت عشر

سنوات (١٥٥٢-١٥٦٢) وضع البابا بول الرابع سنة ١٥٥٩ كتالوجا او فهرسا اسمه Index Libroium Prohibitiun اى فهرس الكتب المحرمة ، ضم اسماء الكتب التى تحرم قراءتها او تداولها بين جميع الكاثوليك وانذار البابا كل فرد يضبط لديه كتاب منها بقرار الحرمان يصدر ضده تأسيسا على انه ارتكب خطيئة كبيرة ،وكان من ضمن الكتب التى ادرجت فى هذا الكتالوج رسائل مارتن لوثر وزونجلى وكلفن وغيرهم من قادة حركة الاصلاح الدينى. ولقد نقد مجلس ترنت هذا الفهرس لقصوره ونقص محتوياته وعلى ذلك فقد اعد فهرس جديد فى عام ١٥٦٤ ثم تكررت مراجعة هذا الفهرس مرات متعددة حتى عام ١٥٩٦ واستمر معمولا بهذا الفهرس الاخير مع بعض اضافات عليه من وقت لآخر الى اواسط القرن الثامن عشر .

وكان لنشر هذه الفهارس آثار ظهرت على وجه الخصوص بين الامم الكاثوليكية قوية ـ فى اسبانيا والبرتغال ، وبافاريا ،وايطاليا وبلجيكا وحالت من الاطلاع على ثقافة وعلم الامم الشمالية البروتستنتية الامر الذى قد عاق تقدم الحضارة ، لأن العمل بهذه الفهارس كان حائلا خطيرا دون انتشار العلم والمعرفة . وكان الفهرس من بين الوسائل التى اعتمدت عليها ادارة الكنيسة والاخرى هى محاكم التفتيش فى تعقب الخارجين على الكاثوليك واضطهادهم .

٤ ـ محاكم التفتيش Inqusition

كانت الوسيلة الاخرى غير المشروعة التى لجأت اليها كنيسة روما فى حركة الاصلاح الدينى المضاد هى محاكم التفتيش وتخويلها سلطات واسعة فى تعقب المخالفين للمذهب الكاثوليكى والتنكيل بهم بعد تعريضهم لاقصى انواع التعذيب واهدار آدميتهم اعتقادا منها ان هذا التنكيل سوف يؤدى الى القضاء قضاء تاما على المذاهب الدينية الخارجة عليها .

ولم تكن محاكم التفتيش بدعة استحدثتها البابوية فى القرن السادس عشر فى كفاحها ضد البروتستنت وغيرهم ،فهى نظام قديم استعانت به فى العصور الوسطى للقضاء على الحركات الدينية التى خرجت على تعاليم كنيسة روما . واستخدمها البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) كوسيلة من الوسائل التى اعتمد عليها فى سحق حركة الاليجانس (نسبة الى مدينة البى Albi بفرنسا) فى جنوبى فرنسا فى مطلع القرن الثالث عشر. وفى بداية العصور الحديثة شهدت اسبانيا بعث محاكم التفتيش للقضاء اولا على اليهود ، اذ كان الاسبانيون يمقتونهم مقتا شديدا ،وكانوا يقومون من وقت الى آخر بمذابح جماعية لليهود. كما لقى المسلمون اقسى صنوف الاضطهاد فى اسبانيا . فبعد سقوط غرناطة فى ١٤٩٢، تعرضت البقية الباقية من المسلمين الذين ظلوا فى البلاد لاقسى صنوف الاضطهاد ،ثم صدرت الاوامر باحالتهم الى محاكم التفتيش لحسم مشكلتهم. وبعد ان عقد زواج فرديناند حاكم اراجونه على ايزابيلا حاكمة قشتالة عام ١٤٦٩ وتم توحيد التاجين طلبا من البابا فى ذلك الوقت الاذن لهما فى ادخال نظام محاكم التفتيش فى بلادهما لمكافحة المسلمين واليهود فى شبه جزيرة ايبيريا ولقد لقى هذا الطلب استجابة فورية من البابا فى نوفمبر ١٤٧٧.

وفى القرن السادس عشر حين استفحل امر الحركات الدينية الانفصالية عن كنيسة روما رأى البابا بول الثالث ان يتخذ من محاكم التفتيش سلاحا فتاكا لوأد هذه الحركات فأصدر فى عام ١٥٤٢ مرسوما بانشاء محاكم التفتيش . وكان المرسوم البابوى يقول ان اعمال المجمع المسكونى تتعثر بينما تزداد موجة الهرطقة يوما بعد يوم ، ويستفحل خطرها ولذلك بات الموقف يتطلب اجراءات معينة وكان من بين هذه الاجراءات تعيين ستة من الكرادلة خولهم المرسوم سلطات واسعة بصفتهم وكلاء أو مندوبين للبابا فى جميع انحاء اوروبا الكاثوليكيه بما فيها شبه الجزيرة

الايطالية نفسها وما وراء جبال الالب وجعل المرسوم منهم ايضا اعضاء في محاكم التفتيش لهم الحق في محاكمة المتهمين بالهرطقة وكذلك الافراد الذين يساندونهم . ولهم الحق في ايداعهم السجون قبل محاكمتهم ، واذ ثبتت التهمة عليهم صدرت بحقهم الاحكام بتوقيع العقوبات المقررة في القانون الكنسي ومصادرة ممتلكاتهم .

ولقد لقيت محاكم التفتيش دفعة قوية على عهد البابا بول الرابع ونظر اليها على انها وسيلة فعالة يجتث بها بذور الديانات والمذاهب التي تتعارض مع المذهب الكاثوليكي . وكانت هذه المحاكم ذات طابع ديني بحيث تستمد سلطانها من البابا مباشرة وكان قضاتها من الكرادلة المعروفين بتعصبهم الشديد للمذهب الكاثوليكي ،ولم يكن للحكومات دخل في اعمال المحاكم الا في قيامها بتنفيذ الاحكام الصادرة عنها .

وكان نجاح محاكم التفتيش نجاحا هزيلا ، فهي لم تنجح نجاحا تاما في القضاء على المذاهب المخالفة للكاثوليكية الا في ايطاليا واسبانيا وكان هذان الاقليمان اقل البلاد تقبلا للمذاهب الجديدة ولذلك كان اتباع هذه المذاهب من قلة العدد بحيث كان تأثيرهم ضعيفا جدا في المجتمعات الايطالية والاسبانية ، وفيما عدا ذلك فقد اثارت محاكم التفتيش باجراءاتها الشاذة واحكامها القاسية مزيدا من الضغائن والعداوة في نفوس البروتستانت في شمالي اوربا .وفي غربيها وجعلتهم يصرون على الابتعاد عن كنيسة روما ومقاومة المحاولات التي كانت تبذل لارجاعهم الى حظيرة الكاثوليكية . ولذلك يقرر معظم المؤرخين ان جهود جمعية الجزويت وقرارات مجمع ترنت هي التي اسهمت الى حد كبير في النجاح الذي حققته حركة دعم الكنيسة الكاثوليكية في نهاية القرن السادس عشر . اما محاكم التفتيش فلم يكن لها ادنى

اثر فى هذا النجاح وفضلا عن ذلك فقد استخدمت محاكم التفتيش اداة سياسية لتأييد مصالح الملكية كما حدث فى اسبانيا، وفى هذا خروج على اهدافها التى من اجلها انشئت . كما ان النشاط الزائد الذى بذلته فى الاراضى المنخفضة ادى الى انفجار الثورة وضياع هولندا من يد اسبانيا . واخيرا فقد أساءت محاكم التفتيش الى الكنيسة الكاثوليكية التى استخدمت هذه المحاكم حينا، وحينا آخر استجابت لرغبات الملوك فى الاذن لهم باستخدامها كأداة للعسف والظلم والقمع والاخذ بوسائل التعذيب مجانبة للعدالة .

الفصل الثامن

عهد الصراع الدينى فى اوروبـــــــا

أوجد ظهور المصلحين الذينما كانوا يحجمون من المقاومـــــة ويدافعون بكل الطرق عن عقائدهم، ويعملون على نشرها، قوتين ظاهرتيـن كانتا على اكمل مايكون من ضروب التنظيم والاستعداد للدخول فى كفــاح طويل من اجل العقيدة. كانت احدى هاتين القوتين بروتستنتية كلفينية ومقرها فى جنيف، والاخرى كاثوليكية ومقرها روما، وسرعان ما ادى ظهور هاتين القوتين المنظمتين الى الزج بأوروبا فى حروب دينية عنيفــة استمرت من اواسط القرن السادس عشر الى الثلث الاول من القرن السابع عشر تقريبا. ولقد زاد من شدة هذا النضال ونشوبه ان الدولة الوطنيـــة الحديثة كانت تخشى من ان تؤدى الاختلافات الدينية الى انقسامات داخلية سياسية، فتتعرض وحدتها الى الزوال.

ولم تشتبك الكاثوليكية والكلفينية فى هذا العهد فى نضــال صريح بين كنيستين متخاصمتين، احداهما منتعشة وهى الكاثوليكيـــة، والاخرى مهاجمة وعنيفة وهى الكلفينية بل ان هذا النضال كان يقع تحت ستار رغبة الدولة الوطنية الحديثة فى ان تجتمع لديها اسباب السلطة الكاملة، او انه كان يقع تحت ستار رغبة هذه الدولة ذاتها فى تحقيــق اغراضها الوطنية، او محاولة المحافظة على التوازن الدولى فى اوروبا ولذلك فقد اندمج النضال الدينى بالنضال السياسى فى هذه الفترة واستمر الحال على ذلك الى ان استطاع ان يتحرر هذا الصراع تدريجيا، اثنـــاء حروب الثلاثين سنة فى الثلث الاول من القرن السابع عشر من الاعتبارات الدينية وعندئذ اصبح صراعا سياسيا توجهه اغراض الدول، من وطنيـــة وقومية فى الداخل والخارج على السواء.

١ ـ الحروب الدينية فى فرنسا :

لم تكن فرنسا فى معزل عن حركة الاصلاح الدينى ففى عهد فرنسوا الاول (١٥١٥ـ١٥٤٧) بدأت المذاهب الدينية الجديدة وخصوصا اللوثرية تنتشر فى فرنسا ومع ان فرنسوا شجع هذه الحركة فى بادىء الامر فانه بعد عام ١٥٢٨ صار يضطهد البروتستنت فى فرنسا اضطهادا شديدا ولكن البروتستنتية سرعان ما تحولت الى حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين منذ عام ١٥٣٥ تقريبا ، أى منذ الوقت الذى رفع فيه جون كلفن رسالته المشهورة الى الملك فرنسوا الاول ، ونشر كتابه عن (تعاليم الدين المسيحى) ، فقد لقيت كتابات هذا الفرنسى آذانا صاغية من مواطنيه الفرنسيين . وانضم الى البروتستنتية عدد من الاشراف ومن الطبقات المتوسطة الغنية ومن ذلك الحين بدأ عهد جديد فى تاريخ البروتستنت الكلفينية فى فرنسا .

وفى عهد هنرى الثانى (١٥٤٧ـ١٥٥٩) تأسست اول كنيسة كلفينية فى مارس عام ١٥٥٥ ثم تلى ذلك تأسيس غيرها من الكنائس . وفى عام ١٥٥٨ بلغ عدد الاماكن المخصصة لعبادة البروتستنت ٢٠٠ تقريبا وعدد المتعبدين بها حوالى ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وكان اهم زعمائهم انطوان بربون ملك نافار ثم اخوه الاصغر امير كونديه Conde وهما يمتان بصلة قرابة للاسرة المالكة اسرة فالوا . ومن الاسر العريقة كان الاميرال جاسبار دى كولينى Gouspard de Coligny . ولكن الخوف من حدوث الثورات الدينية الداخلية نتيجة لحدوث الانقسام الدينى ، ثم الخوف من النجاح الذى احرزته اللوثرية فى المانيا لم يلبث هذا كله ان ادى الى اتفاق سرى بين فرنسا واسبانيا للقضاء على الهرطقة . وعندما توفى هنرى الثانى فى عام ١٥٥٩ وخلفه ابنه فرنسوا الثانى (١٥٥٩ـ١٥٦٠)

بدأ الانقسام الذى كان يخشاه الملك المتوفى .

وقبل ان نتتبع الصراع الدينى العنيف الذى استمر خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر، يجدربنا ان نعرف شيئا عن بعض الشخصيات والاحزاب التى ظهرت فى هذه الفترة وأثرت بدرجة كبيرة فى هذا الصراع وتنحصر هذه الشخصيات والاحزاب فيما يلى :

أ - كاترين دى ميدتشى Catherine de Medici ،زوجة هنرى الثانى وأم أبنائه الثلاثة الذين تولوا العرش بعده بالتعاقب وكان ابناؤها الثلاثة العوبة فى يدها (كاترين) التى مارست بعد وفاة زوجها نفوذا كبيرا فى فرنسا عن طريق هؤلاء الابناء .وكانت تحاول تحقيق اغراضها وسياستها بكل وسيلة مهما كانت صورتها .

ب - آل جيز Guise ، من الاسر العريقة الكاثوليكية فى فرنسا وكانوا يمتون بصلة القربى لملكة اسكتلنده مارى استيوارت زوجة فرنسيس الثانى. ومن ابرز شخصيات اسرة جيز فرانسيس وكان قائدا حربيا ، شقيقه شارل كاردينال اللورين، وكانوا من المتعصبين للمذهب الكاثوليكى ،وكانوا يهدفون الى تنصيب مارى استيوارت الكاثوليكية ملكة على انجلترا بدلا من اليزابيث البروتستنتية والتى كانوا يعتبرونها ملكة غير شرعية .

ج - النبلاء الفرنسيون: وقف النبلاء الفرنسيون فى وجه آل جيز ، وكان على رأسهم عائلة البربون Bourbons ، لانهم كانوا يكرهون تلك الاسرة . ولقد دفع هذا الموقف الكثيرين من النبلاء الفرنسيين الى احضان الهوجونوت ، (اى البروتستنت)وهو الاسم الذى كان يطلق على الكلفينيين رمزا للاحتقار . ونتيجة لذلك اكتسبت حركة الهوجونوت صفة ارستقراطية سياسية لاسيما بعد ان تحول انتونى

بربون Antony Bourbon كلفينيا بتأثير زوجته ،وكان زعيم البربون فى ذلك الوقت واقرب وريث للتاج الفرنسى بعد ابناء هنرى الثانى وعندما تولى فرنسيس الثانى العرش كان صغيرا ووقع تحت تأثير اسرة جيز ،وقبلت الملكة الواردة هذه السيطرة الامر الذى اغضب الاسرة البروتستنتية النبيلة .

تولى الملك شارل التاسع (١٥٦٠-١٥٧٤) العرش ولكنه كان قاصرا فتولت امه شئون الدولة ،واتبعت سياسة التوازن بين الاحزاب حتى تضمن بقاء السلطة النهائية فى يدها ،وفى عهد شارل التاسع اشتد اضطهاد الكاثوليك للهوجونوت . وفى اول عهده حدث نزاع بين اعضاء مجلس طبقات الامة States General فوقف النبلاء وممثلو الشعب يشكون من الكنيسة ويطالبون باصلاح حقيقى ،بينما طالب رجال الدين باضطهاد الهوجونوت وبدأت كاترين ميدتشى تعمل للتوفيق بين البروتستنت والكاثوليك فمنعت من اقامة شعائرهم الدينية بطريقة علنية ومنعت فى الوقت نفسه تعطيل عبادتهم اذا هم اقاموها فى داخل منازلهم ،وجمعت الفريقين فى مؤتمر انعقد فى بواسى Poissy فى سبتمبر ١٥٦١ للتوفيق بينهما ولكن دون جدوى وعندئذ اصدرت مرسوما فى يناير ١٥٦٢ ، سمح باقامة طقوس الهوجونوت بين عائلات النبلاء فى الريف وفى المدن التى بدون اسوار . ولكن هذا المرسوم اغضب الكاثوليك والبروتستنت على السواء البروتستنت لتسامحه المحدود والكاثوليك بسبب هذا التسامح نفسه .

ولكن حدث هذا بعد ان اضطرمت النفوس وحطمت الصور الدينية وشوهدت الكنائس وهوجم الاكليروس والمبشرون ،ثم ذبحت قوات آل جيز عددا من الهوجونوت (١٥٦٢) وهم يتعبدون فى مدينة فاسى Vassy فانفجرت الحرب الاهلة انفجارا عنيفا مفاجئا بعد ان امكن تجنبها هذا الوقت الطويل. وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة

من الاجانب الى حد كبير، بل انه تميز ايضا بأنه كلما قامت الحرب اعقبها السلام بعد وقت قصير. وليس سبب ذلك توقيع الطرفين تسوية يقبلانها حقا، ولكنه يرجع الى عوامل اخرى كفراغ ايدى المتحاربين من المال أو مقتل قائد او حدوث تخاذل او ضعف مفاجئ فى الشعور الذى كان لايزال كامنا بوحدة فرنسا باعتبارها كنزا لا يجوز تبديده بسهولة، وهو الشعور الذى كانت تخالطه الاحقاد الدينية او الشخصية العنيفة لذلك العصر. ولم يتورع كلا الطرفين عن الالتجاء الى المعونة الاجنبية ولى الكاثوليك وجوههم شطر اسبانيا، على حين ولى الهوجونوت وجوههم شطر انجلترا، بل لقد ذهبوا فى الحرب الاولى الى حد وضع الهافر فى يد الانجليز ووعدوهم بكاليه، ومع ذلك فانهم لم يعقدوا قط حلفا مع دولة بروتستانتية. وعندما قامت هذه الاضطرابات اصدرت كاترين مديتشى مرسوما فى يوليو ١٥٦٢ اعلن عصيان الهوجونوت وطردهم خارج القانون وعلى هذا النحو قامت الحروب الدينية فى فرنسا.

استمرت الحروب الدينية من عام ١٥٦٢ الى عام ١٥٩٣ وتنقسم الى دورين: الاول وينتهى فى عام ١٥٧٢ والثانى وينتهى فى عام ١٥٩٣. وكان عدد هذه الحروب ثمانية. وتولى قيادة الكاثوليك جيز ومونتمورنس ويقود الهوجونوت كولينى وكونديه.

وفى الحرب الاولى انتصر الكاثوليك فى بداية النضال، ولكن كاترين ميدتشى خشيت من زيادة نفوذهم، فاستطاعت الاتفاق مع كونديه فاصدرت مرسوم امبواز Edict of Amboise فى مارس عام ١٥٦٣ وبه صار مسموحا للهوجونوت العبادة فى منازل النبلاء وعلية القوم وفى املاكهم وفى ضاحية واحدة فى كل اقليم. ولكن كولينى والهوجونوت عموما لم يرضوا بهذا المرسوم وعارضوه بشدة واتهموا كونديه بخيانة

عهد الله. ومع ذلك فقد تبع اصدار هذا المرسوم ان سادت فترة سلام لمدة خمس سنوات . ولكن استحكمت الازمة بين الهوجونوت والكاثوليك في فرنسا عندما عقد اجتماع في بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) بين كاترين واختها ايزابيلا ملكة اسبانيا التي كان يصحبها دوق الفا . وكان من الواضح ان غرض كاترين الاساسي هو السعي لتزويج ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos ابن فيليب الثاني ملك اسبانيا ولكن نوقشت ايضا في هذا الاجتماع مسائل اخرى ،وبخاصة تعاون فرنسا واسبانيا ضد الاراضي المنخفضة . وفي ذلك ما يكفي لاثارة مخاوف كوليني انشط محركي حزب الهوجونوت وحين علم ان الفا Alva يزحف صوب الاراضي المنخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش اسباني ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية ، شعر الاميرال ان الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الاسبانية . ووضعت خطة لاختطاف شارل التاسع ، وكان فشلها معجلا بنشوب القتال من جديد .

وقد يكون من الممكن اعتبار الحربين التاليتين سلسلة واحدة من العمليات اذ لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumea القصير الامد ١٥٦٨ . ولهاتين الحربين اهميتهما لعوامل ثلاثة : ففي هذه الفترة بالذات برزت لاروشل La Rochelle لاول مرة باعتبارها حصنا بحريا بروتستانتيا عظيما قادرا على ان يصمد للحصار وفي هذه الفترة ايضا برز هنري نافار ابن الملك انطوان،وهو الذي قدر له فيما بعد ان يصبح هنري الرابع ملك فرنسا - باعتباره قائدا بروتستانتيا ، ولكن أهم ما يلفت النظر في خصائص هذه الفترة ان النصر النهائي كان من نصيب كوليني،وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية واسر كونديه ومقتله في جرناك Jarnac ، وتغطية ساحة مونكنتور

وعلى أية حال لم يستمر حسن التفاهم بين البابا والملك هنري الثامن. فلقد اراد هنري ان يطلق كاترين عندما تغيرت العلاقات بينه وبين الامبراطور شارل الخامس (وكانت كاترين عمة الامبراطور) خلال الحروب الايطالية ، ولانها ايضا لم تنجب ولدا يرث العرش من بعده . كما ان هنري كان قد وقع منذ مدة في حب احدى سيدات البلاط وهي آن بولين Anne Boleyn وعزم على ان يحقق رغبة هذه الشابة الجميلة المتقلبة فيتخذها زوجة شرعية له في عام ١٥٢٧ .واستند الملك في طلب "الطلاق" من كاترين الى عدم ارتياح ضميره لمعاشرة كاترين بسبب صلة الرحم الدقيقة بينهما ،ولانه يريد ولدا ذكرا يرث العرش من بعده ،ولم يكن لكاترين سوى ابنة واحدة هي ماري .

وكانت اسبانيا هي العقبة التي تعترض تحقيق هذه الامنية . ولو لم يكن البابا اميرا ايطاليا ضعيفا تهيمن عليه اسبانيا ، لربما تم الغاء زواج كاترين دون ان تترتب عليه نتائج ما ، ولكن البابا كليمنت كان مسلوب الارادة ، فزعم ان وزير الملك الكاردينال ولزي Wolsey وكان اخر الساسة العظام من رجال الدين الذين حكموا انجلترا - حذر البابا من ان ولاء انجلترا لكنيسة روما قد اضحى بأسره في الميزان فانه خشي اغضاب الامبراطور. وهكذا لم يستطع هنري ان يظفر من البابا بشيء وتعقدت المسألة تعقيدا بالغا ،وشاعت اخبارها بأرجاء اوروبا . ولقد غضب الملك على الكاردينال ولزي وعزله وصادر املاكه واتهمه بالخيانة لانه كان صاحب الرأي في الاتفاق مع روما لاستصدار قرار الالغاء وتنحى جانبا من المكان الذي شغر بسقوط ولزي رجل علماني هو توماس كرمويل Cromwell الذي كان في خدمة ولزي . ولقد نظر كرمويل الى العالم بعين مغامر صلب كان قد حارب في ايطاليا وقرأ "امير" ميكيافيللي وشعر بأن تيار الاحداث يتجه نحو تجريد السياسة

من الطابع الديني . واستطاع كرمويل ان يقنع الملك في مقابلة معه باتباع الخطة التي اسفرت في آخر الامرعن فصل الكنيسة في انجلترا عن كنيسة روما ووضعها تحت سيادة الملك،فأشار على الملك أن يحذو حذو الامراء الالمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا سياسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية،وأسسوا كنيسة أهلية فيسعى الملك بمساعدة البرلمان لانشاء كنيسة اهلية وطنية يكون الملك رئيسها ، وعندئذ تستطيع هذه الكنيسة المنفصلة تحقيق رغباته في مسألة الطلاق من كاترين. فقرر هنرى العمل بهذه الخطة .ومن ذلك يلاحظ ان الاصلاح الديني في انجلترا سار في كل خطواته بحسب توحيد الدولة وهذا ما جعله يتخذ شكلا خاصا به ،وينطبع على الاقل بالصورة التي رسمت له وهي صورة متفقة مع التكوين السياسي والاجتماعي بانجلترا .وأول ذلك ان الاصلاح الديني تم على يد الملك وبمشورة البرلمان، اذ عمل هنرى الثامن على مشاركة الدوائر السياسية الكبرى في المسئولية معه ، ورأت تلك الدوائر ممثلة في أعضاء مجلس اللوردات ونواب مجلس العموم ان تكون له معينا وظهيرا . ولذا كان البرلمان الانجليزى هو الذى قام على وضع التشريعات اللازمة ،وصوغها والموافقة عليها.

دعا هنرى البرلمان في عام ١٥٢٩ للمساندته في نضاله مع الكرسي البابوي،واستبقى دورة انعقاده سبع سنوات واصدر عن طريق اللوردات والعموم اللوائح التي اقتضاها استقلال الكنيسة الانجليزية عن روما واخضاعها للتاج.ففي عام ١٥٣١ أصدر البرلمان قانونا باخضاع رجال الدين في انجلترا لسلطة الملك واعطى لقب خاص للكنيسة ورجال الدين والرئيس الاعلى وحده للكنيسة ولرجال الدين في نجلترا .بالدرجة التي تسمح بها قوانين المسيحية . وفي عام ١٥٣٢ اشتدت الحملة لاخضاع رجال الكنيسة لسلطة الملكية . فأصدر البرلمان قوانين لمنع ارسال الاموال الى روما ، ولمنع الكنيسة في انجلترا من استصدار أية قوانين

واستطاع المتآمرون انيدبروا مذبحة سان بارثلميو التى وقعت فى عيد هذا القديس يوم الاحد ٢٤ اغسطس ١٥٧٢ .ولم تقتصر المذبحة الوحشية على باريس حيث قتل حوالى ثلاثة او اربعة آلاف من الهوجونوت ،بل لقد تعدتها الى الاقاليم ايضا ،وقدفاقت بكثير اقصى ماكان يقدره رجال البلاط – وحين سرت اخبار التخلص من مثل هذا العدد الكبير من المهرطقين، امر البابا بنقش ميدالية تخليدا لهذا العمل ورأس فيليب الثانى ملك اسبانيا صلاة شكر.فلم يكن احدهم يحلم بمثل هذا النصر الكاثوليكى العظيم. فلقد مات كالينى ووقع كونديه وهنرى نافار فى يد الملك واكدت الآلاف من جثث الهوجونوت ثبات فرنسا على العقيدة الكاثوليكية .

وبدلا من ان تقضى مذبحة سان بارثلميو على الهوجونوت ،كانت مقدمة لحرب رابعة . فقد تحدى الهوجونوت القوات الملكية وهدد وحدة فرنسا من عاصمتهم الغربية لاروشل ويؤيدهم عدد كبير من السياسيين Les Politiques وهم من الكاثوليك المعتدلين الذين لم ينحازوا الى انصار العقيدتين المتنازعتين ،ولكنهم اصروا على منح الحرية الدينية وكان منهم – لفترة من الوقت – الاخ الاصغر للملك. ولكن الكاثوليك – وخاصة جماهير باريس الديمقراطية – لم يغتفروا للهوجونوت هذا العناد العنيف المستمر الذى كان يؤثر تأثيرا سيئا على حركة المعاملات والذى كان يتنافى مع الوطنية (اذ كان الهوجونت على اتصال بانجلترا) وكان المتعصبون يريدون السير بالحرب الى النهاية ،ولكنهم رأوا ان الملك والملكة الوالدة لايزالان يتابعان سياستهما المألوفة : عرض سلام أو هدنة على العصاة فى كل مناسبة ،وانهما لايزالان تسيطر عليهما فكرة امكان ايجاد مكان لتعبد الهوجونوت احرارا فى غير خفاء فى

دولة كاثوليكية . وبدا لهم أن المعاهدة التى وقعت فى عام ١٥٧٦ وهى معاهدة بوليو Beallieu تكاد ان تكون تسليما . ولهذا تكون اتحاد كاثوليكى - عرف عادة باسم "العصبة" يرعاه البابا وملك اسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية فى فرنسا .

وفى عام ١٥٨٤ توفى الاخ الاصغر للملك ، وكان اصغر ابناء كاترين والاخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة . ولما كان الملك لم ينجب نسلا ، فلا مناص من ان يكون هنرى نافار الوريث التالى للعرش . واصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين ان " الجمهورية خير من تولى ملك من الهوجونوت" وأصبح هنرى الثالث (١٥٧٤-١٥٨٩) لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز . فاحنى الملك رأسه ، بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية ، وظهر مدى ضعف الملك فى يوم المتاريس (١٢ مايو ١٥٨٨) حين رفضت باريس فى ولائها لهنرى دوق جيز - ان تسمح لقوات الملك بالدخول الى المدينة ، كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين اصدر مجلس طبقات الامة - فى اجتماعة فى بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين - سلسلة من القوانين التى كان من شأنها - لو نفذت - ان تؤدى الى افلاس الخزانة وحرمان الحكومة من آخر مقومات سلطتها ولقد حاول الملك ان يتخلص من هذه المهانات فلجأ الى الاغتيال : فقتل دوق جيز واخوه كاردينال اللورين فى قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨ على يد بعض اتباع الملك ، وهكذا اعتقد الملك بأنه قد تخلص بذلك من اخطر منافس له .

ولكن مقتل دوق جيز كان خطأ جسيما . فقد تزايد الهياج فى باريس ضد الملك واعلنت الكنائس سخطها عليه . واصدر البابا قرار الحرمان ضده ، واعلنت جامعة السربون ان الشعب فى حل من نبذ ولائه للعرش ، وتشكلت حكومة مؤقتة ، وتزعم مايين Mayenne شقيق دوق جيز

الاتحاد الكاثوليكى،وعندما توفيتكاترين ميدتشى فى يناير عام ١٥٨٩ فقد الملك اكبر نصير لهفارتمى فى احضان الهوجونوت وهنرى نافار . وكان هذا الامير قد كشف عنصفاتحربية باهرة : فقد اثبت فى موقعة كوترا Coutras (١٥٨٧) انباستطاعة جيش من الهوجونوت حسن القيادة ان يهزم قواتالتاجمنالكاثوليك فى معركة نظامية. كما ان اعمالالفروسية العديدة التىشاعتعنه ،وحرصه الريفى وروحه المرحة- كل ذلك كان مما قربه الى رجل الشعب . واشترك الهوجونوت مع انصار الملك فىالزحف على باريسحتي بلغوا آسوارها فى جيش مؤلف منحوالى اربعين الفا فى يوليو ١٥٨٩ وشرعوا فى حصارها . وعندئذ استطاع رجل من الجزويت وهو جاك كلمنت Jacques Clement الوصول الى معسكرالملك فى سان كلو وقتله فى اول اغسطس عام ١٥٨٩. ولكن الملك قبل وفاته كان قد اعترف بأن هنرى نافار هو الوريث الشرعى له، وطلبمنه ان يعتنق الكاثوليكية.وبوفاة هنرى الثالث انتهىحكم اسرة الفالوا الطويل فى فرنسا ،وانفتحباب الصراع المباشر بين هنرى نافار و"العصبة " .

وحكمت باريس باسم العصبة لجنة من ستة عشر باشراف دوق مايين Mayenne الاخ الاصغرلهنرى جيز. وقد فرضت نظاما منالارهاب يشبه حكم لجنة الامن العامفى عام١٧٩٤.وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الامرالىالاعتقاد بأن اعادة الملكية الوراثية من شأنه ان يقلل من فرص الانقسام.ولما كانت فرنسا لا تقبل حكم اميرة اسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الامة ،فانالكتلة الرئيسية الارستقراطية الفرنسيةقد التفت حول الامير البوربونى. ولكنالتعصب كانلايزالحادا بلغ من حدته ان هنرى - حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستنتية فى كنيسة سان دنيس(٢٥يوليو١٥٩٣)

اضطر الى الانتظار مدة ثمانية شهور خارج اسوار باريس قبل ان يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة .

وفى ٢٢ مارس ١٥٩٤ سلمت باريس وفتحت ابوابها للملك الكاثوليكى وتلى ذلك تسليم بقية المدن والمعاقل ،وسلك هنرى الرابع (١٥٨٩-١٦١٠) طريقا حكيما مع النبلاء الكاثوليك ، فاستمال اليه عددا من أعضاء الاتحاد الكاثوليكى . ثم تأيد مركزه عندما رفع عنه البابا كلمنت الثامن حرمان الكنيسة فى سبتمبر ١٥٩٥ واعترف به ملكا على فرنسا . ولكن كان على هنرى قبل ان يتمكن من قمع الفوضى وتحسين الزراعة ترويج التجارة واعادة السلام الى فرنسا أن يواجه مشكلتين ملحتين الاسبان والهوجونوت ، وقد استطاع ببعض العون من الملكة اليزابيث ان يطرد جيشا اسبانيا من اميان واجبر اسبانيا - طبقا لمعاهدة فرفان Vervine الموقعة فى ٢ مايو ١٥٩٨ على اساس معاهدة كاتو كمبريسيس - على التخلى عن كاليه وبلافيه Blavet فى بريتانى، وهما القاعدتان الفرنسيتان اللتان كانت اسبانيا قد وضعت يدها عليهما بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية . اما الهوجونوت فقد كانوا يثيرون صعوبة اخطر من ذلك بكثير . كانوا رجالا اقوياء تحدوا التاج الفرنسى اكثر من ثلاثين عاما ،وكان بوسعهم فى اى وقت ان ينزلوا الى الميدان جيشا من خمسة وعشرين الف رجل لهذا لم يكن من اليسير اخضاعهم ،بل كانوا فى مركز يمكنهم من الوقوف من الملك موقف الند للند .ولم تكن التسوية المشهورة المعروفة بمرسوم نانت Edict of Nantes (الذى صدر فى ١٣ ابريل ١٥٩٨) مرسوما ملكيا بالعفو تفضل به الملك كما انها لم تكن اعلانا فلسفيا للتسامح . انما هى معاهدة لم يكن الوصول اليها الا بعد مفاوضات مضنية استلزمت وقتا طويلا ،ثم قبلت بعد

تردد كضرورة فرضتها ظروف كريهة لايمكن تجنبها . ولقد سمحت هذه التسوية للهوجونوت اقامة شعائرهم الدينية فى المدن التى سبق النص عليها فى معاهدة برجراك Bergrac فى سبتمبر ١٥٧٧ (بين الكاثوليك والهوجونوت) وعددها خمس وعشرون ومنها لاروشل وجرينوبل ومونبلييه ونيم وغيرها ، وصار كذلك للهوجونوت الحق فى تولى المناصب العامة العسكرية والمدنية على قدم المساواة مع الكاثوليك. ثم انشئت لهم محكمة قضائية خاصة ضمن برلمان باريس ومحاكم شبيهة لها فى المقاطعات . وزيادة على ذلك صار لهم الحق فى عقد مجلس تمثيل عام ينعقد مرة كل ثلاث سنوات للبحث فى شئونهم وتقديم التقارير اللازمة عن أحوالهم وعن مطالبهم . وفى الواقع سمح مرسوم نانت لدولة هوجونوتية صغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها المدنية ان تقوم وتعمل فى قلب فرنسا .

ولمرسوم نانت مكان ملحوظ فى تاريخ الحضارة باعتباره أول اعتراف عام بأنه من الممكن ان تقوم اكثر من طائفة دينية واحدة فى نفس الدولة ، فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الدينى جزءا من القانون الدستورى لفرنسا قبل الاعتراف به فى انجلترا والمانيا لوقت طويل . وهكذا انتزع الهوجونوت قوة واقتدارا من خصومهم الكاثوليك امتيازات ماكان الكاثوليك ليسمحوا بجعلها موضع نقاش . ومنذ ذلك الوقت وضعت الاسس لازهى فترة فى تاريخ فرنسا انتعشت فيها الملكية وسما قدرها واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيها بشكل ملحوظ ودبت الحياة فى الكنيسة الكاثوليكية وأثرت حياتها بفضل تحدى عقيدة الهوجونوت لها ووجودها معها جنبا الى جنب . ولكن كتب لهذه المزايا ان تتبدد امام التعصب الاعمى والجشع القاتل. كان هنرى سمح النفس فى المسائل الدينية ، وقد ورث كاترين ميدتشى فى خطة التسامح ، ولكنه استدعى اليسوعيين الذين قدر لنفوذهم فى البلاد ولتأثيرهم فى التعليم

الفرنسى - وهو التأثير المطبوع بروح التعصب - ان يؤديا الى طرد الهوجونوت ونقض مرسوم نانت الذى كان اعظم ما قام به هنرى .

ولكن فى عهد الملك لوى الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣) اثيرت خواطر الهوجونوت بسبب حوادث الخصام والنزاع بين الملك واعوانه والملكة الوالدة مارى ميدتشى الايطالية واعوانها ،ثم ازدادت هواجسهم بسبب قيام حروب الثلاثين سنة واحتدام المناقشات الدينية التى برهنت على ان الشعور الدينى فى فرنسا لايزال قويا بالرغم من السكون الظاهرى الذى يسود البلاد منذ اصدار مرسوم نانت . وتحت تأثير هذين العاملين ،قرر الهوجونوت الاقدام على عمل كان من شأنه اصابتهم بالخسارة الكبيرة فى النهاية ،فقد شرع الهوجونوت فى هذه الآونة يعملون بكل همة ونشاط فى تحصين مدنهم المسورة ، ويتشأون بها حكومات من طراز حكومة جنيف الكلفينية الجمهورية ،ثم ألفوا بين هذه المدن التى كانت بمثابة حكومات محلية ،وأنشأوا منها اتحادا قويا ، فاصبح الهوجونوت عبارة عن دولة فى داخل الدولة . ولم تلق هذه الاتجاهات الانفصالية اية معارضة جدية من جانب الحكومة المركزية لأن هذه كانت مشغولة ببعض المسائل . ولكن بمجرد ان تم الاتفاق بين مارى ميدتشى ولويس الثالث عشر ، استطاع الملك ان يتفرغ لمسألة الهوجونوت . وبعد نضال استمر حتى عام ١٦٢٢ اعقد الملك الصلح مع الهوجونوت فى اكتوبر من نفس العام وهو المعروف بمعاهدة مونبلييه (Montpellier) على اساس ان يمتنع على المصلحين - أى الهوجونوت - عقد المجالس ،وعلى ان يتم الاستيلاء على مدنهم الحصينة ماعدا مونتبان ولاروشل . ومع ان مرسوم نانت تأيد مرة ثانية بمقتضى هذا الصلح ،فقد كان واضحا ان الهوجونوت قد بدأوا يفقدون جانبا كبيرا من قوتهم القديمة .

ولم يرض الهوجونوت عن صلح مونبلييه الذى اعتبروا انه يهدد مصالحهم فانتهزوا فرصة تغير العلاقات بين فرنسا واسبانيا ،وتحصنوا فى لاروشل واستؤنف النضال بينهم وبين الحكومة . وآزرهم الانجليز بأسطول كبير عند لاروشل . ولكن ريشلييه (١٦٢٤-١٦٤٣) وزير فرنسا الحق بهم الهزيمة وظلت قواته على حصار لاروشل مدة ١٥ شهرا حتى سلمت للملك فى اول نوفمبر ١٦٢٨ ،ثم تلى ذلك سقوط مونتبان آخر معاقل الهوجونوت ،وفى ٢٧ يونيه ١٦٢٩ تم عقد الصلح فى آليه الذى انحل الهوجونوت بمقتضاه كجماعة او حزب سياسى ،وفقدوا امتيازاتهم السياسية ، بينما ابقيت لهم حرية العقيدة ، ثم المساواة التامة مع الكاثوليك، وآكد ريشلييه من جديد مرسوم نانت وضمن للهوجونوت حرية الضمير وحرية العبادة وحماية القانون . ثم استمر تعيين الهوجونوت فى وظائف الدولة وفى الجيش وفى القضاء . واظهر ريشلييه فى هذا العمل كياسة وفطنة لأن الهوجونوت الذين اطمأنوا الى الحكم الجديد اندمجوا فى صفوف مواطنى الدولة وساهموا فى انعاشها .

٢ - انجلترا ونظام الكنيسة الانجليكانى :

انتهت حروب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) بتولى اسرة تيودور عرش انجلترا ،وتوج هنرى تيودور دوق ريتشمند ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع (١٤٨٥-١٥٠٩) ولما اعتلى هنرى السابع العرش وجه عنايته الى المملكة التى كانت قد اضعفتها الحرب الاهلية وتمرد فيها الاشراف وانتشرت الفوضى،وقد رآى ان خير وسيلة لاستتباب الامن والعدل فى البلاد، هى كسر شوكة من بقى من الاشراف وتشجيع الطبقة الوسطى وتقليدها المراكز العمومية المهمة وتعيين منهم وكلاء الملك فى الاقاليم ثم كبح جماح الاشراف فحرم عليهم جمع وتسليح اتباعهم والباسهم شارات خاصة . والقى هنرى نظرة على القانون فرآى ان الغنى والقوى يمكنه أن ينال

الىراضه بترغيب المحلفين اوتهديدهم فأنشا " محكمة غرفة النجم " عام ١٤٨٧ Star Chamber من اعضاء يعينهم الملك مباشرة للحكم على كل من يتدخل فى سير القضاء ومن اصلاحاته القضائية انه حتم على رجال الدين ان يحاكموا - فى القضايا الجنائية - امام المحاكم الاهلية بعد ان كانوا يحاكمون امام محاكم الكنيسة . ومات هنرى عام ١٥٠٩ بعد ان نظم المملكة داخليا واحيا الصناعة والتجارة فيها وجعل لها منزلة سياسية فى الخارج وساعد على تقوية الملكية واضعاف الاشراف والتقليل من عقد البرلمان .

وسار ابنه هنرى الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) على نهج ابيه من ناحية اضعاف الاشراف ،وعدم دعوة البرلمان للانعقاد الا نادرا والاعتماد على الطبقة الوسطى فى حفظ النظام الداخلى . وما ان اعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الارجونية وهى سيدة جادة دمثة الاخلاق تكبره بست سنوات كانت ارملة لاخيه الاكبر آرثر الذى توفى فجأة بعد زواج دام اربعة اشهر (وكانت كاترين ابنه لفرديناند وايزابيلا) وكان البابا يوليوس الثانى قد اصدر فى عام ١٥٠٣ فتوى اقرت الزواج من ارملة أخ متوف . وقد اهتم الملك الشاب بأمره ،فكان مغرما بالبحر ، واشرف بكل دقة واهتمام على بناء اسطول ملكى ووسع اساس قوة انجلترا فى البحر . وكان اول ملك انجليزى له اسطول بمعنى الكلمة على احدث طراز . اما الامر الثانى الذى اهتم به الملك فهو المسائل الدينية التى كانت قد اصبحت - كما اصبح الاقتصاد فى ايامنا - اساسا لدراسة السياسة . فكتب بحثا نشر فى عام ١٥٢١ ردا على لوثر كان من نتيجته ان انعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامى العقيدة . وكلما تقدمت به السن ازداد اهتمامه بنفسه ونما شعوره بالثقة فى عقيدته . اما الشعب الانجليزى فكان على عكس ملكه ،وعلى عكس الشعب الاسكتلندى - غير مبال بالبحوث الدينية .

Moncontour فى اكتوبرعام١٥٦٩ الملطخة بالدماء بحوالى ستة الاف جثة من الهوجونوت . ولقدقام هذا القائد المحنك بتقهقر راشع من اللوار صوب الجنوب ، ثم كون جيشا جديدا ، رحف به على باريس حيث وجد البلاط خلوا من كل قوة ،فأرهب اعداءه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا . وكان شارل التاسع ،الذى قامت على تنشئته مربية بروتستانتية على استعداد للتفاهم ، فاعترف صلح سانجرمان St. Germain (٨ أغسطس ١٥٧٠) ـ اكثر من اى وقت مضى ـ بأهمية حزب الهوجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيانها فى فرنسا وسمح لكبار النبلاء ـ كما كان الحال من قبل ـ بأن يقيموا الصلوات ـ طبقا لمذهب الهوجونوت ـ فى قلاعهم لكل من يرغب فى حضورها ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية فى كل المدن التى تمارس فيها فعلا ، وفى مدينتين فى كل مقاطعة ادارية فى فرنسا ، ووضعت ضمانات لمنع المظالم التى تتخذ شكل القانون ،كما وضعت فى يد الحزب ـ لمدة سنتين ـ اربعة اماكن لها اهمية حربية عظمية ،وذلك ضمانا لتنفيذ المعاهدة . وهذه الاماكن هى لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Congang ولاشاريتيه La Charite .

وهكذا انفسح المجال امام الهوجونوت . فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية فى دفاعها عن القضية الكاثوليكية ،وبفضل نفوذ آلجيز الى حد كبير ، على استعداد للالتجاء الى اسبانيا طلبا للمعونة فقام كولينى الآن يمهد الطريق لانقلاب سياسى كامل ، وكانت خطته تتمثل فى اشعال حرب قومية ضد اسبانيا فى الاراضى المنخفضة .ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا وتسنده كل من انجلترا وهولندا وتسكانيا والبندقية وربما الاتراك ، الهدف منه اقرار السلام

فى البلاد وضم الفلاندر وآرتوا الى املاك التاج الفرنسى . وكانت المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولينى مع انجلترا فى بلوا Blois فى ١٩ ابريل ١٥٧٢ الحجر الاول فى البناء الدبلوماسى الجديد .

وبين التدابير التى اتخذت فى هذه الفترة التى ارتفع فيها نفوذ الهوجونوت مشروع قدر له ان يؤثر تأثيرا قويا فى الموقف الداخلى فى فرنسا ، فقد تمت المباحثات فى امر زواج ابرم بالفعل فى ١٨ أغسطس ١٥٧٢ بين مرجريت فالوا ، اخت الملك وهنرى نافار . فقد استدرج هذا الابن الريفى لفارس من البرانس وأم هوجونوتية متعصبة من مقاطعته البعيدة وزوج باحدى اميرات الاسرة الفرنسية المالكية الكاثوليكية . وكان هذا الزواج المختلط الاول من نوعه . ولقد استبانت كاترين ما طرأ على الموقف السياسى من تغيير . فقد كانت تعلم ان الاغلبية العظمى من الشعب الفرنسى لايزال مخلصا للعقيدة القديمة رغم انما يقرب من ثلث النبلاء اصبحوا من الهوجونوت . كانت كاترين تخشى الحرب وسطوة اسبانيا ونفوذ كولينى على ابنها ، كما كانت تخشى ان يوجه آل جيز ضربتهم اذا ما بقيت ساكنة ، ومن ثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة على فرنسا . لكل هذا استقر رأيها على تدبير مقتل كولينى . ولكن الهجوم على الامير فشل ومن ثم اصبح مركز الملكة الوالدة دقيقا ، وكانت باريس مزدحمة بالسادة الهوجونوت الذين آتوا الى العاصمة لشهود حفلات الزواج الملكى ، وقد استشاطوا غضبا للاعتداء الآثم على زعيمهم وموضع حبهم وتقديرهم العميقين . وحتى لا يتطور الامر من سىء الى أسوأ صممت الملكة على اعادة الكرة ، ليس ضد كولينى وحده فى هذه المرة ، ولكن ضد كل الزعماء البروتستنت ، وانخدع الملك الضعيف بقصة مؤامرة يدبرها الهوجونوت ، وأمكن اقناعه بالموافقة .

أو اوامر أوتنظيمات متعلقة بالكنيسة من غير موافقة الملك . وفي عام ١٥٣٣ عين هنري توماس كرانمر (Cranmer) - من تلامذة كمبردج المتبحرين في اللاهوت - رئيسا لاساقفة كانتربري على الرغم من امتناع البابا كلمنت السابع عن الموافقة على ذلك. ولما كان هنري الثامن قد تزوج من آن بولين سرا منذ يناير ١٥٣٣، ومن المنتظر ان يوافق كرانمر على هذا الزواج، ويريد الملك ان يمنع زوجته القديمة كاترين الارجونية من ارسال قضيتها الى روما للفصل فيها، فقد اصدر البرلمان قانونا لمنع استئناف القضايا Appeals Act في روما، وفي ٢٣ مايو ١٥٣٣ اعلن كرانمر الغاء زواج هنري الثامن من كاترين وبعد ذلك بخمسة ايام قرر كرانمر مشروعية زواج الملك من آن بولين. وقد توجت هذه ملكة على انجلترا، وفي يوليو من نفس العام أصدر البابا قرار الحرمان ضد هنري الثامن واعلن في مارس ١٥٣٤ ان زواج هنري الثامن من كاترين لأيزال قائما.

ولقد اجاب هنري على ذلك بأن استصدر اولا من البرلمان في سبتمبر ١٥٣٣ قانونا يجعل الوراثة من بعده لاليزابيث، ابنته من آل بولين والغى بذلك حق ابنته مارى من زوجته الاولى كاترين الارجونية. وفي نوفمبر في العام التالي استصدر من البرلمان ايضا قانون السيادة The Act of Supremacy الذي يعلن ان الملك "عدلا وشرعا هو وكما يجب ان يكون، الرئيس الاعلى للكنيسة في انجلترا". وقد اعطى هذا القانون الى الملك كل السلطات القانونية والسياسية التي كان البابوات يتمتعان بها سابقا بانجلترا. ومع ان هنري الثامن لم يتطلع بفضل هذا القانون الى ممارسة حق تغيير ... سيدة ذاتها، فقد كان من ناحية اخرى يرى من حقه اصلاح القانون الكنسي والسيطرة على التشريع في الكنيسة

والاستشار بملاحظة النظام والهيمنة على شئون الكنيسة . وقد تدعم هذا القانون بقانون آخر يعتبر من الخيانة مناقشة هذه السلطات أى معارضتها ويعاقب فى صراحة كل من ينقد بشىء شخص الملك والملكة .

ثم تلا تلك الخطوة حل الاديرة بأنحاء انجلترا وصودرت الكنيسة فى اراضيها ، والغلبية ما دون ذلك من املاك كثيرة وثروة طائلة . وليس من المغالاة ان يوصف ما حدث وقتذاك بأنه كان ثورة اقتصادية ، اذ استولى التاج على ما يقرب من خمس الاراضى الزراعية بالبلاد ، فضلا عن مقادير هائلة من الثروة المنقولة ، وأنشأت الحكومة ديوانا خاصة بضبط ذلك كله وادارته فجاء عملها دليلا على الكفاية الادارية للدولة القومية الجديدة . وقد هيمن توماس كرمويل ، كما اشرنا ، على تلك الخطوات الاولى من حركة الاصلاح الدينى بانجلترا فدبر كل خطوة منها تدبيرا ، واشرف على تنفيذها فى دقة وتفصيل ولا غرو فانه كان رأسا سياسيا فذا ، بصيرا بأعقاب الامور ، لا يرضى لرأيه نقضا ولا تبديلا ، مع القدرة على ادارة شئون الدولة فى جرأة واقدام .

على ان النتائج الاقتصادية التى ترتبت على حل الاديرة أحدثت بالبلاد انقلابا جوهريا ، بعيد الاثر ، واول ذلك انها أدت الى ازدياد قوة الملكية . ثم ان الدولة صرفت ما استولت عليه من أموال الكنيسة على تهيئة ما حاجها من مظاهر المنعة والهيبة ، فبنى هنرى الثامن اسطولا قويا وحصن الشواطىء بل استطاع ان يقوم بحرب ضد فرنسا (١٥٤٣-١٥٤٦) لتضم الى سلسلة الحروب التى كلفت انجلترا كثيرا فى غير جدوى . على أن كثرة النفقات اللازمة لشئون الحكم ، وتضخمها بسبب ارتفاع الاسعار فى انحاء العالم نتيجة لتدفق الفضة الامريكية على أوربا عن طريق اسبانيا والبرتغال ، ادى الى بيع اراضى الكنيسة تدريجيا الى طبقات

الملاك والمزارعين . واستمرت تلك العملية خلال القرن السادس عشر الميلادى والقرن التالى له ،حتى استقرت اغلبية الاراضى الزراعية بانجلترا نهائيا فى ايدى اعيان الاقاليم، فعكف هؤلاء على استغلالها، وزادوا فى خصبها وانتاجها بفضل تفتح الابواب لتثمير الاموال. ومعنى ذلك ان طبقة الملاك والمزارعين صارت على جانب عظيم من الثروة وقوة النفوذ، مما حدا بافرادها الى التطاول على السلطة السياسية بالبلاد، بل تعداه الى مهاجمة الملكية نفسها، بعدئذ بقرن من الزمان، وقد كان من اثر ذلك ايضا ان ازدادت قوة الانتاج فى كل ناحية من نواحى الحياة الاقتصادية بالبلاد، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة، ونمت الثروة العامة، وتضاعف النشاط الذى منه نبعت الاعمال العظيمة التى تمت فى عهد الملكة اليزابيث .

ومن الطبيعى ان تلك التطورات التى هزت اوربا، وجلجلت فى ارجائها بأمثال الثورة الخطيرة التى قام بها الفلاحون فى المانيا سنة ١٥٢٥-١٥٢٦ ، لم تخل من اصداء واحداث مشابهة لها فى انجلترا، حيث تأخر حل الاديرة الكبرى بسبب الثورة التى عرفت باسم حج الغفران (Pilgrimage of Grace) عام ١٥٣٦-١٥٣٧- وهى الثورة الكبرى التى نشبت فى الشمال ردا على حل الاديرة- وشلت يد الحكومة لعدة شهور . على ان الملك هنرى الثامن هب لانقاذ الموقف، اذ تذرع بعدة وسائل من الاغراء والمكر السياسى والتهديد باستخدام القوة حتى قضى على تلك الثورة الكاثوليكية بشمال انجلترا، بأقل ما يمكن من خسارة فى الارواح هذا وقد ساعد هنرى على المضى قدما فى سياسته العامة ما لقيه من معاضده مدينة لندن والاقاليم الجنوبية الشرقية . والمزارعين وأهل الطبقة الوسطى بمختلف المدن، فاستطاع لذلك ان يأخذ العناصر المحافظة التى عمدت الى مقاومة السياسة الجديدة بأنواع الشدة والصرامة، سواء

أكانوا من الاعيان ام من رجال الدين ام من الفلاحين، وذهب كثير من ابناء الاسر الاقطاعية العتيدة الى خشبة الاعدام، كما ذهب اليها امثالهم من بعدهم طوال عهد التيودوريين دون ان يرتفع صوت بالشكوى او الاحتجاج الا قليلا. وقد ذهب السير توماس مور فى ذلك العصر مع الذاهبين شهيدا فى سبيل المبدأ الدينى ، وهو انبل الشخصيات الانجليزية التى تصدت للدفاع عن فكرة الكنيسة العالمية .

ولقد ترك هنرى الثامن صورة لا تمحى من عقول رعيته، اذ عبر بشخصيته الصاخبة عما تكنه الامة الفتية من زائد الثقة بنفسها ومستقبلها، ونادى بأن السلطة الملكية لا تتجزأ، وسار فى حكمه على هذا المبدأ. وادركته المنية وهو فى وسط مشاريعه لضم اسكتلندا الى التاج الانجليزى، حيث كانت سياسته قد تعثرت بمعارضة زعماء الحزب الاسكتلندى الكاره لفكرة الضم، اعتمادا منهم على موازرة فرنسا لاسكتلندا وقت ذلك .

وفى عهد ادوارد السادس (١٥٤٧-١٥٥٣) ابن هنرى الثامن تطورت حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا الى سرعة ملحوظة وانطلاق مشهود، اذ مضت فئة البروتستنتيين المحيطة بالملك الصغير فى مصادرة املاك الكنيسة وادخال المذهب البروتستنتى فى آن واحد، ومن ذلك اصدار كتاب الصلوات العامة

The Engish Book of Common Prayers of 1549

باللغة الانجليزية ، وهو الكتاب الذى طبع الكنيسة البروتستنتية نهائيا بطابع قومى ، وجعل الصلوات الجديدة جامعة للناس انفسهم فيها اكثر مما للقسيس المكلف بأمور الدين . ومما يلاحظ دائما ان جميع التغييرات والتطورات وجميع الخطوط الجريئة التى تمت وقتذاك

كانت كلها من عمل الدولة نفسها ، اذ تولت الحكومة شأنها واشرفت عليها واستطاعت انتصل بذلك الى اقصى غاية من الانسجام القومى، وأن تحافظ على الوحدة القومية بعكس ما تمخض عنه الاصلاح الدينى فى مختلف البلاد الاوروبية من عوامل التفرقة حتى صار الكثير منها الى التفكك والانحلال، ولاسيما فى المانيا . اما انجلترا فقد اجتازت تلك المرحلة دون ان يحدث بوحدتها العامة شىء وذلك بفضل ما للدولة بها من قوة وسلطان .

ومع هذا فلم يخل الامر من بعض حوادث محلية باطراف البلاد، ومنها قيام الثورة بين الفلاحين الكاثوليك بالاقاليم الغربية على الكتاب الجديد للصلوات العامة ،سنة ١٥٤٩، غير انه مما يدعو الى الانتباه ان موانىء تلك الاقاليم بدت من قبل ذلك شديدة العطف على البروتستنتية والمضى فى طريق التجديد ،وان هذه الموانى هى التى ساهمت فى عصر الملكة اليزابيث بنصيب كبير . وفى تلك السنة نفسها هبت ثورة اخرى باقليم ايست انجليا وبعض جهات الاقاليم الوسطى بسبب اضطراب ميزان الحياة الزراعية تحت جملة العوامل الاقتصادية ، كارتفاع الاسعار بالقارة الاوروبية ، وغش النقود فى انجلترا منذ ايام هنرى الثامن،وانتقال ملكية الاراضى من الكنيسة والاديرة الى الدولة وغيرها من الملاك، وتحول المساحات الزراعية الكبرى الى حقول مسورة لتربية الاغنام ،وما يتبع ذلك من استغلال الاراضى استغلالا جيدا ،وفى عام ١٥٦٠ وقعت الثورة الاخيرة من تلك الثورات الاقطاعية الكبرى بالاقاليم الشمالية ، وتزعمها الاعيان الاقليميون من اللوردات الذين بقوا على المذهب الكاثوليكى وتعصبوا للملكة مارى الاسكتلندية ضد الملكة اليزابيث . غير انه مما يسترعى النظر فى جميع تلك الثورات ،وغيرها من ثورات البروتستانتيين ضد مارى التيودورية ملكة انجلترا بعد

ادوارد السادس ، ان واحدة منها لم تستطع ان تظفر بنصر على الحكومة مع خلو البلاد من جيش نظامي ثابت والسر فى ذلك ان الحكومة فى انجلترا اضحت ثابتة الدعائم ، وان الدولة صارت الى قوة لا تستطيع معها فورة من الفوضى المحلية ان تظل طويلا او قصيرا ، وهذا ما جعل انجلترا تختلف وقتئذ كل الاختلاف عن فرنسا التى مزقتها الحروب الدينية ، مما ضيع على الفرنسيين فرصة المشاركة فى معركة السبق الى العالم الجديد .

على أن اخطر اوقات الرجعية التى هددت حركة الاصلاح الدينى فى انجلترا زمن التيودوريين هو حكم الملكة مارى (١٥٥٢-١٥٥٨) ابنة هنرى الثامن من زوجته الاولى كاترين الارجونية ، وذلك لما اتصفت به مارى نفسها من شدة التدين والتمسك بالكاثوليكية ، ولارتباط انجلترا بسلسلة المحالفات والمصالح الاسبانية ، بسبب زواج الملكة من قريبها فيليب الثانى ملك اسبانيا ، على حين رنت البلاد الى الاستقلال بشئونها ومصالحها الخاصة . ولقد اعلنت الملكة مارى وزوجها فيليب وابن عمها الكاردينال بول عودة انجلترا رسميا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، فلم يعد ذلك انيكون فوزا عميقا ، لان السلطات المدنية ظلت محتفظة بأراضى الكنيسة وثروتها . ثم ان انكباب الملكة مارى على صنوف الاضطهاد التى انزلتها بالبروتستانتيين لم تؤد الى الشئ سوى انها زادتهم عددا بكثرة الداخلين فى المذهب البروتستنتى ، بل انها باحراقها الاسقف كرانمر Cranmer قد امدتهم بشهيد مضارع للسير توماس مور ، شهيد الكاثوليكية العظيم . والخلاصة ان الاضطهاد الذى لجأت اليه الملكة مارى كان غلطة سياسية قضت على حكمها وطريقتها فى الحكم قبل ان تقضى هى نحبها ، لانه لم يكن باستطاعتها التغلب على القوى الفتية التى انتشرت وقتئذ بأنحاء البلاد ، ولأن حزبها لم يضم الا فئة من الطاعنين فى السن البعيدين من روح

العصر الجديد، وهذا بالاضافة الى ان ماري نفسها امرأة عاقر.

ولكن خليفة ماري على عرش انجلترا - هي اختها اليزابيث (١٥٥٨-١٦٠٣) جمعت في شخصها كل المؤهلات الكفيلة بالتعبير عن تلك القوى الفتية الجديدة والسير بها الى النصر في ظروف محفوفة بأنواع الحرج والخطر وكانت اليزابيث شخصية سياسية من الطراز الاول، هذا بالاضافة الى ما اجتمع لديها من موهبة ونبوغ، كالمعرفة باللغات والعلم وحب الموسيقى والرقص، وهي في الواقع احدى عباقرة السياسة، وقد دلت الايام، على أن عهدها اسعد العهود وامجدها في التاريخ الانجليزي، يكفي برهانا على ذلك ان تاريخ انجلترا في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي يطلق عليه " عصر اليصابات " (اليزابيث).

وقد عملت هذه الملكة منذ بداية حكمها على ان تجمع اليها رجال العصر الجديد وان تربط بينها وبينهم برباط وثيق، وفي طليعة هؤلاء وليم سيسل Cecil الذي ظل الى جانبها متوليا رياسة الحكومة الى ما قبل خمس سنوات من وفاتها، وقد خلفه من بعده ابنه روبرت فجرى على سياسة ابيه حتى عام ١٦١٢، وقد جرت اليصابات (اليزابيث) في سياستها الدينية على نحو ما جرى في عهد ادوارد السادس بأن عادت الى استعمال كتاب الصلوات البروتستانتية، وفصلت الكنيسة الانجليزية فصلا تاما عن روما واعلنت قيام الكنيسة القومية المستقلة مرة آخرى بالبلاد، غير انها مشت فيما عدا ذلك على سياسة المحافظة على القديم ومسايرة الظروف، وقصدت بتلك الطريقة صون الوحدة القومية بقدر الامكان. ولذا قل الاضطهاد الديني في السنوات العشر الاولى من حكمها، وظل النظام الداخلي للكنيسة على ماهو عليه منذ العصور الوسطى يترأسه اساقفة معينون من قبل الدولة وبقي الميدان متسعا لصنوف المذاهب المختلفة من كاثوليكية ولوثرية وكلفينية.

وهكذا استطاعت اليصاباتان تجعلمن انجلترا بلدا بروتستانتيا في النهاية بفضل الموقف الوسط الذيوقفته بين متطرفي البروتستنت والكاثوليك على السواء، واستطاعت في النهاية اقامة صرح للكنيسة المعروفة باسم النظام الانجليكاني اونظام اليزابيث الكنيسي

The Anglican or Elisabethan Church System

وكان اهم القوانين التي قام عليها هذا النظام قانونان : قانون السيادة العليا، وقانون المذهب الواحد وكلاهما صدر في عام ١٥٥٩. وكان من اوضح صفات نظام الكنيسة الانجليكاني انه كاثوليكي المظهر، بروتستنتي العقيدة. وبوفاة اليصابات انتهى عهد التيودور في انجلترا وبدأ عهد اسرة جديدة هي اسرة ستيورات وفي عهد هذه الاسرة الجديدة بقيت المسألة الدينية تشغل الاذهان في انجلترا ولو ان النضال الداخلي في عهد هذه الاسرة الجديدة كان نضالا دستوريا في جوهره، من اجل تقييد سلطة الملكية واقرار حق الشعب الممثل في البرلمان .

٣ - ثورة الاراضي المنخفضة :

حجزت جبال البرانس اسبانيا عن بقية اجزاء اوروبا ، وساعد هذا الحاجز الطبيعي اسبانيا على ان تعنى بشئونها الداخلية وتمكن ملوكها الكاثوليك من تأسيس الملكية ذات الحكومة الموحدة القومية وفي نهاية القرن الخامس عشر تخلصت اسبانيا من عزلتها القديمة، وادعت لنفسها حقوقاً في صقلية ونابولي وربطت مصيرها بمصير الاراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) عندما تزوجت جوانا Joanna الاسبانية فيليب ابن ماري البرجندية ومكسمليان النمسوي . وبذلك سيطرت اسبانيا على امبراطورية واسعة وتحقق طموحها ، ولكن المسئوليات الواسعة التي تحملتها في ذلك الوقت تعتبر من اهم العوامل الرئيسية التي ادت الى

انهيارها فيما بعد .

ولكن يجب الا نضع في اعتبارنا عند تلك المرحلة المبكرة انهيار اسبانيا وضعفها ففي خلال القرن السادس عشر والجزء الاكبر من القرن السابع عشر، كانت اسبانيا دولة قوية مزدهرة، واعتبر جنودها لمدة قرن من الزمان احسن جنود اوروبا، وقامت سفنها باكتشاف العالم الجديد وبالتالي اتيحت الفرصة لاسبانيا بأن تقوم بنشاط تجاري واسع، ولكن التجربة اظهرت فيما بعد وجود خلل في كل هذه المميزات اذ استلزمت ممتلكاتها الامريكية نفقات باهظة، كما اعطى حماس الشعب الديني محاكم التفتيش مجالا واسعا للحركة بحيث قضت على حرية الفكر، وأبعدت اسبانيا عن الحركة الفكرية الحرة التي سادت بقية اوروبا. اما الامبراطورية الواسعة التي كونتها اسبانيا فقد دفعتها الى خوض غمار حروب لا طائل لها، شلت مواردها الاقتصادية بدرجة كان لايمكن التغلب عليها.

وكان حكم شارل الخامس فاشلا في المانيا، ولكنه كان حكما مجيدا، بالنسبة لاسبانيا. ولقد تدعم نفوذ الملكية بالتغلب على جميع القوى المنافسة، وتم وضع نظام لادارة المستعمرات الامريكية ، وتزايدت قوة اسبانيا بدرجة كبيرة في ايطاليا. كما تميز حكمه بالنجاح والشعبية في الاراضي المنخفضة. وعندما عزل شارل الخامس الملك في عام ١٥٥٦ كان من نصيب ابنه فيليب الثاني(١٥٥٦-١٥٩٨) الحكم في اسبانيا وفي املاكها الاخرى التي ورثها عن ابيه في الاراضي المنخفضة ونابولي، وميلان وصقلية الى جانب امبراطورية اسبانيا الاستعمارية .

وغالبا مايقال بأن حكم فيليب الثاني قد فشل فشلا ذريعا، وكان فيليب يبدو دائما بأنه على وشك تحقيق عمل عظيم، وكانت لحظات ظهر فيها

بأنه فى امكانه ضم انجلترا وفرنسا الى ممتلكاته ، ولكن جهوده لم تتوج بالنجاح . غير ان انفصال جزء كبير من الاراضى المنخفضة وتحوله الى دولة بروتستانتية مستقلة كان من أسوأ الضربات جميعا التى وجهت الى حكمه . وعلى الرغم من ذلك لم يخل حكم فيليب الثانى من تحقيق بعض الانتصارات . ففى عام ١٥٧١ قاد دون جون النمساوى وهو اخ غير شرعى للملك قوة بحرية كبرى من الدول الكاثوليكية واوقع بالاسطول العثمانى هزيمة فادحة عند ليبانتو Lepanto فى خليج كورنث ولم يسترد العثمانيون بعد تلك الهزيمة قوتهم البحرية . كما كان اعظم انتصار حققه فيليب فى عام ١٥٨٠ عندما ادعى بنجاح احقيته فى عرش البرتغال بعد وفاة ملكها ، وهكذا لم يحكم كل شبه جزيرة ايبيريا فحسب بل ضم الى ممتلكاته ايضا الممتلكات البرتغالية الشاسعة فى أمريكا و الهند .

ولكن الثورة التى قامت فى الاراضى المنخفضة تعتبر من أعنف الضربات التى وجهت الى اسبانيا فى عهد فيليب الثانى ، فلم تؤد هذه الثورة الى اضعاف اسبانيا فحسب ولكنها ادت كذلك الى ظهور دولة بروتستانتية جديدة وحرة فى اوروبا . وكانت الاراضى المنخفضة تتكون من سبع عشرة مقاطعة منفصلة انتقلت ملكيتها الى فيليب الثانى كجزء مما ورثه عن شارل حاكم برجنديا وكان لكل مقاطعة من هذه المقاطعات دستورها الخاص بها ، ولكنها لم تكون وحدة بأى شكل من الاشكال على الرغم من ان شارل الخامس قد حاول - دون ان يفشل تماما - وضع نظام ادارى مشترك وكونت هذه المقاطعات من الناحية الاسمية جزءا من الامبراطورية . ولكن الارتباط بينها كان ضعيفا كما كان الحال فى الاتحاد السويسرى . وكانت المقاطعات عبارة عن خلية مزدحمة بالنشاط التجارى والصناعى ، واعطت مدنها وموانيها الكبرى ، ومن اهمها انتورب وجنت وبروكسل وامستردام ملك اسبانيا دخلا كبيرا اكثر مما حصل عليه من الهند . ولم يكن من

السهل حكم هذه المقاطعات ،وواجهت شارل الخامس بعض المصاعب الخطيرة ولكنها فى معظم الاحيان ايدته باخلاص .

اما فيليب الثانى :فلم يتمتع بخبرة والده وميوله العالمية ،فقضى معظم حياته تقريبا فى اسبانيا وادار شئون امبراطوريته الواسعة من مدريد عن طريق المراسلات الكثيرة .وكان فيليب الثانى مجتهدا ،صبورا ، يشعر بالواجب الملقى عليه ،وكان مخلصا اخلاصا حقيقيا وعظيما للديانة المسيحية ولكن من النادر ان جاء حاكم فى تاريخ اوروبا كرهه معاصروه وخلفاؤه ، لانه اصطدم مع كل ما يمثل الحرية والتقدم ،واجتهد فى القضاء عليهما بعنف واستهتار .

وكانت سياسته ازاء الاراضى المنخفضة تتمشى فى نواح كثيرة مع الاتجاه العام السائد فى ذلك العصر .واراد فيليب ان يمنح المقاطعات السبعة عشر فى الاراضى المنخفضة وحدة حقيقية تحت التاج الاسبانى ،كما اراد ان يطمس الكثير من حريتهم المحلية والمنفصلة ، وان يحكم الاراضى المنخفضة بنفس السلطة المطلقة التي حكم بها اسبانيا ،وحكمت بها كل من اليزابيث وهنرى الرابع انجلترا وفرنسا . وبالاضافة الى ذلك اعتقد فيليب - كما اعتقد الكثيرون غيره فى ذلك العصر ، ان الوحدة السياسية من الصعب تحقيقها بدون وجود وحدة دينية .وعقد العزم نتيجة للدوافع السياسية والدينية على القضاء على الحركة البروتستانتية التى انتشرت من قبل وعلى وجه الخصوص فى المقاطعات الشمالية . وكانت الاراضى المنخفضة قد تأثرت بحركة الاصلاح الدينى فى المانيا ، فعرفت مذهب لوثر ومذهب كلفن بحرية العقيدة .

وبدأ الصراع مع تلك المقاطعات تقريبا عقب تولى فيليب الثانى العرش . وقد تمنى سكان الاراضى المنخفضة ان يعين فيليب أحد كبار

نبلائهم نائبا عنه فى حكم بلادهم واقترح الرأى العام اسم كونت اجمونت Egmont او وليم William of Orange (الملقب بوليم الصامت)* . وكان الاخير من اصل المانى ، على الرغم من انه حصل على لقبه نسبة الى مقاطعة اورنج الصغيرة فى فرنسا ، وكانت له ممتلكات كثيرة فى الاراضى المنخفضة ، وارتبط بسكانها ارتباطا وثيقا . ولكن فيليب تخطى اجمونت ووليم ،وعين على حكم البلاد اخته غير الشرعية مارجريت بارما فى عام ١٥٥٩ ، وقد اعتمدت بدرجة كبيرة على اعوانها ومستشاريها من الاسبان . وحدث الاحتكاك بعد ذلك بسبب المسائل الدينية ، اذ اراد فيليب ان يقيم اسقفيات جديدة وان يسحق البروتستانتية عن طريق تنفيذ اجراءات استثنائية . واعلنت المقاطعات ان هذا يعتبر تعديا على امتيازاتهم ، ودارت مفاوضات كثيرة بهذا الشأن ، ولكن لم يمكن التوصل الى نتيجة . وصمم فيليب على ان يحسم الامر فأرسل فى عام ١٥٦٧ الدوق الفا Alva اعنف قواده على رأس جيش اسبانى كبير من المرتزقة الايطاليين و الاسبان لسحق المعارضة وتنفيذ الاجراءات بالقوة . وبمجرد وصوله بدأ يضرب بعنف وشدة ، فأعدم اجمونت فى عام ١٥٦٨ اما وليم اورنج فأنقذ نفسه بالهرب . وكون الفا مجلسا اطلق عليه سكان الاراضى المنخفضة اسم مجلس الدم لمحاكمة جرائم الخيانة والهرطقة . وتم التغلب على كل المحاولات التى بذلت للقيام بالثورة . وفى عام ١٥٦٩ اصبحت البلاد فى قبضة الفا ، ولكن رغم ذلك حدثت ثورة عنيفة بعد ثلاث سنوات لم تتمكن اسبانيا من اخمادها .

كان الجهل والعنف الذى اتسمت به سياسة الفا المالية هما السبب الرئيسى لقيام الحركة الجديدة . ففرض فى عام ١٥٦٩ ضرائب هددت التجارة بالخراب وعارضه فى ذلك الوقت حتى اولئك الناس شديدى التعلق باسبانيا . وتأجل دفع الضرائب بعض الوقت ، ولكن كان لابد من جمعها فى

* لقب بذلك لانه اعتصم بالصمت .

عام ١٥٧٢ ولقد شجعت المساعدات الخارجية او مجرد وجود امل فــــي الحصول عليها ، شجعت السكان المضطهدين على المخاطرة بكل شيء من اجل القيام بالثورة . وكانت الملكة اليزابيث صديقة لهم ، وحقدت فرنســـا على اسبانيا بسبب الانتصارات التى احرزتها على حدودها الشماليـــة وفى ابريل عام ١٥٧٢ استولى الشحاذون من رجال البحر Sea Beggars* الهولنديين الذين تركوا البلاد بسبب سياسة الفا ، وكانوا قد أغـاروا قبل ذلك على ثغرى بريل Brill وفلاشنج Flushing فى ساحـــل زيلند Zeeland واستولوا عليهما ، واعلنت مقاطعتا هولنــــدا وزيلند الحرب على الفا ، وقامتا باستدعاء وليم اورانج لتولى الحكم . وهكذا بدأت حرب الاستقلال الحقيقية التى استمرت لمدة اربعين عامـــا واثبتت هذه الحرب بأنها خليج لانهاية له القت فيه اسبانيا بجيوشهـــا واساطيلها وثروتها . ولم يقف على اسبانيا سوى المجهود الطويل المضنى الذى بذلته لاخضاع الاراضى المنخفضة .

اتخذ اورانج مقره فى بريدا Breda ، وانضمت اليـــه المقاطعات الشمالية (هولندا واوترخت وزيلند وفريسلند) واعترفـــت به حاكما عليها مع الاحتفاظ فى نفس الوقت بولائها لملك اسبانيـــا . ثم انضمت اليها المقاطعات الثلاث الشمالية الشرقية وهى جلدرلانـــد وجرونـنجن واوفريسل ، ومن هذه المقاطعات السبع اذا تكونت هولنـــدا الحديثة . واستمرت المقاطعات الشمالية فى كفاحها حتى توجـــت مجهوداتها بالنصر . وكان صراعا مدهشا ويمكننا ان نتلمس اسباب فشل اسبانيا . فلقد تشتت جهودها بسبب المشاريع العديدة ، وعانت من نقـــص رؤوس الاموال ، الامر الذى انتهى الى حدوث الافلاس التام . ولم تقم اسبانيا بالاضافة الى ذلك ، بأى مجهود فعلى للقضاء على قوتها او اضعافهـــا .

* كانوا قد اضطروا الى ترك البلاد والاغارة على السفن الاسبانية

ولم يكن سكان الاراضى المنخفضة ندا للاسبان فى المعارك البرية ولكنهم استماتوا فى الحرب خلف حوائط مدنهم. وقاموا فى الاوقات الحرجة بقطع السدود امام مياه البحر لطرد العدو. ويجب ان نذكر الخدمات الجليلة التى قدمها وليم الصامت. ولم يكن وليم جنديا عظيما، ولكنه بث شجاعته فى قلوب مواطنيه، ونجحت دبلوماسيته الضعيفة فى الابقاء على نوع من التحالف بين العناصر الكثيرة المزعزعة فى الثورة، ولا تدين دولة بالفضل الى اى حاكم مثلما تدين هولندا الى " وليم الصامت ".

واستدعى الفا، وغادر الاراضى المنخفضة فى عام ١٥٧٣، وخلفه دون لويس Don Louis الذى احرز عدة انتصارات. ولكن لم تظهر اى بوادر لانهاء هذا الصراع. وادت وفاة دون لويس فى عام ١٥٧٦ دون ان يحرز نجاحا حاسما الى نتائج على قدر كبير من الاهمية فى تاريخ الحركة القومية فى الاراضى المنخفضة. فبعد وفاة الحاكم مباشرة قام الجنود الاسبان بالثورة بسبب تأخر مرتباتهم، ونهبوا مدينة انتورب وتلك هى الحادثة المعروفة باسم الغضبة الاسبانية Spanish Fury (١٥٧٦) ولقد سهلت هذه الاحداث على وليم اورانج مهمة توحيد المقاطعات الشمالية والجنوبية، واختفت بذلك الى حين هذه الناحية الدينية، وتناسى سكان الشمال والجنود الاختلافات الدينية *، وطغت قضية الوطن الكبرى على ماعداها من قضايا، وجمع اورانج الشمال والجنوب فى اتحاد اطلق عليه اسم سلام جنت The Pacification of Ghent فى نوفمبر عام ١٥٧٦ على اساس الاعتراف بسلطان فيليب الثانى فى مقابل طرد الجنود الاسبان

---

* كانت المقاطعات الشمالية بروتستانتية وتتحدث اللهجة الالمانية. وكانت المقاطعات الجنوبية تتحدث الفرنسية. وحتى ذلك الوقت كانت المقاطعات الشمالية هى التى قامت وحدها بمقاومة الاسبان.

من البلاد ونشر التسامح الدينيوتأليف مجلس من المقاطعات يقـــوم بأعباء الحكومة .

وعين دون جون Don Jhon خلفا لدون لويس فى حكم الاراضـــى المنخفضة وسلم بالمطالب التى اجمعت عليها البلاد وامتثل لوحـــدة الشمال والجنوب ، فأكدتسوية جنت ووعد بسحب القوات الاسبانية .ولكــن الاتحاد بين الشمال والجنوببدأ يتصدع ، ولم يتمكن وليم اورانج مــن الاحتفاظ بالنصر الذى كسبه . فالخلافات الدينية عادت الى الظهور بيــن الشمالو الجنوب ،وروابط الاتحاد التى تمت كانت من الضعف بحيث لـــم تقوعلى الصمود امام اولمحنة .ورغم محبة الشعب لوليم اورانج ، فقد كان نبلاء الجنوب ينظرون اليه بعين الحسد ، وهكذا تجدد النزاع بيـــن الشمال والجنوب ، وفيه استعان نبلاء الجنوب بالنمساويين ،واشترك دون جون فى ذلك النزاع ، وتمكن من الإنتصار فى معركة جمبلو Gembloux فىعام ١٥٧٨ . وهذه معركة مهمة فىتاريخ الاراضى المنخفضة ،فبعدها استقر لكل منهولندا وبلجيكا وجودهما السياسى المنفصل .

وفى عام ١٥٧٨ توفى دونجون وخلفه دوق بارما (ابن مرجريت بارما) وقد سار بارماعلى سياسة سلفه محدثا الفرقة بين الشمال والجنوب . واسف وليم اورانج لذلك واقتصر التأييد الذىحصل عليه على المقاطعات الشمالية البروتستانتية . وفى عام ١٥٧٩ كونت تلك المقاطعات الشمالية السبع اتحادا يعرف باسم اتحاد اوترخت The Union fo Utrecht الذى جمع هذه المقاطعات فى شكل حكومة فيدرالية مفككة وواصلـــت الحرب ضد اسبانيا . وبفضل سياسة الدوق بارما تكون اتحـــاد اراش Union of Arrass من المقاطعات الجنوبية للدفاع عـــن الكاثوليكية ، هكذا انقسمت المقاطعات الى قسمين منفصلين لم يمكن

التوفيق بتاتا بين مصالحهما بعد ذلك.

استمر اتحاد اوترخت يعترف بالسلطة الرسمية لفيليب ، ولكن فيليب قام بطرد اورانج خارج القانون واهدر دمه . وعندئذ قررت المقاطعات الشمالية الانفصال عن اسبانيا فى لاهاى عام ١٥٨١ . ولما كانت تلك المقاطعات حتى هذا الوقت لا تفكر فى الاستقلال الكامل وتخش من انتقام اسبانيا فقد حاول اورانج ان يستميل الى مساعدته فرنسا . ونجحت مساعيه عندما قبل الدوق انجوشفيق ملك فرنسا هنرى الثالث ان يحكم فى المقاطعات الشمالية فى عام ١٥٨٢ . ولكن هذه التجربة باءت بالفشل لأن انجو اراد انشاء حكومة مستقلة لنفسه ، فاحتل جنوده فجأة عددا من المدن ، وأوقعوا بالاهالى الذين قاوموهم فى انتورب - مقر وليم اورانج - مقتلة عظيمة حتى صارت تعرف هذه الفظائع باسم الغضب الفرنسى The French Fury على غرار الغضب الاسبانى - وذلك فى يناير عام ١٥٨٣ . وامام مقاومة البلاد اضطر انجو الى مغادرة الاراضى المنخفضة - ومات فى فرنسا عام ١٥٨٤ ، اما انجلترا فكانت صديقة للمقاطعات وعمل الانجليز كمتطوعين فى القوات الهولندية ، ولكن انجلترا لم تقدم الى المقاطعات مساعدة صريحة اثناء حياة وليم اورانج .

ولقد حرمت المقاطعات من مساعدة وليم اورانج الفعالة ، بعد ان اهدر الملك دمه مباشرة . اذ شجعت المكافأة المالية التى قدمها فيليب كثيرا من السفاحين بالتربص لاغتياله ، وفعلا تم اغتياله فى عام ١٥٨٤ وبدا كما لو ان اغتيال وليم اورانج سيقضى على هدف الاراضى المنخفضة . فأخذ بارما انتورب ، وقدمت الملكة اليزابيث بعض المساعدات فأرسلت جيشا بقيادة الايرل ليستر . ولكن التغير الذى حدث فى الموقف الاوروبى قد احدث نتائج هامة . فلقد أثرت هزيمة الارمادا

الاسبانية على ايدى الانجليز فى عام ١٥٨٨ على قوة اسبانيا وعظمتهـا وبعد ذلك تولى العرش فى فرنسا هنرى نافار البروتستانتى وعـدو اسبانيا اللدود . وهكذا تحالفت انجلترا وهولندا وفرنسا ضد اسبانيا وتبدد الامل بالنسبة لاسبانيا فى الحصول على النصر . وتولى موريس بن وليم الصامت قيادة الجيوش الهولندية ، واظهر مهارة حربية كبيرة تفوق مهارة والده . واخيرا هزم الجيش الهولندى الجيوش الاسبانية عنـد تربنهوت Turnhout فى عام ١٥٩٧ . واستمرت الحرب لعدة سنوات ومع ان اسبانيا ظلت ساخل فترة الا ان قوتها لم تلبث ان تضعضعت بسبب هذا الكفاح الطويل . وافلست خزائنها وتحملت خسارة كبيرة وخصوصـا عندما حطم الهولنديون اسطولها فى البحر المتوسط فى عام ١٦٠٧ . ولذلك اضطرت اسبانيا الى قبول الهدنة فى عام ١٦٠٩ على اساس الاعتـراف بهولندا واغلاق نهر الشلدت لتعطيل تجارة الجزء الجنوبى ، ولتعطيـل منافسة انتورب . ثم تركت اسبانيا للهولنديين حرية التجارة مـع املاكها فى الهند الغربية ، وامتنعت منذ ذلك الحين عن التدخل لنجـدة الكاثوليكية فى هولندا . وفى معاهدة وستفاليا صار الاعتراف رسميـا باستقلال هولندا فى عام ١٦٤٨ .

الفصل التاسع

حرب الثلاثين عاما

١٦١٨ - ١٦٤٨

بدأ الصراع الديني في القرن السادس عشر بعد ظهور حركة الاصلاح الديني بين الكاثوليكية والبروتستانتية ولما انقسمت البروتستانتية الى مذاهب زادت حدة الصراع بينها وبين الكاثوليكية . وما ان انتهى القرن السادس عشر حتى كان كل مذهب قد استقر فيما انتشر فيه من ساحة اوروبا ، ولكن ذلك لم يكن يعني دعم الثقة بين الكاثوليك والبروتستانت اذ كانت نيران الحقد والقلق لاتزال كامنة بين الطرفين ويتهيأ لتلاحم جديد عند سنوح الفرصة .

وهكذا بدأ القرن السابع عشر وفي طياته نظرة كان من شأنها انهاء هذا الصراع وانهاء اعتبار الدين عاملا ذا اهمية في تشكيل او توجيه سياسة الدول الخارجية بفضل عودة الاستقرار والتوازن في داخل الدولة ذاتها عندما اختفت الانقسامات الدينية الداخلية . حتى اصبح في استطاعتها العمل على تحقيق اغراضها من غير ان تبنيها على دعوى العقيدة والمذاهب . وبذلك كان عمر ما ورثه هذا القرن من سابقه من اتجاه نحو استتباع الصراع الديني قصيرا بوجود نقيضه الجديد القائم على الرغبة في انهاء هذا الصراع والقضاء على كل انقسام ، يصيب كيان الدولة السياسي .

ولذلك فما كاد طرفا هذه الثنائية يلتحما في مطلع القرن السابع عشر في صورة صراع ديني حتى انقلب الصراع من حرب دينية الى حرب سياسية لخدمة المصالح القومية ، ومن ثم قضى نهائيا على هذا اللون من الصراع . ولقد اخذت اصول الصراع الديني تنمو وتستشرى بعد عقد

صلح اوجزبرج فى عام ١٥٥٥ الذى حاول التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت على السواء . ولكن صلح اوجزبرج لم يكن من القدرة على حسم النزاع الدينى بين المذاهب الجديدة من ناحية ، وبين الكاثوليكية من ناحية وكان من اهم اسباب اخفاق صلح اوجزبرج ماجاء فيه بشأن المحافظة على املاك الكنيسة الكاثوليكية فى المانيا ، ومنع السلطة الزمنية والعلمانية عموما من الاستيلاء عليها وحرمان الكنيسة منها . ذلك أن املاك الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما صارت بعد هذا الصلح موضع اطماع البروتستانتية المنتصرة . وكان هذا الاعتداء من جانب البروتستانت على املاك الكنيسة الكاثوليكية من اسباب التذمر وغضب اتباع البابوية المستمر فى المانيا .

وبالاضافة الى ذلك ، لم يتح صلح اوجزبرج الفرصة للكلفينية التى انتشرت فى اوروبا وفى المانيا ، فلم يعترف بهذه العقيدة الجديدة او بمبدأ التسامح الدينى عموما . وعلى ذلك استمرت الكلفينية فى المانيا تفتقر الى سند قانونى تستند اليه . وبالتالى اصبحت معرضة للاخطار التى هددتها فى وجودها نفسها .

ورغم هذا القصور والضعف فى صلح اوجزبرج ، نعمت المانيا بفترة سلام طويلة ، وربما يرجع السبب الى حسد الجماعات الثلاث : الكاثوليك واللوثريين والكلفينيين بعضهم لبعض والخوف من ان يؤدى الاصطدام بينهم الى اوخم العواقب . وقد كانت هذه الهدنة الطويلة بعد صلح اوجزبرج فى صالح البروتستانت حيث استطاع اللوثريين والكلفينيين العمل على نشر مذهبهم دون مواجهة معارضة حقيقية حتى جاء الوقت الذى اصبحت فيه المانيا الشمالية بروتستانتية ، بينما تسربت العقائد الى الجنوب ، الى النمسا وبفاريا وكانتا تعتبران معاقل منيعة للكاثوليكية

غير ان البروتستانت لم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم ،بل وعجزوا عن تنظيم صفوفهم. اما الكاثوليك فلم يكن منتظرا ان يظلوا مستكينين مدة طويلة سيما بعد انتعاش كنيستهم. بل كان نجاح مجلس ترنت محددا بداية الرغبة ،التى ظهرت جديا من جانب الكاثوليك بزعامة الجزويت اليسوعيين ، لارجاع المانيا بأسرها الى احضان الكاثوليكية. وتمكنت حركة الجزويت من استرداد الكثيرين من انصارها ممن تحولوا الى المذهب البروتستنتى . وهكذا اصبحت حركة الجزويت فى نظر البروتستانت حركة خطيرة هدفها القضاء على المذهب الجديد.

وكان نشاط الجزويت اهم ما تميز به عهد الامبراطور رودلف الثانى Rudolph II (١٥٧٦ - ١٦١٢) . وكان رودلف قد تربى فى بلاط فيليب الثانى وتشبع بالافكار الاسبانية فى الدين والسياسة ،فصار يهتم كثيرا بعظمته الشخصية ولا يكن اى احترام لمعتقدات رعاياه الدينية او لمصالحهم السياسية. وقام رودولف بطرد المبشرين البروتستانت من فينا واستطاع الجزويت فى عهده ان ينفذوا الى كل بيت من بيوت الاسر الكاثوليكية . وجعلوا مركز نشاطهم الرئيسى فى فينا وميونخ يوسعون منه دائرة نشاطهم تدريجيا ،فى مثابرة ونشاط. فأسسوا المدارس وبعثوا بمبشريهم الى كل مكان،ونشطوا فى تدعيم الكاثوليكية . وفعلا امكن اعادة الكثيرين الى حظيرة الكاثوليكية بعد ان نبذوا البروتستانتية .

وكان نجاح الجزويت فى بداية القرن السابع عشر كبيرا لدرجة ان وجد البروتستانت انه من الضرورى درء هذ الخطر فأسسوا فى عام ١٦٠٨ الاتحاد البروتستانتى The Protestant Union من الامراء البروتستانت وبعض المدن للدفاع عن مصالحهم المشتركة . ورغم ان ذلك

الاتحاد لم يضم كل اللوثريين الالمان، فقد اسرع الكاثوليك فى العام التالى بتكوين عصبة كاثوليكية The Catholic League حصلت على تأييد الامبراطور ومنذ ذلك الوقت انقسمت المانيا الى معسكرين كبيرين، وسعى كل فريق الى تنظيم قواته الحربية وموارده المالية وتكوين حلفاء من الخارج يؤيدونه. وسهل مهمة الكاثوليك انقسام البروتستانت الى معسكرين متنافرين (كلفينيين ولوثريين)، ولم يعضد البروتستانت تعضيدا كاملا رئيس الاتحاد البروتستانتى وهو فريدريك الخامس ناخب (كونت) البلاتاين Palatine وكان كلفينيا. اما الكاثوليك فكانوا اقوى تنظيما برئاسة دوق بفاريا، وكان صاحب مقدرة وكفاءة.

وفى بوهيميا بدأت حرب الثلاثين عاما، وكانت امتدادا للثورة التى قامت فى بوهيميا ضد الامبراطور رودولف الثاني عندما أراد تأسيس حكومة مركزية قوية فى المانيا، وكانت وسيلته هى القضاء على الانقسام الدينى حتى يمكن القضاء على الانقسام السياسى وانهاء الخلافات الدينية. وقد حاول رودولف ان يفعل ذلك فى بوهيميا التى كانت من املاك الهابسبرج. فأدى ذلك الى الاصطدام مع العناصر الدينية ومن ثم انبعث النذير الاول لحرب اوروبية شاملة وكان اهل بوهيميا من السلاف والتشيك والجرمان، وكانت البروتستانتية اللوثرية قد انتشرت فيها. واتجه الامبراطور ينفذ خطته فأساء ذلك من بعد اخوه الامبراطور ماتياس (١٦١٢-١٦١٩) معاملتهم، واتخذت الوسائل الكفيلة للقضاء عليهم، على اعتبار ان القضاء على كل اختلاف دينى من شأنه ان يدعم سلطان الامبراطورية. فلما ضاقت السبل ازاء ذلك بالبروتستانت، قاموا بالثورة عام ١٦١٨ فهاجموا مقر الحكومة فى قلعة براج، وانقضوا على الاعضاء الكاثوليك وانصار الامبراطور والقوا بهم من النافذة ثم شكلوا حكومة جديدة من اعوانهم وفى يوم ٢٦ اغسطس عام ١٦١٩ وهو اليوم

الذى انتخب فيه فردیناند الثانى امبراطورا (١٦١٩-١٦٣٨) بعدوفاة ماتياس اعلن اهل بوهيميا خلعه من حكمهم، واقاموا مكانه ملكا على بوهيميا، رئيس الاتحاد البروتستنتى فريدريك الخامس ، وبهذا انتقلت المقاومة من النضال المحدود الى ثورة اهلية، ومن ثم اخذ مجراها ينحو نحو حرب اوروبية شاملة .

وبدأت حرب الثلاثين عاما ، اذا على شكل نضال محلى ، ثم اخذ يتسع نطاقها حتى شملت اوروبا كلها ، فقد امتدت من بوهيميا الى المانيا الجنوبية ثم الى المانيا الشمالية فجذبت اليها ايضا الدول المجاورة البروتستانتية . ثم اخذت دولة بعد اخرى تخوض غمار الحرب، حتى غدت هذه الحرب فى النهاية حربا غير المانية . وبهذا اتخذ الامر فى بادئه مظهر نضال بين البروتستانتية والكاثوليكية ثم انتهى اخيرا الى نزاع بين الاسرتين الكبيرتين الهابسبرج الالمانية والبربون الفرنسية من اجل السيطرة الاوروبية . ويمكننا ان نقسم الادوار التى مرت بها الحرب الى اربع ادوار نجملها فيمايلى:

أ - الدور البوهيمى (١٦١٨ - ١٦٢٣)

فى اوائل الدور الاول من ادوار الحرب قاد البوهيميين الكونت ثورن Thurn والكونت مانسفيلد Mansfeld واحرز الثوار بعض الانتصارات على قوات الامبراطور ماتياس وبعد انتخاب فردیناند الثانى امبراطورا فى عام ١٦١٩ وكان كاثوليكيا متعصبا ، عمل على اخضاع بوهيميا . ونشطت العصبة الكاثوليكية وعلى رأسها مكمليان، ناخب بفاريا لنصرة قضية الهابسبرج .

وانهزم البروتستانت فى موقعة التل الابيض فى نوفمبر عام ١٦٢٠ ، امام قائد المعسكر الكاثوليكى تيلى Tilly وفتحت بلاد فردريك ملك بوهيميا

واضطر الى الفرار وكادت الحرب تنتهى عند هذا الحد،ولكن الامبراطور [illegible] انواع الاضطهاد باهل بوهيميا،واعلن خلع فردريك ثم جرده من املاكه ليأخذها مكسمليان.وتحولت بوهيميا من منطقة بروتستانتية الى كاثوليكية وازداد نفوذ الكاثوليك فى المانيا .

ولقد افزع البروتستانت فى اوروبا هزيمة بروتستانت المانيا وخصوصا بعد تجريد فردريك الخامس(رئيس الاتحاد البروتستانتى)من املاكه وكان فى مقدمة المتعاطفين مع فردريك جيمس الاول ملك انجلترا.وهو الذى كان قد زوج ابنته اليزابيث من فردريك الخامس ناخب البلاتاين. لكن جيمس لم يرد التدخل فى الحرب حتى لا يغضب اسبانيا الكاثوليكية وكان حريصا على اقامة تفاهم بين اكبر دولة بروتستانتية وهى انجلترا واكبر دولة كاثوليكية وهى اسبانيا من اجل تحقيق السلام فى اوروبا ولذلك فضل جيمس حل المسألة سلميا وبالمفاوضات . واخذ يرجو اسبانيا بالتدخل لانهاء هذا النزاع فى المانيا لصالح صهره، ولكن لم تنجح هذه المساعى ومن ناحية اخرى ادى الخطر المحدق بالبروتستانت واقتراب الجيوش الكاثوليكية من الشمال البروتستانتى الى انضمام ملك الدانمرك كرستيان الرابع . وهنا يبدأ الدور الثانى من ادوار الحرب .

٢ - الدور الدانمركى (١٦٢٥ -١٦٢٩) .

وجد الملك كرستيان الرابع نفسه مهتما اكثر من غيره بهذه الاحداث من وجهة النظر الدينية والسياسية معا . فضلا عن كونه ملك الدانمرك فقد كان دوقا لهولشتين Holestein ايضا،وهذا يعنى انه كان اميرا من امراء الامبراطورية .وانتصار الكاثوليكية كان تهديدا ايضا لمصالح عائلته . وكان من الممكن ان يتحالف ملكا السويد والنرويج لدرء الخطر المشترك،ولكن انشغال جوستاف ،ملك السويد، فى بولندا ،بالاضافة

الى عوامل الحسد بينهما حالت دون ذلك، وفي عام ١٦٢٦ كان كريستيان مستعدا للتدخل في المانيا تساعده اموال انجليزية ويخدم في جيشه بعض الانجليز .

وبدت المصاعب امام الامبراطور في اول الامر، فكانت هناك جيوش الملك الدانمركي ومانسفيلد وامير برسويك Brunswich وجابور Gabor. وامام هؤلاء لم يكن هناك سوى جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة تيلي، كما كانت خزانة الامبراطور خاوية . ولكن ظهر في الجانب الكاثوليكي قائد اعظم من تيلي هو فلنشتين Wallenstein وهو من اصل بروتستانتي وبوهيمي من النبلاء، غير فلنشتين مذهبه وانضم الى الامبراطور، فكان اظهر قائد ظهر في الامبراطورية . وكان جيشة مكونا من الجنود المرتزقة ، وعمل على حفظ جيشة ببذل العطايا، وانزل العقاب بالمقصرين، ولذا انهزمت امام قواته جيوش الدانمرك البروتستانت بفضل سمعة فلنشتين الكبيرة وقدرته وكفاءته والتفاف الجنود حوله وتفانيهم في خدمته .

ولقد انضم فلنشتين الى المعسكر الكاثوليكي لتحقيق اهداف معينة ليست اهمها مساعدة الامبراطور، وانما كان يسعى الى القضاء على سلطة الحكومات المحلية في الامارات الالمانية المبعثرة وتوحيدها، توطئة لاقامة الدولة الالمانية القوية الموحدة، على راسها الامبراطور من الناحية الاسمية، بينما تخضع لسلطانه الحقيقي من الناحية الفعلية . وهذا الهدف اكثر من غيره، دفعه الى خوض المعارك بكل قوة وعنف لا لتحقيق النصر للكاثوليكية بقدر ماكان لتنفيذ مآربه الشخصية .

انتصر الكاثوليك على البروتستانت في موقعتين : الاولى انتصر فيها القائد الكاثوليكي تيلي على جيش ملك الدانمرك في موقعة لوتر Lutter (اغسطس ١٦٢٦) والثانية وهي الاهم التي احرزتها قوات الامبراطور بقيادة

فلنشتين على الجيش الدانمركي في موقعة كوزل Cosel واحتلت على اثرها مكلنبرج، وخربت كل من اقليمي شلزفيج وهولشتين. ولم يكن ينقص الامبراطور سوى اسطول لاتمام احتلال الدانمرك. وفي النهاية اضطر كرستيان الرابع الى عقد صلح لوبيك Luebeck عام ١٦٢٩، وبه استرجع كرستيان اراضيه المحتلة ، ولكنه في مقابل ذلك تخلى عن اطماعه ووعد بأن يكف يده من التدخل في الشئون الالمانية.

وبهذا تنتصر الكاثوليكية في المانيا، ويصبح الامبراطور فرديناند الثاني سيد المانيا الى حد كبير. وبات متوقعا ان يستغل الامبراطور هذا النجاح لصالح الكاثوليك. وفعلا اصدر في مارس عام ١٦٢٩ مرسوما اطلق عليه اسم مرسوم استرجاع املاك الكنيسة Edict of Restirution ويقضي هذا المرسوم بأن يتنازل البروتستانت عن املاك الكنيسة الكاثوليكية التي اخذوها من قبل بمقتضى معاهدة بساو Passau عام ١٥٥٢ وصلح اوجزبرج عام ١٥٥٥. وقد احدث هذا المرسوم ضجة كبيرة الى الحد الذي جعل الخلاف يدب بين الكاثوليك ومكسمليان وفلنشتين ، وبين الاخير والامبراطور الذي كان يخاف من تفوق فلنشتين. وكان المرسوم يتعارض تماما مع خطة فلنشتين الذي اراد دائما ان يخضع المسائل الدينية لهدفه الاعظم ، وهو توطيد السيطرة الامبراطورية ، بينما اثار المرسوم النزعات الدينية من جديد . ومما لاشك فيه ان انقسام المعسكر الكاثوليكي على نفسه سيكون من صالح البروتستانت ، الذين سيعملون جاهدين على الاستفادة من هذه الظروف ولاسيما جوستاف اودولف ملك السويد.

واتجهت الامور في غير صالح فلنشتين فتذمر النبلاء الالمان منه ، وتخوف الامبراطور من نفوذه وقيام الجيش الذي تحت قيادته والمكلف

باسترجاع املاك الكنيسة باعمال السلب والنهب التي اغضبت الالمان من الامبراطور، وفوق هذا سعي فرنسا الدائب لاثارة كل الاطراف الساخطة على فلنشتين ضده. كل هذه العوامل قربت من نهايته. وفي يوليو عام ١٦٣٠ طلب الحلف الكاثوليكي برئاسة مكسمليان دوق بافاريا في المجلس الامبراطوري(الدايت Diet) في راتزبون Ratisbon عزل فلنشتين من قيادة الجيش وقد ارسل ريشيليه وزير لويس الثالث عشر الفرنسي ممثله بيير جوزيف الذي أخذ يلعب دورا خطيرا في السياسة الالمانية. ورغم ان ريشيليه كان كاثوليكيا وكاردينالا، فهو لم يتردد في تأييد قضية البروتستانت حتى يمنع القوة الاسبانية والنمساوية من النمو ويحل قوة الملكية الفرنسية بدلا منها. ولقد اخذ هذا المبعوث يثير الخلاف ضد فلنشتين، وبناء عليه طلب الامراء من الامبراطور عزله وتم لهم ما ارادوا. وفي الوقت الذي فقد فيه الامبراطور اكبر نصير له واكبر قائد عنده، عمل ريشيليه على اقحام جوستافوس ادولف ملك السويد، في النزاع ضد الامبراطورية وعلى تأليب امراء جنوب المانيا ضد الامبراطور نفسه. فحث ريشيليه ملك السويد على تبني قضية البروتستانت

٣ - الدور السويدي (١٦٣٠ - ١٦٣٥):

كان جوستاف متحمسا للبروتستانتية ، واستجاب لدعوة البروتستانتية الالمانية عندما دعته. ولكن هناك اسباب اخرى سياسية كانت مهمة جدا فلقد كانت السويد ترمي الى السيطرة على بحر البلطيق . وكذلك المسألة الاقتصادية كان لها اعتبار في سياسة جوستافوس. ولكن لا ريب ان الدافع الديني لم يكن اهم الدوافع فهو من اهمها، والسويد كانت دولة صغيرة وكان جيرانها مثل الروسيا والنرويج وبولندا اعداء لها، ومواردها محدودة، ولكن في عهد جوستاف وصلت الى مصاف الدول القوية واصبح لها

جيش قوى منظم. ومع ذلك فسوف لايكون لهذه الدولة قيمة اذا نجح الكاثوليك فى ارجاع سيطرتهم على كل المانيا وعبروا البلطيق وغزوا السويد. ولذا يسرع الى غزو المانيا قبل ان تقوم هى بغزو السويد .

نزلت القوات السويدية الى سواحل بوميرانيا فى عام ١٦٣٠. وفى العام التالى استولى تيلى على مجدبرج Magdebury وتقوم قوات العصبة الكاثوليكية بعمليات الذبح والنهب ، مما اثار البروتستانت الذين كانوا قد تخلفوا عن نصرة اخوانهم. وتحالف امير ساكسونى مع السويد وعبرت قواته نهر الب Elbe . وبذلك قوى الجانب البروتستانتى وانتصر جوستاف ، فى معركة ليبزج Leipzig فى سبتمبر عام ١٦٣١ ويدخل الساكسون بوهيميا ويحتلون براج. ولذا يضطر الامبراطور الى الاستعانة بفلنشتين، ويعطيه سلطة مطلقة وحرية تامة فى العمل. واستطاع فلنشتين استعادة براج وطرد الساكسون من بوهيميا . ولكن جوستافوس استطاع رغم ذلك اكتساح وسط اوروبا حتى الدانوب والراين . وفى معركة لوتزن Lutzen (نوفمبر ١٦٣٢) ينسحب فلنشتين ، ولكن يفقد السويديون ملكهم فى تلك المعركة ، وبذلك لم يستفيدوا تماما من انتصارهم .

ولم تنته الحرب بموت جوستافوس ، ولو عاش لربما جعل من شمال اوروبا اتحادا بروتستانتيا يضم شمال المانيا والدانمرك واسكنديناوه وموت جستافوس لم يجعل الامبراطور فى حاجة الى فلنشتين الذى ازدادزهوا وغرروا بنفسه ، وربما فكر فلنشتين فى ان يلجأ الامبراطور الى الاغتيال للتخلص من خصمه ،ويذهب فلنشتين ضحية على يد بعض الضباط الاسكتلنديين والايرلنديين المستأجرين فى عام ١٦٣٤.

وبذا اصبح جيش فلنشتين هو جيش الامبراطور على ان قوة السويد

الحربية قد تضعضعت بموت جوستافوس ولذا لم تجد قوات الامبراطورية صعوبة فيالانتصار على قوات البروتستانت فى نوردلنجن Nordlingen فى ٦ سبتمبر ١٦٣٤. وعلىذلك انقذت الكاثوليكية والامبراطورية بصفة نهائية .

٤ - الدور السويدى - الفرنسى(١٦٣٥ - ١٦٤٨)

لم يكن انتصار الكاثوليك فى المانيا فى صالح فرنسا بأى حال فاذا كان ريشيلييه الوزيرالفرنسىبيده كل شىء، والذى اتبع اولاالطرق الدبلوماسية للوصول الىاغراضه ،ثم اتبع طريقة تعضيد اعداءالكاثوليكية بالمال ، بل وامداد الجنود البروتستانت بالمال ، قد اتبع كل هذا فى ايام جوستافوس ملك السويدفانه قد ايقن بأن تلك الوسائل لمتعد مجدية ،وان التدخل الحربى هو الوسيلة الوحيدة للقضاء علىالكاثوليك وبالتالى على اسرة الهابسبرج. فأعلن الحرب علىاسبانيا عام ١٦٣٥ حليفة الامبراطور وبذلك دخلت فرنسا الحرب ضد الامبراطور. وهكذا تدخل الحرب دورها الرابع والاخيرومنذ ذلكالحين لم تعدالحرب مشكلة المانية بل صارت مجرد نزاع بينفرنسا والسويد منجانب ، ضدالنمسا واسبانيا من جانب آخر ،ولكن على ارض المانية .

القى العبء فى هذا الدور علىكاهل فرنسا التى وجد فيها البروتستانت الالمانبديلا عن السويدوملكها جوستافوس . علىان الامراء الالمان كانوا يخشون من تدخلكل من السويد وفرنسا على السواء ،فلم يكن تدخلها مرضيا عنه منقبلهم. فكلا الدولتين قد اتخذت من المسألة الدينية ستارا لتحقيق اطماعها السياسية والاقتصادية على حساب المانيا ولهذا وجد جون جورجناخب سكسونيا ان افضل السبل للقضاء على تدخل الدول الاوروبيةهو الدخولفى مفاوضات مع الامبراطور فردنند الثانى

للوصول الى اتفاق يرضى الطرفين الكاثوليكى والبروتستانتى بخصوص تنفيذ مرسوم استرجاع املاك الكنيسة الكاثوليكية .

وبالفعل تم الصلح بين الطرفين فى براج فى مايو ١٦٣٥م، ونص الصلح على تحديد عام ١٦٢٧ تاريخا لاسترجاع الاملاك الكنسية التى اخذت بعد هذه السنة وليس عام ١٥٥٢ كما حدده المرسوم المشار اليه. ومعنى ذلك ان الاراضى التى استولى عليها البروتستانت وتكون فى حوزتهم فى يوم ١٢ نوفمبر عام ١٦٢٧ تبقى فى حوزتهم مدة اربعين عاما، سواء أكان استيلاؤهم عليها قبل صلح اوجزبرج عام ١٥٥٥، او بعده. وفى خلال مدة الاربعين سنة يتم الاتفاق بشأنها بين الطرفين بالطرق الودية. وحذت الامارات البروتستانتية الاخرى حذو سكسونيا وانضمت الى صلح براج، فيما عدا امارات بادن وهسكاسل وفرتمبرج التى بقيت الى جانب السويد .

وكان من الممكن ان تستقر الامور فى المانيا بعد ذلك، لولا تدخل فرنسا لاسباب سياسية لتثير الحرب من جديد، لا لأهداف دينية، ولكن لأهداف سياسية بحتة. وفى اول الامر لم تكن الحرب فى صالح الفرنسيين، واضطرت قواتها الى الارتداد داخل الاراضى الفرنسية امام ضغط قوات الامبراطور ولكن موجة الانتصار هذه لم تلبث ان تلاشت بفضل القادة الفرنسيين العظام مثل تورين Turenne وكوندى Conde وفى اثناء الحرب مات ريشيليه وخلفه مازاران Nasarin واستمرت الحرب فترة فى عهده، ولكن مفاوضات الصلح كانت مستمرة اثناء الحرب. فقد كان الامبراطور يتفاوض فى اوسابروك O·sabruck مع السويد ومع الامارات البروتستنتية، بينما يتفاوض من جانب آخر فى مونستر Munster مع الفرنسيين والكاثوليك من اجل الوصول الى الصلح. وفى النهاية تم توقيع

صلح فستفاليا Westphalia فى ٢٤ اكتوبر عام ١٦٤٨،وهو صلح حملت معالمه الاساسية اقرارالاوضاع فىالامبراطورية حتى حلها عام١٨٠٦.

صلح فستفاليا (١٦٤٨)

ولصلح فستفاليا اهمية خاصة فى تاريخ اوروبا الحديث ،فاصبح من الناحية العملية الاساس الذىتستند عليه الدول فى اوروبا فىعلاقاتها القانونية من وقت توقيعه حتىقيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩،وقد وضع هذا الصلح حدا للصراع الدامى الذىاجتاح اوروبا ثلاثين عاما. وقد تناول الصلح المسائل الدينية المختلف عليها ،وكذلك تحقيق اطماع كل من فرنسا والسويد فى بعض الاراضى الاوروبية . هذا فضلا عن التعديلات السياسية التى تمت فى المانيا. وفيما يلى بيان كل ناحية من هذه النواحى :

اولا - التسوية الدينية :

١- اعترف صلح فستفاليا بماورد من قبل فى صلح بساو عام ١٥٥٢وصلح اوجزبرج عام ١٥٥٥ بشأنمنح كلامير الحق فى اختيار المذهب الدينى الذى يريده، اى انحرية الاعتقاد قد منحت للامير وليس للافراد .

٢- اعترف صلح فستفاليا رسميا بمذهب كلفن،وبذلك تمتع انصار كلفن بالتسامح الدينى الذىمنحلانصار مارتن لوثر من قبل . وبذلك تساوى البروتستانت من اللوثريين الكلفينيين من التمتع بمبدأ التسامح الدينى .

٣- انهاء النزاع بشأن استرجاع املاك الكنيسة الكاثوليكية ،فاتفق الطرفان الكاثوليكى والبروتستانتى على تحديد يوم اول يناير عام ١٦٤٢ كاساس للفصلفى الاملاك التى تؤول الى كل منالبروتستانت والكاثوليك ، والاملاكالموجودة بين يدى كل الطرفين حتى ذلك

التاريخ تعتبر ملكاله .وبذلك الغيت سنة ١٦٢٧ كأساس للتسوية لماجاء فى صلح براج فى مايو عام ١٦٣٥. وترتب على التسوية الجديدة انتركزت الاملاك البروتستانتية فى الشمال ، والاملاك الكاثوليكية فى الجنوب .

٤ - صارت الولايات البروتستانتية على قدم المساواة مع الولايات الكاثوليكية فى كل شؤون الامبراطورية ،وصار المجلس الامبراطورى Reichskammergericht الذى استمر ليكون بمثابة مجلس لفض المنازعات يتكون من اعضاء من الكاثوليك وآخرين مساوين لهم فى العدد من البروتستانت

ثانيا - التسوية السياسية :

تحكمت السويد فى اجزاء واسعة من شمال المانيا ،ولاسيما مصبات انهار الاودر والالب والوزر. وحصلت على الاسقفيات البروتستانتية فى بريمن Bremen وفردين Verden ، واحتفظت بالجزء الاكبر من بوميرانيا الغربية .وبذلك حققت السويد السيادة فى بحر البلطيق، وهو الهدف الذى كان يسعى اليه الملك جوستافوس .وعلاوة على ذلك اصبحت السويد عضوا فى الدايت الالمانى ولها ثلاث اصوات . وبذلك اصبحت السويد من الدول الاوروبية الكبرى ولكن لفقر مواردها لم تتمكن طويلا من الاحتفاظ بذلك المركز .

اما عن فرنسا فقد استولت على الالزاس النمساوية ماعدا استراسبورج الحرة (عاصمة الالزاس). كما ضمت بعض المناطق الالمانية ،فامتلكت اسقفيات متز Metz (عاصمة اللورين) وتول Toul وفردون Verdun وفى ايطاليا فقد استولت فرنسا على قلعة بنيرولو Pinerolo فى مملكة بيدمونت .

ثالثا - التعديلات السياسية فى المانيا :

اضعف صلح فستفاليا سلطة الامبراطور نهائيا ،واصبح الامراء الالمان عموما على قدر كبير من القوة والاستقلال، واستقلت الامارات البروتستانتية استقلالا تاما وان ظلت هناك بعض الصلات الرسمية والشكلية بالامبراطورية وهكذا قضى على امل الامبراطور فى ايجاد اتحاد المانى .

وفى نفس الوقت نجد ان التعويضات التى منحت لناخب براندنبرج قد جعلت منه اقوى الامراء على الاطلاق فى المانيا . فاستيلاؤه على مجدبرج كتعويض عن بوميرانيا الغربية التى اخذتها السويد وكذلك مندن Minden وهلبرشتات Halberstadt بالاضافة الى تمتعه بوراثة حكم بوميرانيا الشرقية ، جعله يسيطر على اجزاء واسعة من المانيا مما جعله دون شك الرجل الثانى فى المانيا بعد الامبراطور . ويمهد هذا لبراندنبرج الى ان تصبح اقوى الملكيات فى المانيا تحت اسم مملكة بروسيا التى ستأخذ على عاتقها ايجاد الوحدة الالمانية التى عجز عن تحقيقها الامبراطور . كذلك اعترف هذا الصلح بانفصال سويسرا عن الامبراطورية ،كما اعترفت اسبانيا باستقلال هولندا .

وعلى هذا النحو يميز صلح فستفاليا نهاية للاحلام التى راودت مكسمليان الاول وشارل الخامس وفرديننند الثاني بخصوص اصلاح وتوحيد الامبراطورية . وبالتالى اصبحت الامبراطورية اتحادا مفككا من ولايات كثيرة العدد،ولم تعد الامبراطورية ، رغم بقائها حتى اوائل القرن التاسع عشر كما اشرنا ، لم تعد زعيمة العالم المسيحى ولو اسميا .

وعلى العموم ، فقد انهى صلح فستفال ا احدى الفترات الحاسمة فى التاريخ الاوروبى الحديث ،وهى فترة الاصلاح الدينى والاصلاح المضاد . ورغم ان الاحداث الدينية استمرت تلعب دورا هاما فى تاريخ اوروبا كثيرا

مثل فرنسا وانجلترا واملاك الهابسبرج، فان دول اوروبا والامارات بها احتفظت بعقيدتها كما صارت عليه فى عام ١٦٤٨. وهكذا نمت فكرة التسامح الدينى وعمت اوروبا. فبعد ان كان هذا المبدأ قاصرا على الامراء والهيئات والطبقات العليا، بدأ يأخذ طريقه الى الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا. وانقسمت اوروبا اذا، الى معسكرين دينيين: معسكر البروتستانتية ومعسكر الكاثوليكية. وقد اثرت تعاليم المعسكرين فى نظام الحكم لدول اوروبا. فالكاثوليكية عملت على نشأة الملكية المطلقة الكلفينية ساعدت على نشأة الدول الديمقراطية بحكم احترامها لحرية الفرد. واللوثرية وقفت من الجانبين موقف الوسط وان كانت اكثر ميلا الى معسكر الملكية المطلقة منها الى معسكر الدول الديمقراطية. وبطبيعة الحال كانت فرنسا الكاثوليكية مثال الملكية الاستبدادية، وانجلترا وهولندا مثلين للنظام الدستورى البرلمانى.

واذا كانت المسائل الدينية قد ادت الى حرب عنيفة عمت اوروبا واصابتها بخسائر فادحة، فان التمسك بهذه المسائل لم يعد له مايبرره، بل ان المصالح التجارية والقومية اصبح لها الاولوية على ماعداها من المسائل. ومن ثم ضعفت سلطة الكنيسة وسيطرتها على دول اوروبا، واصبحت سلطة الملكية تفوق ماعداها من سلطات بما فى ذلك سلطة الكنيسة، وأدى هذا الى نمو الدول فى العصر الحديثه

وفى النهاية يجدر بنا ان نشير الى بعض الملاحظات العامة على حرب الثلاثين عاما وهى :

١ - رغم ان تلك الحرب قد اتخذت المظهر الدينى الا انها كانت فى حقيقتها حرب سياسية، لعبت السياسة والاطماع الشخصية دورا هاما فى توجيه احداثها والسيطرة عليها.

٢ = ان الجنود المرتزقة الذين خاضوا غمار تلك الحرب لم يراعوا فيها

غير مصالحهم الخاصة التي لا تتحقق الا بالسلب والنهب والتدمير. ولهذا كان لهذه الحرب اعمق الاثر فيما اصاب اوربا من دمار وتخريب وينبغي ان ندرك ان استخدام الجنود المرتزقة في الحروب كان شيئا مألوفا ، بل ان اوروبا لم تعرف الجيوش الوطنية الا عند ظهور الثورة الفرنسية في اواخر القرن الثامن عشر .

٣ - لعبت السياسة دورا هاما في تقرير مصير تلك الحرب ، فبالرغم من ان فرنسا كانت تدين بالمذهب الكاثوليكي ، الا انها وجدت من مصلحتها الوقوف الى جانب البروتستانت ضد قوات الامبراطورية الرومانية المقدسة ، تحقيقا لسياستها التقليدية في معاداة اسرة الهابسبرج الحاكمة ، وللوصول بفرنسا الى حدودها الطبيعية ويمثل صلح فستفاليا بدء ظهور قوة فرنسا بعد ان انهى تحالف الهابسبرج الاسباني واضعف هذه القوة . وفي الواقع لم ينه صلح فستفاليا الحروب في اوروبا ، فقد استمرت الحرب بين فرنسا واسبانيا وقامت الحرب بين السويد وبولندا (١٦٥٥ - ١٦٦٠) وقامت حروب لويس الرابع عشر التي بدأها في عام ١٦٧٢ وانتهت بصلح اوترخت عام ١٧١٣ .

الفصل العاشـــــر

الملكية المطلقة فى فرنســــــا

خرجت فرنسا من الحروب الدينية ، مقطعة الاوصال ، ماديا وسياسيا فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك من طراز فرانسوا الاول قدتداعت والروابط التى كانت تربط اجزاء البلاد انحلت ، حتى استقل كثيرمن الامراء فى مناصبهم يجمعون الجيوش ويفرضون الضرائب لحسابهم الخاص ، كمـــــا تداعت مرافق البلاد المادية فى ظل الحروب وتدهورت مواردها ولم يكـــــن لفرنسا من منجاه سوى الحكم المطلق البيروقراطى الذى يرد صدعها فـــى وحدة منصهرة مستندا على قدرات جديدة وتنظيم ادارى مبتكر ، ولقـــــد شهدت فرنسا هذا اللون من الحكم الذى بدأ تكوينه منذ نهاية عهد هنرى الرابع مؤسس ملكية البربون فى فرنسا ، وبلغ اوجه على يد لويس الرابع عشر .

كان لوفاة هنرى الرابع فى عام ١٦١٠ اثر وقتى على السياســـة الفرنسية الداخلية والخارجية . فوضعت الوصاية فى يد مارى دى ميدتشـــى من عام ١٦٢٠ الى ١٦٢٤ ، لان لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣) كان لايزال قاصرا وكانت آراؤها وسياستها مخالفة لسياسة زوجها هنرى الرابع . فهجـــرت حلفاء فرنسا من البروتستانت وعقدت تحالفا مع اسبانيا عدوة فرنســـا لفترة طويلة من الزمن ، وزوجت ابنها لويس الثالث عشر من الاميـــرة آن النمساوية ابنة فيليب الثانى ملك اسبانيا ، ورفعت احد مواطنيهـــا من الايطاليين الذين احضرتهم معها من بلدها وهو كونسينى Concini فرفعته الى مرتبة مارشال فرنسا .

على ان تصرفات مارى اثارت نبلاء فرنسا الذين كانوا يطمعون فـــى

استرداد استقلالهم ونفوذهم بعد وفاة هنري الرابع . وقامت سلسلة من الثورات من جانب استيلاء الفرنسيين والبروتستانت ، ولكنها استطاعت شراء النبلاء بمنحهم الالقاب والاقطاعيات ورغم ذلك نجح النبلاء في اثارة خواطر الهوجونوت الذين عملوا بكل همة ونشاط في تحصين مدنهم المسورة ، وانشاء حكومات بها من طراز حكومة جنيف الكلفينية الجمهورية . كما ألفوا بين هذه المدن التي كانت بمثابة حكومات محلية ، وأنشأوا منها اتحادا قويا . وبذلك كونوا دولة داخل الدولة . ودخلت الملكية الفرنسية في نضال مع الهوجونوت حتى عام ١٦٢٢ عندما عقد الملك لويس الثالث عشر معهم معاهدة مونبلييه Montpellier على اساس ان يمتنع على الهوجونوت عقد المجالس وعلى ان يتم الاستيلاء على مدنهم الحصينة ماعدا مونتبان Montauban ولاروشيل La Rochelle

وفي عام ١٦٢٤ تولى ريشلييه الوزارة وحتى وفاته في عام ١٦٤٢ كان ريشلييه هو الحاكم الحقيقي في فرنسا ، فاليه يرجع الفضل في انقاذ فرنسا من الاخطار والمشاكل في الداخل . وفي فرض عظمة فرنسا في الخارج كان ريشلييه يهدف الى تحقيق امرين تقوية سلطة التاج المركزية على اساس ان تغدو الملكية في فرنسا ملكية مطلقة اسما وحقيقة ، واحراز التفوق السياسي لفرنسا بين الدول الاوروبية . وقد تطلبت هذه السياسة القضاء على سلطة النبلاء والاستقلال الذي تمتع به الهوجونوت داخل فرنسا ، والعودة الى سياسة هنري الرابع العدائية ضد اسبانيا .

واول شيء اهتم به ريشلييه هو مسألة الهوجونوت . ولم يكن ريشلييه متعصبا من الناحية الدينية ، وما كان يرى ضرورة ان يكون للدولة دين واحد . ولكنه رأى ان وجود البروتستانت كقوة في الدين معرقل لسيطرة الملكية التي كان يرمي اليها . ولقد وجد ان القوة هي الوسيلة الوحيدة لارغامهم على قبول فكرته وهي الا تكون لهم مدن محصنة . وفعلا هاجم

مدنهم المحصنة ، وحاصر لاروشيلمدة ١٥ شهرا حتى سلمت للملك فى اول نوفمبر عام ١٦٢٨. وفى العام التالى تم اخضاع الهوجونوت وعقد صلحا جديدا هو صلح آليه Alais فى ٢٧يونيوعام١٦٢٩.وهكذا تحققت اهداف ريشيلييه حيثانحل الهوجونوت بمقتضاه كجماعة او حزب سياسى،وفقدوا امتيازاتهم السياسية ، بينما ابقيت لهم حرية العقيدة ثم المساواة التامة مع الكاثوليك. واكد من جديد مرسوم نانت وضمن للهوجونوت حرية الضمير وحرية العبادة وحماية القانون. واستمر تعيين الهوجونوت فى وظائف الدولة وفى الجيش وفى القضاء .

وبقيت بعد ذلك مسألة النبلاء الذين نافست سلطاتهم سلطة الملك وظل النبلاء طبقة قوية محترمة تحتفظ بملكيات كبيرة من الارض وبنفوذ واسع وبروحهم العسكرية والحربية .ولقد قاموا بسلسلة من المؤامرات والدس لريشيلييه ، ووجدوا حلفاءلهم من بين اعضاء القصر الملكى انفسهم.فلقد انقلبت عليه مارى ميدتشى التى ساءها ان يسير ريشيلييه فى سياسته الخارجية فى خطة معادية لاسبانيا. ولذلك اضطر ريشيلييه الى التخلص ممن يقدر على ابعادهم ،فابعد مارى ميدتشى الى انجلترا ثم بلجيكا. واعدم دوق دى مونتمورنسى Montmorency من اعرق الاسر النبيلة وجاء اعدامه درسا قاسيا للنبلاء. ورغم ان المؤامرات استمرت تتجدد فى السنوات التالية ضد ريشيلييه ، فقد انتصر على خصومه تماما عام ١٦٤٢.

وفى خلال هذا الصراع وجه ريشيلييه ضربة قاصمة للنبلاء اصابت نفوذهم القديم وقضت عليه . فامر بهدم قصور النبلاء ،وكانت بمثابة حصون منيعة لهم . كما اعاد تنظيم الادارة على اساس دعم سلطان الحكومة المركزية فى الشئون المحلية وأوجد نظام المأمورين او مفتش الملك Intendants للتفتيش على شئون القضاء والمالية والامن والاقاليم

وللاشراف على الحكام المحليين الذين صاروا الان مجرد حكام عسكريين تم للاشراف على المجالس المحلية والبرلمانات القديمة . وبذلك لم تعد للنبلاء سلطة حقيقية بجانب ممثلي الملك الذين تؤيدهم الحكومة المركزية واصبح لهم سلطان كبير فى الاقاليم ، يرمون الى جعل سلطة الملك غير منافسة

ولم يكن اهتمام ريشلييه بالسياسة الخارجية اقل من اهتمامه بالسياسة الداخلية . وكانت سياسته الخارجية تهدف الى اضعاف قوة الهابسبرج وقوة اسبانيا والنمسا . ولم تمنع حقيقة ان ريشلييه كان كاثوليكيا من ان يتفق مع الدول البروتستانتية . وقد ساعد البروتستانت بسياسة ومال فرنسا . كما عقد حلفا مع جوستافوس للدفاع عن البروتستانتية واستأجر الجيش السويدى . وعندما انهزم البروتسانت فى نوردلنجن كما وضحنا عند الحديث عن حرب الثلاثين عاما طلبوا مساعدة فرنسا الفعلية ولقد امدهم ريشلييه بالمال وتدخلت فرنسا فى الحرب فى الحدود الشمالية والشرقية لفرنسا ، وعمل على اثارة الثورات داخل الحدود الاسبانية ذاتها ، فثارت البرتغال وكاتالونيا (١٦٤٠) .

توفى ريشلييه فى عام ١٦٤٢ قبل ان تضع حرب الثلاثين عاما اوزارها وعلى الرغم من ان الملك لويس الثالث عشر لم يأسف عليه كثيرا ، فانه صمم على الاستمرار فى سياسته ولذلك استدعى الى مجلسه الكاردينال مازاران Mazarin الذى كان يمثل وجهات نظر ريشلييه وكان مازاران ايطالى الاصل ، الحقه ريشلييه بخدمته وحصل على الكاردينالية فى عام ١٦٤١ . حقيقة ان مازاران لم يكن فى مثل شخصية ريشلييه الا انه كان يمتلك مواهب دبلوماسية استطاع بفضلها ان يقبض على زمام السلطة حتى وفاته فى عام ١٦٦١ .

وتوفى لويس الثالث عشر بعد وفاة ريشيلييه بعام واحد،وكان وريثه لويس الرابع عشر(١٦٤٣-١٧١٥) طفلا لم يتعد الخامسة من عمره ولذلك استأثرت الملكة الوالدة آن النمساوية بالوصاية على عرش فرنسا وعينت مازاران رئيسا للوزارة،واخذت الملكة آن على عاتقها تأييد مازاران،ويعتقد البعض ان الكاردينال كان متزوجا منها سرا، وعلى اية حال كانت مهمة مازاران المباشرة مواصلة الحرب بنجاح منذ ان تدخلت فرنسا فى حرب الثلاثين عاما فى عهد سلفه.وفى عهده نالت الجيوش الفرنسية ظفرا تاما واحتفظت فرنسا بجميع فتوحاتها بما فى ذلك الالزاس وتدعمت حقوقها فى الاسقفيات الثلاث تول ومتز وفردان وتحققت بذلك الى حد بعيد اهداف ريشيلييه .

ورغم هذه الانتصارات لم ينجح مازاران فى ضم الرأى العام الفرنسى الى جانبه. فقد ظهرت بوادر الاستياء بسبب سوء الحالة المالية وبسبب الحرب وسوء الادارة المالية منذ وفاة هنرى الرابع . وكان على رأس حركة الاستياء النبلاء الذين وجدوا الفرصة سانحة للتخلص من مازاران،والذين كانوا يظنون فيه شخصية اضعف من شخصية ريشيلييه . وفى مثل هذه الظروف تبدأ احدى الثورتين المعروفتين فى التاريخ الفرنسى باسم الفروند Fronde* (١٦٤٨-١٦٥٣).وهذه كانت حربا اهلية موجهة ضد سلطة الملك بسبب سوء الحالة المالية واحتجاج برلمان باريس على نظام الضرائب الموجودة ومطالبته بالاصلاح. كذلك كان النبلاء متمسكين بنفوذهم،ولم يكن برلمان باريس فى حالة تمكنه من القيام بالاصلاح المنشود. فلقد كان محكمة قضائية قبل كل شئ، ينال اعضاؤه وظائفهم بالشراء والوراثة .وكانت علاقته بالتشريع ناشئة من انه كان عليه ان يسجل قرارات الملك التى لا تصبح قوانين الا بعد تسجيل البرلمان لها. ولذا رفض البرلمان تسجيل

* نسبة الى لعبة كان الاطفال يلعبونها وهى التراشق بالاحجار Frondes من بعيد

قرارات الملك ،وطلب تخفيض الضرائب ،ومنع السجن دون محاكمة ،وازالة نظام حكام الولايات Intendants ;ترددت الحكومة اول الامر ولكن تشجعت بالانتصارات الخارجية لمقاومة هذه المطالب ،وقبضت على اعضاء البرلمان واخذت تستعد للقضاء على اعضائها ، فجمعت القوات تحت قيادة كوندى وحوصرت باريس .ثم عقد اتفاق بين الطرفين ووعدت الحكومة باصلاحات مالية ،و بذلك انتهت معارضة البرلمان .

وبذلك انتهت حرب الفروند الاولى. ولكن حرب الفروند لم يكن اساسها المطالبة باصلاحات ولم تكن للمدافعة عن حقوق الفرنسيين ولكنها كانت حركة النبلاء المستائين الذين يطمعون فى الوصول الى القوة. وكان على رأس المستائين النبلاء من امثال كونتى وبوفورو القواد العظام امثال كوندى وتورين.وبعد القبض على كوندى وبعض النبلاء ظهرت حركة استياء كبيرة ، وانضمت باريس الى الثائرين الذين طالبوا باطلاق سراح كوندى ونفى مازاران. ولقد اجيبت مطالب الثائرين ووافقت الملكة الام مرغمة على نفى مازاران الذى آثر الانسحاب الى امارة كولون الالمانية فى عام ١٦٥١ واستمر فى الاتصال بالملكة وفى الاشراف على الحكومة والاعداد للقضاء على الثائرين .

ولما عاد كوندى الى باريس مارس استبداده وقام بالتفاوض مع اسبانيا وقد ادت تلك التصرفات الى فقدان كوندى لنفوذه فى فرنسا وعملت الملكة الام على كسب الفروند الى صفها ،واعلنت بلوغ الملك الصغير السن القانونية للحكم حتى تضعف كل نفوذ سوى نفوذ الملك.وبذلك صارت اى معارضة للحكومة بمثابة ثورة ضد شخص الملك ودمغ البرلمان كوندى واتباعه بتهمة الخيانة .وانسحب كوندى الى الجنوب مصمما على استعادة نفوذه بالقوة. ولقد تعرضت فرنسا فعلا لخطر قيام حرب اهلية. غير ان الملكة الام قامت باستدعاء مازاران الذى اقنع القائد تورين

بالانضمام للملك ووقف قائدا فرنسا العظيمان ضد بعضهما . ولكن كوندي دخل باريس في عام ١٦٥٢ واقام حكومة اتسم عهدها القصير بالفوضى والارهاب فرانكوندي اكتشف انه لم يعد سيد الموقف في باريس فلجأ الى حلفائه الاسبان . وبعد ايام عاد لويس الرابع عشر الى عاصمته وثبت اقدام ملكيته وعاد مازاران الى باريس في فبراير عام ١٦٥٣ . وبذلك تنتهي حرب الفروند الثانية وتقضي الملكية في فرنسا على آخر عقبة في سبيل الطغيان المركزي وعلى آخر محاولة قام بها النبلاء لاستعادة اهميتهم السياسية وظل مازاران حتى عام ١٦٦١ يحقق انتصارات دبلوماسية لا تقل اهمية عن انتصاراته في الداخل .

وتفرغ مازاران بعد ذلك لمواصلة الحرب مع اسبانيا وحاول اجتذاب انجلترا الى جانب فرنسا فعقد معها معاهدة تجارية في عام ١٦٥٥ ولم تلبث ان تحولت في عام ١٦٥٧ الى حلف وارسلت انجلترا جيشا لمساعدة فرنسا واضطرت اسبانيا بسبب تدهور أحوالها وارتباك ماليتها الى طلب الصلح وعقد صلح البرانس في نوفمبر عام ١٦٥٩ وبمقتضاه تأيد صلح وستفاليا وحصلت فرنسا على الاراضي الاسبانية في ارتوا مع جملة مدن واحتفظت بالروسيون ثم نص الصلح على زواج ماريا تيريز ابنة ملك اسبانيا من لويس الرابع عشر على شرط ان تتنازل عن جميع حقوقها في وراثة عرش اسبانيا . وهكذا خرجت فرنسا من هذه الحروب الطويلة بفضل صلحي وستفاليا (١٦٤٨) والبرانس (١٦٥٩) بنتائج هامة ضمنت لها السيطرة في اوروبا الغربية ثم اعطتها ذلك النفوذ الذي تمتع به الهابسبرج في اوروبا خلال المائة والخمسين سنة الماضية .

عصر لويس الرابع عشر (١٦٦١-١٧١٥) :

في عام ١٦٦١ توفي مازاران بعد ان ترك للملك الصغير مملكة لم يتمتع ملك فرنسي من قبل بمثلها من حيث العظمة والاتساع والاستقرار في الداخل

وقد ورث لويس الرابع عشر كل شيء مكنه من ان يصير عظيما ،ولكنه لم يترك شيئا عظيما بعده - وتولى لويس العرش وهو في الخامسة من عمره ،ولكن حكم مازاران جعله يستكمل قوته .وصمم بعد وفاة مازاران (وكان يبلغ في ذلك الوقت ٢٢ عاما) ان يحكم بنفسه وفعلا انفرد بالسلطة في فرنسا حتى وفاته في عام ١٧١٥ وكان طوال المدة حكمة الطويلة المسيطر على سياسة فرنسا الداخلية والخارجية . وكانت ملكية لويس الرابع عشر ملكية مستبدة تجمع كل السلطة في يدها وذلك بفضل اعمال ريشيليه ومازاران. فلقد كان الملك رأس الدولة ومركز السلطة اما النظم النيابية او البرلمانية فقد استغنى عنها او وضعت تحت رقابة الملك .

وعلى اية حال يستحق لوى الرابع عشر لقب الملك العظيم Le Grand Monarque فشخصية لويس عظيمة كملك تتوافر فيه كل الصفات اللازمة للملك العظيم. فلم يفقد في يوم من الايام احترام اوروبا ولا حب شعبه ، وترك عهده طابعه في كل اوروبا واصبح لبلاطه اثر يزيد على الاثر الذى تركته جنوده فالعادات الفرنسية والملابس الفرنسية واللغة الفرنسية والفن والادب الفرنسى اصبحت المثل الذى يحتذى في كل اوروبا . ونجاح لويس يرجع الى حد بعيد الى اهتمامه الشخصى والى هؤلاء الرجال الذين ورثهم من عهد ريشيليه ومازاران.ولقد كان كثيرا ما كتب تعليماته الى وزرائه وممثليه بنفسه وبخطه .وعمل على تشجيع التجارة الداخلية والخارجية واسس شركات للتجارة مع البلطيق والبحر المتوسط والمحيط الهندى وامريكا . كما اهتم بالعناية بكل وسائل المواصلات من طرق وترع وبناء سفن،ولاسيما بناء بحرية تنافس البحريتين الانجليزية والهولندية . وقد اصبحت فرنسا ثالث دولة بحرية في الاطلنطى واولها في البحر المتوسط . اما عن سياسته الدينية ، فلم يكن لويس في حياته يهتم كثيرا بالمسائل الدينية .ورغم ذلك كان يريد ان تكون له السيطرة على كل الامور الدينية وانتهز فرصة

نزاع مع البابا واعلن حقوق الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ،واعلن فيها ان البابا لا يسيطر الا على المسائل الروحية ، وليس له الحق فى عـــزل الملوك ولقد احتج البابا ،ولكن لويس لم يأبه لذلك كثيرا وقام بتنفيــذ سياسته ومن ناحية اخرى اهتم لويس الرابع عشر بأن تكون الكثلكة هـــى المذهب المتفوق الرسمى فى فرنسا ،واضطهد طائفة الـ Jansenists * وهى طائفة دينية كاثوليكية .

اما موقفه من البروتستانت ، فلم تعد قوة عظيمة تهدد سلطة الملـك كذلك انقطعت صلتهم بالارستقراطية ولجأوا الى الدعة وحياة الاهتمــــام بالتجارة والصناعة وبذا ادوا خدمة جليلة لفرنسا. ولم يحاول لويس فى اوائل عهده التدخل كثيرا فى شئونهم، ولو انه كان هناك ميل للتضييــق عليهم. ولكن فى المرحلة الثانية من حكمه لاسيما عندما توفت زوجتـــه ماريا تريزا وتزوج دى مانتنون Maintenon وكانت متدينـــة . وكانت تشرف على تربية اولاد الملك غير الشرعيين ،تأثر الملك بتدينهـــا فاصبح دينا يجد فى البروتستانتية الحادا وخروجا على سلطة الملــك.

---

* هم اتباع جانسن Jansen (١٥٨٥-١٦٣٨) وكانوا مع تمسكهـــم بالعقيدة الكاثوليكية وفكرة الكنيسة المسيحية الواحدة والعالميـة يعترفون بسيادة المجالس الدينية وتفوقها على سيادة البابـــا. وكانوا قريبين فى حياتهم الدينية والمدنية من الكلفيين لدرجة انهم صاروا يسمون بالمطهرين الكاثوليك واصبحوا بذلك موضع عداء الجزويت والبابوية والملكية ايضا . وزاد فى عداء الملكيـــــة لهم انهم ارتكبوا خطأ جسيما فى الاتصال ببعض زعماء الفرونـــــد القدماء فصاروا الآن موضع اضطهاد الملك الشديد .

وبذلك بدأ في اعادة النظر في امتيازات البروتستانت والتقليل منها.
وكانت كنائسهم تدمر لاتفه الاسباب وفي النهاية سحب مرسوم نانت وادعت
الملكية بأنه لما كان عدد كبير من البروتستانت قد تحول الى الكاثوليكية
فلا داعي الآن لبقاء العمل بذلك المرسوم، وبذلك لم يعد
للبروتستانت اي حقوق، واصر على الهوجونوت بمغادرة البلاد، ولكن عددا
كبيرا منهم تمكن من الهجرة الى انجلترا وهولندا وبروسيا حيث اسهموا
في الصناعة والنشاط التجاري في برلين، كما ان عددا منهم تحول عن دينه
واعتنق الكثلكة. وكان لهجرة الهوجونوت اثر كبير اذ حرمت فرنسا من
طائفة ممتازة في الصناعة والتجارة استفادت منها الدول الاخرى..
وفي الفترة الاولى من حكمه استعان لويس الرابع عشر بنخبة كبيرة
من الرجال السياسيين امثال ليون Lyonne في الشئون الخارجية
وتيلييه Tellier ثم ابنه لوفوا Louvois وزير الحربية وكولبير
Colbert (١٦١٩-١٦٨٣) وزير المالية الذي وقع عليه العبء الاكبر من
الاصلاحات وبمجرد تعيين كولبير لمراقبة الشئون المالية بدأ عهد جديد من
الاصلاح المالي والداخلي عموما. فألغى عددا من الوظائف التي لا حاجة
للدولة اليها، واعاد نظام ريشيليه في حكام الاقاليم Intendants ولم
خلال ست سنوات تمكن من مضاعفة دخل الملك. وبالاضافة الى ذلك بذل
كولبير جهدا كبيرا لزيادة وتوسيع نطاق الصناعة الفرنسية. فاستقدم
النساجين المهرة من مناطق الشهرة لكل صناعة. كأن يجتذب صانعي الاقمشة
الفاخرة مثلا من هولندا. ووضع في عام ١٦٦٤ تعريفات جمركية جديدة على
السلع المستوردة لحماية هذه الصناعات الجديدة من المنافسة الاجنبية
ولم يلبث ان ضاعف هذه التعريفة عام ١٦٦٧ ليحطم الهولنديين، وكانوا
اكبر منافسين للاقتصاد الفرنسي. وقابلت هولندا هذه المعاملة بالمثل، ولما
انتهت هذه الحرب الجمركية الى كفاح مسلح بين البلدين في عام ١٦٧٢.

، كما فكر كولبير ايضا فيتكوين امبراطورية بحرية عظيمة وتجارة عالمية تقوم بها شركات فرنسية ،وكان يأمل فى ان تصبح مصر تابعة لفرنسا وفى حفر قناة تصل البحرين الاحمر والمتوسط،وامتلاك سلسلة من القواعد البحرية على الطريق البحري الى الهند والشرق الاقصى. وسار على نفس سياسه انجلترا وهولندا فأقام شركات مشابهة لشركاتهم، وأسس فى عام ١٦٦٤ شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagnie des Indes Orientales ومنحها حق احتكار التجارة الفرنسية فى الشرق . ولقد ساهم الملك والامراء فى رؤوس اموال تلك الشركات ، ولكن الطبقة المتوسطة وعامة الفرنسيين لم تشارك وزيرهم فيحماسته ،وامتنعوا عن الاسهام فى هذه المشروعات وقد ادى ذلك الى فشل هذا المشروع وسحب كولبير امتياز الاحتكار من شركة الهند الشرقية الفرنسية وترك التجارة مع جزر الهند الشرقية مفتوحة لكل التجار بشرط استخدام سفن الشركة ومحطاتها التجارية .

وشملت اصلاحات كولبير الفنون ايضا . فعمل كولبير على تركيز النشاط الفنى تحت ادارة واحدة وعهد بذلك الى احد الفنانين وهو Charles Lebrun الذى عين مديرا لمصنع Gobelins وتعددت فى هذا المصنع نواحى النشاط الفنى من رسم ونحت ونسيج. كما عنى كولبير ايضا بالاكاديمية الملكية للرسم والنحت ومنح اعضاءها منحا احتكارية ،فأصبحت مهنة الفن وقفا عليهم. وعلاوة على ذلك اسس اكاديميات جديدة مثل : اكاديمية الرقص فى عام ١٦٦١ والعلوم فى عام ١٦٦٦ والموسيقى فى عام ١٦٦٩، والعمارة فى عام ١٦٧١ وأرتقت كذلك الدراما والروايات التمثيلية

وهكذا جمع لويس الرابع عشر اسباب السلطة فى يده وجد فى اصلاح شئون الدولة وتنمية مواردها ،واصبح المجال مفتوحا امام فرنسا للتفوق فى اوروبا وفى منتصف القرن السابع عشر كان لا ينازعها فى تفوقها منازع

فقد ظهرت على حساب ضعف جيرانها المحيطين بها وخصوصا هولندا . ولكن قبل وفاة كولبير بعشرة اعوام تقريبا ، كانت فرنسا قد بدأت تسير نحو الضعف والانحلال بسبب الحروب الطويلة التى اندفعت اليها طمعا فى التسلط فأثرت على خزينتها ، وبسبب اخطاء لويس الرابع عشر نفسه فى ادارته الداخلية .

حروب لويس الرابع عشر

سارت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية على نفس المبادىء والاسس التى وجهت نشاط فرنسا الخارجى منذ ايام هنرى الرابع وريشيليه ومازاران . وقد تمثلت تلك الاسس والمبادىء فيما يلى :

١ - الوصول الى الحدود الطبيعية لفرنسا وهى البرانس والالب والراين والقضاء على سيطرة اسرة الهابسبرج بفرعيها وضم الاراضى المنخفضة الاسبانية .

٢ - رغبة فرنسا فى انتزاع السيطرة البحرية من هولندا .

٣ - تطهير البحر المتوسط من القراصنة وتنظيم الامبراطورية الاستعمارية التى اراد ريشيليه من قبل تأسيسها فى البحر المتوسط الشرقى وافريقيا الشرقية والغربية ثم فى امريكا .

تمتعت فرنسا بفضل سياسة كل من ريشليه ومازاران بالاستقرار والقوة واصبح الطريق مهيأ امامها لتحتل مركز السيطرة والتفوق السياسى الذى تمتعت به اسبانيا من قبل . وكان لويس مهتما بضمان تفوق فرنسا فى اوروبا وعمل على تحقيق ذلك عن طريق الحروب والدبلوماسية وكما اصبح لويس سيد فرنسا عول على ان يكون سيد اوروبا .

اولا : حرب الوراثة فى الاراضى المنخفضة الاسبانية (١٦٦٧-١٦٦٨)

كان لويس الرابع عشر يطمع فى ضم الاراضى المنخفضة الاسبانية ، وعرض

على اسبانيا ان يتحد معها لسحق البرتغال نظير اعتراف اسبانيا بحقوق روجته ماريا تريزا ابنه فيليب الرابع من زوجته الاولى (اليزابيث الفرنسية) فى العرش الاسبانى او التنازل لفرنسا عن جزء كبير من الاراضى المنخفضة الاسبانية ، ولكن فيليب الرابع ملك اسبانيا رفض ذلك العرض وعندما توفى فيليب الرابع فى عام ١٦٦٥ طالب لويس بالاراضى المنخفضة الاسبانية طبقا لقانون الاستحقاق بالوراثة * Law of Devolution وبذلك تكون ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع وزوجة لويس هى الوريثة لابيها وليس ابنه شارل الثانى من زوجة اخرى .

وقد حالت دون تحقيق ذلك موانع قانونية من اهمها ان ماريا تريزا عند زواجها من لويس الرابع عشر (فى صلح البرانس ١٦٥٩) قد تنازلت عن حقها فى الوراثة ، وبعد مفاوضات طويلة قام لويس بالهجوم على فلندرا من غير اعلان الحرب فى عام ١٦٦٧ وبذلك بدأت الحرب المعروفة باسم حرب الاستحقاق The War of Devolution ولم يستطع الاسبانيون المقاومة طويلا ، بينما نجح الفرنسيون فى هذه الحرب فى الشمال وفى الشرق مما اثار ذعر الدول الاوروبية وحسدها .فأسرعت اسبانيا بعقد الصلح مع البرتغال ،واسرعت هولندا بتسوية خلافاتها مع انجلترا ،وتكون تحالف ثلاثى من هولندا وانجلترا والسويد لمنع تقدم الفرنسيين .ونتيجة لذلك اوقف لويس تقدمه واعاد الى اسبانيا معظم الاراضى التى اخذها فى عام ١٦٦٨ . ووافق لويس على الصلح فى معاهدة اكس لاشابل Aix la Chapelle فى مايو عام ١٦٦٨ .وبمقتضى المعاهدة اعاد لويس فرانش كوميتة الى اسبانيا ، واحتفظ بفتوحاته فى الاراضى المنخفضة وهى عدة

---

* قانون الاستحقاق بالوراثة هو قانون اقطاعى قديم يقضى بحق اطفال الزواج فقط فى الوراثة واستبعاد النسل الناتج من زيجات اخرى.

مدن منها شارلوا Charleroi وليل Lille وكانت هذه المدن في الحقيقة بمثابة المراكز التي يسهل منها الهجوم والاستيلاء على الاقاليم المجاورة لها. وبذلك لم يكن صلح اكس لاشابل سوى هدنه مؤقتة لابد أن تعقبها الحرب .

ثانيا - الحرب الهولندية (١٦٧٢ - ١٦٧٨)

تفرغ لويس الرابع عشر بعد معاهدة اكس لاشابل لمحاربة هولندا . وكانت تدفعه الى ذلك عدة اسبابه فلقد اعتقد لويس ان مستشار هولندا دى ويت John de Witt كان المحرك الاول لتكوين التحالف الثلاثى ضد فرنسا فأراد الانتقام من هولندا التى كانت بالاضافة الى ذلك جمهورية كلفينية . ومن ناحية اخرى كانت هولندا ملجأ للهوجونوت المضطهدين فى فرنسا وطبعت كتبهم التى هاجموا فيها الحكومة الفرنسية والنظام الدينى فيها . وعلاوة على ذلك كان لويس يحقد على هولندا بسبب المنافسة التجارية الشديدة بين البلدين. فلقد استغلت هولندا غناها وقوة اسطولها فى وقف تقدم جيوش لويس فى اراضيها . ولم يكن لانجلترا وفرنسا مركز هولندا بسبب انشغالها بالمسائل الداخلية والاوروبية ولذلك كانت قوة هولندا مواردها الاقتصادية من العوامل التى ادت الى حقد وحسد انجلترا وفرنسا .

وبينما استعد لويس لغزو هولندا ، عمل على عزلها سياسيا فاتصل بملك انجلترا تشارلز الثانى لاخراجه من التحالف الثلاثى، وساعدته الظروف على ذلك. فلقد تحول تشارلز الى الكاثوليكية سرا، ووجد فى بلاطه من نصحه بأهمية التحالف مع فرنسا للتخلص من منافسة هولندا التجارية وتحطيم بحريتها واقتسامها مع فرنسا . ولهذا عقد لويس معاهدة دوفر Dover السرية مع تشارلز الثانى فى يونيو عام ١٦٧٠ وتعهد تشارلز

بمقتضاها ان يعيد الكاثوليكية الى انجلترا ، وان يتحد مع فرنسا ضد هولندا ، والا يعرقل خطط فرنسا فى اسبانيا . وفى مقابل ذلك تعهد لويس بمنحه مبلغا كبيرا من المال وامداده بقوات فرنسية عند اللزوم لفرض الكاثوليكية على انجلترا . كذلك تمكن لويس من رشوة السويد ، وعقد معاهدة سرية مع الامبراطورية الرومانية المقدسة تقضى بضم اسبانيا اليها وحصول لويس على المقاطعات الاسبانية فى حالة موت ملك اسبانيا ، دون وريث وكان ذلك أمرا متوقعا بين لحظة واخرى لمرضه .

وهكذا وجدت هولندا نفسها وحيدة امام القوة الفرنسية الهائلة التى اخذت تكتسح اراضى هولندا حتى قربت من امستردام . وثار الشعور الوطنى فى البلاد وقتل الهولنديون جون دى ويت وسلموا امورهم الى وليم اورنج (حفيد وليم الصامت) الذى تمكن من ارغام الفرنسيين على التقهقر . وبدأ يعمل على اخراج هولندا من عزلتها السياسية واستمالة الحلفاء لمساعدتها . ونجح فى تكوين تحالف اوروبى ضد فرنسا . وتكون هذا التحالف الذى عرف باسم تحالف لاهاى الاعظم من الامبراطور وبراندنبرج وبرنزويك وهس واتحاد الراين والدانمرك واسبانيا . كما عقد تشارلز الثانى صلحا منفردا مع هولندا فى فبراير عام ١٦٧٤ .

حقيقة أن القوات الفرنسية انتصرت واثبتت تفوقها ووصلت الى الراين لكن القضاء على هولندا لم يكن امرا سهلا . ونتيجة لذلك عقد فى عام ١٦٧٨ صلح نيمجن Nijimwegen الذى اختتمت به هذه الحرب وكان هذا الصلح عبارة عن مجموعة من المعاهدات اعادت السلام الى اوروبا ، وهى معاهدات بين فرنسا وكل من هولندا وأسبانيا والدانمرك والامبراطورية وبمقتضى هذه المعاهدات احتفظت فرنسا بفرانش كومتيه التى تنازلت عنها اسبانيا ، كما استولى لويس الرابع عشر على مواضع هامة لتأمين حدود البلاد الشمالية الشرقية من الاراضى المنخفضة

الاسبانية فرنظير ارجاع بعض المدن. ويعتبر المؤرخون ان صلح نيمفيجس يعنى الذروة التى بلغها حكم لويس الرابع عشر، فلدواجه وحده اوروبا مجتمعة متحالفة ضده وخرج من النضال ظافرا. وبعد هذا الصلح لقبت باريس لويس الرابع عشر بالملك العظيم " Le Grand Monarch "

ثالثا - حرب حلف اوجزبرج (١٦٨٩ - ١٦٩٧)

وبرغم ان صلح نيمفيجن كان فى صالح فرنسا الى حد كبير، فقد اعتبره لويس الرابع عشر اساسا لقائمة جديدة من المواقع ينوى الاستيلاء عليها. لقد كان لويس مصمما على تأمين حدود فرنسا حتى يستحيل غزوها من الخارج ولذلك اشارت فرنسا لصالحها بعض شروط فستفاليا الخاصة بحدودها، وامر لويس بتكوين لجان او محاكم محلية لتقرر مدى حقوق الملك فى اللورين والالزاس وفى فرانش كومتيه وبعض الاماكن الاخرى وعرفت هذه اللجان باسم مجالس الضم Chambres of Reunion وقد فسرت هذه المجالس معاهدات فرنسا مع الدول لصالح فرنسا وحدها، وبذلك منحت فرنسا السيادة التامة على الالزاس وضم مدينة ستراسبورج التى استولى عليها الجيش الفرنسى فى عام ١٦٨١. وواصل اعتداءه على الاملاك الاسبانية واستولى على لكسمبرج فى عام ١٦٨٤. واضطر الامبراطور وملك اسبانيا الى التنازل عن ستراسبورج ولكسمبرج (اللتين حصل عليهما لويس بواسطة مجالس الضم) فى هدنة راتزبون فى اغسطس عام ١٦٨٤ (فى هدنة لمدة عشرين عاما .

ولم تقف اطماع لويس عند هذا الحد، فأراد ان يكمل سيطرته على الالزاس بالاستيلاء على الاقاليم المجاورة لها فى حوض الراين الاوسط، فطالب بوراثة البلاتينات لزوجة اخيه الثانية منذ وفاة ناخب البلاتينات فى عام ١٦٨٥، واحتلتها جيوشه عام ١٦٨٧ كما احتل منطقة كولون الانتخابية

ووضع عليها احد اصدقاء فرنسا اسقف ستراسبورج. وكانت فرنسا ترى ضرورة انتخاب رجل صديق لفرنسا فى كولون التى كانت لها اهمية استراتيجية لوقوعها على معبر عند نهر الراين يوصل للاراضى المنخفضة وفى عام ١٦٨٨ قامت الثورة الدستورية فى انجلترا، واقصى جيمس الثانى (١٦٨٥-١٦٨٨) عن العرش وهرب الى فرنسا، واستدعو وليم اورانج، زعيم البروتستانتية فى اوروبا، من هولندا لانقاذ البروتستنتية والبرلمانية الانجليزية بعد المحاولات الطائشة التى قام بها جيمس لفرض الكاثوليكية على الشعب بوسائل دستورية. وبعد تنصيب وليم اورانج - العدو الحقيقى للويس - ملكا على انجلترا باسم وليم الثالث أضيفت دولة قوية الى قائمة اعداء لويس.

واستطاع وليم اورانج ان يكون فى عام ١٦٨٩ تحالفا ضد لويس الرابع عشر من هولندا والامبراطورية واسبانيا والسويد وبفاريا وسرابيا وفرنكفورت وسكسونيا والبلاتينات للمحافظة على معاهدات وستفاليا ونيمفيجن. وكان منشأ هذا التحالف هو عصبة اوجزبرج التى تشكلت فى يوليو عام ١٦٨٦ وانضمت اليها بفاريا. وسافوى فى عام ١٦٨٧، ثم البابا سرا، و ... انجلترا حتى عرف هذا التحالف باسم المحالفة العظيمة La Grande Ligue فى سبتمبر عام ١٦٨٩، وهكذا تكون هذا التحالف بسبب هجوم ا... على كولون. وكانت الحرب قاسية واستمرت مدة طويلة، وتعددت ميادينها فى ايرلندا والاراضى المنخفضة واقاليم الراين وايطاليا والمستعمرات وفى البحار. واحرز الفرنسيون انتصارات على الالمان فى معركة Fleurus فى عام ١٦٩٠، واحتلوا معظم سافوى. كما انتصر اسطولهم على الاسطول الانجليزى والهولندى المشترك فى معركة Beachy Head فى نفس العام. ولكن استطاعت البحرية الانجليزية بقيادة رسل Russell من الانتصار فى موقعة Hague فى عام ١٦٩٢، وبذلك زال الخطر الذى كان يهدد انجلترا. ونتيجة لسوء الادارة المالية فى فرنسا عقب وفاة كولبير، كان لزاما على

فرنسا ان تحصل على السلم وبدأت مفاوضات الصلح وانتهت بعقد معاهدة رايزفيك Ryswick فى سبتمبر عام ١٦٩٧، وبمقتضى تلك المعاهدة اعترف لويس الرابع عشر بوليم اورانج (الثالث) ملكا على انجلترا، ونزلت فرنسا عن كل ما استولت عليه من ممتلكات منذ صلح نيمفيجن ما عدا ستراسبورج، ومما دفع لويس الى قبول هذا الصلح ان اهتمامه اصبح مركزا فى اسبانيا، التى كان ملكها شارل الثانى فى حالة صحية سيئة .

رابعا - حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣) :

اصبح عرش اسبانيا مشكلة دولية، اذ كان لكل الدول الاوروبية الكبرى مطامع فى اسبانيا وفى ممتلكاتها فى العالم الجديد وفى ايطاليا وحرصت كل دولة على الا يكون للاخرى نفوذ متفوق فى اسبانيا، وعندما بات متوقعا وفاة شارل الثانى ملك اسبانيا فى اية لحظة كان هناك ثلاثة مطالبون بالعرش : لويس الرابع عشر الذى تزوج بأميرة اسبانية والامبراطور ليوبولد الاول الذى كان ابنا لاميرة اسبانية، وجوزيف فرديناند ناخب بافاريا الذى كانت تربطه بالعائلة المالكة الاسبانية صلة قرابة .

ولكن انجلترا وهولندا لم يوافقا على استيلاء احد هؤلاء المطالبين بالتاج الاسبانى، لان ذلك كان من شأنه الاخلال بالتوازن الدولى، ولذلك عقدت معاهدتان بين انجلترا وهولندا من جانب، وفرنسا من جانب آخر (١٦٩٨ - ١٧٠٠) لتقسيم املاك اسبانيا بعد موت ملكها شارل الثانى واتفق الفريقان فى المعاهدة الاولى على ان يكون العرش الاسبانى بمعظم الممتلكات الاسبانية لناخب بافاريا، وتأخذ فرنسا نابولى وصقلية، وبذا لا يختل التوازن الاوروبى، وربما كان من السهل ان يتم ذلك لأن ملك اسبانيا قد اوصى بعرشه فعلا لناخب بافاريا، ولكن ناخب بافاريا توفى فى عام ١٦٩٩ وبذلك بدأت المشكلة من جديد، اذ اقتضى الامر اعادة التقسيم مرة اخرى فى مارس عام ١٧٠٠، ومن ثم عقدت المعاهدة الثانية وبمقتضاها يكون العرش الاسبانى

من نصيب الامير النمساوى كارل Prince Karl ثانى ابن الامبراطور وتأخذ فرنسا الممتلكات الاسبانية فى ايطاليا وتضيف اليها اللورين.

ولكن عند وفاة شارل الثانى فى نوفمبر عام ١٧٠٠ وجد انه قد تـــرك وصية اوصى فيها بأملاكه الى فيليب انجو، حفيد لويس الرابع عشر، على أمـــل ان ينقذ هذا اسبانيا من خطر التقسيم، وان تقوم فرنسا بالدفاع عنهـــا.
وعندئذ اسرع لويس بقبول وصية شارل واعلن حفيده ملكا على اسبانيا باسم فيليب الخامس وكان من الممكن ان تنتهى مشكلة الوراثة عند هذا الحد، لكن ماكاد فيليب يرحل الى اسبانيا حتى اعترف لويس الرابع عشر رسميا بحـــق فيليب فى وراثة العرش الفرنسى . واعتبر هذا الاجراء تهديدا واضحا لاوروبـا التى كانت مصممة على منع اتحاد التاجين الاسبانى والفرنسى. ولذلك تتفـــق انجلترا وهولندا على وضع حد لاطماع لويس . وفى ٧ سبتمبر عام ١٧٠١ تكـــون التحالف الاعظم Grand Alliance ضد لويس من هولندا وانجلتـــرا والامبراطورية. ولما كان وليم الثالث (اورانج) ملك انجلترا العامـــل الاول فى هذا التحالف ، كما كان دائما فى التحالفات السابقة ، فقد قابل لويس هذا العمل بالاعتراف بابن جيمس الثانى ملكا على انجلترا باســـم جيمس الثالث وبعد وفاة وليم الثالث فجأة وسط هذه الازمة فى مارس عام ١٧٠٢ اعلنت الحرب ضد فرنسا .

وكانت هذه الحرب من اطول الحروب اذ استمرت حتى عام ١٧١٣، وكانـــت ميادينها فى ايطاليا والاراضى المنخفضة وبافاريا واسبانيا والعالم الجديد واندحرت فيها الجيوش الفرنسية على ايدى اعظم قواد الحلفاء مثل الـــدوق مولبرة Marlborough وكان الدوق مولبرة هذا من اكبر القـــواد الانجليز الذين ظهروا فى التاريخ قاطبة، ويليه ولنجتون الذى انتصر فـــى موقعة واترلو عام ١٨١٥. فاندفع مولبرة عام ١٧٠٤ من هولندا عبـــر اوروبا بجيشه المؤلف من اخلاط من الانجليز والهولنديين والالمان لقطـــع

الطريق على الفرنسيين الزاحفين صوب فينا . وقد لحقهم مولبرة على مقربة من الحدود البافارية عند بلنهيم Blenheim حيث انتصر عليهم انتصارا عظيما انقذ به النمسا، واستولى على بافاريا ، وطعن هيبة فرنسا الحربية طعنة نجلاء . ولم يمض على ذلك عامان حتى استولى مولبرة على الاراضى المنخفضة الاسبانية بعد انتصاره هناك فى راميليس Ramillies عام ١٧٠٦ ومازال حتى اجلى الجيوش الفرنسية عن تلك الاراضى الى ماوراء بلدة اودنارد Oudenarde عام ١٧٠٨ وبانتصاره الرابع عند مالبلاكيه Malplaquet فى ١١ سبتمبر عام ١٧٠٩ فتح مولبرة الطريق لمهاجمة الحصون الممتدة على طول الحدود الفرنسية الشرقية ، ثم غزو فرنسا نفسها وهنا بلغت احوال لويس الرابع عشر اسوأ ماتستطيع ان تبلغه ، فطلب الصلح بشروط تعد كلها ترضية لمطالب التحالف الاوروبى ، وكان من الواجب حينئذ عقد الصلح غير ان اصرار حزب الويجز Whigs فى انجلترا ومعاندة الهولنديين الذين رأوا مواصلة الحرب للحصول على شروط يمكن ان تكون اجود مما عرض لويس الرابع عشر كل ذلك اضاع الفرصة ، وظلت الحرب تجر اذيالها الى حين . وقرر لويس الصمود فى القتال ، وفى المعارك التالية انهزمت جيوش النمسا هزيمة كبرى فى موقعة Denain فى اكتوبر عام ١٧١٢ وقد خففت هذه الهزيمة من غلواء الحلفاء ، وامكن ان تبدأ المفاوضات بعد ذلك فى اوترخت . وفى ١١ ابريل عام ١٧١٣ تم توقيع الصلح فى اوترخت بين فرنسا واسبانيا من جانب وبين انجلترا والاراضى المنخفضة الهولندية وبراندنبرج وسافوى من جانب آخر . ثم وقعت البرتغال معاهدة صلح منفردة فى ١٢ ابريل ، واخيرا اضطر الامبراطور الى عقد الصلح فى راشتات Rastadt فى ٧ مارس عام ١٧١٤ ثم لم تلبث ان انضمت الى الصلح دويلات الامبراطورية فى صلح بادن فى ٧ سبتمبر عام ١٧١٤ . فضل معاهدات اوترخت راشتات وبادن ويطلق عليها جميعا اسم صلح اوترخت عاد السلام الى

اوروبا .

صلح اوترخت (١٧١٣ - ١٧١٤)

وقد نص هذا الصلح على مايلي :

١ - الاعتراف بفيليب (انجو) الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكا على اسبانيا ومستعمراتها بشرط ان يتنازل عن جميع حقوقه في عرش فرنسا .

٢ - استولى الامبراطور (شارل السادس منذ عام ١٧١١) على نابولى وسردينيا وميلان و الاراضى المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) .

٣ - حصلت انجلترا على نيوفوندلاند وخليج هدسون ونوفاسكوشيا Nova Scotia من فرنسا وعلى مينورقه وجبل طارق من اسبانيا . كما تعهدت فرنسا بعدم مساعدة افراد اسرة استيوارت بالمطالبة بعرش انجلترا وتم الاعتراف بحقوق اسرة هانوفر في وراثة عرش انجلترا .

٤ - استبقت فرنسا الالزاس بما فيها مدينة ستراسبورج وفق معاهدة رايزفيك ، ولكنها سلمت القلاع التى استولت عليها على جانب الراين الايمن .

٥ - اعيد كل من ناخبى كولون وبفاريا الى امارته .

٦ - تم الاعتراف بناخب براندبرج ملكا على بروسيا ،وكانت هذه خطوة مهمة فى ازدياد نفوذ اسرة الهوهنزلرن Hohenzollern

٧ - تم الاعتراف بدوقية سافوى كمملكة واعطيت جزيرة صقلية .

٨ - تم الاتفاق على هدم تحصينات دنكرك .

وهكذا خرجت انجلترا من حرب الوراثة الاسبانية منتصرة ووضعت اساس سيادتها فى البحار واحرزت التفوق فى اوروبا . بينما خرجت فرنسا مجهدة وحالتها المالية سيئة ،واخفقت فى سياسة الوصول الى الحدود الطبيعية وبصلح اوترخت ينتهى القرن السابع عشر فى اوروبا بفشل فرنسا فى تحقيق

دكتاتورية مسيطرة على اوروبا وبتقدم انجلترا وسيرها حثيثا نحو التقدم التجارى وبانتهاء المنافسة بين البوربون والهابسبرج. وتوفى لويس بعد عامين من توقيع الصلح قضاهما فى التوبة الى الله من الذنوب العديدة التى ارتكبها .

وهكذا بدأت مساوىء الحكم المطلق تبدو جلية فى فرنسا منذ عهد لويس الرابع عشر، الذى كان يقول "الحكومة انا" وقد اقام حكمه المطلق - كما رأينا - على هذه القاعدة ؛ فاستأثر بكل سلطة وقضى على الحرية الدينية والحرية السياسية والحرية الشخصية ، وسخر الشعب ودماءه وامواله فى الحروب جريا وراء مجد كان فى طيه البؤس والشقاء. وقال فوبان مهندس استحكامات لويس الرابع عشر وقد رأى ما حل بالبلاد : " ان الشعوب معرضة لجشع الماليين والضرائب الجائرة والمطالب الفادحة التى تنشأ عنها مضايقات مرهقة ، وقد اصبح الكثيرون بلا مأوى وملئت المستشفيات بالمرضى ، واقفرت البلاد من السكان" . والواقع ان استبداد لويس الرابع عشر وحكومته قد ولد فى النفوس كراهية للحكم المطلق ، وأخذ هذا الشعور يزداد فيها تأملا بسبب انحطاط الملكية وسقوط هيبتها فى القرن الثامن عشر حقيقة ان فرنسا قد بلغت فى عهد لويس الرابع عشر مركز القلب السياسية والثقافية فى اوروبا ، غير ان حروبه الكثيرة انهكت قوى هذه البلاد فى اواخر عهده فترك فرنسا بعد وفاته دولة مرهقة .

لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٧٤)

خلف لويس الخامس عشر جده العظيم لويس الرابع عشر فى عام ١٧١٥ وكان يبلغ من العمر خمس سنوات وكان لوى الخامس عشر من اضعف ملوك فرنسا قاطبة اذ فقدت الملكية المطلقة فى عهده قوتها وبهاءها وصار النساء والعشيقات فى عهده وفى عهد خلفه لويس السادس عشر ، يتحكمن

فى سياسة الدولة ويبذرن اموالها ويكثرن من الفضائح التى ساعدت على اسقاط سعود الملكية وجعلها موضع السخط والازدراء . كما تمتع النبلاء فى عهده بنفوذ كبير، واحاطوا به ،واوعزوا اليه بنوع السياسة التى يتبعها فى الداخل وفى الخارج.وعلاوة على الامتيازات الكثيرة التى تمتع بها النبلاء سيطروا على مراكز القيادة فى الجيش .ولما كان النبلاء طبقة عسكرية فى الاصل ولما كانت الحروب هى اسلوب حياتهم ،فقد كانوا دائما يحرضون الملكية الفرنسية على اتخاذ الحرب كأسلوب لفض المشاكل الخارجية. وهذا الاتجاه من جانب فرنسا كان واضحا فى حربين اشتركت فيهما فرنسا قبيل منتصف القرن الثامن عشر مع اسرة الهابسبرج العدو التقليدى لاسرة البربون الحاكمة فى فرنسا. وهكذا كان دخول لويس الخامس عشر فى حروب الوراثة البولندية (١٧٧٣ - ١٧٣٥) وحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ -١٧٤٨)نتيجة لضغط نبلاء فرنسا على الملك الضعيف .

واذا كانت فرنسا قد حصلت نتيجة اشتراكها فى حروب الوراثة البولندية على دوقية لورين التى كان ضمها خطوة فى سبيل تكامل فرنسا القومى، فانها فشلت فى حرب الوراثة النمساوية من تقسيم النمسا بسبب شجاعة وريثة العرش النمساوى ماريا تريزا . لقد قامت حرب الوراثة النمساوية او الحروب السيليزية عندما تولت ماريا تريزا عرش الامبراطورية خلفا لاخيها الامبراطور شارل السادس فى عام ١٧٤٠.فقام ملك بروسيا فردريك الثانى بمهاجمة سيليزيا، وكان لبروسيا بالذات ادعاءات فيها، وانتهزت الدول الاوروبية المختلفة، سواء من كان لها ادعاء او لم يكن لها ادعاء على الاطلاق فى املاك النمسا بمهاجمة النمسا . وتكون حلف من فرنسا واسبانيا وبفاريا وسكسونيا ضد النمسا وذلك لحرمان ماريا تريزا من املاكها التى ورثتها . وفى عام ١٧٤٠ سقطت

سيليزيا فى يد فردريك واستولى الفرنسيون والبافاريون والسكسونيون على بوهيميا واضطرت ماريا تريزا الى توقيع الصلح مع اخطر هؤلاء الاعداء وهو ملك بروسيا فى برسلاو Breslau فى عام ١٧٤٢، وبمقتضاه استولت بروسيا على سيليزيا وانتهت الحرب التى تعرف باسم الحرب السيليزية الاولى • وثارت ماريا تريزا بعد ذلك ضد بقية اعدائها مما اقلق فردريك فأعلن الحرب على ماريا من جديد فى عام ١٧٤٤، وبدأت بذلك الحرب السيليزية الثانية ، واضطرت ماريا ان تعقد الصلح مع فردريك مرة اخرى على اساس الاعتراف بامتلاك بروسيا لسيليزيا • بخروج فردريك من الحرب تمكنت ماريا من ان تحرز انتصارات بمساعدة انجلترا وهولندا ، اللتين دخلتا الحرب للحد من اهداف فرنسا الرامية الى غزو بلجيكا وخلع الملك جورج الثانى عن عرش انجلترا وتنصيب اسرة استيوارت الكاثوليكية على عرش انجلترا • وانتهت هذه الحرب على اية حال بعقد صلح اكس لاشابل Aix la Chapelle فى اكتوبر عام ١٧٤٨، ونص على اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه قبل الحرب status quo ante Bellum مع قليل من الاستثناءات • وعلى العموم تأكد امتلاك بروسيا لسيليزيا رغم ان بروسيا لم تكن طرفا فى الصلح •وتعهد لويس الخامس عشر بأبعاد المطالب بعرش انجلترا من فرنسا • ولكن هذا الصلح لم ينه الخلافات ، فاستمر الصراع البحرى بين انجلترا وفرنسا كما استمر النزاع حول سيليزيا وهو ما سوف يعرف بالحرب السيليزية الثالثة او حرب السنوات السبع • ومما يهمنا فى هذا المجال ان فرنسا قد خرجت من تلك الحرب منهكة ، ولم تجن من سيطرة النبلاء وتحريضهم على خوض الحروب سوى تدهور قوتها •

ولم يقف نفوذ النبلاء عند هذا الحد ، اذ رسمت طبقة النبلاء السياسة الفرنسية فى صراعها الاستعمارى مع انجلترا رغم انها لم تفهم حقيقة

هذا الصراع لانها كانت طبقة زراعية . وبالتالى كانت وجهة نظرها خاطئة في مسألة الصراع الاستعمارى،فكانت ترى ان القارة الاوروبية هى المسرح الرئيسى لهذا الصراع بدلا من المستعمرات نفسها ، وان يترك للجيش دون الاسطول تقرير الانتصار فى هذا الصراع . ولكن انجلترا اتبعت سياسة مغايرة تماما ، فكانت ترى ان الحرب فيما وراء البحار تتحدد بالقوة البحرية واذا استطاعت البحرية ان تسيطر على مياه هذه المستعمرات فان المستعمرات تسقط من تلقاء نفسها . وطبقا لوجهة النظر الفرنسية بدأت فرنسا تبحث عن حليف فى القارة الاوروبية عندما بدأ الصراع وشيك الوقوع بينها وبين انجلترا . ونتيجة لهذه السياسة ستشهد اوروبا انقلابا دبلوماسيا يتمثل فى انهاء التنافس الطويل بين الهابسبرج والبربون ، وانهاء التحالف بين النمسا والدول البحرية ،وتكوين توازن جديد لاوروبا من فرنسا والنمسا (العدو التقليدى لفرنسا) فى جانب وانجلترا وبروسيا (المنافس الجديد الناشئ للنمسا) فى جانب آخر . وقد جعلت حرب الوراثة النمساوية الطويلة المدى الناس يتساءلون عما كسبته النمسا من تحالفها مع انجلترا ، ولماذا تساعد فرنسا بروسيا ؟ ونتيجة لهذه الشكوك وهذا التبرم حدث الانقلاب السياسى الذى قرب بين فرنسا والنمسا . ومنذ عام ١٧٥١ بدأت ماريا تريزا حاكمة النمسا وانجح حكام القرن الثامن عشر فى اوروبا ،تتودد الى مدام بومبادور Pompadour محظية لويس الخامس عشر ،وصاحبة النفوذ الاعظم فى فرنسا حينئذ .

وبعد حوالى اربع سنوات نشب القتال بين الفرنسيين والانجليز فى شمال امريكا دون اعلان حرب،وخوفا من قيام فرنسا بالهجوم على هانوفر قام ملك انجلترا وامير هانوفر جورج الثالث بعقد اتفاقية وستمنستر Westminister مع فردريك الثانى (١٧٤٠-١٧٨٦) لضمان حياد بروسيا وتستغل النمسا هذه الفرصة وتعقد مع فرنسا اتفاقيات ثلاث فى

فرساى فى مايو عام ١٧٥٦ : الاولى خاصة بالحياد والثانية خاصة بالدفاع تضمن فيها كل دولة املاك الدولة الاخرى ، والثالثة سرية ، الهدف منها تقوية الروابط بين الدولتين المتحالفتين . وقد اطلق على هذا التغير فى العلاقات الدبلوماسية التقليدية بين فرنسا والنمسا فى عام ١٧٥٦ "الثورة الدبلوماسية" وقد تمخضت هذه الثورة عن حرب السنوات السبع أو الحرب السيليزية الثالثة .

حرب السنوات السبع (١٧٥٦ -١٧٦٣)

نشبت حرب السنوات السبع Seven Year's War بين فرنسا وانجلترا فى مايو عام ١٧٥٦ وبعد عدة شهور دخلت كل من النمسا وبروسيا الحرب ، وبذلك دخلت مشكلة سيليزيا بين النمسا وبروسيا الى جانب مشكلة شمال امريكا والهند . ولم تكن الحرب فى سنتها الاولى فى صالح انجلترا بصفة عامة حتى تولى الوزارة فى عام ١٧٥٧ رجل من ابرز رجال السياسة الانجليزية فى القرن الثامن عشر وهو وليم بت William Pitt وبت هذا لم يأت من الطبقة الارستقراطية ، بل من الطبقة الجديدة اهل المال . كان بت رجلا تطلع نفسه بالعزة والاستبداد بالرأى والعبقرية . وليس من صفته الا انيكون زعيما مهيبا ، دون ان يكون زميلا لأحد ، وهو بلاشك اعظم الوزراء الذين تولوا شئون الدولة فى ازمنة الحروب طوال التاريخ الانجليزى كله ، وقد قال ذات مرة : "انى اعلم ان فى استطاعتى انقاذ بلادى ، وان ليس فى استطاعة غيرى ان يقوم بذلك" ، وصدق فى قوله . اذ استطاع ان ينسق الحملات الانجليزية البرية والبحرية ، ولم ينس أهمية جبهة البحر والمستعمرات فى صراع انجلترا مع فرنسا ورغم ذلك لم يهمل الجبهة الاوروبية ، فقدم القسط الممكن من المعونة الى عدو فرنسا فردريك ملك بروسيا .

وأخذ بت فى انفاذ الحملات البرية والبحرية لحصار القواعد الحربية الفرنسية وابادتها فيما وراء البحار، ونتيجة لحصار الشواطئ الفرنسية لم يستطع الفرنسيون ارسال المؤن والتموين اللازم لقواتهم المحاربة لاختراق هذا الحصار البحري، وكانت النتيجة هزيمة الاسطول الفرنسى فى خليج كويبرون Kuiberon وفى لاجوس Lagos وبذلك اصبح الاسطول الانجليزى هو العنصر المحدد لنتيجة الحرب . فعندما قطعت الإتصالات بين فرنسا ومستعمراتها بدأ بت الهجوم الشديد على هذه المستعمرات فأخذت تسقط الواحدة تلو الاخرى، ففى عام ١٧٥٨ استولت احدى تلك الحملات على مدينة لويزبرج ،وهى مفتاح كندا الفرنسية ،وفى السنة التالية تم الاستيلاء على كويبك،واجلى الاسكتلنديون وابناء المستعمرات الامريكية جيوش الفرنسيين من وادى اوهيو Ohio . وهكذا انتهت السيادة الفرنسية بأمريكا الشمالية وأضحى العالم الجديد بمثابة هدية هذا البرلمانى العظيم (بت) الى الشعوب الناطقة بالانجليزية .

وفى الهند لم يكن انتصار الانجليز أقل اهمية من انتصاراتهم فى امريكا ، واستطاع كليف بمهارته السياسية والعسكرية ان يؤسس الامبراطورية البريطانية فى الهند. اذ أخذ يعمل على تشتيت قوى الفرنسيين والهنود حتى لا تتجمع ضد القوى الانجليزية فى الهند وأحرز سلسلة من الانتصارات . بدأت بانتصاره فى بلاسي Plassey فى عام ١٧٥٧، واستيلائه على اقليم البنغال وجعله تحت حكمه المباشر، وبسبب هذا الموقف الحربى الخطير، اخذت فرنسا تحرض اسبانيا على الدخول فى الحرب فى جانبها ،وساعد على ذلك انه منذ انقراض الفرع الاسبانى فى اسرة الهابسبرج عام ١٧٠٠ كان الفرع الفرنسى البوربونى الحاكم فى اسبانيا دائب التعاون مع فرنسا فى السنوات السابقة على حرب السنوات السبع ، وذلك حسب اتفاق بين فرنسا واسبانيا يعرف باسم اتفاق الاسرة

Family Compact .وفى عام ١٧٦١ تجدد هذا الميثاق،ولكن اسبانيا كان قد افزعها من ناحية اخرى انتصار انجلترا الساحق بحيث بدأت تخشى على املاكها هى الاخرى من تفوق قوة انجلترا فيما وراء البحار.

علم بت بالاتصالات الدائرة بين فرنسا واسبانيا وكان يرى ان تبدأ انجلترا بمهاجمة اسبانيا قبل ان تستعد اسبانيا بالفعل لدخول الحرب ولكن فوجىء بت بمعارضة الملك جورج الثالث ،حفيد جورج الثانى الذى توفى عام ١٧٦٠. وكان جورج الثالث جاهلا عنيدا،يريد الحكم لنفسه من غير صلاحية للقيام بذلك . كما كان جورج الثالث قد نشأ فى بيئة حزب التورى* فامتلأت نفسه بالكراهية لحزب الهويج الذى كان يسيطر على البرلمان والوزارة. وبنى جورج سياسته على اساس اعادة قوة الملكية ،وبدأ كخطوة اساسية لهذا العمل بادخال احد اعضاء حزب التورى فى وزارة الهويج.وتزعم هذا الوزير فريقا يطالب بالصلح،وكان الملك يناصر هذا الفريق مناصرة علنية ولقد حدث هذا التطور فى الوقت الذى حاول فيه بت ان يوسع من شقة الحرب بمهاجمة اسبانيا دون انتظار لاعلان الحرب العلنية. فيران الملك جورج الثالث رغب الى السلم،واخذ يعمل سرا ضد فردريك ملك بروسيا وحليف وليم بت وسياسته فى اوروبا.فاستقال بت من الوزارة عام ١٧٦١ ودخلت اسبانيا الحرب وتح[..] ما تنبأ به هو من اجتماع الدولتين

---

* فى عام ١٦٨٥ ظهر فى انجلترا حزبان هما الهويج Whigs والتورى Tories وهذه الكلمات شتائم وردت على لسان خطباء الفريقين فى حدة الخلاف Tory مشتقة من اللغة الايرلندية وتعنى السارق. Whig مشتقة فى الغالب من Whiggam وهى صرخة ينادى بها الفلاحون الاسكتلنديون ليحثوا جيادهم على السير. والمقصود بذلك الحزب السياسى الجامح. وقد قدر لهذين الحزبين ان يتنافسا على السلطة فى انجلترا لما يزيد من قرنين فيما بعد تحت اسم حزبى الاحرار Liberals والمحافظين Conservatives

البربونيتين على العدوان ٠على ان انجلترا استطاعت - بفضل ما بثه وليم بت فيها من قوة - ان تواصل انتصاراتها على فرنسا فى الاراضى الالمانية وعلى اسبانيا فى جزر الفلبين بالمحيط الهادى وفى جزر الهند الغربية بأمريكا الوسطى .٠

وهكذا انتهت تلك الحرب المعروفة فى التاريخ الاوروبى باسم حرب السنوات السبع ،وتقرر السلام بصلح باريس فى فبراير عام ١٧٦٣، وهو صلح اكثر اعتدالا مما كان منتظرا بالنسبة لما وقع فى اثناء الحرب من فتوح وانتصارات ٠ فاسبانيا لم تخسر شيئا فى هذه الحرب ، اذ بمقتضى هذا الصلح استردت كل من هافانا Havana ومانيلا Manila اما فرنسا فقد اضطرت الى التخلى عن كندا مع كل الجزء الهام من وادى المسيسبى الواقع الى شرق النهر٠ اما فى الهند فرغم ان فرنسا استردت بوندتشيرى Pondichery وبعض المراكز التجارية الاخرى الا ان انجلترا اضحت منذ ذلك الوقت القوة الوحيدة المتحكمة فى الهند دون منازع وبدأت منذ ذلك الوقت تبسط نفوذها فى شبه الجزيرة على حساب القوى المحلية من الامراء الهنود٠ على ان ذلك وغيره من شروط الصلح لم يؤثر فى شئ من النتائج الكبرى لتلك الحروب،وهى انتهاء السيادة الفرنسية على كندا ، و ...... الامبراطورية البريطانية فى الهند٠

وخلاصة القول ان صلح باريس - وما تمخض عنه من سيادة انجلترا بأمريكا - بلغ بعظمة انجلترا وامبراطوريتها الاولى الى الاوج،ولاشك ان ما احرزته انجلترا من تلك العظمة لم يكن شيئا قليلا،فمنذ أن اضحت بفضل تكوينها وموقعها الجغرافى مركزا طبيعيا لكل تحالف ضد الدول التى تجنح الى القوة والسيطرة الحربية فى اوروبا ، بعد ان كانت ترجع فى سلامتها الى ما بها من قصر عن تهديدات ابة دولة من الدول .

وبعبارة اخرى صارت انجلترا من بعد حرب السنوات السبع دولة ذات سطوة وبأس شديد . ومن الطبيعي ان تعمل الدول الاوروبية - بزعامة فرنسا واسبانيا - على ايجاد الفرصة للتعاون فيما بينها ، لتصحيح التوازن واعادته الى نصابه القديم.

الفصل الحادي عشر

فرنسا من صلح باريس الى قيام الثورة الفرنسية

اوضحنا فى الفصل السابق كيف ان فرنسا فقدت مكانتها العسكرية عندما الحقبها تحالف انجلترا مع بروسيا هزيمة منكرة فى حرب السنوات السبع . كما كان الملك لويس الخامس عشر الذى توفى عام ١٧٧٤ نموذجا كاملا لانحطاط الملكية. فقدكانت الملكية الفرنسية مدينة لزعامتها الايجابية للأمة فى الحروب ولكنه كان غارقا فى مباذله عاطلا عن اية حمية عسكرية او حماسة دافعة ، فحاقت بالأمة الفرنسية فى عهده هزائم كبرى لم تقو على علاجها من بعده . فخسرت فرنسا مستعمراتها فى الهند وامريكا ، ولم تعد الاستعراضات الحربية تقام لاظهار ما لفرنسا من القوة الحربية ، بل كانت تقام لتسلية الملك ومحظياته أمثال مدام دى بمبادور. وفى الحقيقة الفد انهزام الملكية الفرنسية امام بروسيا فى حرب السنوات السبع حب الشعب الفرنسى لها ،وقال نابليون بونابرت ان موقعة روزباخ Rossback (حدثت فى المانيا فى حرب السنوات السبع عام ١٧٥٧) وهى من اهم اسباب قيام الثورة الفرنسية .

لقد اظهرت حرب السنوات السبع للشعب الفرنسى انهم ضحايا حكم فاسد من جميع وجوهه . وكان ابرز هذه الوجوه الحكم المطلق من ناحية وطبقة النبلاء المميزة التى تعيش عالة على جماهير الشعب الفرنسى من ناحية اخرى. وفى حوالى منتصف القرن الثامن عشر حدث تغير ديناميكى فى حياة الشعب الفرنسى وذلك انه على الرغم من ان الشعب الفرنسى كان منفصلا ليس فقط عن طبقة النبلاء بل كذلك من طبقة رجال الدين الا انه لم يكن خاملا . فقسم كبير من عناصر الشعب الفرنسى وهو سكان المدن او البورجوازية اخذ فى النمو بسرعة فائقة ،والى هذا العنصر

يرجع الفضل فى بناء التجارة والصناعة الفرنسية واليه يرجع الفضل فى بناء الامبراطورية الاستعمارية فيما وراء البحار ومن هذه الطبقات ايضا خرجت مجموعة كبيرة من النقاد والكتاب ارتبطت بالحركة الفكرية المعاصرة التى اطلق عليها الاستنارة . فمما لاشك فيه ان من بين الطبقة البورجوازية الفرنسية ظهر قوادهذه الحركة الفكرية التى عمت بقية اوروبا . ولقد بدأت هذه الحركة - التي سشير اليها بعدذلك بالتفصيل - فى عهد لويس الخامس عشر قبل حرب السنوات السبع فأكملت هذا الانقلاب فى صفوف البورجوازية بحيث اضحت هذه تحمل لواء الاصلاح والتغيير فى الوضع الاجتماعى والسياسى .

بعد وفاة لويس الخامس عشر فى عام ١٧٧٤، خلفه حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤-١٧٩٢) وحالف التوفيق رايات البلاد من جديد فى حرب الاستقلال الامريكية . ولكن خزينة فرنسا كانت خاوية الى حد مزعج وكان لابد من اتباع سياسة اصلاحية بهدف تقييد الحكم المطلق ، وتبسيط النظام الادارى ، والقضاء على الامتيازات ولقد كان الملك - كما اشرنا من قبل - مصدر السلطات جميعا ، فكانت له وحده السلطة التنفيذية حق تعيين الموظفين والاشراف على الادارة ، وعقد المحالفات ، واعلان الحرب وقيادة الجيوش . كما كانت له وحده السلطة التشريعية لأن مجرد صدور لائحة ملكية يكفى لتغيير نظام الحكومة او القضاء ، وكانت القوانين الفرنسية مؤلفة من العادات القديمة واللوائح الملكية . وكانت له وحدة السلطة المالية يقرر النفقات والضرائب وجبايتها بغير رقيب . وكان الوزراء والحكام خاضعين لارادته التى تقوم مقام القانون .

وكانت ارادة الامة ممثلة شكلا فى "البرلمان" ومجلس الامة . اما البرلمان فاسم كان يطلق فى العهد القديم على محاكم : ـيا منشأة فى المدن الرئيسية للفصل نهائيا فى الأحكام المستأنفة . وكان اهمها

واقدمها "برلمان باريس" الذى كان فى بدايته محكمة عليا متنقلة تتبع الملوك اينما ذهبوا لتقضى باسمهم ثم اقرها فيليب الرابع فى باريس (١٣٠٢) وكان برلمان باريس كالبرلمانات الاخرى التى انشئت فيما بعد ينظر فى الدعاوى المستأنفة ، ولكنه كان فوق ذلك يسجل القوانين واللوائح والاوامر الملكية وكانت اختصاصات البرلمان فى البداية قضائية بحتة وما لبث ان انتحل لنفسه سلطة سياسية فكان كثيرا ما يرفض تسجيل القوانين التى يرى انها تتنافى مع العدل او يوجه الى الملك قبل الشروع فى عملية التسجيل انتقادا تمرة نفى من اجلها مرارا ، وقد تعب من مقاومته لويس الخامس عشر فألغاه فى عام ١٧٧١ واعاده لويس السادس عشر فى اول حكمه (١٧٧٤) فصار البرلمان فى ايامه على رأس حركة المعارضة التى تقدمت الثورة وكانت العامل الاول فى اضعاف الملكية .

اما مجلس الامة Etate - Generaux فكان يتألف من نواب النبلاء والقساوسة والطبقة الثالثة (الشعب) ، وأول جمعية عرفت بهذا الاسم اجتمعت فى عام ١٣٠٢ بناء على دعوة فيليب الرابع للفصل فى النزاع الذى قام بينه وبين البابا بونيفاس الثامن، وقد ايدته اغلبية المجلس فى وجوب تحميل الاكليروس نصيبا من اعباء البلاد المالية واكدت بذلك استقلال الملكية عن حكومة روما فى سلطتها الزمنية ، ولا ريب ان هذا الاجتماع الخطير يدل على ان الملكية بدأت تستند فى اعمالها الى الرأى العام لان مجلس الامة اول تمثيل صحيح قام على قاعدة انتخابية على ان هذا المجلس كان لا يجتمع بطريقة نظامية وانما يعقده الملوك حسب مشيئتهم لاخذ رأيه فى المسائل الهامة وتقرير الضرائب ، وكان يطالب احيانا بالاصلاحات النافعة واجتمع لآخر مرة عام ١٦١٤ ثم اصبح بعد ذلك نسيا منسيا حتى عام ١٧٨٩ عام قيام الثورة .

وكان الفرنسيون لا يتمتعون بأية حرية فلا وجود للحرية الفردية لأن

مجرد صدور ارادة ملكية Lettre de Cachet يكفى لسجن او نفى اى فرنسى دون اتباع اى اجراء قانونى او الاستناد الى اى حكم قضائى وكانت هذه الارادات تصدر فى صورة خطاب موقع من الملك واحد وزرائه ومغلق بختم الملك، وكان يستعملها الملك ووزراؤه وكبار رجال الدولة للانتقام من اعداء الحكومة السياسيين ثم جرى استعمالها للانتقام من الاعداء الشخصيين ومن ضحايا هذه الارادات لاتود Latude الذى ظل فى سجن الباستيل ٣٥ سنة (١٧٤٩ - ١٧٨٤) بناء على طلب مدام دى بومبادور لأنه بلغها فى سن الرابعة والعشرين من عمره خبر مؤامرة وهمية طمعا فى رضاها ووقايتها. اما الحرية الدينية فلم يكن لها وجود فى فرنسا لأن الدين الكاثوليكى هو دين الدولة الوحيد المعترف به. وكان اجباريا ، وقد اعلن لويس السادس عشر عند اعتلائه الحكم انه سيبذل اقصى سلطته فى مطاردة اعداء الكنيسة ، وكان محرما على البروتستانت واليهود الدخول فى المناصب العامة. وعلاوة على ذلك قيدت حرية النشر لأن لجنة الرقابة التى انشئت فى ايام لويس الرابع عشر كانت تفحص جميع المطبوعات قبل ظهورها ، واذا صدرت كتب من غير اذن اللجنة صودرت وزج بأصحابها فى الباستيل من غير محاكمة ، وقد سجن فولتير فيه مرتين واضطر الى الرحيل عن بلاده ليتمكن من التأليف فى امن .

ومن اهم العوامل التى ادت الى بغض الحكم المطلق فى فرنسا وجود البلاط الملكى الذى اتخذه الملوك منذ عهد فرنسيس الاول اداة حكومية واجتذبوا الى ساحته فى فرساى ، خصوصا فى ايام لويس الرابع عشر النبلاء الذين اخذت سلطتهم تفنى فى السلطة الملكية. وكان يبلغ عدد رجال البلاط ١٨٠٠٠ فى عام ١٧٨٩ تجرى عليهم الارزاق والمرتبات الضخمة دون ان يكون لهم عمل يؤدونه ، وكانت خزانة الدولة تدر على اولئك العاطلين من اصحاب الابهات المولعين بالترف وحب الظهور والملاهى والحفلات الراقصة

مما دعا تيرجو Turgot الى ان يقول للويس السادس عشر على اثر تعيينه وزيرا للمالية ." يجب ان تتسلح يا مولاى ضد احسانك وان تفكر فى مصدر هذا المال الذى تنفقه على بطانتك وان تقارن بين بؤس اولئك الذين ينتزع منهم المال احيانا باساليب قاسية وحالة اولئك الذين ينعمون من فيضك " وبرغم ذلك لم تقلع الملكية عن سياسة الاسراف ، فانفق الملك فى خلال ثلاثة اعوام (١٧٧٨-١٧٨١) مبلغ ٢٦٠٠٠٠ جنيه مرتبات لبعض رجال البلاط الجدد الذين عينوا فى وظائف لم تخل بعد .

وفى الواقع كانت الضرائب موزعة بطريقة جائرة تشكو الطبقة العاملة الفقيرة من فداحتها واساليب جبايتها . فكانت الحكومة تقرر فى كل عام المبلغ الذى تدفعه كل مديرية ثم يقوم الموظفون فى معظم المقاطعات من المدير الى الجابى بتوزيع الضرائب بين السكان لا بنسبة الثروة بل بنسبة المقدرة ، وتلك عادة قديمة ، فكان الجباة احرارا فى تقدير ما يدفعه كل ساكن ومراعاة ذويهم . واهم الضرائب المباشرة الضريبة الملكية التى كانت تقع على الشعب وحده على العمال والتجار والفلاحين الذين ليسوا من طبقة الاشراف ، واول من فرضها فيليب الرابع للقيام بنفقات الحرب . وقد دفعت الحروب لويس الرابع عشر الى فرض ضريبة شخصية فوق العادة (رسم الرأس Capitation) وضريبة عشرونية (١/٢٠ من الدخل) . وكانت هاتان الضريبتان من الوجهة النظرية تشملان جميع الطبقات ، ولكن القساوسة اعفوا منها لقاء التبرع بمبالغ معينة من المال من وقت لآخر . وكان النبلاء يدفعون مبالغ ضئيلة بالنسبة لثروتهم . وهكذا كانت الضرائب المباشرة وحدها تستنفذ نصف ايراد الطبقة العاملة .

اما الضرائب غير المباشرة كضريبة المشروبات وضريبة الملح* فكانت

---

* كانت الحكومة تحتكر تجارة الملح Gabelle وترغم كل فرد من الاهالى رجلا كان او امرأة او طفلا على شراء قدر معين منه ، حتى ولو لم يكن لديهم الخبز اللازم لاود الحياة .

وكان للنبلاء وحدهم الحق فى وظائف البلاط ومناصب الجيش الرئيسية اما الشعب فعليه اعباء الضرائب والسخرة والتجنيد .

ولاريب ان هذه اللامساواة كان يتألم منها الشعب حتى قال بعض الكتاب ان ظمأ الفرنسيين الى المساواة كان اشد من ظمأهم الى الحرية ، والواقع ان النظام الاجتماعى فى القرن الثامن عشر كان اكثر انطباقا على الحالة العمرانية والسياسية فى العصور الوسطى خصوصا وان النبلاء قد اضمحل امرهم واشتغل الكثيرون من افراد الشعب ، وغير النبلاء بالتجارة والصناعة فنالوا ثروة واسعة ورفعة وقوة وتألفت من الشعب " طبقة متوسطة " جديدة متنورة تعتز بحسبها الذى ابتنته لنفسها بكدها وتندد بامتيازات النبلاء التى لا يبررها سوى الاصل والنسب . والى هذه الطبقة ينتمى فولتير الذى روى انه تنازع مرة مع الدوق دى روهان وبينما كان يتناول غذاءه ذات يوم بعث اليه الدوق يدعوه لأمر عاجل فما كاد يخرج من البيت حتى اثخنه ضربا بالعصى وأراد فولتير التشهير بهذا الاعتداء فسجنته الحكومة فى الباستيل ثم اطلقته بعد ان اشارت عليه بالرحيل من البلاد حتى ينسى امره . (١٧٢٦)

وانتسب الى هذه الطبقة كبار الملتزمين والماليين ورؤساء المصارف والشركات وارباب التجارة والصناعات (صارت الحركة التجارية اربعة اضعاف ما كانت عليه فى عام ١٧١٥) والمحامون والاطباء ورجال القانون حتى اصبحت فى الواقع الطبقة الاولى التى عليها مدار الحياة فى الدولة ، وكان من الطبيعى ان ترقى عن مركزها الاجتماعى فى ذيل الطبقات وان تكون على رأس الحركة الثورية العاملة على تقويض نظام الحكم والادارة والمجتمع .

وهكذا بدأ السخط يعم البلاد خصوصا طبقة الشعب ، وصغار

جبايتها مؤجرة لرهط من كبار الماليين اوالملتزمين الذين لايدخـــرون وسيلة فى ابتزاز المال والحصول على ارباح وفيرة ،وكانت ضريبة الملـــح ابغض الضرائب الى الفرنسيين ومثل من امثلة الاستبداد والتحكم اذ كـــان حتما على كل انسان فى بعض المقاطعات شراء كمية معينة من الملح، بثمــن معين ، ولاستعمال معين (للطبخ مثلا فلا يجوز استعماله فى تمليح الخنزيـر) وكان عمال الملتزمين يدخلون المنازل للتفتيش عن الملح المهرب ،ويقبضـون على الفين او ثلاثة آلاف مهرب فى كل عام يجازونهم بالجلد أو بالاشغـــال الشاقة. كما كانت طبقات الشعب التى تتألف منها اربعة اخماس السكـــان تدفع ، عدا هذه الضرائب الملكية الفادحة ، الضريبة العشرية للاكليــروس (عشر المحصول تقريبا) والحقوق الاقطاعية للنبلاء ، وكانت هذه الحقـوق متنوعة ، منها الرسوم التى يتقاضاها النبيل فى مقابل ارغام الفلاحيـــن على استعمال طاحونته ، ومعصرته ،ومنها حق الصيد الذى كان يرغم الفلاحيــن على ترك الصيد يفتك بمحاصيلهم والصائدين يدهكونها بأقدامهم.

اما من الناحية الاجتماعية ،فقد كانت الامة الفرنسية مقسمة الـــى طبقات ثلاث : الاكليروس والنبلاء والشعب وكان لطبقة الاكليروس امـــلاك واسعة (تقدر بربع اوخمس اراضى المملكة) معفاة من كل ضريبة ،وكانــت تحصل فوق ذلك الضريبة العشورية من الشعب ، وتفصل محاكمها فى مسائـــل الزواج ولكن كان الآلاف من صغار الاكليروس يشكون ضنك العيش بسبــــب استئثار رؤساء الاكليروس بثروة الكنيسة واموالها.أما النبلاء (كانـــوا نحو ١٥٠٠٠٠ فى عام ١٧٨٩م) فكان لطبقتهم فى البداية ملكية الاراضى كلهـــا تقريبا والسلطة العامة ، فلما قويت الملكية الفرنسية حلت سلطتها محـــل سلطة النبلاء ، ثم اخذ الفلاحون من ناحية اخرى يمتلكون تدريجيا الاراضى التى كانوا يزرعونها (ثلث اراضى المملكة تقريبا ولكنهم ظلوا يـؤدون الحقوق الاقطاعية للنبيل الذى ما برح يرهقهم بالضرائب والسخـــرة.

الاكليروس ونبلاء الاقاليم لا البلاط،ويأخذشكلا محسوسا بفضل الـــــروح الجديدة التى ظهرت فى القرن الثامنعشروقيام الحركة الفكرية. فلقد ظهر فى فرنسا طائفة من الكتاب الذينقوضوا دعائم النظام القديـــم Ancien Regime دعائم الحكم المطلقوعدم المساواة فى حياةالمجتمع وعدم التسامح فى شئون الدين ونظام الحماية فى عالم الاقتصاد. فأعلن الاقتصاديون الا سبيل لعلاج الكساد المخيمعلى التجارة والانتـــاج الا باتباع مبدأ الحرية الاقتصادية Laissez -faire والقضاء علـــى القيود الصناعية والتجارية. كما ذهب السياسيون الى ان نظـــام الامتياز والحكم المطلق يناقض ضمان مبادئ الاخاء الانسانى والقواعد التىقامت عليها الحكومات وهى ضمان الحرية والمساواة ،وانه لا منـــاص من اعادة تلك الحقوق الطبيعية للأمة حتى يقوم نظام الحكم فى البلاد على اساس وطيد. وقد كان اكبر هؤلاء الكتاب واعظمهم اثرا مونتسكيو وفولتير، وروسو.

١ - مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥):

كان من طائفة النبلاء، وقد اهتم منذ بداية حياته العملية بوضع مجموعة من المؤلفات القيمة فى موضوعات شتى. ولكن مؤلفه الذى خلد اسمه هو كتاب روح القوانين Esprit des Lois/ The Spirit of the Laws الذى حلل فيه تحليلا دقيقا انظمة الحكومات المختلفة والظروف التى نشأت فيها ،واعتبر النظام الانجليزى اوفى الانظمة وأرقاهـــا لانه نظام يمنع طغيان الحاكم ،وينقل سلطات الحكم الى ثلاث هيئات مستقلة الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية والهيئة القضائية ،قصدا الى تدعيم اصول الحكم وضمان سلامة المحكوم. وقد اثار مونتسكيو مسألة فصل السلطات ضمانا للعدالة والحرية المدنية والسياسية ،ولم يكن معنى الاخيـــرة

الا شعور المرء بالاطمئنان الى القدرة على فعل الشيء وليس معناها ان يفعل الانسان كل ما تشاء ارادته ،ولصيانة هذه الحرية السياسية من النزوات البشرية رأى وجوب خضوع المرء للقانون وحده ،وهذا لا يتحقق الا بفضل السلطات بتوزيعها لا تكتلها في يد واحدة ،على ان توضح حدودها.

ودرس مونتسكيو ظاهرة المسئولية والجزاء وحمل على اسراف القوانين الجنائية فى عصره ،كما درس مسائل سياسية اخرى تتعلق بنشأة الدساتير ومبادئها ، وطريقة صياغتها .ولقد أثرت آراؤه فى سياسة اوروبا سيما نظريته فى توازن السلطات وأثرت آراؤه ايضا فى امريكا ، واحترمها رجال الثورة ولا ادل على ذلك من ذكر اسمه فى المسودات الرسمية التى قام على اساسها الدستور الامريكى الاول واحترمتها الثورة الفرنسية فاستمد اعضاء الجمعية التأسيسية الذين وضعوا الدستور، الكثير من آرائه لاسيما فيما يتعلق بالتوازن بين السلطات ومدى استقلال كل منها عن الاخرى. وهكذا اخذت فرنسا بنظرية مونتسكيو فى فصل السلطات فى كل الدساتير التى تعاقبت عليها من عهد الثورة الى عهد الجمهورية الـ ثالثة .

كان مونتسكيو اذا ، من دعاة الثورة الفكرية ، من الممهدين للقضاء على المجتمع القديم ،وانتظام الحضارة على اساس قومى يمكنها من الازدهار بما اذاعه من آراء عن الحريات وبما قام به من حملات على الحكم المطلق وغيره ،كالنظم السياسية والاجتماعية الفاسدة وعن هذا الطريق نفذ بعمق الى قلب المجتمع الفرنسى فظهرت آثار ذلك بين رجال الجمعية التأسيسية الفرنسية ، الذين قاموا غداة الثورة بتنظيم شئون المجتمع عند وضع الدستور عام ١٧٩١ .

٢ - فولتير Voltaire (١٦٩٤- ١٧٧٨)

كان فولتير مثلا من الامثلة الواضحة للبورجوازية ،بل كان من أسرة

بورجوازية وقد اثرى من مشروعاته الكثير من المال . وكانت ميرتـه الكبرى فى تفوقه فى فنون النقد . نقد كتاب روح القوانين لمونتسكيو فعاب عليه تعمقه فى الاستقصاء التاريخى عن اصول القوانين ،ثم عدم دقة ووضوح الحدود الفاصلة بين الملكية والاستبدادية عنده ،لانهما على حد قوله " اخوان يشبه احدهما الاخر ،لدرجة يعجز المرء فى التفريق بينهما فى اكثر الحالات " .،ثم عرض فولتير فى كتابه " آراء جمهورية " الذى نشر عام ١٧٦٥ بعض الاراء الجريئة فعرف مثلا الحكومة المدنية بأنها "ارادة الكل يقوم بتنفيذها شخص واحد او جملة اشخاص تبعا لقوانين يدين الجميع بالخضوع لها ".

ولقد سافر فولتير الى انجلترا ،بعد سجنه ايام شبابه مرتين ،ودرس نظم الحكم فيها وقواعد الحرية التى اعجب بها اعجاب مونتسكيو بها لاعتقاده ان كل الدول التى تقوم على مبادىء مثل هذه لا تتعرض لحدوث اى ثورة بها . وعرض فولتير بعض الاراء السياسية فى رسالة نشرت له عام ١٧٦٥ وشرحت هذه الاراء المذهب الحر والمستنير. وقد لاحظ ان الطبقة الثالثة وهى العامة تمثل الاساس الذى يرتكز عليه تكوين الامة ، وقال عن الحرية : بأن حب الناس لها طبيعى لدرجة ان جميع من ظفروا بها يرفضون عن الآراء الجمهورية واشاد بفكرة المساواة ومعناها فقال : لا توجد بلدان تستحق السكن بها كالبلدان التى يخضع اهلها للقانون متساوين وفى كل الظروف. وكان رأيه فى وظيفة الحكومة تتفق ومعنى الخدمة العامة فالوظيفة هى ان تقوم الحكومة على تنفيذ مايصدر من رغبات تبديها الارادة العامة وبشريطة ان يكون هذا وفقا للقوانين التى يقرها الجميع او تصدر بموافقتهم .وفى الواقع حمل فولتير حملة شعواء على مفاسد الحكم المطلق ،ولكنه لم يحاول فى هذا كله ان يضع خطة انشائية ،وانما كانت كتاباته تتجه الى الهجوم العنيف والنقد

المر للانظمة القائمة سواء فى الناحية السياسية ام الدينية ،حتى اطاح بما كان لتلك الانظمة والعقائدمنهيبة واحترام .

٣ ـ روسو Rousseau (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) :

يعتبر جان جاك روسو من المع مفكرى العالم الاحرار فى القرن الثامن عشر الذين مهدوا بطريقة ايجابية لقيام ثورتى امريكا وفرنسا وكان لروسو نهج غيرنهج مونتسكيو وفولتير اللذين اقتصرا على مهاجمة النظم القائمة والمطالبة بتحديد السلطة المطلقة . فاتجه روسوبتأثير الالام التى مر بها فىحياته الىوضع نظام حديث لمجتمع حديث . وكان روسو فرنسيا من اصل سويسرى من مدينة جنيف ، وكان يكره جميع القيود من اى نوع ويجد السعادة الكبرىفىالانطلاق الحر لانفعالاته . ومع انروسو ينتمى الى عصر الاستنارة الا انه لم يترددفى تحدى ايمان المستنيرين فى الفكر الانسانى باعتباره المرشد والمحرر للبشرية ،وبدلا من العقلكان روسو يضع العاطفة فى المحل الاولوبهذا اصبح روسو رائد العصر الرومانتيكى الذى تلى عصر الاستنارة . ولا تهمنا الناحية الرومانتكية منآراء روسو وانما يهمنا روسو كفيلسوف سياسى .

وترك روسو كتبا كثيرة كان اهمها العقد الاجتماعى * Social Contract الذى يعتبراكثرها ذيوعا ،حتى قالعنه مؤرخو الفلسفة : بأنه كان انجيل الثورة الفرنسية ودستورها . ويضع روسو فى" العقد الاجتماعى" تصورات وفروضا تبرزما استحدث من الحياة الفطرية منقيود والتزامات قيدت من حرية الانسان الذىولد حرا فى نظره ، وهو يذهب الىان الانسان نشأ وحيدا منعزلا ،لايعرفاهله وذويه ،وكان يحصل بسهولة على حاجياته الضرورية وكانت هذه الحياة اسعد حالة بالنسبة

---

* نشر هذا الكتاب عام ١٧٦٢ .

لفطرته الاولى حيث لا قانون ولا سلطة ولاظلم ولا عدل ،وقد اضطر تحت ضغط الظروف المحيطة به الى ان يتعاون مع غيره ، ثم حدث ان اكتشف الزراعة فتبع ذلك تقسيم الاراضى ، وظهرت الملكية الفردية ، التى ادت الى ازدياد اسباب التفاوت بين الافراد الى قيام النزاع بينهم ، ومن ثم فسدت اخلاقهم ،وانقلبت سعادتهم الى شقاء ، فأرجع بهذا روسو فساد المجتمع والاخلاق الى ظاهرة الملكية لانها تتعارض فى رأيه مع النظام الطبيعى ، وقد كانت هذه الصيحة منه نذيرا بيقظة الآراء الاشتراكية بحيث كانت لها اثرها فيما بعده .

وكان روسو يرى ان العمل على اصلاح عيوب المجتمع الانسانى لا يتأتى الا بالتنظيم السياسى واقامة الحكم الصالح ، وافضل وسيلة لتحقيق ذلك هو ان يتعاقد الافراد بمقتضى ميثاق اجتماعى ،بحيث ينزل كل فرد عن جزء من حقوقه الشخصية للمجموع ، لا لشخص معين ولا لبضعة اشخاص ، ووظيفة هذا التعاقد هى قيام دولة مزودة بسلطة سياسية غايتها حماية مصالح المتعاقدين بواسطة القوة الجمعية فتتحقق بذلك المساواة بين الجميع وتصبح ارادة المجموع نافذة ، وكانت هذه الهيئة العامة التى تتكون باتحاد جميع الافراد تسمى فيما مضى مدينة ، اما اليوم فتسمى دولة واعضاؤها يسمون شعبا ومواطنين متى اشتركوا فى المسائل السياسية ، ورعايا ،متى كانوا خاضعين لقانون واحد .وبهذا فالعقد الاجتماعى هو الذى ينشئ الدولة كما ينشئ حق السيادة وتتركز سيادة الدولة فى مجموع افرادها ومتى كانت هذه السيادة هى المعبرة عن ارادة الامة عامة ، وهذه الارادة لايمكن التنازل عنها ، فانه يترتب على ذلك ان حق السيادة من الحقوق التى لايمكن التنازل عنها او التصرف فيها ،وبذلك قرر روسو مبدأ دستوريا هاما وهو مبدأ عدم التنازل عن السيادة او التصرف فيها .

ووضح روسو معالم التمثيل النيابي كما رآه ،فقال : انه لما كانت سيادة الامة من الحقوق التي لايمكن التنازل عنها ،فان صاحبها لايستطيع اذا ان ينيب عنه ممثلين او نوابا ، لان هؤلاء قد يعتبرون انفسهم ممثلين لارادة الامة ويحلون ارادتهم محل ارادتها ،مما يعتبر تناقضا مع المبدأ الذي سبق تقريره ، لذلك قال : بأن ممثلي الامة هم مجرد تابعين للشعب او وسطاء بينه وبين الهيئة العامة التي اصطلحوا على تكوينها بمقتضى الميثاق ،وليس لهم من وظيفة الا العمل وفق مشيئة الناخبين وتنفيذ رغباتهم ،وليس لهم الحق في ان يبرموا شيئا بصفة نهائية لان كل قانون لا يصادق عليه الشعب يكون باطلا،ولا يصح تسميته قانونا وفي هذا الصدد يقول روسو:"قد يظن الشعب الانجليزي انه حر حقا ، ولكنه في حقيقة الامر ليس كذلك فلايكاد يشعر بحريته الا يوم انتخاب مندوبيه" .بهذا ايد روسو النظام الديمقراطي المباشر وهو النظام الذي كان سائدا في المجتمعات الديمقراطية القديمة ، وفي سويسرا مسقط رأسه ووطنه الثاني .

ولقد كانت آثار العقد الاجتماعي قوية بين مجتمع يتهيأ في ذلك الوقت للثورة فقد زاده تهيئا لها حتى اشتعلت نيرانها فيما بعد،وقد بدأ أثره في اولى ثمار الثورة الفرنسية عندما اعلنت حقوق الانسان، فقد كان يكرر دائما ان هدف الدولة الاساسي هو حماية حقوق الانسان، لأن من يفرط في حقوقه فقد فرط في اهم مقومات شخصية وتنازل الانسان عن حريته ينطوي على تنازله عن طبيعته كانسان، كما ظهر أثره ايضا في الغاء الامتيازات التي استندت عليها الملكية كحق الفتح او الحق الالهي المقدس وتهدم كل اساس تقوم عليه الملكية المطلقة والاستبدادية عموما ،ولقد

بدأ روسو كتابة العقد الاجتماعي بدعوة الى الثورة فيقول ولد الانسان حرا لكنه مقيد بالاغلال في كل مكان، وتبع ذلك ان كان من الضروري على الانسان ان يحطم هذه الاغلال حتى يعيش المجتمع حرا .

ان روسو يعرف عادة في الفكر السياسي بمؤلفه عن العقد الاجتماعي (١) وما اشتمل عليه من نظريات يتخذ منها اهل اليمين واهل اليسار السند فيما يطالبون به احيانا من سلطة واحيانا من حرية، وما يطالبون به من مساواة وعدم مساواة في الوقت نفسه . ولكن مقالة عن " منشأ عدم المساواة " يوضح القصد الحقيقي من مساهمته في النظم السياسية بتأكيد ما أكد في " العقد الاجتماعي " من ان الخير الاعظم للشعب جميعه والذى ينبغى ان يكون الهدف من كل نظام تشريعي يتلخص في امرين رئيسيين وهما الحرية والمساواة - فالحرية امر رئيسى لان اية تبعية فردية ما هى الا انتقاص مماثل من قوة الدولة ،والمساواة امر رئيسى لان الحرية لايمكن لها ان تبقى بدونها . وفي الحقيقة كان روسو جديرا باللقب الذى اضفاه عليه فلاسفة الفكر السياسي وهو انه ابو الثورة الفرنسية .

واذا كان مونتسكيو وفولتير وروسو قد حظوا باهتمام بالغ من الاجيال التالية فهناك ايضا جماعة اخرى كان لها تأثير عظيم بين معاصريها وكانت لها صلة هامة بأعمال الثورة، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين او الطبيعيين Physiocrats وقد تأثر هؤلاء الى حد كبير بكتابات الاقتصادى الانجليزى آدم سميث Adam Smith (٢) وممثلو هذه الجماعة الرئيسيون في فرنسا

---

(١) كان يعرف باسم انجيل الثورة .

(٢) . مفكر اسكتلندى توفى في عام ١٧٩٠ ونادى في كتابه ثروة الامم Wealth of Nations الذى نشره في عام ١٧٧٦ ازالة كل الحواجز التى تضعها الحكومة على التجار Laissez - passer

هم ميرابو ابو السياسة الذى ذاع صيته فى الثورة ، وساى ،وقبلهؤلاء جميعا كيسناى Quesnay المفكر الحقيقى فىهذة الحركة الذى وصف بعضهمكتابه الغامض المعقد "الجدولالاقتصادى" Tableau Economique بأنه الدواء الناجح لمتاعب فرنسا ،ويمكننا ان نستخلص من الكتابات الضخمةلهذه الجماعة المبادىء التاليةباعتبارها تعاليم اساسية استخدام العمل فىالارض هو مصدر كل ثروة ، العمال هم فىالحقيقة اكثر الطبقات انتاجا بل وربما كانوا الطبقة المنتجة الوحيدة . تدخل الحكومة يجب ان يقلل الى ادنى حد:الاصلاحان الاساسيان اللذان يلزم تنفيذهما فورا هما اطلاق الحرية الكاملةللتجارة،انشاء نظام عام للتعليم : جميع الضرائب يجب ان تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة هى ضريبة الارض وقد بذل تيرجو الذى كانتلميذا حصيفا من تلامذة هذه المدرسة جهودا ضخمة لتطبيقتعاليمكيسناى. وقد كان لهؤلاء الاقتصاديين اثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكناهميتهم لا تقرب مطلقا من اهمية اتباع روسو وفولتير.

وعلى اية حال ، كان اعتلاء لويسالسادس عشر العرش فى عام ١٧٧٤ ذو بشيرا بعهد افضل. فجميع طبقات الشعب الفرنسى تنفست الصعداء لانتهاء حكملويس الخامس عشر الذىلم يكفر عن خلاعة بلاطه بتحقيق اية انتصارات خارجيةورغم انهكانت لفرنسافى الخارج مكانة هائلة بفضل كتابها، الا ان البلاط والحكومة لم يستفيدا من تلك المكانة لان الفكر الفرنسى كان مناوئا لنظام لويس الخامسعشر. وعلى هذا قوبل مجىء الملكالجديد بالترحيب لانه كان يمثل تغيرا على اية حال . ولقد بدأت فعلا فى فرنسا باعتلاء لويسالسادس عشر للعرشجهود متصلة صادقة بزعامة الملكية لتعديل طبيعة الحكومةوهدفها . وقد صادفت تلكالجهود بادىء الامر تأييدا حماسيا من الطبقات الحاكمة والمثقفة .ولكن عجز

الدولة المالى كان هو الباب الذىدخلت منه الثورة فعلا، ذلـــك أن الاجراءات التى اتخذت لمواجهة تكاليف حروب القرن الثامن عشر الكبرى كانت قد الفت بالنظام المالى لفرنسافى حالة من الفوضى ميئوس منها. وكانت الحاجة الرئيسية هى موازنة الدخل والمصروفات ولسوف يتبيـــن ان ذلك أمر صعب المنال مالم تتغيرنظم الحكم الفرنسية تغييرا كاملا.

ولقد عهد الملك الى تيرجو(١٧٧٤-١٧٧٦) بشئون فرنسا الماليـــة وكان تيرجو راغبا فىادخال الامانة والكفاية الى دوائر الخدمة العامـة ـ وتلك ثورة بحق ـ وعازما علىالحدمنسلطة الكنيسة الضخمة الى درجـة خطيرة وعلى ايجاد نظام عادل للضرائب وتوفير حرية التجارة داخـــل وخارج حدود المملكة. وقد انكب تيرجوعلى اعداد مشروعاته ،بغيـــرة وحماسة لافكارالعدالة والانسانية ، ولكنمقترحاته اثارت انزعاج الطبقات التى اشتمت فيها تهديدا لمصالحها فتآمرتعليه عصبة من افرادالبلاط ساهمت فيها مارى انطوانيت زوجة الملك النمساوية بدور . ولم يكـن للويس من قوة الشخصية ما يسمح له بمساندة وزيره بعد ان فقد محبـــة البلاط فأعفاه من منصبه وعين نيكر مراقبا للمالية بدلا منه.

وكان نيكر Necker (١٧٧٦-١٧٨١) مصرفيا بروتستانتيـــا فأثار تعيينه مراقبا للمالية بعضالصعوبات التى تم التغلب عليهـا بالرجوع الى حق الملك فىممارسة اختصاصاته وقد سهل هو بدوره الامـر على الملك بتنازله عنالمرتب المخصصللوظيفة. وقبل نيكر النظـــام المالى والادارى في فرنسا على علاته آملا فى ان تسير شئون الحكـم دون احداث تعديلجوهرى وذلك بالتوفير وعقد القروض التى يسرت له خبرتـه وسمعته المالية الحصولعليها بـفائدة اقل من ذى قبل . ولكن دخـــول فرنسا حرب الاستقلال الامريكية(١٧٧٨-١٧٨٣) افسدت عليه خطته فعمد الى الاستدانة وحاول ان يكسب ثقة البلادفنشر حسابات الميزانية التى كشفت

الستار عما تغص به المنح والعطايا للخدم والحاشية فلقي ما لقيه ترجو من المقاومة واضطر الى التخلص من مركزه لآخرين ترضى عنهم الحاشية مثل كالون .

ركب كالون Calonne (١٧٨٣-١٧٨٧) متن الشطط والاسراف حتى بلغ ما اقترضه فى ثلاث سنوات ٤٨٧ مليونا . ثم رأى نفسه تحت دين صارخ يزيد على المائة مليون وكان البرلمان يعارض فى عمل سلفه جديدة فلم يبق الا فرض ضريبة على جميع الاملاك بلا استثناء وفكر فى الوقت نفسه فى الاقتداء بسلفه نيكر وانشاء مجالس المديريات والغاء السخرة واحداث اصلاحات متنوعة . واجتمع "مجلس الاعيان" فى اوائل عام ١٧٨٧ وكان مؤلفا من كبار رجال الدولة فعارض فى مشاريع كالون بحجة الرغبة فى الوقوف على سبب العجز الحقيقى . وكان فى الواقع يميل الى رفض اى مشروع يمس الامتيازات فلم يكن من كالون الا ان نشر مذكراته الاصلاحية فى الجمهور وآلح فى وجوب مساواة الجميع فى الضرائب .

وقد عزل كالون بناء على امر الملكة فى عام ١٧٨٧ وخلفه الكاردينال دى بريين De واقترح دى بريين اللجوء الى السلطة الملكية لفرض الضرائب على الطبقات صاحبة الامتيازات وعارض البرلمان فى الموافقة على اية ضريبة جديدة وقال ان هذا من اختصاص "مجلس الامة" الذى لم يجتمع منذ عام ١٦١٤ . ولما اشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى اصبحت على شفا الافلاس اعلن الملك فى اغسطس عام ١٧٨٨ عزمه على عقد مجلس طبقات الامة ليكون عونا له على معالجة الازمة . استقال دى بريين واستدعى الملك نيكر ارضاء للرأى العام وتهدئة للخواطر ، وكلفه الملك بوضع نظام الانتخابات القادمة وفى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٨٨ وافق مجلس الملك على التقرير المقدم من نيكر فى نفس اليوم

وخصوصا دعوة مجلس الامة الى الاجتماع في ٥ مايو عام ١٧٨٩ وقد اشتمل التقرير على ما يلي :

١ — رد حق الموافقة على الضرائب الى الامة .

٢ — اجتماع مجلس الامة بطريقة نظامية يحددها المجلس نفسه .

٣ — تحديد النفقات ومرتب جلالة الملك .

٤ — عرض مسألة الارادات الملكية وحرية الصحافة على مجلس الامة .

٥ — انشاء مجالس مديريات في جميع نحاء المملكة .

٦ — مساواة الجميع في الضرائب .

٧ — مضاعفة عدد نواب الشعب في مجلس الامة .

وفي ٥ مايو عام ١٧٨٩ افتتح الملك لويس السادس عشر المجلس في قصر فرساي بحضور مندوبي النبلاء والكنيسة والعامة . وتعتبر هذه السنة بدء الثورة الفرنسية وعقد المجلس في حد ذاته ليس ثورة ، ولكن يمكننا ان نعتبره ثورة لان الملك ارغم على عقد المجلس من قبل الشعب والقى الملك في المجلس خطبة مبهمة ليس فيها اشارة ما الى الاصلاحات الموعودة مما اثار الشكوك في خطته . ثم حدث نزاع بين الطبقة الثالثة وطبقة النبلاء وطبقة الاكليروس اللتين تمثلان اصحاب الامتيازات على طريقة التصويت بالرأس او بالطبقة وكان ممثلو الشعب يريدون ان ... التصويت بالرأس وممثلو النبلاء والاكليروس بالطبقة جريا على التقاليد القديمة حتى تكون لهم الاغلبية بالمجلس ولما رأى نواب الشعب ان لا سبيل الى الاتفاق اعلنوا انفسهم جمعية وطنية في ١٧ يونيو وشرعوا في تنظيم سلطاتها وكان ذلك فاتحة القرارات الثورية . فعول الملك على عرقلة هذه الحركة وارسل في ٢٠ يونيو الجند لاغلاق ابواب غرفة الاجتماع فذهب الاعضاء واجتمعوا في " ملعب التنس " حيث اقسموا انهم لن ينفضوا وان يجتمعوا في اي مكان تدعو اليه الظروف حتى يضعوا الدستور ويوطدوه .

وفى ٢٣ يونيو دعيت الطبقات الثلاث الى القاعة العامة والقى الملك خطابا ضمنه الغاء القرار الذى اتخذه نواب العامة، وذكر الاصلاحات التى رأى وجوب بحثها لادخالها على نظم الحكومة، واعلن قراره بوجوب انفصال طبقات المجلس الثلاث عند المناقشة واخذ الاصوات وامر الاعضاء بالانفضاض وغادر القاعة، ولكن بقى نواب الشعب مكانهم حتى جاء رئيس التشريفات ليفضهم فقاوموه وقال ميرابو كلمته المأثورة "اننا هنا بارادة الشعب ولن نبرح مكاننا الا على اسنة الرماح" وفى اليوم التالى انضمت اغلبية القساوسة واقلية من النبلاء الى نواب الشعب فاصدر الملك الامر فى ١٧ يونيو باجتماع الطبقات معا والتصويت بالرأس فصارت الجمعية الوطنية منذ ذلك الوقت تمثل الامة تمثيلا قانونيا صحيحا .

وفى ٩ يوليو اعلنت الجمعية نفسها جمعية دستورية وتفرغت لاعداد الدستور بينما كان الباريسيون فى اضطراب ومظاهرات مستمرة، ولكن الحزب الرجعى وعلى رأسه الملكة واخوة الملك عول على القضاء على هذه الحركة الدستورية بالقوة واخذ يحشد الجند والعسكر الالمانى والسويسرى فى باريس وفرساى فتوجس الوطنيون خيفة وقلقوا على مصير الجمعية والدستور ثم مالبثوا ان فوجئوا بعزل نيكر نصير الاصلاح ونفيه فى ١١ يوليو عام ١٧٨٩ . وماكاد الشعب فى باريس يعرف بنفى نيكر حتى تحرك للثورة وهجمت الجماهير المسلحة على الباستيل فى ١٤ يوليو واستولت عليه . فكان هذا اليوم فاتحة الثورة، واخذ الشعب يعتد بقوته لان الباستيل كان حصنا يهيمن على اهم الاحياء الشعبية فى باريس وكان سجنا اكتسب شهرة عالمية بضحايا الظلم والاستبداد فكان اخذه انتصارا للثورة السياسية والحرية، وكان من جهة اخرى

حدا للثورة السلمية التي ابتدأت في ٥ مايو عام ١٧٨٩ وانقلب مجلس الامة في اثنائها الى جمعية وطنية (١٧ يونيو) ثم الى جمعية وطنية دستورية (٩ يوليو) .

ولاشك ان انتصار الشعب جعل القوة المادية في جانب الجمعية ومنذ ذلك الوقت اخذ النظام القديم الذي كانت قواعده الحكم المطلق والامتيازات يتداعى ويحل محله نظام جديد قائم على العدل والحرية والمساواة . فاعترف الملك بخذلانه واعاد نيكر ثانية ،وتألف في باريس في اثناء ثورة الشعب بلدية جديدة وحرس اهلي عهد برياسته الى القائد لافاييت ثم ما لبثت جميع مدن فرنسا ان اقتدت بباريس في انشاء بلدية وحرس اهلي وتألفت في العاصمة والمدن مجالس "كومون" وهي جمعيات ثورية قامت الى جانب البلديات فؤدارها ولعبت دورا كبيرا في الثورة . وفي ليلة ٤ أغسطس قرر بعض النواب النبلاء والقساوسة التنازل عن الامتيازات والحقوق الاقطاعية فوافقت الجمعية بحماسة لا توصف وقام في تلك الليلة مبدأ المساواة وانتصرت الثورة الاجتماعية وفي ٥ أكتوبر هاجمت جمهرة من الفرنسيين المطالبين بالخبز قصر الملك في فرساي وطالبوه بالحضور للاقامة في باريس واستسلم الملك ، وفي اليوم التالي غادر لويس السادس عشر فرساي التي اقترن اسمها اقترانا وثيقا بأمجاد الملكية الفرنسية ،قاصدا "التويلري" الذي كان فيما مضى قصرا لملوك فرنسا في العصور الوسطى ولكنه لم يعد الآن بالمكان المهيأ لاقامته . وقد كان دخول لويس قصر التويلري في باريس اول خطوة في طريق دخوله السجن فيما بعد ، ومن السجن الى المقصلة .

وتبعت الجمعية الملك الى باريس واستمرت عملية وضع الدستور دون توقف . واستقر الرأي اولا على وضع اعلان لحقوق الانسان يكون اساسا للدستور كله . وقد تمت الموافقة على هذا الاعلان في اول اغسطس

عام ١٧٨٦ رقد وضعت مبادئ حقوق الانسان على اساس تعاليم روسو، وجاء فى هذا الاعلان ما يلى :

ان ممثلى الشعب الفرنسى المجتمعين فى شكل جمعية وطنية اذ يؤمنون بأن تجاهل حقوق الانسان واغفالها وازدراءها انما هى الاسباب الوحيدة التى للنكبات العامة وفساد الحكومات قد عقدوا العزم على أن يسجلوا فى اعلان جليل حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التى لايمكن التنازل منها، حتى يكون فى هذا الاعلان الماثل على الدوام امام جميع اعضاء الهيئة الاجتماعية تذكرة مستمرة لهم بحقوقهم وواجباتهم وحتى تكتسب تصرفات السلطتين التشريعية والتنفيذية التى يمكن على الدوام مقاساتها بغايات كافة النظم السياسية المزيد من الاحترام لهذا السبب : وحتى تتجه دائما مطالب المواطنين القائمة من الآن فصاعدا على مبادئ بسيطة لا خلاف عليها، الى صيانة الدستور واسعاد الجميع.

ومن ثم فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن فى حضرة الكاهن الاعلى وبرعايته الحقوق التالية للانسان والمواطن :

١ - يولد الناس احرارا و متساوين فى الحقوق ويظلون كذلك والامتيازات الاجتماعية لا تقوم الا لمنفعة عامة .

٢ - هدف كل تشكيل سياسى هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية غير القابلة للبطلان وهذه الحقوق هى حق الحرية والملكية والامن ومقاومة الظلم .

٣ - الأمة مصدر السلطة الكاملة ولايجوز لأية جماعة أو فرد ممارسة السلطة مالم تكن مستمدة من الامة .

٤- الحرية تتمثل في السماح للفرد بأن يفعل كل مالايضر الآخرين

٦ - القانون هو تعبير عن الارادة العامة ولجميع المواطنين حق الاشتراك في وضعه بأشخاصهم أوعن طريق ممثليهم.

١٠- لايجوز ان يضار اى شخص بسبب آرائه ولو كانت آراء دينية على شريطة الا ينطوى الاعراب عنها على الاخلال بالنظام العام الذى يقيمه القانون.

١١- حرية تبادل الافكار والاراء هى من اغلى حقوق الانسان .

١٧- لا يجوز حرمان اى فرد من الملكية التى هى مقدس لا يمس الا اذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة نص عليها القانون .

ولقد ظل اعلان حقوق الانسان Beclaration og the Rights of Man طوال ربع قرن شعارا وميثاقا لجميع الثوريين ودعاة الاصلاح فى أوروبا وكانت هذه المبادىء الاساسية التى بنى عليها الدستور هى خلاصة فلسفة القرن الثامن عشر وقاعدة الدساتير الحديثة .

وكانت مهمة الجمعية بعد اعلان الحقوق الاشتغال باعداد الدستور وبناء النظام الجديد من الوجهتين السياسية والاجتماعية وقد قضى الدستور الفرنسى الجديد عام (١٧٩١) على النظم القديمة التى كانت سائدة فى فرنسا مثل نظام الاقطاع والاعفاء من دفع الضرائب ،واعاد تقسيم فرنسا اداريا ودينيا وهذه الناحية الاخيرة تأثرت بآراء المفكرين أمثال مونتسكيو وروسو اللذين لم يكونا يعتقدان فى الديانة المسيحية اعتقادا تاما ونص الدستور على ان تكون السلطة التشريعية فى يد مجلس نيابى

واحد ينتخب لمدة سنتين. بحيثلا يتجدد انتخاب احد الاعضاء مرتيـــن متواليتين ، وجعل الانتخاب على درجتين،كما جعل حقه مقصورا على من يدفعون قدرا معينا من الضرائبوبشرطالايقلسنالناخب عن خمسة وعشريـــن عاما. وخول الملك سلطة الاعتراض Veto اىحق عدم التصديق علـــى قرارات المجلس ، الا اذا اجازت تلكالقرارات ثلاثة مجالس متتاليـــة ووضع شرط حرم به علىاعضاء المجلس النيابى دخولالوزارة. كما خـول الدستور الملك حق تعيين الوزارةورياسة الجيش ، واعلان الحرب ، وعقد معاهدات الصلح -بشرط موافقة المجلس- والاشراف على القضاءوالادارة ، على ان هذا الاشراف كان عديم القيمة ، اذجعلت تلك الوظائف قائمة على اساسالانتخاب ،فاصبحت سلطتها مستمدة من الشعب لا من الملك .وهكـــذا جرد الملك من كل سلطة حقيقية وابقىلهظلها ،وبعد ان كان سيد البلاد اصبح خادمها الاول ،ومعهذا فلم يعطاية فرصة ليكون خادما نافعـــا. ووقع الملك الدستور واقسم يمين الولاء له وللوطن. وبذلك ظنالعالم ان زمنالثورةوالاضطراب فى فرنساقدانقضى ، وان البلاد توشكان يطلع عليها فجر جديد .

حلت الجمعية الوطنية نفسها بعد انوضعت الدستور وتطبيقـــا لنصوص الدستور اجتمعت الجمعية التشريعية فى اول اكتوبر عـــام١٧٩١ وانقسمت الجمعيةمنذ البداية الى ثلاثة احزاب وهى : حزب اليسارالـذى كان يجمع انصار اليعاقبة Jacobins المتطرفين وجماعة الجيروند Girondins وكانوا منالجمهوريينالمعتدلين وحزب اليمينالذى كان يتألف من الملكيين المعتدلين.وكان اول ما اتجهت اليه انظـــار الجمعية التشريعيةخطر الحربالتىتهددفرنسا. فقداجمعت دولاوروبـــا علىالدفاع عن حق الملوك الالهى وحقالاسرات اذخشيت تلك الدول انتشار مبادىء الثورة فى بلادها. وتضافرتعدة عواملجعلت الجمعية التشريعيـة

تعلن الحرب في ٢٠ ابريل عام ١٧٩٢ على امبراطور النمسا، شقيق الملكة ماري انطوانيت وانضمت بروسيا الى النمسا وكان طبيعيا ان تنهزم فرنسا في اول الامر. ولا ريب ان الحرب اصبحت العامل الاساس في الثورة منذ تلك اللحظة فصارت السياسة الداخلية خاضعة لها، والحرب هي التي اخرجت الثورة من حدودها الطبيعية ووطأت اكتاف الارهاب والدكتاتورية وفي ١١ يوليو عام ١٧٩٢ اعلنت الجمعية ان الوطن في خطر وكتب هذا الاعلان على رايات يحملها فرسان الحرس الاهلي في الطرق ودقت الطبول فتوافد المتطوعون من كل حدب وكان الشعب يزداد حنقا على الخونة واعداء الوطن ويطالب بخلع الملك خصوصا عندما اصدر برنسويك قائد جيش الحلفاء في ٢٥ اغسطس بيانه الذي هدد فيه باريس بسحقها كلها اذا اقتحم قصر التويلري واهين الملك واسرته.

وفي ٣٠ يوليو وصل باريس خمسمائة حرس من مرسيليا من خيرة الجمهوريين وكانوا يهتفون بالنشيد الذي وضعه الضابط روجيه دي ليل وهو المرسلييز الذي صار منذ ذلك الوقت نشيد فرنسا الوطني. وقد اكرم الباريسيون وفادتهم واخذ بعض زعماء الشعب يستندون الى هذه القوة ويطالبون الجمعية بخلع لويس السادس عشر، ولكن الجمعية وقفت حائرة بين الملك وقوى الثورة المنظمة ولكن في صبيحة ١٠ اغسطس هجم الثوار والحرس على قصر التويلري واقتحموه ومنه ذهبوا الى الجمعية وكان الملك قد لجأ اليها فاعلنت الجمعية الحال وقف الملك وانتخاب مؤتمر وطني La Gonvetion Nationale لوضع دستور جديد.

وانتخب المؤتمر بمقتضى قواعد جديدة وضعتها الجمعية التشريعية وعقد اولى جلساته في ٢٠ سبتمبر عام ١٧٩٢، فجلس الجيروند على اليمين ولم يكونوا اقل رغبة في الجمهورية من اليعاقبة، وانما جعلوا برنامجهم مكافحة لمطامع ذلك الفريق ونزعته الى السيطرة على البلاد، اما

اليعاقبة المتطرفون* فقد جلسوا الى اليسار وكانوا اقل عـــــددا ولكنهم اكثر كفاية واكبر جرأة .وجلس بين الفريقين جماعة عرفـــوا باسم السهل La laine وكانوا يتبعون رأى الفريق الذى ترجـــح كفته. وكانت فاتحة اعمال المؤتمر الغاء الملكية فى ٢١ سبتمبر عـام ١٧٩٢ واعلان الجمهورية. وقرر المؤتمر تقديم الملك للمحاكمة ،وصــدر قرار الادعاء فى ١١ ديسمبر متضمنا اتهام الملك بالتآمر ضد الامـــة وبامداد القوات التى اعدها المهاجرون فى الخارج بالمال وبمحاولـة قلب الدستور. وقد سمح له بممارسة حق الدفاع. ودافع عنه محاميـــوه دفاعا بليغا جسورا. ثم ادلى اعضاء الجمعية بأصواتهم جهرا الواحـد تلو الآخر، فأدين المتهم بالاجماع .وتقرر تطبيق عقوبة الاعدام بأغلبية صوت واحد لا أكثر . وفى ٢١ يناير عام ١٧٩٣ سيق لويس السادس عشـــر من السجن الى ميدان لويس الخامس عشر (الكونكورد) حيث نصبت المقصلة فصعد اليها بكل شجاعة واعلن على رؤوس الملأ" انه برئ وانه يعفـــو عن اعدائه ويرجو ان ينفع دمه الفرنسيين....." ولكن صفير رئيـــس الحزب الاهلى قاطعة بدوى الطبل قبل ان يتم كلامه .

وأصبح مصير الجمهورية كله متوقفا على نتيجة الحرب . فبعـــد اعدام الملك دخلت انجلترا الحرب وانضمت الى التحالف الدولى الاول ضـــد فرنسا ، ويعتبر هذا اخطر ضربة تلقتها فرنسا فى ذلك الوقت . وقـــد دفع انجلترا الى اتخاذ هذا الموقف العوامل التالية :

اولا- لم يقابل الانجليز بعين الارتياح الهجوم على الملكية الفرنسيـة واعدام الملك ، ووجدوا فى ذلك مناقضة لمبادئ الثورة .واستجاب الكثيرون من الشعب الانجليزى لآراء بيرك Burke الذى نـدد فى فصاحة رائعة بطبيعة الثورة واهدافها .

---

* كان اشهر زعمائهم دانتون وروبسبيير ومارا وديمولان

ثانيا: لم تعد الثورة الفرنسية مسألة داخلية صرفة تهم فرنسا وحدها، فالثورة قد خرجت من حدود فرنسا الى بلجيكا، واستولى الجيش الفرنسى عليها واعلن حرية الملاحة فى مصب نهر شلت Scheldt - وكانت انجلترا حريصة على اغلاق مصب ذلك النهر، حتى لا تنافس تجارته تجارة نهر التيمز، ولذلك وجدت انجلترا ضرورة التدخل فى الحرب .

ثالثا: لم تعد الثورة الفرنسية محلية صرفة، فعندما احرز رجال الثورة بعض النجاح فى صدهم لقوات الاعداء عند فالمى، اعلنوا فى ١٩ نوفمبر عام ١٧٩٢ قرارا بتأييد فرنسا لكل امة تطالب بحريتها اى ان فرنسا مستعدة للتدخل فى شئون الدول الاخرى وهذا مالا تقره الدول الاوروبية .

وهكذا اصبحت فرنسا فى حالة حرب ضد تحالف اوروبى يضم الدول الاوروبية العظمى (بروسيا والنمسا وانجلترا وبولندا وسردينيا واسبانيا). وهزمت فرنسا امام قوات هذا التحالف فى موقعة نيرفندن Nearwinden فى مارس عام ١٧٩٣ وكانت هزيمة الفرنسيين حيث اعتادوا النصر شيئا سيئا فى حد ذاته ولكن مما زاد الطين بلة ان قائدهم بدأ فى التخابر مع العدو على الفور. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سيصبح الخوف من خيانة الضباط من بواعث القلق الاولى عند الثوريين .

وبجانب هذا الخطر الخارجي، تعرضت فرنسا لنشوب قلاقل كبيرة فى الداخل، اذ قامت ثورة فى اقليم لافنديه Vendes فى الولايات الجنوبية لفرنسا، قام بها الاشراف ورجال الدين. وكان على رجال المؤتمر ان يفوضوا السلطة للجنة من العناصر المتطرفة فى فرنسا تسمى لجنة الامن العام Commitees of Public Safety وقامت الى

جانبها محكمة تسمى محكمة الثورة ، وبفضل هاتين الهيئتين قمعت الثورة بمنتهى الشدة والعنف وتمكن اليعاقبة وهم المسيطرون على الهيئتين السالفتين من التنكيل بزعماء حزب الجيروند، فقضوا عليه قضاء يكاد يكون تاما كحزب سياسى واستعان اليعاقبة على ذلك بتعضيد سكان باريس لان الجيروند كانوا يريدون وضع نظام للحكم لا تكون فيه باريس المسيطرة على الاقاليم الفرنسية ،اى ايجاد حكم لا مركزى بعكس اليعاقبة الذين كانوا يعتمدون فى قوتهم على غوغاء باريس ووصل عهد الارهاب Reign of Terror الى غايته فى فرنسا وتضاءل نفوذ المؤتمر وقل عدد اعضائه واصبحوا يخشون تهديد باريس واللجان التى كان فى يدها الحكم .

ويرجع الى دانتون الفضل فى انقاذ فرنسا مرة اخرى من الخطر الداخلى والخارجى وسيخلفه فى لجنة الامن العام روبسبيير ، وهو احد اتباع روسو، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد قام بدور هام فى الثورة، وكان رجلا مثاليا يريد انشاء دولة اساسها الفضيلة والسلام ومن الرجال الذين كان لهم فضل كبير فى انقاذ فرنسا كارنو Carnot الضابط الفرنسى الكبير الذى يكاد التاريخ لايعرف له مثيلا فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهيزها بكل معدات القتال، فلم يحل الحول حتى تحولت هزائم فرنسا الى انتصارات . فقد أوقف زحف الحلفاء على فرنسا ، ثم اتخذ الجيش الفرنسى خطة الهجوم فاكتسح الاراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) مرة ثانية ، واحتل ضفة الراين اليسرى واجبر الاسبان على التراجع الى ما وراء جبال البرانس وبذلك تحقق ماكانت تحلم به فرنسا من قديم وهو الوصول

الى حدودها الطبيعية . وهكذا فان سياسة فرنسا منذ ذلك الوقت حتى نهاية عصر نابليون ستقوم على الفتح والتوسع على حساب الغير دون أى اعتبار الى ماجاءت به الثورة من مبادىء انسانية رفيعة .

وبعد ان فرغ اليعاقبة من انتصارهم على العدو الخارجي بدأوا ينقسمون على أنفسهم، فريق دانتون وكان يرى الرجوع بفرنسا الى حالتها الطبيعية ونبذ سياسة الارهاب وسفك الدماء، خصوصا بعد ان تخلصت فرنسا من الخطر الخارجي. وفريق هيبير Hebert وشوميت Chaumette ، وكان يرى الاستمرار فى سياسة التطرف وسفك الدماء. وفريق روبسبيير الذى كان لا يتفق مع آراء كلا الفريقين. وقد أخذ شوميت على عاتقه القيام باصلاحات داخلية هامة فى فرنسا ، وهذه الاصلاحات لم تفد فرنسا وحدها ، بل افادت العالم أجمع ، كادخال النظام العشرى فى المقاييس والموازين وتسمية الشهور والايام بأسماء جديدة ، واحلال عبادة "العدل والحق" محل الدين الكاثوليكى الذى لم تستطع الثورة القضاء عليه ، ثم عدل هذا الدين الجديد الى دين الكائن الاعظم Etre Supreme

ولقد استطاع روبسبيير ان ينفرد بالحكم بعد ان قضى على حزب شوميت بمساعدة دانتون، ثم انقلب بعد ذلك على دانتون. ولقد ارسل اليعاقبة بعضهم البعض الى المقصلة واعتمدوا فى ذلك على غوغاء باريس، ولكن باريس سئمت الارهاب وكذلك اعضاء المؤتمر الوطنى .

وقام رجال المؤتمر بوضع دستور جديد لفرنسا سمى بدستور ١٧٩٥ يضمن لفرنسا الاستقرار الذى لم يتحقق لها فى ظل دستور عام ١٧٩١. ولكن اليعاقبة والملكيين قاموا بثورة ضده عرفت باسم

ثورة فاندميير Vendemiaire (اكتوبر ١٧٨٥) فقضى عليها نابليون. ووضع هذا الدستور السلطة التشريعية فى يد مجلسين مجلس الشيوخ وهو مجلس منتخب ويتكون من ٢٥٠ عضوا ولا يقل سن العضو فيه عن الاربعين. وكانت وظيفة هذا المجلس مراجعة قرارات المجلس الادنى ووقف مالا يتفق منها مع المصلحة العامة ومجلس الخمسمائة، ويتكون من خمسمائة عضو تزيد سنهم عن الثلاثين ويسقط ثلث عددهم فى كل عام، ووظيفته سن القوانين فحسبه وآلت السلطة التنفيذية طبقا للدستور الى مجلس ادارى يسمى باسم "حكومة الادارة" The Directory وتؤلف من خمسة أعضاء ينتخبهم الشيوخ من عشرة يقترحهم مجلس الخمسمائة، وكان يتعين سقوط عضو بالاقتراع وانتخاب آخر مكانه فى كل عام. وكان اعضاء حكومة الادارة يعينون الوزراء الذين كانوا فى الواقع وزراء اداريين خاضعين لهم، والقواد والسفراء، كما اعلن الدستور الجديد حقوق المواطنين فى الحرية والاخاء والمساواة، ولو انه حدد سنا معينا ونصابا معينا للانتخاب * .

---

* اشترط الا تقل سن الناخب عن ٢١ سنة وان يكون ممن يدفعون قدرا معينا من الضرائب وان يعرف القراءة والكتابة.

وسيساعد هذا الدستور بطبيعته على الحكم الاستبدادى الـــذى
سيظهر فيما بعد وهو حكم نابليون، وسيكون تاريخ فرنسا من عـــام
١٧٩٥ الى عام ١٨١٥ هو تاريخ نابليون، بل ان تاريخ اوربا مـــن
الناحيـــة الخارجية طوال هذه المدة سيكون تاريخا لنابليـــون
ايضا . فنابليون كان ابرز شخصية فى ذلك الوقت، وكان لظروف فرنسا
الفضل فى ظهور هذه الشخصية ، فأوقات الفوضى فى التاريخ كانـــت
دائما تظهر الشخصيات القوية التى تستأثر بالسلطة . فالفوضى مـــن
جراء الأرهاب وتدهور الصناعة والتجارة ، كل هذه كانت من العوامـــل
التى جعلت الشعب الفرنسى يتوق الى حكم رجل واحد يستطيع ان يمنـــح
فرنسا ما فقدته من نظام وأمن. وكذلك من الناحية الخارجية فكانت
الظروف غير مواتية لفرنسا . حقيقة ان لجنة الامن العام قد نظمـــت
داخلية فرنسا وضمنت لفرنسا النصر على التحالف الدولى الاول، لكن
وجود النمسا وانجلترا لايزال مهددا لفرنسا ، وقد استمرت الحرب بينها
مدة طويلة ولم تتمكن فرنسا من قهر عدوتيها القديمتين .

ومن ناحية اخرى لم تكن احوال فرنسا الداخلية مستقرة ،فدستـــور
١٧٩٥ لم يكن عاملا على اقرار النظام فى فرنسا والقضاء على اعدائها
فى الخارج. فالخلاف بين السلطتين التنفيذية والتشريعية كـــان
كبيرا . ولم تساعد كل هذه الظروف على استقرار الاحوال فى فرنســـا
وبدأ الشعب الفرنسى يتطلع الى حكومة نشيطة قوية . وهكذا ساعـــدت
هذه الظروف على تعلق الفرنسيين بنابليون. فبهرتهم انتصاراتـــه
الحربية فى ايطاليا ومصر. وكان نابليون بلا ريب رجلا خارقا فـــى
حدة ذكائه وقوة شخصيته ، ولن يتعذر على من كان مثله ان يشـــق

طريقه الى أسمى المناصب تحت أي ظروف وفي أي بلد. وكان نابليون يملك بالاضافة الى ذلك موهبة العبقرية التى تستعصى على التحليل وصعود نابليون الى مركز السلطة فى فرنسا اكثر بكثير من مجرد قصة رجل قدير يفوز لنفسه بمكانة سامية في العالم. ويعكس هذا الحادث كذلك احد القوانين العامة التى نستطيع ان نقتفى آثارها على سطح التاريخ. وبامكاننا ان نشاهد دائما فى التاريخ كيف تنتهى حقب الاضطراب والثورة باقامة حكم قوى غالبا ما يكون حكما فرديا. ومنذ عام ١٧٩٣ لم يكن لارادة الشعب واصوات المواطنين فى فرنسا القرار النهائى فى اية مسألة هامة تقريبا. فقد سقطت الملكية بالعنف وبالعنف قامت الجمهورية وبالعنف أنقذته وبالعنف صعد روبسبيير وبه سقط. لذلك اصبح من الطبيعى ان تحكم فرنسا آخرالامر بواسطة العنف فى أرقى صورة : لابوساطة غوغاء باريس الصاخبة وانما بوسائط كتائب فرنسا المدربة الظافرة. وهكذا فان ما اوصى به روسوفى "العقد الاجتماعى" عندما قال "ان قلبى يحدثنى بأن هذه الجزيرة الصغيرة (كورسيكا) ستذهل اوربا فى يوم من الايام يكاد يتحقق الان. اذ سينتهى المطاف بتلك الحركة التى بدأت بالرغبة المتوقدة بل الرغبة المغالية فى نيل الحرية الى قيام حكم دكتاتورى عسكرى. وعلى آية حال حاول نابليون ان يؤسس اسرة حاكمة من بعده، ونجح فى وضع بعض التقاليد وبعض الاسس واستفاد منها فى المستقبل ابن اخيه نابليون الثالث (١٨٤٨ - ١٨٧٠) .

الفصل الثاني عشر

فكرة التنظيم الدولي قبل القرن التاسع عشر

الفصل الثاني عشر

فكرة التنظيم الدولى قبل القرن التاسع عشر

تشمل العلاقات الدولية السياسة الدولية ، و التنظيم و الادارة الدوليتين ،والقانون الدولى. والمقصود باصطلاح " العلاقات الدولية " تلك العلاقات القائمة بين الدول المختلفة ،وتنقسم بدورها الى قسمين : علاقات سلم وعلاقات حرب . ففى حالة الحرب فالعلاقة علاقة عداء ،أما فى وقت السلم فقد تظهر العلاقات السياسية . وفى العصور القديمة والوسطى لم يكن هناك تمثيل سياسى ،وانما التمثيل السياسى الدائم هو وليد العصور الحديثة ،ووليد نشوء القانون الدولى و تطوره وكانت العلاقات بين الدول تتم فى العصور القديمة عن طريق البعثات و السفارات ،وربما تبع هذه العلاقات السياسية عقد اتفاقات تجارية ،أما نظام القناصل والسفراء فهو من نتاج العصر الحديث . وفى واقع الامر لم تنشأ علاقات دولية منظمة الا فى الوقت الذى أصبح فيه للدولة وزراء للخارجية بمعنى أنه أصبح للدولة سياسة خارجية معينة .

وقد عرف الفكر الغربى نهجين فى السياسة الخارجية منذ الثورة الفرنسية : النهج الايديولوجى و النهج

التحليلى . ويفترض الاول ان السياسات التى تعطفيهــــا الدول تجاه العالم الخارجى ـ هى تعبيرات عن المعتقـدات السياسية والاجتماعية والدينية السائدة ؛ فتصف السياسات الخارجية ديمقراطية واستبدادية و تحررية واشتراكيــة ومحبة للسلام أو عدوانية ،وهكذا ... ويفترض النهـــج الثانى ان للسياسة عدة مقومات منها تقاليد الدولـــة التاريخية وموقعها الجغرافى والمصلحة الوطنية وأهـداف الامن وحاجاته ،فعلى المراقب الذى يريد ان يفهم السياســة الخارجية ان يحيط بكل هذه المقومات وماهو اكثر منها .

وقد شهدت دراسة العلاقات الدولية رد فعل ضـــد المنهج الايديولوجي لانه يصور السياسة الخارجية وليـــدة السياسات الداخلية فيتجاهل عناصر الاستمرار فى السياســة الوطنية ويتناسى ان المتطلبات الموضوعية للمصلحـــة الوطنية تفرض قيودا على رجل الدولة الذى يتصدى لوضـــع السياسة الخارجية . أيا كانت نواياه وفلسفته الاجتماعية ونظرته الدينية فان هذا لايمكن ان يعميه عن مصالح أمته الاستراتيجية المنبعثة من وضعها الجغرافى و دورهـــا الدولى ولايمكن ان تصرفه عن مراعاة هذا الصالح اذا أراد المحافظة على استقلال بلاده . وهكذا كونت الدول الكبـرى سياستها من نتاج التفاعل بين وضعها الدولى المستمـــر

وبين تقاليدها وأنظمتها الدائمة وتابعت هذه السياسة لفترات طويلة من الزمن بالرغم مما تكون قد تعرضت له من تغيرات سياسية داخلية هامة . ويعنى هذا ان السياسة الخارجية تتطلب من صانعيها أن يراعوا ان المصالح التى يتعهدونها مصالح دائمة و تنظمها تسلسلية تجعل بعضها أقل أهمية من البعض الاخر . فهناك مصالح يجب الدفاع عنها بأى ثمن و مصالح تكون المحافظة عليها فى ظروف معينة ومصالح لايهم الدفاع عنها او المحافظة عليها .

وتهدف السياسة الخارجية لكل دولة عادة الى تحقيق احد هدفين : أما الاقناع واما الاخضاع . فان كانت تبغى الاقناع فوسيلتها الى ذلك هى الدبلوماسية والدعاية ذلك ان الدبلوماسية هى وسيلة اقناع الحكام ،أماالدعاية فهى سبيل اقناع الرأى العام . وان شاءت الاخضاع فطريقها الى ذلك هو القوة المسلحة ،والصورة القصوى لاستخدام القوة هى الحرب . وبذلك تتمثل الاساليب الكبرى لممارسة العلاقات السياسية الدولة فى : الدبلوماسية والدعاية والحرب . وتركز فى هذا المجال على توضيح لفظة الدبلوماسية Diplomatie - Diplomacy التى تطلق اصطلاحا على علم علاقات الدول الخارجية

وشؤونها الاجنبية . هذا هو مدلول الدبلوماسية الواسع ، اما مدلولها الضيق فهو فن التفاوض فيما بين الدول L'art des negciations Art of Negotiations وبالتالى فن التعامل الدولى ،وأساليب الدبلوماسية وغاياتها متنوعة متطورة ،ولقد كان ابرام المعاهدات بين الدول ولايزال فى طليعة هذه الاساليب . كما عرف تاريخ الدبلوماسية الحديثة نظام التحالف (الاحلاف) Le Systeme d'alliance - System of Alliances فى طليعة الوسائل الدبلوماسية ،فلقد كان ينظر له طوال القرن الثامن عشر باعتبار كبير تدعمه محرد فكرة الدفاع الطبيعى او قيام المصالح المشتركة او مجرد انتقال اسباب الخلاف بين المتعاقدين . فلقد كانت فرنسا - فى عهد فرنسوا الاول (١٥١٥ - ١٥٤٧) ومن بعده لاتتردد كلما اتاحت لها الظروف - فى الاستعانة بتركيا على النمسا واسبانيا .

ولقد أدى نظام التحالف والوفاق هذا بأوروبا الى أعظم النظم الدبلوماسية الحديثة شأنا ألا وهو نظام " التوازن الاوروبى " L'equilibre Europeen ذلك النظام الذى كان يهدف فى ظاهره الى حماية الدول الضعيفة من الدول القوية ،فلقد كان من مؤداه الاتعيير

دولة ما على درجة من القوة تظهرها على الدول الاخرى كلها أوبعضها مجتمعة فلا يغريها ذلك على التعدى والاستخفاف بسلام غيرها . وقد عمل مؤتمر فينا على اعادة التوازن الاوربى الى الصورة التى كان عليها قبل التوسع النابليونى الى سلام دائم لاوروبا بعد حروب نابليون الطويلة . فقد كان العمل على تحقيق توازن القوى Balance of Power فى صدارة موضوعات معظم المعاهدات الدولية السياسية وغاياتها فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر . ولما كانت المشكلة الحقة فى العلاقات السياسية الدولية هى مشكلة القوة ،فان العلاج التقليدى لمشكلة القوة جاء فى صورة " توازن القوى " ،و هكذا فان سياسة توازن القوى تهدف اساسا الى حفظ السلام او المساهمة فى العمل على اقرار حسن التفاهم الدولى. اذليس من مانع ان تقوم الحروب او ان تستخدم وسائل الاكراه لتحقيق التوازن فى القوى او هى - على حد تعبير المؤرخ ارنولد توينبى Arnold Toynbee نظام فن الديناميكية السياسية يمارس حينما يربط مجتمع نفسه بعدد من الدول المستقلة .

وقد أخذ مبدأ توازن القوى يلعب دورا لايستهان به فى السياسة الدولية منذ القرن السابع عشر و خاصة

منذ معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨. وقد أعلن للمرة الاولى في معاهدة أوترخت Utrecht عام ١٧١٣ بين اسبانيا وانجلترا ،ثم راح يتبوأ مكانه في الوثائق والمحادثات الدبلوماسية في فترة مؤتمر فينا . ففي معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ مايو عام ١٨١٤ جاء أن Une paix solide

fondé sur une juste répartition des forces

entre les puissances وظل مبدأ توازن القوى بعد مؤتمر فينا يعتبر قاعدة السلوك السياسي الكبير التي ينبغي على الدول التزامها بكل دقة ،فما كان لدولة ما أن تجرؤ على التنكر له ،ولاتكاد معاهدة من معاهدات الصلح التي أبرمت خلال القرن التاسع عشر تخلو من الاشارة الى ذلك المبدأ أساسا على أنه من بديهيات السياسة الدولية . بل ان الناظر في المعاهدات الكبرى التي أبرمت في تلك الفترة يلمس أنها جميعا قد اشتركت في العمل على تحقيق غاية واحدة هي ضمان التوازن . وفي سبيل تحقيق التوازن الاوروبي تمسكت اوربا بمبدأين يضيفان على التوازن الاستقرار الذي تسعى اليه وهما : مبدأ الشرعية La Principe de la legitimite

و فكرة التضافر الاوروبي Le Concert Europeen

وقبل ان نتعرض بالبحث فى الوسائل التى انتهجتها اوروبا لتطبيق مبدأ توازن القوى خلال القرن التاسع عشر تنبغى الاشارة الى تطور التفكير فى انشاء منظمة دولية سياسية ذات اتجاه عالمى تختص بالعمل على حفظ الامن والسلام فى العالم و تجنب الحروب التى تسبب اضرارا بالغة للغالب والمغلوب على حد سواء[1] . وربما كان الفيلسوف الصينى كونفوشيوس Confucius (٥٥١ الى ٤٧٩ ق.م) هو أول من فكر فى انشاء هيئة تشترك فى عضويتها الدول للتعاون من اجل الصالح الدولى العام ، اذ جاء فى كتاب Li - Ki الصينى المقدس ، انه كان يرى انشاء اتحاد كبير Grand Union لتحقيق التعاون الدولى ولاستغلال ثروات البشرية لمصلحة جميع الدول . ومنذ أوائل القرن السابع عشر وقبل ان تنتهى حروب الثلاثين عاما ، بدأ بعض المفكرين فى اوروبا ينادون بضرورة انشاء هيئة دولية تقوم على حفظ السلام ، وتشجيع التعاون بين مختلف الدول . ومن أوائل من راودتهم هذه الفكرة الفرنسى أمريك كروشيه Emeric Cruce de Paris فقد نشر فى عام ١٦١٣ مشروعا بعنوان "Le nouveau Cynee, óu Discours d'Etat representant les occasions et moyens d'etablir une paix generale, et la liberte de commerce par tout le monde".

---

(1) انظر: S.J. Hemleben, Plans for World Peace Through Six Centuries, Chicago: Univ. of Chicago press, 1943.

وتنحصر الفكرة الاساسية فى هذا المشروع فى المناداة بانشاء جمعية تضم ممثلين دائمين لكفاة الدول ،بما فى ذلك الدول غير المسيحية مثل الدولة العثمانية واليابان، تحتمع فى مدينة معينة ،وتختص بالفصل فيما قد ينشأ بين الدول المختلفة من منازعات . ولما كان كروشيه يكره الحرب ،فقد استقصى فى كتابه أسبابها وحلل بواعثها وأرجعها الى أربعة عناصر :

١) رغبة بعض الدول فى اظهار شجاعتها لتخشى الدول بأسها

٢) محاولة الملوك والامراء ان يستردوا مافقدوا من اقاليم أو مدن .

٣) رغبة بعض الحكام او الامراء فى تمرين جيوشهم خوفا من ان يكون السلام سببا من أسباب فتور العزائم وتفشى الجبن بين أفرادها .

٤) كراهية الشعوب لبعضها بسبب التعصب الدينى .

كما نادى الدوق سلي de Sully وزير هنرى الرابع ملك فرنسا ،فى مذكراته المنشورة عام ١٦٣٨،بمشروع نسبه الى سيده Le grand dessein du roi Henri IV يهدف اساسا الى انشاء مجلس لاوروبا Un conseil generāl de l'Europe

يتمتع ببعض الاختصاصات القضائية و الادارية للقيام بفض المنازعات الدولية بالطرق السلمية ،ومنع قيام الحروب وراى سلبى ان يتكون ذلك المجلس من العناصر التالية :.

١) الدول ذات النظام الملكى الوراثى مثل : فرنسا وانجلترا و الدانمرك والسويد ،

٢) الدول التى تخضع لنظام ملكى مثل : الولايات البابوية ، والامبراطورية الرومانية المقدسة وبولندا بوهيميا ونابولى .

٣) الدول التى تخضع للنظام الجمهورى وهى : سويسرا والاراضى المنخفضة والبندقية وسردينيا والولايات الايطالية الشمالية .

وقد رأى المؤيدون لسلي انه لو طال أجل الملك هنرى لمدة سنتين لتحقق مشروعه فعلا . ولكن دراسة المشروع تبين صعوبة تنفيذ مثل هذا المشروع الخيالى فى مثل الظروف التى كانت تمر بها اوروبا فى ذلك الوقت . ومهما كان الامر فلقد أبرز هذا المشروع أمرين لهما شأن كبير فى التنظيم الدولى و هما : اللامركزية والمساواة بين أعضاء التنظيم .

و نجد كذلك في بعض كتابات هوجو جروسيوس Hugo Grotius,

المعروف بأبى القانون الدولى ،دعوة صريحة الى عقد مؤتمرات دولية من الدول المسيحية لفض ماقد ينشأ بينها من منازعات وخلافات ،وفقا لمبادىء العدل والانصاف وكتب جروسيوس يقول :[1]

" It would be advantageous indeed in a degree necessary, to hold certain conferences of Christian powers, where those who have no interest at stake may settle the disputes of others, and where in fact, steps may be taken to compel parties to accept peace on fair terms."

وقد ساعد على انتشار نظريات جروسيوس التى أثبتها فى كتابه De Jure Belli et Pacis عام ١٦٢٥م وعلى قبولها فى ذلك الحين أنه أخذ فى بحثه مواضيع القانون الدولى العام بنظريات كانت موضع احترام وقبول المفكرين فى ذلك العصر .

و بعد مايقرب من ثلاث وعشرين عاما من ظهور أبحاث جروسيوس ،قضت معاهدة وستفاليا على فكرة وجود رئيس اعلى للشؤون الدولية وأحلت محلها فكرة وجود عائلةدولية أعضاؤها دول مستقلة متساوية لاتخضع لاى رئيس وانما

---

(1) L.Claude, Jr., Swords into Plowshares, The Problems and progress of international organisation,N.Y., 1950, P. 23.

تربطها بعضها بالبعض المصالح المشتركة ووجوب اتباع قانون يسرى عليها جميعها . ولذلك تعتبر معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ النقطة التىابتدا منها القانون الدولى العام الحديث . ويتلخص اهم ماجاء فى هذه المعاهدة من تيارات فكرة حديثة فيما يلى :

١) كانت معاهدة وستفاليا أول مؤتمر اوروبى انعقد بمحض رضى الدول المشتركة فيه لتنظيم شؤونها ولحل المنازعات والمشاكل الدولية التى كانت قائمة بينها فهى التى خلقت الجماعة الدولية وجعلت منها هيئة تشعر بوحدة المصلحة .

٢) سوت معاهدة وستفاليا بين الدول جميعا . الجمهورية منها والملكية ، الكاثوليكية والبروتستانتية ولو ان الوقت لم يكن قد حان بعد لان يسوى بين الدول المسيحية و غيرالمسيحية . ونزعت من الدول الاوروبية نير السيادة الدينية البابوية كذلك . و بذلك قضت على فكرة وجود رئيس أعلى يسيطر على الدول جميعا ،وهذا واضح من اشتراك الدول البروتستانتية و الدول الكاثوليكية فى هذا المؤتمر على قدم المساواة .

٣) طبقت المعاهدة سياسة التوازن الاوروبى محافظة على السلم فى اوروبا ،ولكن لم يأت ذكر التوازن الدولى صراحة ضمن عبارات المعاهدة كما جاء فى معاهدة اوترخت التى تلتها ،وانما ينفح تطبيقها للنظرية مما قرره المؤتمر من استقلال ٣٥٥ دولة كانت تكون الامبراطورية الرومانية و من منع اتحاد المانيا مع النمسا . ولقد سيطرت فكرة التوازن الدولى - كما سبق ان اوضحت - على السياسة الدولية منذ ذلك الوقت ،وحتى قيام الثورة الفرنسية ،فهى آثارت حروب ذلك العصر وهى أول ما كان يناقش فيه عند انعقاد مؤتمرات الصلح .

٤) استبدلت معاهدة وستفاليا نهائيا نظام السفارات المستديمة بنظام السفارات المؤقتة ،وكان هذا النظام الاخير هو المتبع الى ذلك الحين . وفى ايجاد السفارات المستديمة مايحكم الروابط بين الدول بعضها مع بعض ،ويؤكد استمرار التشاور والتفاهم بينها فى المسائل الدولية .

ومن المشروعات الجديرة بالذكر فى مجال اقامة تنظيم دولى مشروع المفكر الانجليزى وليم بن William Penn وقد تعرض لشرحه فى مؤلف اصدره عام ١٦٩٢ تحت عنوان " An Essay Towards Present and Future Peace

"of Europe ويشبه هذا المشروع الى حد بعيد ،مشروع كروشيه السابق الاشارة اليه ،الا ان بن يرى تمثيل الدول فى الجمعية او المجلس المقترح بعدد من الممثلين يتناسب ومقدار الدخل القومى او التجارة الخارجية لكل منهما وقد تضمن كتابه الاراء التالية :

١) أن يقوم بين الدول الاوروبية اتحاد مصدره الاخاء والحب المتبادل بين كافة الشعوب . ويتم ذلك بمنع التنافس فى التسلح ،على ألا يكون هذا المنع ماسا بالشؤون الداخلية لاية دولة ،أو متعارضا مع سيادتها او ضارا باقتصادياتها .

٢) يقوم بمعاونة الاتحاد فى أداء هذه الرسالة برلمان مؤلف من الدول الاوروبية يتولى وضع القواعد العادلة التى يلزم الحكام بمراعاتها . ويتولى هذا البرلمان امر الفصل فى كل ماينشب من خلاف بين الدول ،وتصدر قراراته بأغلبية ثلاثة أرباع الاصوات .

٣) يتألف هذا البرلمان من تسعين عضوا ،وتكون كل دولة ممثلة فيه بأعضاء حسب قوتها ،فيكون للإمبراطورية الالمانية اثنا عشر عضوا ،ولفرنسا عشرة أعضاء ولاسبانيا عشرة ،ولانجلترا ستة ،ولكل من السويد وهولندا أربعة وهكذا.

٤) لم يذكر فى مشروعه شيئا عن الوسائل التى يجب اتخاذها ضد كل دولة لاتنفذ قرارات برلمانه المقترح واكتفى بأن تكون " قوة الراى العام " هى العامل القوى فى تنفيذ قرارات البرلمان .

ومن أجدر المشروعات بالاهتمام كذلك مشروع القس الفرنسى سان بيير Saint - Pierre المنشورعام ١٧١٣ تحت عنوان
Projet pour etablir la paix perpetuelle en Europe

ويرمى هذا المشروع الى منع الحروب ،ومحاولة حل المشاكل الدولية بالطرق السلمية عن طريق التوفيق او التحكيم وذلك بانشاء منظمة اوروبية تسمى Senat de l'Europe تقوم على تحقيق هذه الاهداف . وتمكينا لهذه المنظمة من أداء مهمتها ،اقترح المشروع تزويدها بقوة بوليس دولية تتكون من كتائب تمدها بها الدول الاعضاء لتعمل بعد وضعها تحت تصرف المنظمة وفقا لاوامر هذه الاخيرة وحدها - وواضح مافى هذا المشروع من ثورية وطموح لايتفقان البتة و ظروف المجتمع الدولى المعاصر لنشره ولقد اثبت سان بيير بلباقة ان توازن القوى لايمكن ان يؤدى الى استتباب السلام ،لان الدول غير متساوية ،ولذلك يكون كل توازن عرضة للاختلال بسبب مطامع

بعض الملوك او الامراء ، اوبسبب الانقلابات الداخليـــــة .
وليس السلام فى راية وليد توازن القوى ،ولكنه على العكس
يتولد من عدم توازن القوى ، ويفسر هذه الفكرة تفسيـــرا
معناه ان تكون كفة الدول المحبة للسلام أرجح من كفـــة
الدول العدوانية ،وبهذا تتمكن الدول المحبة للســـلام
من رد أى عدوان يقع عليها . ولايتم ذلك الا باقامـــة
اتحاد بين الدول الاوروبيـة .

ولايقل عن هذا المشروع فى الاهمية ماقترحـــه
الاقتصادى البريطانى الشهير جرمى بنتام Jeremy
Bentham فى كتاباته العديدة المنشورة خلال الفتـــرة
من ١٧٨٩ الى ١٨٢٨ من انشاء محكمة تحكيم ذات طابع سياسى
تتكون من ممثلين لكافة الدول تختص بالفصل فى كافـــة
ماينشأ بين أعضاء المجتمع الدولى من منازعات علـى ان
يضمن تنفيذ قراراتها تعهد الدول الاعضاء سلفا بمقاطعـة
أية دولة لاتستجيب القرارات الصادرة فى مواجهتهـــا
بل وباستخدام القوة المسلحة ضدها اذا لم تجد المقاطعـة
السياسية او الاقتصادية فى حملها على الخضوع . ومـــن
أهم ماتعرض له بنتام قضية السلام التى درسهافى كتابـــه
Principles of international law (١٧٩٣)
وجعل عنوان البـاب الرابع فى هذا الكتاب " مشروع لســلام

عالمى دائم " A Plan for an universal and pexpetual peace واقترح بنتام لتحقيق هذا المشروع الخطوات التاليـــة :

١) تخفيض تسليح كافة الدول .
٢) تحرير جميع المستعمرات وجلاء المستعمر عنها
٣) مكافحة المعاهدات السرية ،والديبلوماسية الخفيـــة لانهما تعكران صفو السلام والحرية ،ولاتتفقان مـــع قضاياهمـــــا .
٤) تشجيع تبادل التجارة بين مختلف البلدان .
٥) انشاء محكمة عدل دولية تفصل فى الخصومات ،ولكـــن ليس لها أن تفرض عقوبـــات .
٦) تكوين مايسمى " ديت " أى هيئة دولية مكونة مـــن نائبين عن كل دولة . وتكون المناقشات فى تلـــك الهيئة علنية ليكون الراى العام العالمى على علـــم بقضاياه ،وليدافع عن السلام والامـــن .

وفى عام ١٧٩٥ نشر الفيلسوف ايمانويل كنت Emmanuel Kant بحثا أسمـــــاه " Zum Ewigan Frieden " أى السلام الدائم . وقدوضع فيه مبادىء لحكم العلاقات بين الدول ،وذكر ان مراعاة هذه المبادىء يترتب عليهـــــا ابعاد احتمال نشوب الحرب . وتتمثل هذه المبادىء فى :

١) الغاء جميع المعاهدات او الاتفاقات الدولية التي تكون مشتملة على تحفظات او شروط يصح ان تكون نواة الحرب ، او تتضمن مشروع اقامة حرب مقبلة .

٢) لايجوز لاى دولة ان تتملك اقليما من اقاليم دولة اخرى ولو كان هذا التملك عن طريق الهبة أو التبادل او الشراء .

٣) وجوب تسريح الجيوش المنظمة لان من شأنها الحط من قدر الانسان وكرامته .

٤) تحريم القروض الاجنبية نظرا لما تثيره من مشاكل وباعتبارها عقبة كبيرة فى طريق السلام الدائم.

٥) تحريم التدخل فى شؤون الدول الاخرى .

٦) منع المحاربين من استعمال وسائل غير مشروعة قد يترتب على استعمالها فقدان الثقة بعد انتهاء الحرب وعند عقد معاهدة السلام .

ومن دراسة المشروعات السابقة يتضح انها باستثناء مشروع Cruce[!] يقتصر نطاقها على الدول الاوروبية ، ومن ثم فليس لها الطابع العالمى الذى يميز المنظمات الدولية فى الوقت الحاضر . كما يتضح أن هذه المشروعات كانت فى مجموعها تغلب عليها الصفة السياسية او الدينية اوكتبت تحت تأثير احداث سياسية معينة عاصرها كاتبوها ولذلك

فانه من الصعب الاخذ بفكرة وجود اى صلة تاريخية بين هذه المشروعات وبين المنظمات الدولية السياسية التى نجحت الدول فى اقامتها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى فلم تتعد هذه المشروعات الدائرة النظرية التجريدية ولم تحدث أى تأثير فى سير الاحداث او تصرفات الدول على نحو يمكن معه القول بأنها كانت حلقة فى السلسلة الطويلة التى مهدت لقيام المنظمات الدولية السياسية ولم تقتصر المدرسة المثالية الخيالية فى عالم السياسة والعلاقات الدولية على المفكرين الاوروبيين ، بل ظهرت مشروعات مماثلة لها لدى فلاسفة المسلمين ومفكريهم فنشر ابو نصر الفارابى[1] فى منتصف القرن العاشر كتابه " آراء اهل المدينة الفاضلة " دعا فيه الى ضرورة اقامة اتحاد بين دول العالم ، وقد آشار فيه الى مابين مختلف شعوب العالم من تضامن فقال : " ان الانسان لايمكن ان ينال الكمال الذى لاجله جعلت له الفطرة الطبيعية الا باجتماع جماعة كثيرة متعاونة الافراد يقوم كل واحد منهم للآخر ببعض مايحتاج اليه فى قوامه . ثم قسم المجتمع الانسانى الى مجتمعات كاملة وغير كاملة ،وقسم

---

(١) ولد بمدينة فاراب احدى مدن البلاد التركية ،واستقر فى العراق ،ثم قدم الى حلب واتصل بسيف الدولة الحمدانى . ولقد تأثر الفارابى بجمهورية أفلاطون تأثيرا كبيرا ،ومات بدمشق عام ٩٥٠م .

الكاملة الى ثلاثة أنواع وهى : العظمى ، الوسطى ،والصغرى وعرف العظمى بأنها " اجتماعات الجماعة فى المعمـورة " ثم قال : " والاجتماع الذى به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل . والامة التى تتعاون مدنها كلهـا على ماتنال بـه السعادة هى الامة الفاضلة . كذلك المعمورة الفاضلة انما تكون اذا كانت الامم التى قام فيهـا يتعاونون على بلوغ السعادة " وفى أواخر القرن التاسع عشر دعا الكواكبى (١٨٤٩ - ١٩٠٢) فى كتابه " أم القرى" " الى انشاء اتحاد بين الشعوب الاسلامية " وقد سمـاه الكواكبى " إم القرى " " لانه فرض ان هذه الآراء وضعت على بساط البحث فى مكة ،وتباحث فيها المؤتمرون الذيـن يمثلون اقطار الامم الاسلامية فى أرجاء العالم ،وتـم استعراضها فى اثنيتى عشرة جلسة ،تناولت أحوال المسلمين واسباب فتورهم وانهيار قواهم ،وجعل شعار المؤتمرين " لانعبد الا الله ".وقد ناقش الكواكبى اتحاده المقترح فرسم مبادئه العامة ،وفصل شروط العضوية فى الاتحـاد والهيئات العاملة . واذا كانت افكار الكواكبى لم تخرج الى حيز التنفيذ فى وقته ،فقد نفذت فيما بعد فـى شكل الجامعة العربية ،والمؤتمر الاسلامى ،و الكتلـة الافريقية الآسيويـة .

وهكذا ظلت فكرة المجتمع الدولى فيما قبل القرن التاسع عشر مجرد آراء يدلى بها الكتاب والفلاسفة ولم تظهر المحاولة الاولى الجادة لاقامة تنظيم دولى الا بعد الحروب النابليونية ،فمنذ ذلك الوقت طرأ تغيير كبير على العلاقات الدولية . فقد بدأت الدول تشعر بضرورة التعاون فيما بينها وبذل الجهود المشتركة لتنظيم المرافق الدولية على النحو الذى يهيىء استغلالها على الوجه الاكمل ويكفل انتفاع جميع الدول بها . فقد ترتب على الثورة الصناعية تقريب المسافات بين اجزاء العالم المختلفة ،وازدياد الترابط الاقتصادى بين الدول بحيث اصبحت كل دولة تعتمد على غيرها فى الحصول على جزء كبير مما تحتاج اليه من السلع ،وان تصدر الى العالم الخارجى جزءا من فائض سلعها و خدماتها و اصبح من الصعب على أية دولة بل من المتعذر عليها ان تعيش فى عزلة عن باقى الدول . وهكذا بدات فكرة المجتمع الدولى تفرض نفسها فلم يخرج التنظيم الدولى الى الوجود على يد أنبياء رأوا فيه الوارث الشرعى للدول ذات السياد بقدر ما خرج على يد رجال سياسة بحثوا عن ترتيبات ووسائل جديدة تستطيع الوحدات ذات السيادة بوساطتها ان تتابع مصالحها وتدير شؤونها فى الاوضاع المتغيرة لعصر المواصلات والحركة الصناعية .

الفصل الثالث عشر

الاتحاد الأوربى فى القرن التاسع عشر

- معاهدة باريس الاولى (١٨١٤) .
- مؤتمر فينا (٨١٤ - ١٨١٥) .
- معاهدة باريس الثانية (١٨١٥) .
- التحالف الرباعى (١٨١٥) .
- الحلف المقدس (١٨١٥) .

الفصل الثالث عشر

الاتحاد الاوروبى فى القرن التاسع عشر
(The Concert of Europe)

كان المؤتمر الذى عقدته الدول الاوروبية فى مدينة فينا عام ١٨١٤ هو نتيجة غير مباشرة للثورة الفرنسية التى قامت فى اواخر القرن الثامن عشر وللحروب المروعة التى أدت اليها تلك الثورة . فبوفاة لويس الرابع عشر فقدت فرنسا الكثير ، اذ تولى عرشها ملوك ضعاف ليسوا فى مقدرة لويس الرابع عشر السياسية او الحربية . وكلما كانت الملكية الفرنسية قادرة على انتزاع النصر من أيدى الدول المعادية لها كلما أحبها الشعب و تعلق بها . ولكن حينما أثقلت الملكية كاهل الشعب بالمفروضات والضرائب الباهظة فقدت محبة الشعب لها ، وكان عليها ان تسلك احد طريقين : اما ان تغير من سياستها ، او ان تذهب الى غير رجعة . ولم يكن فى استطاعة الملكية ان تغير من سياستها ، فلويس السادس عشر كان ضعيفا ولم يتحمل المسؤولية . حقيقة انه أظهر بعض النوايا الطيبة نحو اصلاح حال الشعب ، ولكن الطبقات صاحبة الامتيازات رفضت كل التنازلات . ولقد بدات الثوة فعلا بتدمير الباستيل فى يوليو عام ١٧٨٩ ، و أخذ الشعب يراقب الملك ، وفسروا أعماله بأكثر مما تحتمل ، وازدادت الرغبة فى مجيئه الى باريس ليكون تحت مراقبتهم . فقامت مظاهرة

الى فرساى فى ٥ اكتوبر عام ١٧٨٩ أجبرت الملك على العودة الى باريس حيث اصبح فى حقيقة الامر سجين الثورة • وحاول الملك فى عام ١٧٩١ الهروب مع عائلته من سجنه ولكن قبض عليه عند فارن و أعيد الى العاصمة وأصبح تحت رحمة مجلس طبقات الامة •

وقامت بعض المفاوضات نيابة عن الملك مع عدد معين من الدول الاوروبية (وهى النمسا واسبانيا وبعض الدول الاخرى) للتعاون العسكري مع الجيش الملكى لاعادة الهدوء الي فرنسا • ورغم عدم اكتمال هذا المشروع فقد تكون في عام ١٧٩٢ تحالف من الدول الاوربية ،وأعلنت دول التحالف الاوروبي الاول الحرب عليها فى عام ١٧٩٣• ويرجع تكوين هذا التحالف ضد فرنسا الى العوامل الآتية :

١) لم يقابل الانجليز بعين الارتياح الهجوم على الملكية الفرنسية وقتل الملك ،فوجدوا فى ذلك تناقضا لمبادىء الثورة الفرنسية •

٢) لم تعد الثورة الفرنسية مسألة داخلية صرفة تهم فرنسا وحدها ،فالثورة قد خرجت من حدود فرنسا الى بلجيكا ،واستولى الجيش الفرنسى عليها و أعلن حرية الملاحة فى مصب نهر شلت Scheldt وكانت انجلترا حريصة على اغلاق مصب هذا النهر

حتى لاتنافس تجارته تجارة نهر التيمز ،و لذلك وجدت انجلترا ضرورة التدخل فى الحرب .

٣) لم تعد الثورة الفرنسية محلية صرفة ،فعندما أحرز رجال الثورة بعض النجاح فى صدهم لقوات الاعداء (فالى) اعلنوا فى ١٩ نوفمبر عام ١٧٩٢ قرارا بتأييد فرنسا لكل أمة تطالب بحريتها ، أى أن فرنسا مستعدة للتدخل فى شؤون الدول الاخرى ،وهذا مالاتقره الدول الاوروبية .

لقد بدأت الحرب الفرنسية الكبرى عندما غزت قوات النمسا وبروسيا فرنسا ،وتمكنت جيوش الثورة من صد هذه القوات ،وتم الاستيلاء على ولاية الفلاندرز و كل ولايات الاراضى المنخفضة ماعدا Luxemburg وقام الجنرال الثورى كوستين Custine ببعض العمليات العسكرية الناجحة فى المانيا ،كما استولى الفرنسيون ايضا على سافوى . وشجع نجاح كوستين فى المانيا مجلس طبقات الامة على العمل من أجل الحصول على فتوحات اكثر . وفى النهاية انفرط عقد التحالف الاوروبى الاول بسبب انقسام الاعداء على أنفسهم بخصوص تقسيم بولندا مرة اخرى فى عام ١٧٩٣ ،فعقدت بروسيا الصلح منفردة مع فرنسا متأثرة بتقسيم بولندا دون ان يكون لها

نصيب فى الغنيمة (صلح بال فى ٥ ابريل ١٧٩٥) و كذلك اسبانيا التى خشيت من عبور القوات الفرنسية لاراضيها (٢٢ يوليو ١٧٩٥) . وفى عام ١٧٩٧ عقدت فرنسا صلحا مع النمسا يعرف باسم صلح كامبو فورميو . ولما كانت فرنسا تعلم ان اوروبا لابد وان تقوم بحرب اخرى ضدها بدا ت تعمل على تقوية نفوذها فى البلاد المفتوحة ،وعلى انشاء جمهوريات موالية لها فى البلاد المجاورة (فى هولندا وسويسرا وبيد مونت ونابولى والولايات البابوية) ورأت الدول الاوروبية ضرورة وضع حد لاطماع فرنسا ،فتكون فى عام ١٧٩٩ التحالف الاوروبى الثانى من انجلترا والنمسا والروسيا وتركيا . وانتهى هذا التحالف بتوقيع معاهدة اميان Amiens فى ٢٥ مارس ١٨٠٢ ،ولكنها فى الواقع لم تكن نهاية الحرب بين انجلترا وفرنسا ،ففى عام ١٨٠٥ استطاع بت Pitt وزير خارجية انجلترا تكوين حلف اوروبى ثالث ضد فرنسا من الروسيا والنمسا والسويد ،وتمكن نابليون بونابرت من اقناع بروسيا بالوقوف على الحياد فى هذه الحرب نظير منحها مقاطعة هانوفر . وكانت الاهداف المعلنة لهذا التحالف هى اعادة فرنسا الى حدودها القديمة ،ودعوة مؤتمر لتسوية المسائل الدولية المختلفة التى نشأت اثناء الحرب واقامة نظام فيدرالى للمحافظة على السلام فى اوروبا

وهذا الهدف الاخير يسترعى الانتباه بصفة خاصة ،فهو يبين لنا ان فكرة ايجاد آساس مستقر ما للمحافظة على النظام فى اوروبا قد خطرت فى الاذهان حتى فى تلك الفترة المبكرة اثناء الصراع مع نابليون • ولسوف نشاهد كيف ان تلك الفكرة هى التى نشأ عنها ماعرف بالحلف المقدس اثر سقوط نابليون •

ولقد استمرت الحرب حتى عام ١٨١٤ ،وفى النهاية دخلت الدول الاربع الكبرى : النمسا وانجلترا وبروسيا وروسيا ،فى محالفة عظمى بموجب معاهدة شومون Chaumont فى ٩ مارس ١٨١٤ • فقد تعهدت الدول الموقعة على تلك المعاهدة بتوحيد جهودها فى محالفة مدتها عشرون عاما واتفق رأيها اولا على اسقاط نابليون ثم الحيلولة دون عودته هو وأسرته الى فرنسا ،واخيرا على ضمان التسوية الاقليمية التى تضعها الدول المتحالفة لمدة عشرين عاما وقد كان اثر المحالفة مباشرا ،فقد قرر الحلفاء ولم ينقض شهر مارس اعادة آل بوربون الى فرنسا ،واحتلوا باريس بالفعل فى ٣١ مارس ١٨١٤ • وفى ابريل تنازل نابليون عن حقه وحق اسرته فى العرش ،فجلس الحلفاء ليشكلوا خريطة اوروبا من جديد وفقا لاهوائهم • وفى ٣ مايو ١٨١٤ دخل لويس الثامن عشر باريس بينما أبعد

نابليون الى جزيرة البا فى اليوم التالى ،وعندئذ بدات المفاوضات بين لويس الثامن عشر والحلفاء لعقد معاهدة باريس الاولى . ولما كان الموقعون على معاهدة شومون قد اتفقوا على عقد اجتماعات دورية لتاكيد التفاهم وتوثيق الصلات الودية فيما بينهم ،فان المعاهدة قد تضمنت ايضا اساس نظام المؤتمرات التى عقدتها الدول الكبرى وهى المهمة التي اضطلعت بالقيام بها وكان مؤتمر فينا نفسه أول وأهم هذه المؤتمرات التى عقدتها الدول لهذه الغاية ،وان لم يكن آخرها .

معاهدة باريس الاولى (٣٠ مايو ١٨١٤)

: The First Treaty of Paris

وقعت معاهدة الصلح الاولى فى باريس فى ٣٠ مايو ١٨١٤ ،وقعها تاليران عن الملك الفرنسى وممثلو النمسا وروسيا وبريطانيا وبروسيا . وأعلنت المادة الثانية ان حدود فرنسا لابد وأن تظل كما كانت عليه فى ١ يناير عام ١٧٩٢ مع بعض التغييرات المعينة ،وهكذا لم يتقرر عودة حدودها فى اوروبا الى ماكانت عليه عام ١٧٨٩ . كما تعهدت المعاهدة بالاعتراف بكل الترتيبات التى يتفق عليها الحلفاء بشأن الاقاليم التى تخلت عنها فرنسا و النظام الذى سوف ينجم عن هذه الترتيبات ليكفل

التوازن الحقيقى و الدائم فى اوروبا .واما هذه الترتيبات المنتظرة فكان قد تم تقرير المبادئ التى تقوم عليها بحيث تتألف من الاراضى المنخفضة دولة واحدة تجمع بين بلجيكا وهولندا ،وان تسترجع النمسا كلا من لمبارديا والبندقية وان تستقل المانيا ،ويتألف منها اتحاد كونفدرالى ،و أن تحتفظ انجلترا ببعض الجزر التى استولت عليها ،وكانت جزءا من المستعمرات الفرنسية توبا جو وايل دى فرانس وسانت لويس وسيشيل .

ودلت شروط الصلح الذى تم فى باريس اذا على ان الذى حصل لم يكن رجوع الملكية الى فرنساوحسب ،بل كان الغرض المتوخى منها كذلك اضعاف فرنسا ذاتها . حقا لقد احتفظت فرنسا بأفينيون Avignon (فى الجنوب على نهر الرون) ،ومونتبليار Montebeliard وملهوسن Milhausen (فى الشرق فى اقليم الراين الاعلى) وشامبرى Chambery وأننسى Annecy (فى سافوى) و كانت فرنسا قد استولت على هذه الاقاليم قبل ١٧٩٢ . وكذلك احتفظت بحقوقها القديمة فى الصين فى نيوفوندلاند ،والجزيرة الانجليزية فى امريكاالشمالية ولكنها فقدت عددا من مستعمراتها ،وحرمت من ان يكون لها صوت ما فى توزيع الاسلاب من الامبراطورية النابليونية

وبعقد الصلح مع فرنسا فى معاهدة باريس الاولى انتهت الحروب التى بدأت فى اوروبا فى عهد الثورة الفرنسية ،ثم استمرت فى عهد الامبراطورية النابليونية واصبح من الضرورى عقد مؤتمر للتباحث فى شؤون اوروبا العامة وتسوية المشكلات التى نجمت من هذه الحروب الطويلة . ووقع الاختيار على فينا لتكون مقرا لهذا المؤتمر لانها مدينة اوروبية عظيمة ،وعاصمة لدولة من الدول الكبرى التى انتصرت فى الحرب ،ولان حكومتها حكومة الامبراطورية النمسوية - كانت تمثل كل ماينطوى عليه معنى المحافظة على التقاليد والقانون والنظام فى اوروبا وقتئذ . وهكذا فالمؤتمر لم ينعقد لابرام الصلح لان الحرب كانت منتهية فعلا وقانونا بين فرنسا وبين الدول المتحالفة ،وفى استطاعة فرنسا كذلك عند انعقاد المؤتمر ان تطلب الانضمام الى الاسرة الدولية . ولم يكن الغرض من عقد المؤتمر اعادة تنظيم شؤون اوروبا على قواعد جديدة ،باعتبار ان النظام الاوروبى قد انهار فعلا من اساسه نتيجة لحروب الثورة و نابليون خلال العشرين سنة الماضية . ولكن الذى حدث ان السياسيين الذين اجتمعوا فى هذا المؤتمر اعتقدوا على العكس من ذلك ان النظام القديم بالصورة التى عرفها القرن الثامن عشر ،أى احترام السلطات الحكومية وتمجيد التقاليد

و المحافظة على التوازن الدولى ،هو خير نظام وجـد ليضمن للشعوب حرياتها ،وليحقق سيادة القانون . وكـان الاصل فى نشأة هذا المؤتمر انه جاء فى معاهدة باريس الاولى ،فى مادتها الثانية و الثلاثين ،ان تتعهد الدولة المشتركة و تتشذ فى الحرب من كلا الطرفين بارسـال مندوبيها فى خلال شهرين الى فينا للاجتماع فى مؤتمر عام لوضع التسوية التى تضمنتها نصوص هذه المعاهـدة [1] على انه لما كان يحق لفرنسا بحكم هذه المادة ،ولانهـا كانت فى حالة سلم مع الدول بفضل ابرام معاهدة الصلح هذه ،وان تشترك فى وضع التسوية المزمعة ،فقد أراد الحلفاء ان يحرموها هذا الحق ،فأضافوا مادة سرية ، اضطرت فرنسا الى الموافقة عليها ،نصت على ان يكـون للحلفاء فيما بينهم هم وحدهم فقط الحق فى وضع المبادىء والقواعد التى تجرى عليها تسوية الصلح النهائيـة .

---

(1) Article XXXII ran as follows: "All the Powers engaged on either side in the present war shall, within the space of two months, send plenipotentiaries to Vienna for the purpose of regulating, in General Conress, the arrangements which are to complete the provisions of the present treaty".

مؤتمر فينا (١٣ سبتمبر ١٨١٤ – ٩ يونيو ١٨١٥)

تكون المؤتمر من الدول التى وقعت على معاهدة باريس الاولى ،وكانت سبعة هى : بريطانيا ،روسيا ،النمسا بروسيا ،السويد ،اسبانيا ،والبرتغال . وعندما تبين ان العدد كبير انحصر النشاط بموجب اتفاق بين الدول الكبرى بين دول أربع فقط هى : بريطانيا ،روسيا ،النمسا وبروسيا ،تألف منها مايعرف باسم " لجنة الاربعة" ولقد نجح تاليران عند اجتماع المؤتمر بفضل مهارته السياسية ،فى ان يجعل الدول توافق على انضمام فرنسا الى هذه اللجنة التى تحولت عندئذ الى " لجنة خماسية " وكانت لجنة الخمسة هذه هى المؤتمر فعلا ،فاستأثرت وحدها ببحث المشكلات و المسائل الهامة ،وباتخاذ القرارات الحاسمة بشأنها . وعندما انتهى مؤتمر فينا من أعماله انضمت ثلاث دول اخرى هى السويد ،واسبانيا ،والبرتغال الى الدول الخمس الاولى فى التوقيع على وثيقة او قرار المؤتمر النهائى (Final act) فى ٩ يونيو ١٨١٥ . و أما ممثلو سائر الدول و الامارات الذين بلغ عددهم فى فينا المائة تقريبا ،فقد اشترك قليلون منهم فى أعمال اللجان الاخرى الفنية . ولم يعقد المؤتمر جلسة واحدة رسمية تضم جميع اعضائه ،سواء عند البدء فى العمل اوعند الانتهاء منه .

بدأت اعمال المؤتمر باجتماع ممثلى الدول الاربع انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا فى ١٣ سبتمبر ١٨١٤ وبعد عشرة ايام وصل تاليران ولم ترقه عزلة فرنسا وبعدها عن لجنة الاربعة ،فبذل جهدا كبيرا وتحققت رغبته عند انشاء لجنة الخمسة التى ضمت فرنسا اليها، والى جانب هذه اللجنة الخماسية أنشأ المؤتمر عددا من اللجان الاخرى لدراسة الموضوعات التفصيلية واعداد البيانات اللازمة . فكانت هناك لجنة الثمانية وهى التى وقعت على القرار النهائى كما سبق فى ٩ يونيو ١٨١٥ . ولم تكن مهمة هذه اللجنة سوى تلقى القرارات والبحوث الخاصة بالمسائل الاوروبية الهامة ودرست هذه اللجنة موضوع تجارة الرقيق ومسألة الاتحاد السويسرى ،ثم كانت هناك " اللجنة الالمانية " لبحث شؤون المانيا ووضع دستور لها ،ثم " لجنة الاحصاءات " وقد اختصت بتعداد السكان فى الاراضى التى يراد استبدالها او اعطاؤها كتعويض كجزء من التسويات التى يتفق عليها المؤتمر.. ولقد تناول المؤتمر مسائل تسعا تتعلق ببولندا وسكسونيا وبحدود الراين ،وبلجيكا و هولندا ،وبالدانمرك والسويد وبسويسرا وبايطاليا ،وبالاتحاد الالمانى ،وبالانهار الدولية ،وبتجارة الرقيق .

بلغت الخلافات فى فينافى بداية ١٨١٥ درجة خطيرة حدت بفرنسا والنمسا وانجلترا الى تكوين حلف دفاعى لمقاومة مطالب روسيا وبروسيا فى ٣ يناير ١٨١٥ وقد أسفرت هذه الخطوة المتطرفة عن نتائج طيبة : فقد استسلم اسكندر فى بعض النقاط وحدت بروسيا حذوه . وكانت جميع الامور قد سويت فى الواقع عندما فوجىء العالم بأنباء انطلاق نابليون من آسره فى البا ،وفرار لويس الثامن عشر ،واستقبال فرنسا من جديد للامبراطور الذى حكمت بسقوطه بقية اوروبا . ولذلك انزعج المندوبون انزعاجا كبيرا وبادروا يعملون بكل سرعة لانجاز القرار النهائى الذى وقع بالفعل قبل معركة ووترلو بتسعة آيام فقط . وقد تضمن القرار النهائى التسوية التى وضعها السياسيون للمسائل التسع التى سبقت الاشارة اليها .

قامت تسوية فينا على آساسين هما : توازن القوى Balance of Power و التعويضات Compensation قاعدتا الدبلوماسية الاوروبية فى القرن الثامن عشر. فأعاد السياسيون فرنسا الى ماكانت عليه (Status quo ante bellum) قبل حروبها الاخيرة كى يعيدوا التوازن الدولى فى اوروبا ،ثم انهم اتبعوا خطة تعويض الدول التى أخذت منها اراضيها لاعطائها الى دولة اخرى

كذلك صار ارجاع الاسر القديمة الى الحكم فى الدول التى نحى نابليون أصحابها عن عروشهم وضمها الى فرنسا ولكن هذا المبدأ الشرعية " Legitimism " لم يتبع أيضا حذافيره فلم يشأ المؤتمر عودة الاسر الحاكمة التى كان يسوءه رجوعها او التى أراد توزيع املاكها فى شكل " تعويضات " تعطى للدول التى تولى المؤتمر التصرف فى املاكها • وفى الواقع ان هذا كله انما كان يجرى وفق المبادىء والتقاليد وما اخذ به العرف الدبلوماسى فى القرن الثامن عشر ،فلم يفكر انسان ان هناك مايدعو لاستشارة الشعوب التى أخذ المؤتمر على عاتقه ان يفصل هو وحده فى مصيرها • ولم يلبث المؤتمر ان اضاف الى قاعدتى توازن القوى والتعويضات اعتبار آخر ،وهو ضرورة الاطمئنان لعدم تكدير السلام من ناحية فرنسا فى المستقبل اى اتخاذ التدابير والاجراءات التى تمنع فرنسا من الاقدام على آية اعتداءات جديدة فأحاط المؤتمر مدن فرنسا بحلقة من الدول التى أرادوا أن تكون قوية بدرجة تكفى لمنع فرنسا من استئناف الاعتداء فضموا بلجيكا الى هولندا ،و أعطوا الاراضى الواقعة على ضفة الراين اليسرى الى المانيا بينما دعموا استقلال سويسرا التى ضمنت الدول حيادها ،ثم أعطوا سافوى الى بيدمونت لتقوية الحدود الشرقية الجنوبية بالنسبة لفرنسا •

ولقد أدى العمل بمبدا توازن القوى الى نتائج هامة فقد كان اساس النظام الجديد طبقا لتسوية فينا انشاء توازن القوى بين مجموعتين من الدول العظمى : انجلترا وفرنسا ،الدولتان الغربيتان فى جانب ،وروسيا وبروسيا والنمسا الدول الثلاث الشرقية فى جانب آخر ،ولم تكن واحدة من هذه الدول العظمى قوية بالدرجة التى تعطيها السيطرة بمفردها على شؤون اوروبا او القدرة على المغامرة بدخول الحرب واحراز النصر على الدول الاخرى وكان يقع بين هاتين المجموعتين اقليم وسط اوروبا ويشمل المانيا وايطاليا وسويسرا والاراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندا) • اما المانيا وايطاليا فكانت كل منهما مجزأة الى دويلات وامارات صغيرة ،بينما ضمنت الدول حياد سويسرا ثم الاراضى المنخفضة ،وتمكنت أسرة هابسبرج النمسوية من السيطرة على الدويلات الصغيرة فى ايطاليا والمانيا بفضل ماكان لها من املاك فى ايطاليا وماتمتعت به من نفوذ فى المانيا بسبب ان الامبراطور النمسوى كان رئيس الاتحاد الكونفدرالى بها فلم تعد اسرة هابسبرج فى حاجة الى توسيع جديد من ناحية ،فى حين انها وجدت من ناحية آخرى ان من صالحها ان تظل قائمة هذه الدويلات الصغيرة • فصارت سياسة النمسا التمسك بالوضع القائم والمحافظة عليه واخماد كل الثورات

القومية و الدستورية فى المستقبل ٠ وكان من آثـــــر زيادة نفوذ النمسا فى كل من ايطاليا والمانيـــــا ان تأخرت وحدة الاولى ،وتعطل اتحاد الثانية مدة خمسيـــن عاما تقريبا ،أى حتى عام ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ ٠ كما ان حصــول بروسيا على بعض الاقاليم الواقعة على نهر الراين منحها حق الدفاع عن المانيا عموما ،فعلا شأنها ثم انتقلــت اليها تدريجيا الزعامة فى المانيـــا٠

وعلى أية حال تتكون معاهدة فينا الموقعة فـــى ٩ يونيو ١٨١٥ من عدة أقسام رئيسية اولى تلك الاقســـام مايتعلق بمبدا ارجاع الحقوق الشرعية لاصحابها ،أى بمعنى آخر تحقيق مبدا التوازن الدولى الذى كان موجودا فـــى ذلك الوقت ٠ وقد تطلب تحقيق هذا المبدا ان عوضت بعــض الدول عن بعض المناطق التى فقدتها بمناطق اخرى ليظــل التوازن الدولى معمولا به ٠ كانت هذه هى القاعـــــدة المرعية اذا مااستثنينا الروسيا التى خرجت بنصيـــب الاسد نتيجة تشددها ،ولما كانت تحتفظ به من جيش كبيـــر العدد بلغ المليون جندى ٠ ولذا اضطرت كل من انجلتـــرا والنمسا مرغمتين على منح ولاية وارسو ــ بعد تنـــــازل بروسيا عنها ــ الى الروسيا رغم كبر مساحة هذه الولايـــة مما سيتيح للروسيا التفوق فى اوروبا ،وما يستتبع ذلــك من اخلال بالتوازن الدولى فى نظر كل من انجلترا والنمسا

أما فيما يتعلق بمطالب بروسيا فى ضم اقليم سكسونيا بأكمله اليهافى مقابل تنازلها للروسيا عن بولندا (ولاية وارسو) ،فقد عارضت النمسا و انجلترا فى منحها اياها كاملة حتى لايتضخم حجم بروسيا فيخل ذلك بالتوازن الدولى . فاضطرت بروسيا فى نهاية الامر الى قبول ضم نصف سكسونيا ومقاطعة الراين الالمانية وبذلك أصبحت مساحتها اكثر مما كانت عليه فى عام١٨٠٥ وهو التاريخ الذى حدد لارجاع حدود كل دولة الى ماكانت عليه وقتئذ .

أما بخصوص الولايات الالمانية التى اجتاحتها قوات نابليون و أقامت فيها نوعا من الوحدة ،فقد تمت تسوية اوضاعها السياسية طبقا لمشيئة الدولتين الالمانيتين الكبيرتين النمسا وبروسيا اللتين كانتا تتنافسان حول زعامة هذه الولايات . وقد نجحت النمسا فى الجولة الاولى واستطاعت ان تشكل الولايات الالمانية تبعا لاهوائها ،وذلك للحد من سلطة بروسيا ،فأقامت النمسا ولاية بافاريا كدولة قوية تعتمد على ولائها فى مقاومة النفوذ البروسى فى الولايات الالمانية . كذلك تمكنت النمسا من اقامة اتحاد للولايات الالمانية التسعة والثلاثين تحت زعامتها بصفتها الدولة الالمانية الكبرى

ورغم ان تسوية المسألة الالمانية قد تمت بما لايتفق ورغبات الولايات الالمانية ، الا انها لم تكن مجحفة بحقوق الالمان مثلما حدث فى المسألة الايطالية .

واذا انتقلنا الى الولايات الايطالية التى كانت تشبه فى وضعها السياسى الولايات الالمانية الى حد بعيد ، نجد ان نظرة الدول الاوروبية اليها وعلى رأسها النمسا قد اختلفت عن نظرتهم للولايات الالمانية . فقد أهملت المطالب القومية للولايات الايطالية اهمالا شديدا فيه مساس بكرامة الايطاليين . وتم هذا بفضل سياسة مترنيخ الرجعية الاستبدادية ومؤازرة الدول الاوروبية له . فايطاليا لم تكن فى نظر مترنيخ سوى تعبير جغرافى ومنطقة نفوذ لها . ولذا فقد شكل ايطاليا طبقا لاهوائه ووفق ميوله الاستبدادية الرجعية . فقد أعاد مملكة نابولى الى ما كانت عليه من قبل مع وضع أحد أفراد أسرة البوربون الفرنسية ملكا عليها . وفى نفس الوقت عقد معه معاهدة سرية تمنعه (ملك نابولى) من منع بلاده حكما دستوريا الا بعد موافقة النمسا ، ولم تكن الاخيرة ترضى بأى حال من الاحوال ان يجد النظام الدستورى طريقه الى ايطاليا حتى لاتنتقل عدواه الى الولايات الايطالية التابعة لحكمها . كذلك استطاعت النمسا استرجاع لمباردیا

واحتلال ولاية البندقية ،وبذلك تمكنت من استعادة نفوذها في ايطاليا والضغط على الولايات الايطالية الاخرى لاتباع سياسة تتفق مع رغباتها و مصالحها . كذلك استرد البابا ممتلكاته (الولايات البابوية) . كما ضمت بيد مونت اليها مدينة جنوه .

أما القسم الثانى من تسوية فينا فهو الخاص باحاطة فرنسا بدول قوية تمنعهامن الاعتداء على غيرها . و لما كانت كل من هولندا وبلجيكا تقع على حدود فرنسا الشمالية ولاتستطيع بمفردها ان تقاوم التوسع الفرنسى ،فقد رؤى ادماج الدولتين فى بعضهما لتكون دولة واحدة قوية على حدود فرنسا ،رغم كره البلجيكيين الشديد لجيرانهم الهولنديين . كذلك اعترفت الدول الاوروبية باستقلال سويسرا وضمان حدودها واستعادت كل من اسبانيا والبرتغال ماكان لهما من حدود قبل الغزو النابليونى . كما كوفئت السويد على انضامها الى جانب الحلفاء فى الحرب ضد نابليون بمنحها النرويج التى كانت تابعة للدانمرك.

ومن التسويات الهامة التى تمت بمقتضى هذه المعاهدة وضع تنظيم دولى لاستغلال الانهار الدولية ،حتى لا يؤدى تضارب المصالح بين بعض الدول حول الاستفادة من هذه

الانهيار الى قيام نزاع دولي قد يؤدى الى نشوب حرب كذلك أعلنت الدول الموقعة على المعاهدة استنكارها لتجارة الرقيق بصفتها تجارة غير مشروعة و لاتتفق مع أبسط القواعد الانسانية . وكان لهذا الاستنكار صداه في تحريم ممارسة هذه التجارة في المستعمرات الخاضعة لحكم كل من اسبانيا وفرنسا والسويد وهولندا.

وألحقت بالمعاهدة سبع عشرة وثيقة أخرى هي عبارة من المعاهدات التي وقعت بين الدول المشتركة في المؤتمر لوضع الترتيبات السابق الاشارة اليها واستكمالها[1].

ورغم عيوب تسوية فينا ،فقد نجحت في تحقيق الغرض المباشر الذى هدفت اليه الدول التي وقعت على معاهدة باريس الاولى في ٣٠ مايو ١٨١٤ و كانت تريد وقتئذ اقامة نظام حقيقي ودائم للتوازن الدولي في اوروبا . حقيقة طرأ على هذا النظام شيء من التعديل بانفصال بلجيكا عن هولندا في عام ١٨٣١ ،أو حينما خطت ايطاليا خطوة كبيرة نحو وحدتها في عامي ١٨٥٩ ،و ١٨٦٠ ،ولكن هذا النظام لم يتصدع و على العكس فقد استطاعت تلك التسوية ان تجنب اوروبا حربا اخرى لمدة اربعين عاما ،وحتى هذه الحرب (حرب القرم ١٨٥٣ - ١٨٥٦) وقعت في ميادين

---

(1) Oakes and Mowat, The Great European Treaties of the Nineteenth Century, PP.95-98.

بعيدة . ولكن التوازن الدولى الذى أوجدته تسوية فينا قد تصدع فعلا فى عام ١٨٧٠ عندما قامت الحرب السبعينية بين المانيا وفرنسا واستولت الاولى على الالزاس واللورين من فرنسا . وعلى أية حال خضعت التسويات التى اقرها مؤتمر فينا بمرور الوقت لضغط شعبى أو اوتوقراطى وهو امر لم يكن من المحتمل التنبؤ به او منعه فى حينه .

معاهدة باريس الثانية (٢٠ نوفمبر ١٨١٥):

بعد هزيمة نابليون فى ووترلو واجه ساسة اوروبا امرين : الاول عقد الصلح من جديد مع فرنسا التى آزرت نابليون أثناء حكم المائة يوم ،والثانى تجديد محالفة الدول العظمى على اساس الاتحاد فيما بينها بعمل مشترك الغرض منه اتقاء اية أخطار قد تهدد السلام العام من جانب فرنسا فى المستقبل ،ثم المحافظة على التسوية النهائية التى تمت فى فينا لعدم تكدير السلم كذلك فى اوروبا . وبالنسبة للامر الاول ،عقد الحلفاء (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) معاهدة جديدة مع فرنسا هى معاهدة باريس الثانية The Second Treaty of Paris وقد فقدت فرنسا بمقتضاها كثيرا من

المزايا التى كانت قد نالتها فى معاهدة باريس الاولى فى ٣٠ مايو ١٨١٤ ،فأرجعت فرنسا الآن الى الحدود التى كانت لها عام ١٧٩٠ (أى بدلا من حدود ١٧٩٢ التى كانت قد نصت عليها معاهدة باريس الاولى) كما طلبت من فرنسا دفع تعويض قدره سبعمائة مليون من الفرنكات يؤخذ منها جزء لتقوية الحصون التابعة للدول ذات الحدود الملاصقة للحدود الفرنسية ،ويوزع بقية المبلغ على حكومات الحلفاء والدول الاخرى التى اصابتها اضرار من ناحية فرنسا . وقد قسم هذا المبلغ الضخم بصورة يتمكن بها الفرنسيون من سداده فى خلال خمس سنوات على اقساط متساوية وبشريطة ان يحتل مائة ألف مقاتل من جيوش الحلفاء حصون فرنسا الشمالية الشرقية الى أن يتم تسديد المبلغ بأجمعه .

التحالف الرباعى (٢٠ نوفمبر ١٨١٥):

أما بالنسبة للامر الثانى فقد انطوت فكرة الاتحاد الاوروبى على انشاء تحالف بين الدول التى اشتركت فى النضال ضد فرنسا من جهة ،ثم السعى من اجل المحافظة على السلام عموما فى أوروبا من جهة اخرى. و استطاع كاسلريه ،وزير خارجية انجلترا على وجه الخصوص ان يظفر بتحديد المبدأ الذى تضمنته معاهدة شومون السابقة ،

من حيث المبادرة بتقديم القوات العسكرية اذا وقع عدوان جديد من جانب فرنسا . وفى اليوم الذى وقعت فيه معاهدة باريس الثانية مع فرنسا ،أبرمت الدول الاربع الكبرى فيما بينها تحالفا رباعيا Quadruple Alliance كانت هى الاساس الذى قام عليه نظام الاتحاد الاوروبى فى السنوات التالية .

وقد تعهدت الدول الاعضاء فى هذه المحالفة الرباعية بتأييد معاهدة باريس الثانية المبرمة مع فرنسا فى التاريخ نفسه ،ثم انها اخذت على عاتقها أن تبادر كل منها بتقديم ستين ألف مقاتل لمساعدة أي عضو من اعضاء المحالفة يقع عليه هجوم فى المستقبل . وأبرزت المادة السادسة من المعاهدة فكرة الاتحاد الاوروبى كما صورته معاهدة شومون وانما بصورة عملية ،فنصت على مايأتى:
" حتى يمكن دعم الروابط التى تجمع فى الوقت الحاضر الملوك الاربعة فى اتحاد وثيق ،يوافق المتعاقدون على تجديد عقد اجتماعاتهم فى فترات معينة سواء كانت هذه الاجتماعات تحت اشرافهم شخصيا ،او حضرها وزراؤهم الذين يمثلونهم ،وذلك لتبادل الرأى فيما يتعلق بمصالحهم المشتركة ،و لفحص الوسائل التى يقر الرأى فى كل فترة او دورة من هذه الدورات على اعتبارها ذات أعظم

أثر طيب فى تأمين هدوء وسكينة الامم ورخائها وفـــى تأييدواستقرار السلام فى اوروبا "[١] وقد ترتب علـــى هذا النص وتطبيقه قيام الاتحاد الاوروبى The Concert of Europe الذى آخذ يعالج المشاكل التى ظهرت فـــى اوروبا فى الفترة التاليـــة .

---

(1) Article VI of the Quadruple Alliance of Paris, November 20, 1815:"To facilitate and to secure the execution of the present treaty, and to consolidate the connections which at the present moment so closely unite the Four Sovereigns for the happiness of the world, the High Contracting Parties have agreed to renew their Meetings at fixed periods, either under the immediate auspices of the Sovereigns themselves, or by their respective Ministers , for the purpose of consulting upon their common interests , and for the consideration of the measures which at each of these periods shall be considered the most salutary for the repose and prosperity of Nations, and for the maintenance of the Peace of Europe".

ومما دفع روبرت ستيوارت كاسلريه ،وزير خارجية انجلترا الى انشاء التحالف الرباعي خوفه من فرنسا وتجدد الاعتداء من ناحيتها فاحتاط للامر بعقد أوامر المحالفة مع الدول الكبرى من جهة ،وتدبير احتلال فرنسا نفسها (وقد استمر هذا الاحتلال حتى عام ١٨١٨) من جهة أخرى ،وكان تحقيق هذه الحيطة اذن فى ابرام المحالفة الرباعية . ولم يرض كاسلريه فيما بعد ان يخرج هذا التحالف الرباعى عن الغرض الاساسى الذى أنشىء من اجله ، فيتخذ منه السياسيون الرجعيون في اوروبا وعلى رأسهم مترنيخ أداة للتدخل فى شؤون الدول الداخلية ،بدعوى ان اخماد كل ثورة او انقلاب قد يحدث فى داخل هذه الدول ضروري من اجل صيانة السلام العام فى اوروبا . وهكذا تكون سياسة كاسلرية عند انشاء التحالف الرباعى قد نجحت فى تحقيق مايلى :

١) ضمان تنفيذ الشروط التى فرضها المنتصرون فى الحرب على فرنسا بمقتضى معاهدات الصلح .

٢) ان انشاء نظام الاتحاد الاوروبى قد اتاح الفرصة لتسوية عدد من المشكلات التى ظهرت فيما بعد ،من غير حاجة للالتجاء الى الحرب كوسيلة ناجحة لفضها

الحلف المقدس (٢٦ سبتمبر ١٨١٥)

وفى الوقت الذى وضع فيه ساسة اوروبا القواعد العملية لتنفيذ شروط التسوية الاوروبية فى فينا ، آخرج اسكندر الاول (١٧٧٧ - ١٨٢٥) قيصر روسيا الى الوجود مشروعا آخر للسلام من ثمرات خياله الخصب يعرف باسم الحلف المقدس The Holy Alliance

وقام مشروع القيصر على فكرة ان يصبح الملوك اخوة و ان يسترشدوا فى معاملاتهم مع بعضهم بعضا بمبادىء المسيحية وتعاليمها . و آراد القيصر الروسى آن يستند الاتحاد الاوروبى الذى يدعو اليه على كل المبادىء و التعاليم التى جاءت بها المسيحية ،أى انه آراد ان يتخذ من الدين اساسا تقوم عليه العلاقات بين الدول و كان لمشروع القيصر بهذا الثوب الدينى الذى أضفى عليه آثار عديدة ومنوعة لقد كان القيصر رجلا تنطوى شخصيته على متناقضات كثيرة ، وعندما تقدم بهذا المشروع كانت تغمره موجة من الورع و التقى ،ويعيش تحت تأثير آرملة احد السياسيين الروس هى البارونة جوليانا فون كرودنر Krüdner ، كان القيصر قد قابلها فى مدينة بال بسويسرا فى خريف ١٨١٣ ،فى وقت كانت فيه هذه السيدة قد نبذت حياة الترف واللهو التى انغمست فيها سابقا ،وصارت تأخذ على عاتقها مهمة اعتقدت انها موصى بها اليها،و هى ارشاد الملوك والامراء الى الطريق السوى .

وتألفت وثيقة الحلف المقدس من مقدمة وثلاث مواد.

وجاء في المقدمة مامعناه ان امبراطوري روسيا والنمسا وملك بروسيا صاروا يعتقدون بأنه قد بات ضروريا ان يسترشدوا في علاقاتهم مع بعضهم بعضا بالمبادىء السامية التي نادى بها الدين المسيحي والحقائق العالية التي أتى بها . وأنهم لايبغون من اعلانهم هذه الوثيقة الا ان يطلعوا العالم أجمع على القرارات التي اتخذوها لهذا الغرض . فنصت المقدمة اذن على انه : " ليس لهذه الوثيقة من غرض سوى ان تعلن للعالم اجمع انه قد صح عزم الموقعين عليها - سواء فيما يتعلق بادارة شؤون بلاد كل منهم ،أو فيما يتعلق بشؤون علاقاتهم السياسية مع كل حكومة من الحكومات الاخرى - على ان يسترشدوا بمبادىء الديانة المقدسة (المسيحية) وحدها ،وهي مبادىء العدالة والمحبة المسيحية والسلام ،وتلك مبادىء لاينبغي ان يكون الاخذ بها مقصورا على العلاقات الشخصية و حسبه بل يجب ان تكون ذات أثر مباشر على مايصدر من آراء عن الملوك والامراء ،وان يسترشد بها هؤلاء في كل خطواتهم بوصف انها الوسيلة الوحيدة لدعم الانظمة الانسانية ومعالجة وجوه النقص بها " .

وفي المادة الاولى تعهد الملوك الثلاثة المتعاقدون

بالبقاء متحدين ،وتجمع بينهم أواصر الاخوة الحقيقية
و التى لاتنفصم عراها ، اهتداء بما جاء به الكتاب
المقدس الذى يأمر جميع الناس ان يعتبروا أنفسهم
آخوانا . ولما كانوا يعدون أنفسهم أبناء وطن واحد
فانهم يتبادلون فى كل الظروف والمناسبات (فى كل زمان
ومكان) المعاونة والمساعدة والنجدة ،و حيث انهم
يعتبرون انفسهم آباء لرعاياهم ولاجنادهم فى أسرة واحدة،
فهم سوف يسوسونهم بروح الاخوة نفسها التى تحفزهم الى
الذود عن الدين و السلام و العدالة ،والمحافظة على هؤلاء
جميعا . وفى المادة الثانية جاء مانصه : " وعلى ذلك
فان المبدأ الوحيد الذى يسير عليه العمل بين الحكومات
او بين رعاياها سوف يكون تأدية الخدمات من جانب كل
فريق للآخر ،واقامة الدليل بفضل الرغبة الطيبة الثابتة
على تبادل المحبة التى يجب ان تملأ قلوبهم ليعتبروا
أنفسهم جميعا أعضاء أمة مسيحية واحدة . أما الامراء
الثلاثة المتحالفون فانهم يعتبرون أنفسهم مجرد وكلاء
من قبل الاله ليحكموا فروعا ثلاثة من أسرة واحدة: النمسا
وبروسيا وروسيا . معترفين بذلك بأن الامة المسيحية
التى يؤلفون هم ورعاياهم قسما منها ليس لها غير سيد
واحد هو الاله يسوع المسيح .... " وفى المادة الثالثة
والاخيرة ،وجهت الدعوة الى بقية الدول التى تريد

الاعتراف بهذه المبادىء المقدسة حتى تنضم الى الحلف المقدس .

و عند مقارنة ماجاء فى المادة الثانية من الحلف المقدس ،بالمادة السادسة فى التحالف الرباعى يتضح الفارق الكبير بين تفكير القيصر اسكندر الذى طغى عليه نوع من التصوف المبهم وقتئذ ،وبين الطريقة العملية الايجابية التى اهتدى اليها كاسلريه لمحاولة المحافظة على التسوية الاوروبية . ولقد أثار الحلف المقدس دهشة رجال الدين ورجال السياسة على السواء . فمترنيخ وصفها بأنها " طبل أجوف " ،وفيض من عواطف التقى والورع التى تجيش فى صدر القيصر اسكندر " . ثم ان كاسلريه صار يعتبرها " خليطا " من الصوفية والكلام الفارغ ". ورغم ذلك فقد انضمت إكثر الدول الى الحلف المقدس مراعاة لشعور القيصر اسكندر ... وكان من بين الدول التى انضمت اليه فرنسا ،وهى التى تلمست دائما كل الطرق للخروج من عزلتها السياسية ،والعودة الى المجتمع الاوروبى . أما انجلترا فقد امتنعت عن التوقيع على هذه الوثيقة بدعوى ان الدستور يمنع الملك او الوصى على العرش من فعل ذلك .

ومن آثار الحلف المقدس انه خلف آثارا عميقة فى اذهان سواد الناس مدة جيل بأكمله عندما ساد الاعتقاد بأن قيام الحكومات الاستبدادية ،ثم اخماد كل حركات او ثورات الشعوب التحررية ، انما كان من اسباب وجود الحلف ،كما كان من نتائج انشائه . ورغم ذلك فان الحلف المقدس لم يكن فى ذاته مسؤولا عن انتشار الرجعية ولاعن قيام نظام الحكم المبنى على الاستبداد وعلى اخماد الحركات القومية و الدستورية فى اوروبا ،بل كان المسؤول فى ذلك كله التحالف الرباعى وحده فقط .ويرجع ذلك لعدة آسباب من آهمها ان تعهد اعضاء الحلف المقدس بمساعدة بعضهم بعضا فى كل الظروف و المناسبات كان تعهدا يتعذر تنفيذه ،لأن الظروف و المناسبات لم تكن معينة ومحددة ،على عكس ماحدث فى معاهدة التحالف الرباعى التى اوضحت هذه الظروف والمناسبات ،ثم عينت قدر المساعدة المطلوبة ونوعها ـ و هى ستون ألف مقاتل يقدمها كل عضو عند وقوع الاعتداء على آحد أعضاء المحالفة .كما نصت على عقد المؤتمرات الدورية ،أى آن التحالف الرباعى ،قد وضع القاعدة التى من شأنها ان تجمع بين الدول فى صورة عملية ،وفى اتحاد اوروبى له آغراض معينة ومحددة ومعروفة .

وعلاوة على ذلك أدرك مترنيخ ماكان للتحالف الرباعى من قيمة عملية فاعتمد عليه فى تنفيذ سياسته التى كانت ترمى الى تأليف جبهة متحدة من الحكومات الاوروبية هدفها اخماد الحركات والثورات التى قد تهدد النظام القائم والسلم فى اوروبا . وبرغم ان مترنيخ كان يرى فى الحلف المقدس " طبلا أجوف " فقد ادرك إيضا امكان الاعتماد على هذا الحلف المقدس فى الجمع بين الدول الموقعة على وثيقته و التقريب فيما بينها للقيام بعمل مشترك - دائما على اساس التحالف الرباعى - الهدف منه تأييد النظام القائم ،ثم تحويل التحالف الرباعى الى أداة فعالة للتدخل فى شؤون الدول الداخلية اذا اقتضى تأييد النظام القائم هذا التدخل . ولكن اصطدمت أهداف مترنيخ مع السياسة البريطانية التى استنها كاسلريه وسار عليها جورج كاننج من بعده . وقد أدى هذا الاصطدام فى النهاية الى فشل الاتحاد الاوروبى عند معالجة المشكلات السياسية التى واجهها رجال السياسة بعد ذلك . ومن هذه المشاكل رغبة فرنسا فى الانضمام الى التحالف الاوروبى ومسألة التدخل Intervention بسبب الثورات والاضطرابات التى وقعت فى ايطاليا،وثورة اليونان ضد السلطان العثمانى رغم ان الحلفاء لم يضمنوا ممتلكات وأراضى الامبراطورية العثمانية ،ثم أخيرا شؤون المستعمرات الاوروبية فى امريكا وهى التى لم يتناولها الحلفاء. وكل هذه المشاكل سنتعرض لها فى الجزء التالى الخاص بدراسة " نظام المؤتمرات " .

الفصل الرابع عشر

نظام المؤتمرات

- مؤتمر اكس - لاشابل.
- مؤتمر تروباو .
- مؤتمر ليباخ .
- مؤتمر فيرونا .

الفصل الرابع عشر

نظام المؤتمرات (The Congress System)

جاء فى المادة السادسة من معاهدة باريس الثانية انه من اجل تدعيم الروابط العميقة التى توجد بينهم، سيقوم الملوك الاربعة أو وزرائهم بجمع مؤتمرات ،فى فترات محددة يبحثون فيها الوسائل اللازمة لا لمجرد ضمان استمرار السلم ولكن تأكيد احترام " المصالح العامة الكبرى " وبشكل خاص " هدوء الشعوب ورفاهيتها " • ولذلك فان مسألة العلاقات مع فرنسا لن تصبح هى الموضوع الوحيد الذى يعالج فى هذه الاجتماعات : فيمكن لحكومات الدول المنتصرة ان تثير كل المشكلات حتى تأخذ حيالها موقفا مشتركا • ولاشك ان فكرة المؤتمرات الدورية كان منهجا دبلوماسيا جديدا ،يمكنه ان يسهل الوفاق بين الحكومات، فبدلا من الاكتفاء بمجرد تبادل " المذكرات " سيكون لرجال الدولة المسؤولين عن تسيير السياسة الخارجية مقابلات مباشرة ،حيث يمكنهم تبادل وجهات نظرهم بطريقة سهلة، والبحث عن أسس لحلول وسط بين مصالحهم• و اذا كانت الحكومات فى هذه المؤتمرات ستتخذ لها هدفا يتمثل فى المحافظة على " المصالح المشتركة " ،فان هذا كان دليلا على معرفتهم بمعنى الواجب الجماعى ،او على الاقل بما يعتقدون انه من الواجب ان يقوموا به • ولكن ،هل يمكننا

ان نرى فى ذلك فكرة جديدة للعلاقات الدولية؟ و هل كان رجال الدولة يفكرون فى عام ١٨١٥ فى اقامة " اتحاد اوروبى " ؟ قطعا لا فليس هناك فى هذه النصوص مايهدف الى تحديد سيادة الدول فى صالح منظمة دولية ،ومماينظم حماية متبادلة للسلامة الاقليمية ،أو مايعنى التعهد بالابتعاد من الحرب ولم يكن للحلول المقترحة أى هدف سوى تأكيد تفوق الدول العظمى المنتصرة فكانت فى اقصاها تمثل نوعا من " الادارة " Directiojre ولاتمثل تمهيدا لمجهود تنظيم مستوحى من الفكرة الاتحادية .

مؤتمر اكس لاشابل (Aix-la-Chapelle):

عقدت الدول الاوروبية أول اجتماعاتها فى سبتمبر ١٨١٨ فى اكس لاشابل من أعمال وستفاليا فى المانيا للفصل فى موضوع فرنسا . لقد طالبت فرنسا بجلاء قوات الحلفاء عن أراضيها ،دون انتظار لمدة الخمس سنوات المحددة فى معاهدة باريس الثانية ،وبقبول الحلفاء بدخولها فى " المجموعة الاوروبية " . ولقد استخدم دوق ريشليو Richelieu رئيس وزراء فرنسا ـ السياسة الداخلية حجة اساسية ،لكى يدفع الحلفاء الى الموافقة على الجلاء عن الاراضى الفرنسية قبل الميعاد. ولم تعترض

الدول على هذه الرغبة ،فكاسلريه كان قد أطمأن الـــى فرنسا ،وصار لايرى مايحول دون عودتها الى حظيرة الاتحاد الاوروبى . وبمجرد ان تم الاتفاق فى المؤتمر على الطريقة التى تسدد بها فرنسا فورا بقية التعويضات المطلوبة منها ،وافقت انجلترا وبروسيا والنمسا وروسيا على جلاء جيش الاحتلال فى معاهدة اكس لاشابل فى ٩ اكتوبر ١٨١٨.أما بخصوص طلب فرنسا الانضمام الى المحالفة الرباعية فقد اختلفت آراء الدول حول هذا الموضوع . فاقترح القيصر الروسى بقاء التحالف الرباعى كما هو موجها ضد فرنسا ، على ان يسمح لفرنسا فى الوقت نفسه بالانضمام الى محالفة عامة اخرى ،تعلن فيها الدول عزمها على القضاء على الثورات ،ومساعدة بعضها بعضا ،وعلى الخصوص مساعدة الدول التى تتعرض حكوماتها للاضطراب . ولكن كاسلريه رفض هذا الاقتراح وامتنع امتناعا تاما عن أى تدخل فى شؤون الدول الداخلية .

كانت السياسة الروسية ترغب فى ادخال فرنسا فى " المجتمع الاوروبى " لكى تستخدمها كقوة موازنة اما لانجلترا او للنمسا ،وكانت انجلترا تفضل الاحتفاظ بالاتجاه المتفق عليه فى عام ١٨١٥ ،لا لمجرد استمرار اعتقادها فى " الخطر الفرنسى " ولكن لخوفها من قيام تعاون بين

روسيا وفرنسا . وكانت كل من النمسا وبروسيا تشارك في الشعور بهذا الخوف ،ولكنهم اعتقدوا مع ذلك في انهم سيزيدون من الاخطار برفضهم طلب فرنسا : وحين تفقد الامل ،يمكن للحكومة الفرنسية ان تتوجه صوب سياسة " التحالف الخاص " مع روسيا . وعلى أية حال اقنع مترنيخ الدول الاربع بعقد اتفاق سري فيما بينها في اول نوفمبر عام ١٨١٨ تتعهد بموجبه باستخدام جيوشها مشتركة ومتحدة ضد فرنسا اذا حدثت ثورة ناجحة يترتب عليها تهديد امن جيرانها وسلامتهم . ولقد وافقت انجلترا على هذا الاجراء ولكن في حالة واحدة فقط ،هي اعتلاء احد أفراد أسرة بونابرت عرش فرنسا .

وفي ٤ نوفمبر ١٨١٨ وجهت الدول الاربع في مذكرة مشتركة الى فرنسا الدعوة الى الملك الفرنسي ليعمل من الآن فصاعدا بآرائه وجهوده للاتحاد مع الحلفاء الاربعة لتحقيق مايعود بالنفع على الانسانية وعلى فرنسا معا . وقد وافق المؤتمر على هذا الحل الوسط في ١٥ نوفمبر ١٨١٨ ،وذلك في وثيقتين ،احداهما تتضمن المبدأ الذي وافقت عليه الدول الاربع في الاتفاق السرى بتاريخ أول نوفمبر ،فكانت هذه الوثيقة عبارة عن " بروتوكول سرى" تجددت بمقتضاه المحالفة الرباعية لمراقبة فرنسا

ولحمايتها كذلك من الاخطار الثورية التى تتهددها، وعلى ان يبلغ هذا البروتوكول الى دوق ريشيليو ويطلع عليه بصفة خاصة . وأما الوثيقة الثانية فقد قامت على المبدأ الذى ووفق عليه فى " المذكرة المشتركة " فى ٤ نوفمبر، فكانت تصريحا Declaration دعيت فرنسا الى الانضمام اليه ،وجاء فيه ان الدول الخمس ، انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وفرنسا ،تنوى توثيق عرى الاتحاد فيما بينها على اساس المعاهدات والاتفاقات المعقودة للمحافظة على السلام ،وذلك كان الاساس الذى تمسكت انجلترا به دائما ، والمبدأ " العملى " الذى قام عليه التحالف الرباعى ،والذى كان يجب فى نظر انجلترا ان يقوم عليه الاتحاد الاوروبى . ولما كانت انجلترا تعارض فكرة عقد مؤتمرات دورية باعتبار انها ترمز الى التدخل ،فقد جاء فى ختام التصريح تحديدا واضحا وهو انه لاينبغى عقد " اجتماعات جزئية " لبحث شؤون الدول الاخرى ،من غير ان تطلب هذه ذلك ،وفى حضورها اذا لزم الامر . وكان معنى ذلك بالرغم من هذه الشروط المحددة ،أن تقرر فى هذا التصريح مبدأ التدخل . وهكذا تدعمت أركان المحالفة وصارت بعد انضمام فرنسا اليها محالفة خماسية Quintuple Alliance ضد الثورات فى اوروبا

وفى الوقت الذى قل فيه الخوف من انفجار فى فرنسا ، ازدادت المخاطر فى نقط أخرى من القارة . ففى المانيا نجحت الحركة التحررية فى مملكة بافاريا حيث منح الملوك والامراء نظما دستورية . وفى ايطاليا ظهرت الاخطار فى نابولى فى يوليو عام ١٨٢٠ ،وفى تورينو فى مارس عام ١٨٢١ . وكانت الحركة الثورية تهدف الى اجبار الملوك والامراء على قبول نظام دستورى ،كما انها اشتملت على برنامج وطنى : فمندوبى جمعيات " الكاربونارى فى نابولى حاولوا ان يبعثوا فى بقية الدول الايطالية الاخرى حركة فى صالح اتحاد ايطاليا ،وفكر سانتا روزا Santarosa رئيس الثوار فى بيد مونت فى تحرير لمبارديا والبندقية من الحكم النمسوى ،ولكنها لم تكن الا مجرد آمنيات . وفى اسبانيا سقط نظام فرديناند السابع المطلق فى يناير ١٨٢٠ ،وفرضت حركة ثورية تقودها مجموعة من الضباط على الملك نظاما دستوريا . وحاول أنصار الملكية المطلقة ان يقوموا بحركة مضادة فى يوليو عام ١٨٢٢ ،وفشلوا أمام مدريد . ولم تكن أى من هذه الحركات الثورية تهدد الوضعية الاقليمية التى أنشأتها معاهدات عام ١٨١٥ ،بطريق مباشر ،فلم يتعرض احد للحدود ،ولكنها هددت النظام الاجتماعى والسياسى. وكان هذا يؤكد المخاوف التى عبر عنها اسكندر الاول

منذ اكتوبر عام ١٨١٥ • فهل كان من الضرورى العودة الى الحلول التى كان القيصر قد اقترحها ،أى التدخل المشترك فى الشؤون الداخلية للدول ؟

لقد عرض الروس هذه المسألة من جديد فى أثناء مؤتمر اكس لاشابل واقترحت المذكرة التى قدمها القيصر فى ٨ اكتوبر عام ١٨١٨ ،بعد ان ذكرت مبادىء الحلف المقدس اقامة " تحالف عام " يفتح للجميع ،ويكون " اساسا لنظام ضمان مشترك لحالة الممتلكات الراهنة للدول المتعاقدة " • ولكن الحكومة الانجليزية اعترضت على ذلك ،وأعلن كاسلريه بطريقة تهكمية فى مذكرة فى ١٩ اكتوبر ان مبادىء معاهدة التحالف المقدس ،حتى اذا ما " اعتبرت كأساس لنظام اوروبى فى نطاق الضمير السياسى، لا يمكن الرجوع اليها فى نطاق " الالتزامات الدبلوماسية العادية التى تربط دولة بدولة أخرى" • وكان معنى اعطاء تحالف بين الدول هدفا يتمثل فى " الاحتفاظ بنظام الوراثة ،والحكم ،والملكية فى كل الدول الاخرى،و ضد كل عنف او هجوم " هو التبشير بوجود حكومة دولية يمكنها ان تفرض قانون عدالة على الجميع ،فكيف يمكن التفكير فى اقامة مثل هذه الحكومة ؟ وقال كاسلريه عن الامتداد " العالمى " لهذا التحالف ،انه امكانية " لم يكن أبدا مظهر عملى ولايمكن أن يكون لها ذلك"•

ورغم ان مترنيخ قدر المزايا التى مثلها المشروع الروسى بالنسبة للمحافظة على النظام الاجتماعى او السياسى ،فانه لم يؤيد المشروع الروسى . فما هو سبب ذلك ؟ لم يكن ذلك لمجرد انه خضع لضغط السياسة الانجليزية ،بل كان قبل كل شىء بسبب خوفه من مشروع تحالف " عام " الم يكن فى وسع القيصر ان يدخل فى هذا التحالف الدول الاوروبية " المتوسطة " والتى سيكون حضورها مضايقا للنمسا؟ الم يفكر فى جعله يضم اسبانيا ، ويشكل يمكنه من ان يمد " الضمانات " ،بالنسبة لمسألة المستعمرات الاسبانية ،فيما وراء النطاق الاوروبى؟ الم يدع اسكندر انه يظهر للعالم ان السلم يتوقف عليه شخصيا ويحاول اثبات سيطرة روسيا على السياسة الدولية ؟ ولذلك فقد أبعد اقتراح القيصر ،بوضعه فى صيغة الماضى فى " البلاغ النهائى " لمؤتمر اكس لاشابل . و كان هذا حلا سهلا ،مادامت الاضطرابات الثورية لم تكن قد ظهرت بعد ولكن الاقتراح الروسى وجد من يصغى اليه ،وتقررت سياسة التدخل بالفعل حينما ظهرت هذه الاخطار كحقائق ملحة . وفى ثلاث مناسبات ،وهى مؤتمر تروبا وفى ديسمبر عام ١٨٢٠ ،وفى مؤتمر ليباخ فى يناير عام ١٨٢١ ،وفى مؤتمر فيرونا فى صيف عام ١٨٢٢ ،سارت الدول رغم ترددها، ثم مقاومة انجلترا على الطريق الذى أشار اليه القيصر.

مؤتمر تروبـاو (Tropeau):

كان اكثر الملوك خوفا من نتائج الثورة العسكرية في اسبانيا الاسكندر قيصر الروسيا ، الذى خشى من انتقال عدوى الثورة الى بلاده حيث تعيش في ظروف مماثلة لاسبانيا . فهب للمطالبة بعقد مؤتمر من سائر ملوك اوروبا لاستنكار قيام دستور ١٨١٢ والمطالبة بالغائه ولو بقوة السلاح اذا لزم الامر . وقد عارض كاسلريه دعوة مؤتمر للانعقاد دون بيان الغرض من انعقاده بصورة واضحة جلية . وقد ظل مترنيخ معارضا لعقد المؤتمر حتى شهر يونيو ١٨٢٠ ،ولكنه سرعان ماتخلى عن موقفه عندما حدث في شهر يوليو ١٨٢٠ ان اشتعلت الثورة العسكرية في نابولى واضطر ملكها فرديناند الاول الى قبول دستور ١٨١٢ الاسبانى (اى استصدار دستور مثله) فكان لهذا الحادث الذى هدد بالزوال النظام الحكومى النمسوى في ايطاليا ،أعظم الاثر في تشكيل الخطة التى اعتزم مترنيخ اتباعها .

عارض كاسلريه الدعوة الى عقد مؤتمر واضطر امام التوسع المفرط في تفسير تعهدات فينا الى اعلان موقفه ، فأصدر في ٥ مايو ١٨٢٠ وثيقة رسمية مطولة اتخذت اساسا للسياسة الخارجية البريطانية في القرن التاسع عشر

وقد قال كاسلريه فى تلك الوثيقة : " لقد كانت (المحالفة بين الدول العظمى) اتحادا لاستعادة جانب كبير من القارة الاوروبية وتحريره من السيطرة العسكرية الفرنسية . وبتحقق هزيمة الفاتح نابليون بسطت المحالفة حمايتها على اوضاع التملك التى أقرها الصلح - بيد انه لم يقصد بها ان تكون اتحادا لحكم العالم او للاشراف على الشؤون الداخلية للدول الاخرى ،وقد تحوطت على وجه التخصيص ضد انتهاك فرنسا " لاوضاع التملك " التى تم اقرارها فنصت على الحيلولة دون عودة المغتصب (نابليون) أو أى فرد من أفراد أسرته الى العرش ،وجعلت الحكم الثورى الذى زلزل فرنسا ودمر اوروبا موضوع انشغال بالها دائما - ولكن الاحتياطات التى انتوت اتخاذها كانت تنصب بصفة خاصة ضد الحكم الثورى فى طبيعته العسكرية القائمة فعلا فى فرنسا اكثر مما تنصب على المبادىء الديمقراطية التى كانت فى ذلك الحين ،كما هى الآن،منتشرة بصورة عامة جدا فى شتى أنحاء أوروبا....

"..... وليس ثمة ماهو اكثر ضررا لدول القارة من اتخاذ شؤونهم مادة للمناقشة اليومية فى برلماننا ، وهو الامر الذى سيترتب حتما على اسراع بعض الدول باقحام نفسها فى شؤون الدول الاخرى ،اذا نحن وافقنا

على المضى معهم بخطى متساوية فى مثل هذا التدخل.....

" ... والواقع ان شعورنا ليس واحدا ،ولايمكن ان يكون كذلك بالنسبة لجميع المسائل . فان وضعنا ونظمنا وطرائق تفكير شعبنا ومشاريه تجعلنا نختلف عن غيرنا اختلافا جوهريا .....

" ... وما من بلد يتبع نظام حكم نيابى يستطيع ان يتصرف وفقا لهذا المبدأ (مبدأ تدخل دولة بالقوة فى الشؤون الداخلية لدولة اخرى) - وكلما عجلنا باعلان انكار ان مثل هذا المبدأ يكون - على أى نحو - اساس محالفتنا كان ذلك أفضل ....

" ... ونحن - (انجلترا) - سنقف فى مكاننا عندما يتهدد نظام اوروبا (الاقليمى) خطر حقيقى، ولكن هذا البلد لايمكن ان يتصرف ولن يتصرف وفق مبادىء الحيطة المجردة القائمة على التكهنات .... "

لقد أوضح كاسلريه انه يعتبر الثورة الاسبانية مسألة داخلية لاتشكل خطرا على البلاد الاخرى ،وانه لايرى مبررا لتأييد انجلترا أية محاولة لقمع تلك الثورة بالقوة واوضح الديبلوماسى للقارة بأنانجلترا تدين بأسرتها

الممالكة الحالية ودستورها لثوة داخلية . ومن ثم فانها لاتستطيع ان تنكر على البلاد الاخرى هذا الحق نفسه في تغيير شكل حكوماتها . وفضلا عن ذلك فان الحكومة الانجليزية لا تستطيع ان تتصرف دون تأييد برلمانها وشعبها ،وهما لم يخطرا بأية التزامات سوى تلك التى تم الاتفاق عليها فى فينا على النحو الذى أوضحه وأكد ان انجلترا سوف تفى بتلك الالتزامات ولكنها لاتعترف بالتزامات سواها .

وعلى أية حال كانت الثورة التى نشبت فى نابولى مصدر خطر كبير على نظام مترنيخ برمته فى ايطاليا . وانتهز مترنيخ فرصة وجود القيصر الروسى فى وارسو واقترح عليه ان يعقد مع امبراطور النمسا اجتماعا يكون مقصورا عليهما وحدهما لبحث المسائل التى تشغل الاذهان وقتئذ ،ولكن القيصر اسكندر رفض ان يتم تفاهم منفصل بين الامبراطوريتين وحدهما فقط ومن غير ان يشركا معهما بقية الدول التى وقعت على تصريح اكس لاشابل فى ١٥ نوفمبر ١٨١٨ . وقد لقى هذا الرأى ايضا كل تأييد من فرنسا . ولكن كاسلريه رفض المساهمة فى مشروع قال ان من شأنه ،وبالصورة التى يريدها مترنيخ انشاء محالفة عدائية ضد نابولى و ارغام انجلترا على الاشتراك

فى الحرب التى سوف تكون نتيجة هذه المحالفة العدائية وعندئذ لم يجد مترنيخ مناصا من قبول الفكرة التى نادت بها روسيا وأيدتها فرنسا لدعوة مؤتمر للانعقاد على غرار مؤتمر اكس لاشابل .

حضر هذا المؤتمر روسيا وبروسيا والنمسا وفرنسا ، ولما كان كاسلريه مترددا فى حضور مثل هذا المؤتمر فقد أرسل شقيقه لورد ستيورات Stewart لتمثيل انجلترا فيه . ومنذ البداية كان مقضيا بالفشل على أمل مترنيخ فى ان يجمع كلمة الدول على عمل مشترك لتأييد سياسة النمسا فى ايطاليا . ولكن انجلترا سعت جاهدة لتجنب مبدأ التدخل من بداية المؤتمرات الى نهاية عهدها ،وتمسك كاسلريه بالفكرة الاساسية التى اوجدت التحالف ،وقصر مهمته على تأدية الغرض الذى وجد من أجله . وهكذا رفضت انجلترا مبدأ التدخل و أيدتها فرنسا فى ذلك . واعتمد مترنيخ حينئذ على تأييد قيصر روسيا ،واستنادا على هذا التأييد استطاع مترنيخ ان يغفل معارضة انجلترا وفرنسا ،فتعددت اجتماعات ممثلى الدول الثلاث : النمسا وروسيا وبروسيا وأسفرت هذه الاجتماعات عن عقد بروتوكول تروبا و الذى وقعه اعضاء الحلف المقدس فى ١٩ نوفمبر ١٨٢٠ . ومع ان انجلترا رفضت التوقيع

على هذا البروتوكول ،فقد انضمت اليه فرنسا خشية العزلة السياسية .

و نص بروتوكول تروبا و على ان"الدول التى يحدث تغيير فى حكوماتها بسبب قيام ثورة بها ،ويترتب على هذا التغيير تهديد للدول الاخرى ،تفقد بحكم الضرورة عضويتها فى التحالف الاوروبى ،وتظل خارج التحالف ومستبعدة منه الى ان يجىء الوقت الذى يعطى الموقف الداخلى فى هذه الدول الضمانات اللازمة لتأييد النظام القانونى ،والاستقرار . أما اذا نجم عن هذه التغييرات اخطار مباشرة تهدد الدول الاخرى ،فالدول المتحالفة تتعهد فيما بينها بارجاع الدولة المذنبة الى حظيرة التحالف (او الاتحاد الاوروبى) اما بالوسائل السلمية ، واما بقوة السلاح اذا لزم الامر " ولقد نقد كاسلريه هذا البروتوكول نقدا مرا ،لان انجلترا كما قال لايمكنها الموافقة على نظام من شأنه ايجاد نوع من حكومة عامة فى اوروبا لها من السلطان ماتستطيع به تحطيم السيادة العليا فى داخل الدولة . وكعضو من اعضاء المحالفة لاتستطيع انجلترا كذلك تحمل مسؤولية القيام بأعمال بوليسية من قبيل مايريده أصحاب هذا البروتوكول.

مؤتمر ليباخ (Laibach) :

تأجل مؤتمر تروباو من غير الوصول الى قرار بشأن المسألة الايطالية على ان يجتمع المؤتمر فى يناير عام ١٨٢١ فى مدينة ليباخ ،على ان يدعى لحضوره فرديناند الاول ملك نابولى لان الدول الثلاث رفضت المفاوضة مع حكومة ثورية . وانعقد المؤتمر فيما بين ٨ يناير و ١٢ مارس ١٨٢١ و حضره امبراطور النمسا وقيصر روسيا ومترنيخ وفرديناند الاول ملك نابولى . وقرر المؤتمر، او بمعنى أصح اعضاء الحلف المقدس (النمسا وروسيا وبروسيا) الغاء دستور نابولى ،ثم عهد ثلاثتهم الى النمسا بمهمة تنفيذ هذا الالغاء بالقوة العسكرية. ولذلك أرسلت النمسا جيشا الى نابولى أخمد الثورة الدستورية وأعاد الى فرديناند سلطاته الاستبدادية . وقبل ان يختتم المؤتمر أعماله استنجد به ملك سردينيا ضد رعاياه الثائرين ،فأرسلت النمسا الجيش الذى جمعته فى لمبارديا لهذه الغاية دائما لاخماد الثورة فى بيد مونت ،و أعيد بفضل هذا الجيش النظام القديم الى سردينيا.

وفى مايو ١٨٢١ انفض المؤتمر بعد ان أعد منشورا جاء فيه ان الهدف من التحالف الاوروبى انماهو تأييد المعاهدات القائمة والمحافظة على السلام العام وتحقيق

سعادة الامم ،وان التغييرات النافعة والضرورية من الناحيتين التشريعية و الادارية ،والتى تحدث فى داخل الدولة يجب ان تأتى من جانب أولئك الذين أعطاهم " الله " مسؤولية الحكم فى هذه الدول . وهكذا فان المؤتمر لم يقنع بتأييد مبدا التدخل Intervention الذى أسفر عنه مؤتمر تروباو ،بل عمل على ارجاع النظام القديم بحذافيره ،على اساس الاعتراف من جديد بالحق الالهى المقدس للملوك فى الحكم . وقد أدت تلك القرارات الى اتساع شقة الخلاف بين دول الحلف المقدس (روسيا والنمسا وبروسيا) وبين انجلترا بالذات ،مما عجل فى نهاية الامر بفشل نظام الاتحاد الاوروبى . فلقد أعلنت الحكومة الانجليزية استنكارها لما حدث وعدم اعترافها به وتنصلها من تبعاته وتمسكها بما سبق ان اعلنته من قبل .

وفى اثناء انعقاد المؤتمر فى ليباخ قام اليونانيون بالثورة ضد الحكم العثمانى و طالبوا باستقلالهم عن الدولة العثمانية ،وقد نظر مترنيخ الى هذه الثورة على أنها تهديد للحكم الملكى أيا كان نوعه بصرف النظر عما اذا كان الملك فى هذه الحالة السلطان العثمانى المسلم . فليس هناك فارق بين الملك المسلم والملك المسيحى ،فالثورات تهدد كليهما على السواء. وكان من

رأيه ان يقوم بعمل من شأنه تأييد موقف السلطان العثمانى ليحول بذلك دون تدخل روسيا ضد الدولة العثمانية لنصرة اليونانيين . أضف الى هذا ان الثوار فى اسبانيا استطاعوا ان ينتزعوا من الملك فرديناند السابع دستورا أقيمت بفضله الحكومة الدستورية فى مدريد ،و هذا بينما كانت الثورة مشتعلة فى مستعمرات اسبانيا فى امريكا الجنوبية ،فأعلنت الارجنتين استقلالها منذ ٩ يوليو ١٨١٦ وأنشئت ديكتاتورية مستقلة فى براجواى منذ ١٨١٧،وأعلنت ديكتاتورية اخرى فى فنزويلا على يد سيمون بوليفار منذ عام ١٨١٣ ،واستطاع بوليفار كذلك ان يحرر كولومبيا فى اغسطس ١٨١٩ ،و بعد ذلك بعامين تحررت بيرو ،و فى مايو ١٨٢٢ أعلنت المكسيك استقلالها . وفى هذا الشهر ايضا أعلن بدرو Pedro نفسه امبراطورا مستقلا فى البرازيل . وازاء انتشار الثورة فى العالمين الجديد والقديم والتفكير فى التدخل العسكرى فى هذين العالمين من اجل اخماد الثورة بهما ،انعقد مؤتمر فيرونا فى منتصف اكتوبر عام ١٨٢٢ .

مؤتمر فيرونا Verona :

حضر المؤتمر امبراطور النمسا وقيصر الروسيا

وملوك بروسيا وسردينيا ونابولى و جراندوق تسكانيا ودوقة بارما ،ودوق سودينا ،ثم كثيرون من السياسيين وعلى رأسهم مترنيخ ٠ و مثل فرنسا وزير خارجيتها ،كما مثل انجلترا دوق ولنجتون ولورد ستيوارت شقيق كاسلريه ولم يحضر كاسلريه لانه مات منتحرا منذ ١٢ أغسطس ١٨٢٢قبل انعقاد المؤتمر ،ولم يشأ وزير خارجية انجلترا الجديد جورج كاننج الذهاب الى فيرونا لانه لايرتاح لسياسة مترنيخ ٠ و كان على المؤتمر ان يعالج مسألتى اسبانيا وايطاليا ،كما كان منتظرا ان تثير اهتمام المؤتمر الثورة التى قامت فى المورة ٠ ولكن المسألة الاسبانية استغرقت معظم نشاط المؤتمر ،وتركت مسألة ايطاليا من غير الوصول الىحل حاسم بشأنها ، كما لم يجرؤ المؤتمر على بحث المسألة اليونانية لاختلاف الدول فى أمرها٠

وفيما يتعلق بالمسألة الاسبانية فقد اظهر المندوبون الفرنسيون عزم حكومتهم على التدخل ليس فقط للقضاء على الثورة فى اسبانيا ،بل ولاخمادها فى مستعمراتها الامريكية كذلك ٠ وأيدت النمسا وروسيا وبروسيا المقترحات الفرنسية ،وفى ٣٠ اكتوبر قرر المؤتمر التدخل المسلح فى شؤون اسبانيا ،وفى ١٩ نوفمبر ١٨٢٢ بعثت هذه الدول بانذار الى مجلس الكورتيز الاسبانى و سحبت سفراءها

من مدريد . وامتنعت انجلترا عن مجاراة الدول فى هـــذا العمل ،فأعلن ولنجتون ان الحكومة الانجليزية لاتوافــق اطلاقا على أى تدخل فى شؤون الدول الداخلية ولاتؤيــده، وانفض مؤتمر فيرونا فى ١٤ ديسمبر من نفس السنة،وامـام هذا الاصرار فشل اعضاء المؤتمر فى ان يتدخلوا ككــل لاخماد الثورة الاسبانية . ولكن فرنسا تدخلت بمفردهـا وعلى مسؤوليتها الخاصة لقمع الثورة . وقد أغمضت انجلترا عينيها عن هذا التدخل المنفرد ،ونجحت فرنسا فى القضاء على الثورة وفى اعادة ملك اسبانيا الى عرشه مرة أخـرى. ولكن المسألة الاسبانية لم تقف عند هذا الحد ،بل مضـى وزير خارجية فرنسا شاتوبريـان Chateaubriand يريد اخماد الثورة فى المستعمرات الاسبانية فى امريكـا الجنوبية . ولكون هذه المشروعات لقيت معارضة من جانـب كاننج الذى أراد ان يظل العالم الجديد يعيش فى حريـة واستقلال وان يفتح ابوابه للتجارة الاوروبية ،ولانجلتـرا أكبر نصيب فى هذه التجارة ،وان يغلق أبوابه دون أى تدخل مسلح من جانب أوروبـا .

ولقد كان للموقف الذى اتخذه كاننج فى المسألـة الاسبانية ومستعمرات اسبانيا الامريكية اعظم الاثر فـى انحلال نظام مترنيخ بالصورة التى أظهرته بها فى هــذه

الآونة فكرة الاتحاد الاوروبى . حقيقة ان تمادى بعض الدول مثل روسيا والنمسا وبروسيا فى توسيع اختصاصات تلك المؤتمرات أدى الى فشلها . ولقد برر كانج عدم اشتراكه فى المؤتمرات بأسباب ثلاثة :

١) ان الشعب الانجليزى الذى بنى حياته الدستورية على اساس الثورة لا ينظر بعين الارتياح الى جلوس المندوب الانجليزى الى جانب مندوبى الدول الاستبدادية لعقد الاتفاقات السرية . واذا كانت انجلترا ستتمسك برأيها و بوجهة نظرها فيما يعرض عليها من مشاكل ،فان بريطانيا لايمثلها الا صوت واحد . فهى فى هذه الحالة لن تستطيع التغلب على اصوات الدول الاستبدادية العديدة .

٢) ان نظام المؤتمرات على النحو الذى سار فيه ،قد فرض القوة كوسيلة مشروعة للقضاء على الثورات الداخلية و التى تعتبر من الشؤن الداخلية لكل دولة ولا يجوز التدخل فيه . وان مبدأ التدخل هذا لاتقرة الحكومة الانجليزية ويأباه الشعب الانجليزى.

٣) ان هذه المؤتمرات لاتمثل الا الدول الكبرى فحسب ومن الضرورى ان تشمل المؤتمرات الدول الكبرى و الصغرى على حد سواء . فاهمال تمثيل الدول

الصغرى فيه جعل مصالحها عرضة للضياع ولتسلط الدول الكبرى عليها .

لقد صممت انجلترا على منع فرنسا ولو أدى ذلك الى استخدام القوة اذا ماحاولت قوات فرنسا عبور الاطلنطى والتدخل فى مسائل امريكا الجنوبية ،لأن مصالح انجلترا التجارية ستكون اذا فى خطر كبير . ولذلك اقترح كاننج دعوة الولايات المتحدة الى مؤتمر فيرونا وان تشترك فى مناقشاته . وكان الرأى العام فى انجلترا فى ذلك الوقت ميالا لمناصرة حرية الشعوب و مناهضة النظام الاوروبى القائم على ضغط آمال الشعوب و الحد من حريتها . ثم ماكانت انجلترا تستطيع ان تنسى ان مصالحها بحرية قبل ان تكون قارية ،وان لها تجارة مهمة مع امريكا الجنوبية . ثم هى دولة راسمالية تهتم بالانتاج الصناعى الكبير ومحتاجة الى اسواق عالمية . فهى اذا مستعدة لان تعترف باستقلال الدول الثائرة فى امريكا الجنوبية مهما أساء ذلك الى عواطف اسبانيا التى كانت حليفتها بالامس ضد نابليون . ومن ناحية أخرى عارضت الولايات المتحدة الامريكية كل تدخل يأتى من جانب اوروبا ،بالاخرى من جانب فرنسا فى شؤون امريكا

الجنوبية . وكان موقف الولايات المتحدة الامريكية على قدر كبير من الاهمية لأنه أسفر عن وضع مبدأ عام شامل يمنع العالم القديم (أى الدول الاوروبية) من التدخل فى شؤون العالم الجديد بأجمعه ،وليس فيما هو متصل بالمستعمرات الاسبانية وحدها فقط . فقد بعث الرئيس جيمس منرو (Monroo) فى ٨ مارس ١٨٢٢ برسالة الى الكونجرس الامريكى يوصى فيها بضرورة الاعتراف بكل مستعمرة اسبانية استطاعت التحرر و الخلاص ،أمة مستقلة .

ودارت مفاوضات بين كاننج والوزير الامريكى فى لندن هدفها استمالة الحكومة الامريكية الى استصدار تصريح مشترك بينها وبين انجلترا ضد أى تدخل اوروبى فى امريكا . ولكن الاقتراح الانجليزى لقى معارضة من جانب وزير الخارجية الامريكية و قتئذ John Quincy A dams الذى بنى رفضه للعمل المشترك مع انجلترا على اعتبارات عدة ،مبعثها خوفه من ان تؤدى هذه المشاركة الى دخول الولايات المتحدة ذاتها فى دائرة النظام الاوروبى الذى تسعى لانتزاع انجلترا منه ،ثم خوفه من ان التصريح المنشود ضد أى تدخل اوروبى فى امريكا لايلبث حتى يتخذ شكلا يدل على ان الدولتين ، انجلترا

والولايات المتحدة ليس غرضهما مجرد الحيلولة وحسب
دون استيلاء دولة اوروبية على قسم من املاك اسبانيا
فى امريكا بل انهما تتعهدان فوق ذلك بالامتناع ايضا
عن فعل ذلك ، الامر الذى يغل يد الولايات المتحدة
فلا تستطيع فى المستقبل الاستيلاء على بعض الاقاليم التى
كانت تريدها مثل تكساس Texas أو كيوبا Cuba
وكان آدمز يرغب على وجه الخصوص فى الاستيلاء قريبا
على كيوبا . فكان فى رأية اذا ان من الضرورى ان تبتعد
الولايات المتحدة كل البعد عن النظام الاوروبى ،وان تحرص
على ان يبقى الباب مفتوحا لتضم اليها ماتشاء من الاقاليم
فى المستقبل . أى أن آدمز لم يكن يريد التقيد
بتصريح يغل يد الولايات المتحدة عن العمل .

وتحت تأثير هذه الاعتبارات أصدر منرو تصريحه
المشهور الذى تضمنته رسالته الى مجلس الكونجرس الامريكى
فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣ . وكان هذا التصريح يشمل المبادىء
الآتية : وأولها ان الولايات المتحدة ليست لها أى مصلحة
ولاتريد التدخل فى شؤون اوروبا السياسية ،و أنها تريد
من الدول الاوروبية وتطلب منها الابتعاد عن التدخل
فى شؤون العالم الجديد السياسية بل انها لن تتردد

فى قتال آية دولة تحاول ان تفرض او تبسط سيطرتها السياسية فى امريكا ،وآخيرا ان الولايات المتحدة لاتتدخل فى شؤون المستعمرات والممتلكات الحالية التى للدول الاوروبية فى امريكا . ومع ان التصريح الذى تضمنته رسالة منرو الى مجلس الكونجرس الامريكى كان تصريحا من جانب واحد Unilateral فقد جاء محققا للاغراض التى آرادها كاننج . وبينما انتصرت الرجعية فى اسبانيا امكن ان تنجو امريكا الجنوبية من طغيان الحلف المقدس .

وهكذا تسببت سياسة كاننج فى فشل الحلف المقدس وتبعا لذلك فى اخفاق محاولة الدول ان تحكم اوروبا بطريق المؤتمرات . وسبب ذلك ان انجلترا ما كانت تجد فى هذه المؤتمرات مايحقق الاغراض التى آرادتها سياستها . ولم تكن احتجاجات كاننج مجرد عبارات بليغة وحسب ،عندما آخذ يتساءل عن ذلك النفوذ الذى قيل انه كان لانجلترا فى مشاورات التحالف الاوروبى ،و الذى قال كاننج ان مترنيخ كان يحث الحكومة الانجليزية على عدم التفريط به . ثم انبرى كاننج يقول : " لقد رفعنا صوتنا بالاحتجاج فى ليباخ ،وذهبت معارضتنا ادراج الرياح

فاذا كان لنفوذها ان يبقى قائما فى الخارج فالواجب ان يعتمد هذا النفوذ على مصادر القوة فى داخل بلادنا ، وتلك تكون بالتعاطف و التفاهم بين الشعب و الحكومة ، وتتم فى الاتحاد بين الشعور السائد والمشورة التى يتفق عليها الرأى العام ،ثم فى الثقة المتبادلة والتعاون الكامل بين مجلس العموم والتاج البريطانى ." و هكذا كان معنى تحطيم سياسة التدخل اخفاق فكرة الاتحاد الاوروبى ،و عندما تمسكت انجلترا بمبدأ عدم التدخل، كانت فكرة الاتحاد الاوروبى مقضيا عليها بالفشل كما ارادته الدول الاوتوقراطية . وانقسمت الدول الى قسمين : قسم الدول الاوتوقراطية وهى روسيا والنمسا وبروسيا (اعضاء الحلف المقدس الاصلية) ،وقسم الدول المتمسكة بالمبادىء الحرة و هى الدول الغربية انجلترا و فرنسا ثم الولايات المتحدة الامريكية التى وقفت الى جانب انجلترا فى مشكلة المستعمرات الاسبانية فى امريكا، فعطلت مطامع و أغراض الدول الاوتوقراطية الرجعية صاحبة مبدأ التدخل فى شؤون الدول الداخلية .

القسم الثاني

معالم التاريخ الامريكى الحديث

الفصل الخامس عشر

كشف امريكا

ان تاريخ قارة امريكا الشمالية محاط بالغموض والاسرار ويعتقد ان سكانها الاصليين من الهنود هاجروا من شمال آسيا الى الاسكا ومنها اتجهوا جنوبا الى المناطق الأكثر دفئا وحرارة. لعل أول من رأى سواحل امريكا من الاوربيين هم طلائع الاسكندنافيين المغامرون الذين جابوا البحار بسفنهم التجارية المستديرة ذات الشراع الواحد ليصلوا الى جرينلند حوالى عام ٩٨٥ م. وقد انطلقت سفنهم من هذه الجزيرة الكبيرة غربا. وهناك ما يدل على أنه حوالى عام ١٠٠٠ وصل ليف ايريكسون Leif Ericson وغيره بالفعل الى ما يسمى الان بالولايات المتحدة.

ولكن هؤلاء الشماليين لم يستطيعوا البقاء فى العالم الجديد او ان ينقلوا اخبارا موثوقة ومعتمدة عن اسفارهم. لذلك فان الفضل فى اكتشاف امريكا وفتحها يعود الى كريستوف كولومبوس الذى جاء ورأى ووصف وساعد على استعمار جزر الهند الغربية فيما بين ١٤٩٠ و ١٥٠٠ وقد كان كولومبوس بحارا .يطاليا ولد فى جنوه عام ١٤٥١، وقام بأول رحلاته البحرية الى ساحل الشام فى عام ١٤٧٤ - ١٤٧٥ وذهب فى عام ١٤٨٤ الى اسبانيا حيث استقر بها وعمل فى خدمة ملك اسبانيا فرديناند والملكة ايزابيلا . وقد كثرت المتناقضات حول الغرض الذى من اجله قام كولومبوس برحلاته. فالبعض يذهب الى القول بان الغرض من هذه الرحلات لم يكن اكتشاف جزر الهند الشرقية

أو جزر التوابل، بل البحث عن بعض الجزر فى المحيط الاطلسى.
وآخرون يرددون القصة القائلة بان توسكانيلى (Tesçanelli)
وهو عالم ايطالى قد ارسل فى عام ١٤٧٤ الى كولومبس خطابا يرد
فيه على خطاب الاخير الذى ارسله اليه من قبل بشأن أخذ رأيه فى
مشروع وصوله الى قارة آسيا عن طريق الاتجاه ناحية الغرب ويقول
فيه انه من الممكن تحقيق ذلك المشروع وان كثيرا من الفوائد
السياسية والتجارية سوف تعود من وراء نجاحه . على اى حال فان
كولومبس يذكر لنا فى يومياته ان ملك اسبانيا قد امره بالذهاب
الى الهند عن طريق الغرب والابتعاد عن الطريق البرى المعروف الذى
يتجه ناحية الشرق .

ولقد كان اكتشاف امريكا مصادفة بحتة ، وكانت الدولة العثمانية
هى المتسببة فى هذا الاكتشاف . ولما كانت بلاد اوربا الغربية
تخشى قوة الاتراك فقد صممت على الوصول الى اسيا بطريق آخر
لايسيطر عليه الاتراك . واذا كان العالم كرويا كما يدعى معظم
الجغرافيين فلماذا لايمكن الأبحار من اسبانيا الى الغرب حتى
الوصول الى اليابسة التى لابد وان تكون آسيا . لكن كولومبس
ومعاصريه لم يعرفوا ان امريكا الشمالية والجنوبية تقف فى طريق
الابحار غربا الى آسيا . وهكذا عبر كولومبوس والمكتشفون الذين
تبعوه المحيط الاطلسى ووصلوا جزر بهاما (Bahamas) وبناما
وامريكا الجنوبية ، واعتقدوا انهم وصلوا الى هدفهم . ولم يمتد
بكولومبوس الاجل ليعرف انه وصل الى جزر الهند الغربية وليس الهند
الشرقية . ولم يكتشف الخطأ الا بين عامى ١٥١٩ - ١٥٢٢ عندما
مرت حملة فرديناند ماجلان الاسبانى حول الطرف الجنوبى لامريكا

الجنوبية ومنها عبر المحيط الهادى الى آسيا. ولقد قتل سكان الفلبين ماجلان، لكن رجاله تابعوا تقدمهم، فابحروا حول افريقيا عائدين الى اسبانيا، وبذلك لم يبرهنوا على ان الارض كروية فحسب بل ان مساحتها فاقت تصور الجغرافيين.

واخذت امريكا اسمها من اميرجو فسبوتشى Amerigo Vespueci وهوفلورنسى اكتشف ساحل البرازيل عام ١٥٠١، وكان اميرجو هو الشخصية الثانية بعد كولومبوس التى لعبت دورا كبيرا فى اكتشاف العالم الجديد، اذ ذكر بعض الباحثين انه قام بأربع رحلات متتالية الى هناك فى عام ١٤٩٧، ١٥٠١، ١٥٠٣، ولقد كتب كتابة غزيرة ومفصلة من رحلاته عند عودته حتى ان شهرته فاقت شهرة كولومبوس . وهكذا عندما كان واضعوا الخرائط يبحثون عن اسم يطلقونه على العالم الجديد. فقد شاءوا ان يكرموا فسبوتشى وأطلق اسم امريكا على العالم الجديد فى عام ١٥٠٧ .

سبقت اسبانيا غيرها من الامم الصغرى فى سنوات الفتح الاولى فقد قاد هرناندو كورتيز (Hernando Cortez) حملة مسلحة ضد المكسيك واحتلتها فى ١٥٢١ وجعلتها مستعمرة اسبانية وفى اثناء توغل الاسبان فى غابات امريكا الاستوائية، اتجه بعضهم شمالا وتاهوا فيما يعرف الان بالولايات المتحدة، ووصل بونس دوليون Ponce de Leon الى فلوريدا ولكنه فشل فى محاولة تأسيس مستعمرة فى تامبا عام ١٥٢١ . وقد تحطمت سفينة كابيزا دوفاكا Cabeza de Vaca فى خليج المكسيك وتاه فى انحاء تكساس حتى وصل الى كاليفورنيا بصحبة الهنود المعجبون به والذين

اعتبروه الهاء واكتشف هرناندو دوسوتو Hernando de Soto في عام ١٥٤١ نهر المسيسيبي العظيم الذى يمر في قلب امريكا الشمالية وكان كورونادو Coronado المغامر يبحث عن الذهب فيما يعرف بكنساس الان. وحدث اول استيطان دائم في الولايات المتحدة في سانت اوجسطين في فلوريدا عام ١٥٦٥، فقد بنى الاسبان قلعة كبيرة لحماية القرية من الهنود الغزاة وغيرهم من القوى الاجنبية.

وبدأ اهتمام فرنسا وانجلترا وهولندا والسويد والبرتغال يزداد بالعالم الجديد. فعبر جون كابوت (John Cabot) وهو رجل ايطالى يقود سفينة انجليزية المحيط الاطلسى وتوغل باتجاه الشمال مستكشفا لبرادور ونيوفوندلاند في عام ١٤٩٧، وقد اصبحت رحلة الاساس الذى بنت عليه انجلترا حقها في قارة امريكا الشمالية. فأدعى التاج البريطانى ملكيته لمساحات شاسعة من العالم الجديد بعدئذ. وقام الإنجليز بتأسيس اول مستعمرة من المستعمرات التى عرفت فيما بعد باسم الولايات المتحدة الامريكية (جيمستون عام ١٦٠٧ (James Town) وقد اكتشف فرازانو Verrazano تحت لواء العلم الفرنسى ساحل الاطلسى الشمالى من منطقة كارولينا الشمالية والجنوبية الى نيوفوندلاند عام ١٥٢٤، وشق جاك كارتييه Jacques Cartier لصالح فرنسا طريقا في نهر سانت لورنس حتى مونتريال في كندا عام ١٥٣٥ .

اما أحداث اوربا في ذلك الوقت فقد اتخذت اتجاها من شأنه ان يساعد على البت في تقسيم الممتلكات في العالم الجديد، وكانت انجلترا تراقب السفن الاسبانية وهى عائدة من منطقة الكاريبى

محملة بالذهب بضيق متزايد. ويضاف الى هذه العوامل كره انجلترا لاسبانيا ، لان انجلترا اصبحت دولة بروتستانتية نتيجة لحركة الاصلاح الدينى فى اوربا ، بينما اعتبرت اسبانيا نفسها حامية للمذهب الكاثوليكى. وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عهد الملكة اليزابيث جاب البحارة الانجليز امثال هوكينز Hawkins وكافندش Cavandish وسير فرانسيس دريك Drake بحثا عن سفن اسبانية لكى ينهبوا ما فيها من ذهبه وقد وافقت الملكة اليزابيث على المغامرات التى قام بها هؤلاء القراصنة.

وغضب فيليب ملك اسبانيا من هذه الهجمات التى كانت تؤثر كثيرا فى تجارته ، وقرر فى عام ١٥٨٨ ان يضع حدا لهذه الهجمات بأن يغزو انجلترا باسطوله الارمادا. ولكن السفن الانجليزية قامت بتحطيم الارمادا عند دخولها القناة الانجليزية . وقد تبع ذلك عاصفة كان من شأنها تدمير الارمادا تدميرا كاملا. ونتيجة هذه الهزيمة تحطمت قوة اسبانيا البحرية ، ولم تعد تستطيع منافسة الانجليز فى السيطرة على الساحل الامريكى الشمالى حيث كانت حركة الاستيطان تمر بمرحلة جديدة .

وبدأت انجلترا فى تأسيس امبراطورية المستعمرات عام ١٥٧٨ عندما منحت الملكة اليزابيث المجارب القديم هيمفرى جيلبرت Gilbert امتيازا بأن يسكن ويمتلك جميع الاراضى البعيدة والوثنية التى لايملكها امير مسيحى، فقاد جلبرت حملة الى نيوفوندلاند، الا انها فشلت بسبب الطقس البارد، وفقد جيلبرت فى البحر فى طريق العودة. وبعد ست سنوات اختارت اليزابيث القطعة الساحلية الممتدة بين نهر سانت لورانس فى الشمال وفلوريدا فى الجنوب ليستوطن فيها

الانجليز وسمتها فرجينيا Virginia وهذه البقعة تكاد تكون كل الساحل الشرقى لامريكا الشمالية. وقد عهدت الى احد افراد البلاد المقربين اليها وهو السير والتر رالى Raleigh بان يجد مكانا ينزل فيه فى هذه المنطقة. وارسلت عدة حملات الى جزيرة رونوك Roanoke التى تبعد عن ساحل كارولينا الشمالية وذلك بين ١٥٨٥و ١٥٨٧، وقد عادت اول حملة بعد ان وجدت عداء الهنود واحوال المعيشة بصورة عامة غير محتملة، وآسوا من ذلك ان الامداذات الضرورية لم تصلهم. اما الحملة الاخيرة فقد اكتنفها الغموض اذ اختفى المستوطنون ومن بينهم أول طفلة تولد من ابوين انجليزيين فى امريكا ولم يسمع احد عنهم شيئا. غير ان هذه المصاعب لم تقلل من عزيمة الشعب الانجليزى، وذلك بفضل قيادة الملكة اليزابيث وانتصار الانجليز على الارمادا العظيمة. ولقد تمثلت طاقة الشعب الانجليزى وعزيمته فى التغييرات التى طرآت على نمط معيشة الامة، فى الطوائف الجديدة المتعددة من بروتستانتية وبيوريتانية حيث كان افراد هذه الطوائف يستطيعون مخالفة دين الدولة الرسمى، واختيار طرقهم الخاصة للعبادة، وقد تجلت ايضا فى ظهور رجل الاعمال من الطبقة الوسطى الذى جمع من المال ما يكفيه فى عمله الخاص وبقى معه قليل يستثمره فيما وراء البحار.

وعلى ذلك اخذ رجال الاعمال الانجليز يؤسسون الشركات لتشجيع حركة الاستيطان فى امريكا. وكانوا لا يلاقون صعوبة كبيرة فى جمع الناس الذين يرغبون فى الهجرة، ذلك ان البلاد كانت تجتاز ازمات اقتصادية حادة ازداد فيها عدد العاطلين من العمل، وطرد كثير من المزارعين من اعمالهم نتيجة لانهيار النظام الاقطاعى

القديم. وفى مثل هذه الظروف كان العالم الجديد يجذب اليه كل من يبغى فرصة ليبدأ حياته من جديد ويبنى بيته الخاص وقد كان البعض الاخر الذين كانوا على خلاف مع الكنيسة الرسمية يتطلعون الى قفار امريكا الشمالية كملجأ لحرية العبادة.

ففى عام ١٦٠٦ منح الملك جيمس الاول امتيازات لشركتى لندن وبليموث تخول لها حق تأسيس مستعمرة فى فرجينيا، وحق سك العملة هناك، وفرض الضرائب وسن القوانين، مع الاحتفاظ بسلطات واسعة للملك. ولم تهتم شركة لندن باحتجاجات الاسبان الذين طالبوا بكل امريكا الشمالية، وارسلت ثلاث سفن صغيرة بقيادة القبطان كريستوفر نيوبورت الى خليج تشيزابيك فى فرجينيا، ونزلوا فى شبه جزيرة صغيرة سموها جيمس تاون تكريما للملك. وكان هذا أول استيطان انجليزى دائم فى الولايات المتحدة. ولم تصمد هذه المستعمرة الا بالجهود التى بذلها القبطان جون سميث John Smith وهو الجندى المغامر والجغرافى والكاتب فنجح فى اقناع الهنود بامداد رجال المستعمرات بالقمح لانقاذهم من الجوع الذى كان يهدد حياتهم، وعندما بدأت جيمس تاون تبنى أكواخها وقلاعها ظهرت الحاجة لايد العاملة، ولذلك فقد احضرت شحنة من الزنوج العبيد عام ١٦١٩ الى المستعمرة، وبذلك بدأ نظام قدر له ان يقسم امريكا الى حرب اهلية فيما بعد،وان يصبح فى الواقع مشكلة متشعبة لايزال الامريكيون حتى اليوم يتصارعون من اجلها. وقد تأسست الحكومة الديمقراطية فى جيمس تاون فى نفس العام الذى وصل فيه الرقيق. وفى عام ١٦٢٥ كان يقطن فرجينيا ما يزيد من الالف مستوطن .

اما المستعمرة الانجليزية الثانية، فقد تأسست فى بليموث

Plymouth وكونتها جماعة عرفت باسم البيوريتان Puritans

اى المتطهرون الذين جاءوا الى شواطىء ماساتشوستس Massachusetts

فى عام ١٦٢٠ على السفينة الصغيرة ماى فلور Mayflower وعرفهم

التاريخ منذ ذلك الوقت باسم المهاجرين او الحجاج. وكان هؤلاء

البيوريتان او المتطهرون قد رحلوا قبل ذلك من انجلترا الى

امستردام، ومنها الى ليدن Leyden هربا من اضطهاد الملك جيمس

الاول (١٦٠٣ – ١٦٢٥)، عندما حاول ارغام المعارضين للكنيسة القومية

على تأييدها. وفى هولندا فكر هؤلاء الحجاج فى السفر الى فرجينيا

ولكن العواصف وبعض التغييرات التى طرأت على خططهم جعلتهم يبتعدون

الى الشمال. وايقن الحجاج بأنهم قدموا الى ارض ليس لاحد عليها

سلطان ، فقاموا بتكوين مستعمرة جديدة هناك، ووضعوا ميثاقا لحكومتها

فيما بينهم قبل نزولهم الى الشاطىء وهو اتفاق ماى فلور Mayflower

Campact . ووقع ذلك الميثاق كل البالغون من الرجال

من المهاجرين، ثم انتخبوا جون كارفر Carver من بينهم ليكون

اول حاكم للمستعمرة. واكد المهاجرون فى هذا الميثاق انهم رعايا

مخلصون للملك الانجليزى، وانهم قد جاءوا للعمل على تقدم العقيدة

المسيحية ، وانشاء اول مستعمرة شمالى فرجينيا. كما تعهدوا باقامة

حكومة فى المستعمرة للاهتمام بامورهم جميعا ، وتحقيق الاهداف التى

صابروا من اجلها ، وتعهدوا بالولاء لهذه الحكومة وطاعتها ، واستطاع

هؤلاء المهاجرون مصادقة الهنود الذين علموهم طريقة زراعة القمح

وكيفية التغلب على الظروف الطبيعية القاسية .

وقد توطدت الامور فى الرقعة الضيقة على ساحل ماساتشوستس بشكل

قوى فى السنوات التالية. وانهكت المنازعات الدينية انجلترا من

جديد، فقد اعترض البيوريتان على الكنيسة الانجليزية وحذرتهم الحكومة بوجوب دعم الدين الوطنى او بترك البلاد ولقد اخذ لود Laud ، رئيس الاساقفة يلاحق المنشقين ويخرجهم من البلاد وهكذا اخذوا يندفعون نحو البحر باعداد متزايدة وقد حصلوا على امتيازات من التاج بأن يستوطنوا فى مناطق مختلفة من الساحل الاطلسى الشمالى. وفوض الملك شارل الاول شركة خليج ماساتشوستس ان ترسل جماعة من البيوريتان الى المنطقة المحيطة ببوسطن حيث يمكنهم ان يحكموا انفسهم ضمن حدود القانون الانجليزى. كما كان تدفق المهاجرين فى اسفل الساحل شديدا ايضا. فقد استعمر الانجليز الكاثوليك الذين تضايقوا من وجودهم فى محيط بروتستنتى مقاطعة مارى لاند عام ١٦٣٤، واتجه الكويكرز Quakers الى بنسلفانيا عام ١٦٨٢. وفى الواقع لم ينقطع سيل المهاجرين الاوروبيين الى امريكا والذى بدأ منذ مطلع القرن السابع عشر. وفى بداية القرن الثامن عشر تقريبا، اقام الهولنديون مستعمرة فى امستردام الجديدة التى اصبحت نيويورك الان. ولكن فى حقيقة الامر نزل الانكليز فى كل مكان،وكانوا يكونون السواد الاعظم من سكان المستعمرات الانجليزية والتى بلغ عددها ثلاث عشرة ولاية اتحدت فيما بعد لتكون الولايات المتحدة الامريكية.

ولقد اهتمت فرنسا ايضا بحركة الاستيطان والاستعمار فى العالم الجديد، فقد اسس صامويل شامبلين Champlain وكان جنديا وبحارا سابقا، مدينة كويبك Quebec فى كندا عام ١٦٠٨ وكانت هذه اول مستعمرة فى فرنسا الجديدة. وجاء الفرنسيون بعد ذلك فى جماعات الى كندا، واكتشفوا بحيرة متشجان عام ١٦٣٤ ولقد قام

الجزويت بدور هام فى عمليات الاستعمار هذه ... وتوغل المبشرون الفرنسيون المتحمسون من كويبك فى المسيسبى الى قلب الغرب الاوسط يحملون الصلوات والطقوس الى الهنود طالبين الاراضى الشاسعة لملك فرنسا. غير ان الفرنسيين كانوا صيادين ومبشرين وتجارا اكثر منهم مستعمرين. فقد كانوا قليلى العدد، وكان بناء الامبراطورية التى اقاموها فى كندا حتى وادى المسيسيبى مستندا على العلاقات التجارية والنفوذ بين القبائل الهندية اكثر من استنادها على المستعمرات التى يسكنها العدد الوفير من السكان البيض. ولكن وجهت فرنسا بعد ذلك عناية خاصة لميدان الاستعمار بفضل سياسة الوزير الفرنسى كولبير الذى كان اول من ادرك قيمة البحرية والتجارة الخارجية والمستعمرات. ولذلك تدين فرنسا بما كانت تملكه من المستعمرات فى امريكا الشمالية الى نشاط الوزير كولبير . وقامت الشركات الفرنسية للتجارة مع جميع انحاء العالم ومنها شركة فرنسا الجديدة التى ساهمت فى استعمار امريكا. ونتيجة لذلك سيطر الفرنسيون على المنطقة الممتدة من كندا الى نيو اورليانز على خليج المكسيك محيطين بالمستعمرات الانجليزية من ناحية الشمال والغرب بطريقة تمنع توسعهم. وبذلك قام الصراع المباشر بين الفرنسيين والانجليز فى امريكا. ولقد تفوق الانكليز على الفرنسيين في العدد ، غير ان نظام الحكم فى المستعمرات الفرنسية لم يساعد على نموها لانها خضعت للحكم الفرنسى المباشر، ولم تتبع مبادىء الحرية التى سارت عليها المستعمرات الانجليزية.

اما بالنسبة لنظام المستعمرات الانجليزية، فقد تعاقب عدد من الحكام الانجليز على رئاسة المستعمرات الانجليزية المتكاثرة

باستمرار، فقد جاء اول الامر ملوك اسرة ستيوارت البروتستانت ومنهم جيمس الاول وشارل الاول، ثم جاء اوليفر كرومويل، وبعد سنتين من وفاته عام ١٦٥٨ عاد ملوك اسرة ستيوارته ولكنهم خلعوا نهائيا في ثورة ١٦٨٨ المجيدة . أما في عهد وليم وماري اوف اورنج فقد منح الشعب الانجليزي مزيدا من الممثلين في الحكومة .

ولقد ادرك جميع هؤلاء الحكام الاهمية المتزايدة لامريكا فحاولوا القبض على امور المستعمرات بحزم، ولكن الاضطرابات التي كانت تجري في ذلك الوقت والمسافات البعيدة حدت من سلطتهم . الا ان ذلك لم يحل دون اتخاذ بعض التدابير الشديدة . فقد كانت المستعمرات بالفعل تحت ادارة رجال الاعمال ورجال البلاد المقربين فمنحوا امتيازات من الملك، وكانت هذه الامتيازات تسمح بكثير من الحكم الذاتي، وكان اصحابها يسمحون للمستوطنين بادارة اعمالهم كما يشاءون طالما كانوا ينتجون ارباحا ويطيعون القانون الانجليزي ويظلون اوفياء للملك، ولكن بمرور الوقته كانت معظم امتيازات الشركات تلغى وتوضع المستعمرات تحت السيطرة الملكية المباشرة وهذا يعني تهديدا خطيرا للحكم الذاتي وادارة قاسية من العرش . وقد وصلت الامور الى درجة لاتطاق عندما ضم الملك جيمس الثاني نيو انجلند ونيويورك ونيوجرسي في مقاطعة ملكية واحدة في عام ١٦٨٦، وعين السير ادموند اندروز حاكما عليها، ولم يهتم هذا الحاكم الا بجمع المال والثروة للخزينة الملكية . فحل اندروز محاكم المستعمراته ونصب نفسه قاضيا وراقب الصحافة، وفرض الضرائب بالقطعة وعلى العموم اخذ يحكم دون ان يعير ارادة الشعب أدنى اهتمام. وعندما خلع الملك جيمس قام رجال ماساتشوستس بالقبض على اندروز

واعادته الى انجلترا ليحاكمه الملك الجديد. وفى حوالى ١٦٧٥ ، قامت ثورة اخرى فى فرجينيا ضد الحاكم الملكى السير وليم بركلى الذى اهتم بالاتجار فى الفراء مع الهنود اكثر من اهتمامه بشئون المستعمرة. وعلى اية حال، مر قرن آخر قبل ان ينفجر المستعمرون فى ثورة علنية ضد البلد الام، التى لازالت الغالبية العظمى تشعر بالولاء نحوها. وكانت فى معظم هذه المستعمرات تتكون من الحاكم ومجلس يعينه التاج او السلطة التى عينت الحاكم، وكان بمثابة هيئة تشريعية عليا، ثم مجلس تمثيلى ينتخبه سكان المستعمرة. ويشبه هذا النظام بطبيعة الحال نظام الحكم فى انجلترا.

وفى منتصف القرن الثامن عشر جاوز سكان المستعمرات المليون ونصف نسمة، وقد بقى العنصر الانكليزى هو السائد بالرغم من وجود كثير من الهولنديين فى نيويورك ونيوجرسى والهوجونوت الفرنسيين المبعثرين فى مواقع متعددة والالمان فى بنسلفانيا. كما وصل الاسكتلنديون والايرلنديون فى شكل جماعات كبيرة، وتوغلوا فى بنسلفانيا الى المراكز الامامية لحدود فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية ويضاف الى هؤلاء الاحرار العبيد الزنوج الذين جىء بأجدادهم من افريقيا، وبيع بعضهم فى نيوانجلند كخدم، وذهب عدد لابأس به منهم الى المستعمرات الوسطى، ولكن الاكثرية العظمى ارسلت الى الجنوب ليعملوا فى المزارع، وقد بلغ مجموعهم فى عام ١٧٥٠ حوالى ربع مليون. اما سكان امريكا الاخرون فكانوا يتراجعون ببطء الى الغرب، وكان عددهم عند مجىء الانسان الابيض الى امريكا حوالى ٨٠٠ ألف وقد كان الهنود يثورون من آن لاخر ويرتكبون مجازر مخيفة، وذلك لان اهل المستعمرات كانوا يسيئون معاملتهم

ولكن رجال المستعمرات كانوا يكيلون لهم الصاع صاعين .

وكان بيوريتان ماساتشوستس يتميزون عن بقية المستوطنين الاخرين فى المناطق الاخرى، فكانوا يؤمنون بالتربية ايمانا قويا فأسست جامعة هارفارد عام ١٦٣٦، واصبح التعليم فى المدارس الرسمية الزاميا قبل عام ١٦٥٠، من ناحية اخرى كان البيوريتان الذين استقروا فى نيوانجلند متعصبين لدينهم. وكانت حياة المدن الصغيرة فى نيو انجلند تتمركز حول الكنيسة والمدرسة وحقل القرية وبما ان السكان كانوا اكثر كثافة، فقد كانوا يشعرون بالتضامن والتعاون اكثر من جيرانهم الذين يبعدون عنهم فى اقصى الساحل. اما فى جنوب نهر البوتوماك Potomac حيث كان مزارعو فرجينيا وكارولينا مبعثرين كثيرا، فلم يكن سير الحاكم الذاتى الديمقراطى واضحا جدا فقد كان من الصعب جمع الجيران الذين تفصل بينهم عدة اميال لاجتماعات متكررة، وعلى ذلك اصبحت كل مزرعة تؤلف وحدة تحكم نفسها مثل المزارع الاقطاعية القديمة .

فتطور الجنوب طبقا لذلك، وظهرت فيه فروق بين الاغنياء والفقراء وخلافا لما هو موجود فى نيو انجلند، لم يكن يوجد فى الجنوب طبقة وسطى الا فى المدن الصغيرة. كما يتجلى هذا الفرق ايضا فى هندسة بناء المنطقتين، ففى الشمال كان معظم الناس يملكون بيوتا خشبية بيضاء ومرتبة، بينما فى الجنوب كان عدد قليل من اصحاب المزارع يملكون منازل فخمة كبيرة معظمها يقع فى اغنى الاراضى، بينما لم يتوفر لمعظم المزارعين البيض اكثر من اكواخ بدائية فى مزارع التلال. اما سكن الزنوج، فكان فى حالة من البؤس، اى لم يكن اكثر من غطاء يحميهم. وبرغم ان الذين كان

مهملا فى الجنوب الا انه لم يتميز بصرامة نيو انجلند. اما فى المستعمرات الوسطى فكان يوجد بها ملكيات كبيرة مثلما كانت توجد مزارع متوسطة وصغرى، واصبحت بنسلفانيا مستعمرة هامة استقر بها المزارعون الذين امتلكوا بيوتهم وعاشوا فى سلام مع جيرانهم الهنود. ولقد ازدهرت فيلادلفيا "مدينة المحبة الاخوية" واصبحت اهم مدينة فى امريكا فى القرن الثامن عشر، وقد ساعد على تقدمها بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin (١٧٠٦ - ١٧٩٠).

وينحصر تاريخ امريكا فى عهد المستعمرات فى معرفة كيف ان هذه المناطق المتفرقة فى البلاد اتحدت فى النهاية، ولكن كان لابد ان يعرفوا بعضهم البعض أولا. غير ان السفر قبل الثورة وحتى بعدها بعدة سنين، كان شاقا، اذ ان الطرقات كانت قليلة غير جيدة، وكان الطريق العملى الوحيد للانتقال الى كارولينا الجنوبية او الى جورجيا هو عن طريق البحر على الساحل الاطلسى وبرغم انفصال المستعمرات وتباعدها، فقد كانت تشعر برابطة متزايدة وقد اسست الاتصالات البريدية، واستوردت المطابع، وبالتدريج اخذت الافكار تنتشر عندما اخذت الرسائل والصحف والكراريس تجد طريقها الى ايدى الشعب. وفى البداية وجد شىء مشترك بين المستوطنين الذين امتدوا على ساحل طوله ألف ميل، فقد كانت الاكثرية انجليزية وتعيش فى ظل تقاليد انجليزية فى الحكم الذاتى يحاكمون من قبل محلفين، ويتمتعون بامتيازات اخرى تعطى للانجليز الاحرار وبمرور الوقت زاد التعامل بين المستعمرات، وتصرفت متحدة الرأى فى المسائل التى تتعلق بالمصلحة العامة، وقد حدث اول شىء من هذا النوع، عندما انضمت ماساتشوستس وبليموث وكونكتيكوت Connecticut

ونيو هافن New Haven الى حلف نيو انجلند، "فى صداقة ومودة ثابتين ودائمين فى الهجوم والدفاع والنصح والاسعاف المتبادلين وفى جميع مثل هذه الاحوال من اجل المحافظة على حقيقة وحريات الكتاب المقدس ونشرها من اجل سلامتهم ورخائهم المتبادل". وقد عقد مجلس حلف نيو انجلند اجتماعات لعدة سنوات. واخيرا انضمت ماساتشوستس وبلايموث وكونتا مستعمرة واحدة وكونت كونكتيكوت ونيو هافن مستعمرة آخرى.

ومما دفع امريكا البريطانية الى الاتحاد هو الصراع بين القوى الاوروبية لامتلاك القارة. فبدأت انجلترا وفرنسا تتنافسان وتعرضت مستعمراتهم لغارات سريعة على الحدود وهجمات الهنود الذين كانوا فى خدمة الفرنسيين والاسبان، ولذلك لعب هذا الخطر المشترك دورا فى توحيد المستعمرات الانجليزية .

وكانت الامبراطورية الفرنسية عام ١٦٨٩ تضم فى العالم الجديد اقساما واسعة من كندا ووادى نهر المسيسيبى والقسم المتوسط من الولايات المتحدة اليوم. وكانت ممتلكاتها تمتد من جبال الاليجانى Alleghany الى جبال الروكى، ومن كندا الى خليج المكسيك وهذه منطقة اكبر بكثير من الممتلكات الانجليزية المتراكمة على الساحل فى شريط ضيق شرقى جبال الاليجانى وبرغم اتساع الامبراطورية الفرنسية فى العالم الجديد، الا انها لم تحتو على اكثر من ١٨٠٠٠ ، مستعمرة ، يقابلهم ٢٠٠،٠٠٠ من المستعمرات الانجليزية فى الشرق. ولكن مما عوض من قلة عدد الفرنسيين قدرتهم على التحالف مع الهنود فكانوا يعاملونهم كاخوانهم ويتزوجون منهم. وقد بدأ النضال من اجل القارة الامريكية فى عام ١٦٨٩، عندما قامت حرب

الملك وليم ، وهى الحربالتى قامت بين فرنسا الكاثوليكية وانجلترا البروتستنتية وامتدت هذه الحرب الى امريكا وانتشرت فيها ، وكانت بالنسبة للانجليز بمثابة حرب البقاء. واستمر ذلك النضال من اجل القارة ثلاثة ارباع القرن. وكانت مستعمرة نيويورك تمتد الى الغرب عبر فجوة فى جبال الاليجانى حتى البحيرات العظمى، والى الشمال حتى الحدود الكندية . فاذا امكن للفرنسيين انتزاع هذه المستعمرة من انجلترا، فان اراضى بريطانيا فى امريكا تنقسم الى قسمين، وعندئذ يمكن لاعلام فرنسا ان تسير شمالا وجنوبا على طول الساحل الاطلسى حتى تتقلص قبضة انجلترا عن العالم الجديد. وتتحطم الى الابد، ولكن حرب الملك وليم انتهت دون حدوث نتيجة حاسمة وتبعها فى عام ١٧٠١ حرب الوراثة الاسبانية التى كان لها جانب امريكى يسمى بحربالملكة آن (١٧٠٢ - ١٧١٣) . ولقد قامت الحرب اساسا بسبب مطالبة لويس الرابع عشر بعرش اسبانيا وتنصيب حفيده عليه ، وكان بعمله هذا يأمل ان يوجد تحالفا بين فرنسا الكاثوليكية واسبانيا ضد انكلترا البروتستانتية . وعندما امتد القتال الى امريكا قام الهنود بهجمات ناجحة ضد كل من كارولينا الشمالية والجنوبية ونيو انجلند، ولكن فرنسا تنازلت عن نيوفوند لاند واراضى هامة اخرى الى البريطانيين بمقتضى معاهدة اوترخت Utrecht عام ١٧١٣.

ثم قامت حرب اخرى تعرف باسم حرب الوراثة النمسوية ، وكان لها صداها فى العالم الجديد ايضا . ولكن هذه الحرب قادت فرنسا الى القيام بحرب ضد انجلترا فى العالم الجديد والهند. ولذلك سمى الجانب الامريكى من تلك الحرب باسم حرب الملك جورج (١٧٤٣

١٧٤٨) . وفيها احتلت انكلترا القلعة القومية فى لويزبرج Louisburg وانتهت الحرب بعقد معاهدة اكس لاشابل Aix - la Chappell ونص الصلح على ارجاع الامور فى المستعمرات الى ماكانت عليه قبل الحرب، فاعيدت لويزبرج الى فرنسا. ولم يستطع الصلح او غيره الاسهام فى تسوية المسائل الحيوية بالنسبة للتنافس الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا فى امريكا، اذ ستندلع بعد قليل الحرب المعروفة باسم حرب السنين السبع فى اوربا (١٧٥٦ ١٧٦٣) والتى ستتحالف فيها فرنسا مع النمسا ضد بروسيا وانجلترا وقد سمى الجانب الامريكى من هذه الحرب باسم الحرب الفرنسية الهندية (١٧٥٥ - ١٧٦٣) .

ولقد كانت انجلترا تعلم ان هذه الحرب ستستنزف الكثير من مواردها، وان كل مساعدة تستطيع الحصول عليها من الامبراطورية سترجح الكفة، لذلك خولت المستعمرات الامريكية فى عام ١٧٥٤ حق حشد جميع ما تملك من قوى وتم المطالبة بعقد مؤتمر فى البانى Albany فى نيويورك. وحضر هذا المؤتمر عدد من اكبر مفكرى امريكا من بينهم بنجامين فرانكلين ممثلا عن بنسلفانيا، وستيفن هوبكنز ممثلا عن رود ايلاند، وتوماس هتشنسون عن ماساتشوستس واجتمعوا للنظر فى المسائل الكفيلة بدفع خطر الحرب الفرنسية الهندية، وقادهم البحث الى التفكير فى مستقبل نظام المستعمرات الانجليزى فى امريكا كله. وقد تقدم فرانكلين بخطة هامة للاتحاد بموجبها تختار الجمعيات العامة للمستعمرات مجلسا عاما مؤلفا من ثمانية وأربعين عضوا وتتألف واجبات المجلس من ايجاد جيش للمستعمرات وفرض الضرائب والاشراف على العلاقات مع الهنود الحمر. ومعالجة

الامور الهامة ، ويرأس هذا المجلس رئيس عام يعينه الملك. ولكن حكام المستعمرات رفضوا خطة فرانكلين لانها تدعو الى كثير من المركزية فى السلطة والى التخلى عن الحكم المحلى. وقد خشى الانجليز من هذه الخطة لانها تعطى المستعمرات ككل مزيدا من الاصوات فى مشاكلهم الخاصة بشكل لايتفق ومصالح انجلترا فى تلك الظروف. وبرغم فشل خطة البانى Albany فان اهميتها فى التاريخ الامريكى عظيمة لانها اعطت سكان المستعمرات فكرة الاتحاد التى قدر لها فيما بعد ان تتطور وتصبح الكونكرس القارى :
Continental Congress الذى حكم امريكا خلال السنوات الاولى من استقلالها.

وخلال الحرب الفرنسية الهندية استولى الانجليز مرة اخرى على لوزيزبرج التى كانت تعتبر مفتاح كندا. واخيرا تم الهجوم على كندا نفسها، او فرنسا الجديدة، ودارت المعركة الفاصلة فى كويبك عام ١٧٥٩، وتلى هذا الانتصار عمليات تطهير فى كندا استغرقت أربع سنوات. وبرغم خبرة الفرنسيين فى كندا، واستعدادهم للحرب فى كندا كانوا مدربين للحرب، فلقد انتصر الانجليز بسبب قوتهم البشرية الهائلة فى مستعمراتهم الثلاث عشرة. وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة باريس عام ١٧٦٣، وتخلت بمقتضاها انجلترا عن كندا كلها، وعن المنطقة الواسعة شرقى نهر المسيسيبى ماعدا نيو اورليانز التى اعطيت الى اسبانيا. وقد تنازل الفرنسيون ايضا للاسبانيين عن ممتلكاتهم غربى المسيسيبى وسمح لهم بالاحتفاظ بجزيرتين صغيرتين غير محصنتين بعيدا عن ساحل نيوفوندلاند لاسطول الصيد. وعلى ذلك قضت حرب السنوات السبع على فرنسا فى العالم الجديد

وبقيت اسبانيا المنافس الوحيد لانكلترا ، ولكن الاسبان لم تكن لهم مراكز ثابتة فيما يعرف اليوم باسم الولايات المتحدة ، اذ انهم كانوا مهتمين بصورة خاصة بتنمية امبراطوريتهم فى المكسيك وفى امريكا الجنوبية .

الفصل السادس عشر

الثورة الامريكية وحرب الاستقلال

١٧٧٥ - ١٧٨٣

تحدث الكثيرون عن اسباب الثورة الامريكية وكيف ان الملك جورج الثالث (١٧٦٠ - ١٨٢٠) والبرلمان حرموا المستعمرات من حرياتها وفرضوا عليها الضرائب دون اعطائها حق انتخاب ممثلين عنها فى الحكومة، وانزلوا الجيوش فى بيوت اهل المستعمرات واخيرا دفعوا بها الى الثورة. هذه فى الواقع مظاهر خارجية يوجد خلفها اسباب اساسية لعل اهمها النظريات المتضاربة حول طبيعة الامبراطورية البريطانية وعلاقة المستعمرات بها.

فمن وجهة النظر الامريكية، كانت المستعمرات الثلاث عشرة وحدات تحكم نفسها ضمن الامبراطورية البريطانية ، فسكان المستعمرات انجليز يحق لهم التمتع بجميع حقوق المساواة التى كافح الانجليز من اجلها منذ ايام الماجناكارتا. وقد كان الامريكيون يقبلون وجود الحكام الملكيين الذين ارسلوا ليترأسوا جمعياتهم العامة طالما احسنوا التصرف واتبعوا رغبات الجمعيات. وكان الحكام يقومون بذلك عادة اذ انهم كانوا يتلقون رواتبهم من المستعمرات ولم يعتمدوا على الملك البعيد والمنهمك فى اعمال الدولة.

اما الحكومة البريطانية ، فكان لها منذ الايام الاولى فى جيمس تاون وجهة نظر اخرى لوضع المستعمرات. فهذه المستعمرة لايحق لها ان تحكم نفسها وسكانها متساوين مع الانجلير الذين يسكنون فى الجزر البريطانية، بل الواجب المفروض على اهل

المستعمرات هو خدمة مصالح انجلترا بان يوفروا اسواقا جديـــــدة للبضائع الانجليزية ، ويقدموا لها المواد الخام للصناعة . وقـــد كان من الصعب تشديد الحكم على المستعمرات واستنفاذ ثرواتهـــا خصوصا خلال الحرب المتعددة والمشاكل التى احاقت بالامة طوال مائـــة وخمسين سنة . ولكن بعد ان ازيحت فرنسا واسبانيا عن الطريق عـــام ١٧٦٣ آن للحكومة الملكية ان تشمر عن ساعدها الملكى وتفرض سلطتهـا وقد جاء الوقت لوضع القوانين البحرية موضع التنفيذ باخضـــاع مصالح امريكا التجارية لمصالح الوطن الام . وكذلك آن الوقـــت لفرض ضرائب تملأ الخزينة الانجليزية التى انهكتها الحربه فلقـــد كانت امريكا تشعر ان الامبراطورية يجب ان تتألف من اتحاد بيـــن المستعمرات الموالية والمستقلة . بينما كانت انجلترا تؤ مـــن بالوحدة فى ظل حكومة قوية . ويظهر قانون السكر كيف كانت انجلتـرا تنظر الى الامبراطورية على انها خاضعة للتاج البريطانـــى فلقـــد اعتمدت نيوانجلند بدرجة كبيرة على تجارة الروم ، فكانت تستـــورد السكر من الهند الغربية الفرنسية وتصنع منه هذا الشراب وتبيعـــه وقد اهمل سكان نيوانجلندفىتجارتهم هذه ،هند الانجليزية التى لـــم تكن تدفع اسعارا مماثلة لبضائعهم . فبناء على احتجاج مزارعـــى الهند الغربية من البريطانيين بان تجارتهم تعانى الكثير مـــن الصعوبات اجبر البرلمان نيو انجلند على التجارة معهم بدلا مـــن الفرنسيين . ولقد صدر ما يعرف باسم قانون العسل الاســـود Molasses Act عام ١٧٣٣، وقد حرم استيراد السكر المزروع فى مزارع فرنسية ، كما منع استيراد العسل الاسود والروم لخدمة اصحاب المزارع الكبيرة من البريطانيين كما وضحت . ولقد اصاب هـــذا

القانون معامل التكرير فى نيوانجلند بضربة بالغة ، ولولا نشاط حركة التهريب فى المستعمرات لكانت هذه الضريبة فى حد ذاتها كافية لاحداث القطيعة بين انجلترا ومستعمراتها.

وقد واجهت البريطانيون بعد ان استولوا على الاراضى الغربية (وهى المستعمرات الفرنسية التى وقعت فى ايدى الانكليز) مشكلة اخرى جعلتهم يشددون قبضتهم على امريكا. لقد سكن الهنود هذه الاراضى الجديدة قبل الفرنسيين المنهزمين، ولكنهم لم يكونوا يشعرون باية محبة للانجليز، واثارهم الفرنسيون الذين اخبروهم بانهم سوف يطردون عن قريب من بيوتهم ، فهب الهنود وثاروا واحتلوا عددا من القلاع البريطانية.

وفى مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن تطبيق نظام الحكم الذاتى فى الغرب كما كان فى الشرق، فقد كانت الحاجة تدعو الى الجيوش والحصون، والى السيطرة الدقيقة على السكان العاديين وراء جبال اليجانى. لهذا فقد تولى جورج الثالث ووزراءه ادارة الغرب وغلقوه فى وجه المستعمرات وامروا الذين اجتازوا جبال اليجانى واستوطنوا فى الاراضى الجديدة بالعودة الى الشرق. ثم اعلن الملك ان جميع عمليات بيع الاراضى من قبل الهنود يجب ان تتم مباشرة للتاج. وعين موظفين لادارة تجارة الفراء الثمينة لصالح الحكومة البريطانية. ولقد ادى ذلك الى غضب الامريكيين لان الملك كان متعسفا غاية التعسف فى حرمان الامريكيين كليا من الغرب وهكذا اصبحت هذه الثروات ملكا للتاج الانجليزى وليست ملكا للمستعمرات الامريكية ، ومما زاد الموقف سوءا بالنسبة للامريكيين ان جيشا يتألف من عدة الاف من الجنود ذى المعاطف الحمراء ارسل لحماية

الغنائم فى العالم الجديد، وكان على المستعمرات ان تدفع جزءا من نفقات هذا الجيش ولم تنته مصائب اهل المستعمرات عند هذا الحد فقد امرتهم انجلترا بأن يسهموا فى ايواء واطعام الجنود وذلك بموجب قانون" ايواء الجنود " Quartering Act.

ومن ناحية اخرى، كان جون جرانفل Granville رئيس وزراء بريطانيا عام ١٧٦٤، لايعرف الا القليل عن امريكا وكان يكره القليل الذى يسمعه عنها، وكان برنامج الحكومة الاستعمارى الذى وضعه امام البرلمان يتلخص فيما يلى :

١ ـ تنفيذ قوانين الملاحة بكل دقة.

٢ ـ اقامة جيش دائم يتكون من عشرة آلاف جندى فى المستعمرات للدفاع عنها.

٣ ـ تدفع الخزانة الانجليزية مرتبات الحكام والقضاة بدلا من تقرير المجالس التشريعية للولايات لهذه المرتبات.

٤ ـ يفرض البرلمان الانجليزى ضريبة على المستعمرات لدفع هذه المرتبات والانفاق على الجيش الدائم، وذلك بدلا من اللجوء الى مجالس الولايات لاقرار الاعتمادات المطلوبة.

وبعد ان تشدد جرانفل فى تطبيق القوانين البحرية وذلك بارسال موظفى جمارك ودوريات بحرية الى امريكا، اقترح ضريبة التمغة (رسوم طوابع Stamp Act) فى عام ١٧٦٥، وعلى الصحف والكراريس والمستندات القانونية وغيرها، وهذه الضريبة كانت بهدف اعالة الجيوش البريطانية بتقديم الوقود، ومصادر الانارة ومعدات النوم وأوانى الطهى، والمأوى وعندما اقر البرلمان قانون الطوابع حدثت مقاومة قوية فى المستعمرات فقام (باتريك هنرى)،

من فرجينيا فى مجلس المواطنين ليعلن انه ما من احد يحق له ان يفرض الضرائب على اهل فرجينيا غير مجلسها التشريعى، ثم انتزع قرار بأن كل محاولة لاعطاء مثل هذه السلطة الى اى شخص اخر أو اشخاص آخرين، غير شرعية وغير دستورية وغير عادلة وفيها اتجاه ظاهر لخنق الحريات البريطانية والامريكية، وانتقلت صيحة الاحتجاج ضد قانون الطوابع الى ماساتشوستس، وزاد من حركة المعارضة جيمس اوتيس James Otis المحامى من بوسطن والذى يعتبر الراشد الاول للثورة الامريكية، وكانت صيحة الامريكيين تتمثل فى القول المشهور

Taxation without representation is tyranny

واخيرا كانت امريكا تربة خصبة لتعاليم ومذاهب ذات طابع جمهورى أو شبه جمهورى، اذ ظل السكان قرنا ونصف قرن يعيشون فى جو ديموقراطى أو "محقق للمساواة" فكانت الفوارق الديمقراطية قليلة وكانت الفرص الاقتصادية مفتوحة للجميع على قدم المساواة، ولم يؤد وجود طبقة ارستقراطية الى تنشيط نمو المبادئ الديموقراطية وكانت شبه طبقة من سكان الساحل، او صفوة متضامنة قليلة العدد، تستحوذ على معظم الثروة، وتقتصر على بعض الاقاليم، مثل فرجينيا وكارولينا الجنوبية، وتستأثر بالنفوذ السياسى، وقد واجهت الديموقراطية الناشئة فى داخل البلاد صراعا طويلا ضدها، فكان صغار المزارعين فى جوف البلاد، والمهاجرون الالمان والاسكتلنديون - الايرلنديون والعمال والميكانيكيون من اهل المدن، يعززون انفسهم باستمرار ازاء التجار واصحاب المزارع القدامى، وقد فعلوا ذلك طيلة الجيل السابق على الثورة بهمة اذهلت من هم ارقى منهم

وساهمت هذه الروح ذاتها فى تحمسهم الثورى ضد الدولة الام.

اندلعت الثورات فى نيوانجلند ونيويورك وبنسلفانيا وتـرك موزعو الطوابع اعمالهم امام ضغط الجمهور - وتشكلت جماعات متطرفـة مثل "ابناء الحرية" فى كل مكان ليحرضوا على المزيد من العنف وقـد اعد المؤتمر الذى دعى لمعالجة الطوابع والذى مثلت فيه تسـع مستعمرات احتجاجا مماثلا لاحتجاج فرجينيا اكد ان المجالس التشريعيـة للمستعمرات هى التى يحق لها فرض الضرائب فقط. وبذلك اظهـر الامريكيون اصرارهم على انه لايجب فرض ضرائب على منطقة من قبـل الحكومة الا اذا كانت هذه المنطقة ممثلة تمثيلا مباشرا فى الحكومـة عن طريق نوابها.

ولقد الغى قانون الطوابع بعد ان استمر مفعوله فترة من الوقت ولكن سرعان ما تبعته قوانين جديدة، فمثلا القوانين التى اصدرهـا وزير المالية الانجليزى شارل تاونشند Charles townshend فـى عام ١٧٦٧ لم تفرض الضرائب على الزجاج والرصاص والبويات والـورق والشاى المستورد الى المستعمرات فحسب بل انها نصت علـى ان تستعمل العائدات لدفع رواتب الحكام الملكيين. وهكذا لم يعـد للجمعيات العامة للمستعمرات سلطة على هؤلاء الموظفين واظهـر البرلمان نيته فى السيطرة على شئون امريكا اكثر من قبل. فقامت المعارضة مرة اخرى فى انحاء امريكا، فارسل احد زعماء المعارضـة فى ماساتشوستس وهو صامويل آدامز Samuel Adams خطابا الـى المستعمرات يدعو الى المبادرة فى العمل ضد قوانين تونشند والقوانين البحرية التى كانت تؤذى التجارة الامريكية. ثم قامت حركـة لمقاطعة البضائع البريطانية فاستشاطت بريطانيا غضبا وخلت مجلـس

ماسوتشوستس وارسلت كتيبتان من الجيوش البريطانية الى بوسطن وفى مارس ١٧٧٠ عندما عدلت انجلترا فى اعمالها التعسفية ملغية جميع الضرائب ماعدا ضريبة صغيرة على الشاى، اصطدم الجنود البريطانيون بالمواطنين الامريكان فيما سماه المواطنون "مذبحة بوسطن" وبدأ الاضطراب عندما رمى فريق من الشبان بكرات الثلج على احد الجنود الذى بدوره استدعى الحرس المسلح. وقد قتل فى هذه المذبحة خمسة من المواطنين مما ادى الى سحب الجيوش البريطانية من المدينة امام طلب صامويل آدامز.

ومن ذلك يتضح ان السياسيين البريطانيين لم يكونوا متفقين دائما على السياسة الواجب اتباعها فى امريكا ، فكانت هذه السياسة تتأرجح بين التشدد حينا واللين حينا آخر. وفى الجانب الامريكى، كان هناك الكثير من العطف على البريطانيين وخصوصا من قبل الطبقات التى شعرت بان اعمال الشغب والمقاطعة ستؤثر على وضعها المالى وتسىء الى العمل. ولكن شعور الاغلبية من الامريكيين قبل الثورة نحو انجلترا كان شعور غضب وغيظ عند فرض الضرائب وشعور راحة وامتنان عندما تلغى الضرائب. وكان رجل المستعمرات العادى لا يبغى فى الواقع الاستقلال النهائى عن انجلترا بل كان جل مايريده هو ان يترك وشأنه فى مزرعته أو فى عمله ونتيجة لهذه المعارضة القوية التى عمت امريكا ، فشلت السياسة الاستعمارية الانجليزية والقوانين التى حاولت الحكومات البريطانية فرضها مثل قوانين جرانفيل وتاونشند. اما بالنسبة لقوانين تاونشند فقد امر الملك الاحتفاظ بضريبة الشاى، وذلك لمجرد ان يحتفظ بحق

انجلترا فى فرض الضرائب على المستعمرات ، ولكن مسألة فرض الضرائب دون تمثيل حقيقى كانت لاتزال من اهم اسباب الخلاف بين المستعمرات والبلد الام. ولقد قام بعض المتهورين الامريكيين بعمل يعد من انجح الاعمال هو "حفلة الشاى الشهيرة" فى بوسطن عام ١٧٧٣. وكانت شركة الهند الشرقية هى التى تقدم الشاى،وكانت قد وقعت مصاعب مالية وادخلت تحت حماية البرلمان، فقرر الملك جورج وعصبة فى البرلمان التخلص من الكميات الفائضة من الشاى ببيعها لامريكا باسعار مخفضة . وبرغم ان رسما قدره ثلاث بنسات كان يستوفى على كل ليرة من الشاى الا ان الشاى كان لا يزال أقل ثمنا مما يستطيع الامريكيون الحصول عليه من اى مصدر آخر.

ولكن كانت مسألة المبدأ، وهو دفع الضريبة ، وليست قضية صفقة رابحة هى التى اثارت انتباه المواطنين الامريكيين. فأخذوا يصيحون قائلين "احتكار" "ولا ضرائب من قبل البرلمان" ورفضوا قبول الشاى عندما وصلت السفن محملة به . وفى بوسطن بعد سلسلة من الاحتجاجات العامة ، ارتدى فريق من المواطنين زى الهنود وتسلقوا سفن الشاى والقوا بمحتوياتها فى الماء. وقد اثار هذا العمل الملك جورج الى حد بعيد، وبما انه لم يكن يشعر بعطف نحو المستعمرات فقد قرر ان يعاقب ماساتشوستس وخاصة بوسطن فاقر البرلمان قانون الاحتجاج Intolerable Act فى عام ١٧٧٤، الذى اغلق بموجبه ميناء بوسطن فى وجه التجارة العالمية الى ان تدفع قيمة الشاى، واخضعت اجتماعات المدينة لمراقبة الحاكم ونقل عاصمة الولاية منها، ثم اخضع المستعمرة للطغيان المطلق وهو ما يسمى Regulating Act وانزال قوات فى اى مكان بماساتشوستس

وقد اثارت هذه التطورات السريعة المستعمرات الاخرى، فتجمعت حول ماساتشوستس وارسلت لها تعبيرات العطف وحمولات من الطعام التى كانت تحتاج اليها كثيرا، وعندما ازداد الهياج اقترح مجلس مواطنى فرجينيا عقد اجتماع فى فيلادلفيا لمندوبين من جميع المستعمرات. فاجتمع هذا الكونجرس القارى (المؤتمر الامريكى الاول) فى عام ١٧٧٤. وكان فى هذا المجلس شخصيات هامة مثل جون وصامويل آدامز من ماساتشوستس وجورج واشنطن وباتريك هنرى من فرجينيا، وبعض الشخصيات الاخرى من كارولينا الجنوبية، وقد ساد الحذر والاعتدال فى الكونجرس الذى اجتمع للتشاور فى حالة المستعمرات الخاسرة. وللمداولة فى الترتيبات الحكيمة والمناسبة لاستعادة وتوطيد حقوقهم وحرياتهم العادلة. ولاعادة الوحدة والانسجام بين بريطانيا العظمى والمستعمرات. وقد اعدت وثيقة اعلان الحق وارسلت الى انجلترا وفيها يحتج اهل المستعمرات على التعدى على حرياتهم من قبل البرلمان واعلنوا عن مقاطعتهم للبضائع البريطانية وان هذه المقاطعة ستشرف عليها لجان امن فى كل بلدة ومقاطعة. ومن واجب هذه اللجان ان تخبر عن المخالفين للمقاطعة لكى يعرف الكونجرس صديق القضية الامريكية ومن عدوها.

ولكن المتاعب لم تزول، فقد تطور الامر فى ولاية ماساتشوستس الى الصدام المسلح بين الاهالى والجنود البريطانيين. وكانت ماساتشوستس تطفح بالعداوة وقد بنى رجال المليشيا فيها (وهم رجال مستعدون للقتال فى اية دقيقة) مستودعا سريا للذخيرة فى كونكرد. وفى ١٩ ابريل ١٧٧٥ ارسل الجنرال الانجليزى Gage فرقة بريطانية للاستيلاء على المخازن وللقبض على الخائنين جون هانكوك وصامويل آدمز، ولكن اعد الاهالى فرقا للمقاومة، ورفضوا

تسليم الزعيمين هانكوك وآدامز اللذين اختفيا فى لكسنجتون Lexington وارسل الجنرال الانجليزى قوة مكونة من ثمانمائة جندى للقبض على الزعيمين.

ولقد حدث احتكاك مسلح بين الاهالى والفرق المهاجمة واطلق البريطانيون الرصاص وكانت الطلقة التى سمعت فى انحاء العالم أول طلقة فى الثورة ، وقد قتل ثمانية من الامريكيين فى هذه المعركة وتقدم البريطانيون نحو الكونكرد دون مقاومة تذكر ولكن عند عودتهم الى بوسطن، تعرضوا لخسائر افدح من خسائر رجال المليشيا التى تكبدوها فى المعركة الاولى. فقد اخذ المزارعون المختفون خلف اشجار التفاح والحواجز الحجرية على طوال الطريق يأسرون الجنود البريطانيين باعداد كبيرة. واخيرا تراجع البريطانيين ليحتموا فى المدينة، فوجدوا انفسهم محاصرين من قبل ١٦٫٠٠٠ من جنود المستعمرات. وقد وصلت انباء هذه المعركة بسرعة الى المستعمرات الاخرى التى تلقتها بمشاعر مختلفة، فقد ابتهج بعض الناس لحدوث الحربه بينما استنكر آخرون جيش رجال المليشيا وكانت الاكثرية تأمل ان تنتهى المشكلة بسلام. وفى ١٠ مايو اجتمع الكونجرس القارى الثانى (المؤتمر الثانى) فى فيلادلفيا ،فالى جانب اعلان الحرب على انجلترا، طالب المندوبون الملك جورج باعادة السلم. ولكنهم على سبيل الحذر اخذوا فى انشاء جيش وعينوا جورج واشنطن قائدا عاما له. وقد دل تعيين واشنطون، وهو من فرجينيا ليقود الحرب التى اندلعت نيرانها فى ماساتشوستس على ان المستعمرات كانت تسير نحو التعاون والوحدة.

اهملت السلطات البريطانية من جانبها طلبات المستعمرات من اجل السلام، واستعدت لاخماد الثورة بقوة السلاح، وقد زاد الملك جورج جيشه النظامى باستئجار ٢٠٫٠٠٠ جندى المانى، وفى هذه الاثناء كانت القوات الامريكية تتحرك فى عدة انحاء من امريكا ففى بوسطن احتل المواطنون تل بانكر Bunker Hill وهو موقع يطل على المدينة، ودافعوا عنه ضد الهجمات البريطانية العنيفة الى ان نفذت ذخيرتهم. ثم حدث فى العام نفسه ان ارسلت حملة لغزو كندا الا انها هزمت بعد احتلال مونتريال.

على اية حال، لم يندفع الامريكيون نحو الاستقلال بل ساروا نحوه مترددين، ففى القتال الذى جرى عام ١٧٧٥ كان هدفهم المحافظة على حقوقهم كانجليز وليس كامريكان، وحتى عندما تقلد جورج واشنطن قيادة الجيش فى بوسطن صرح بأن فكرة الاستقلال "مريعة" له. ولم تكن الثورة فى اى مرحلة من مراحلها حربا شاملة اشتبك فيها كل من كان قادرا على حمل السلاح. فمن اجل ثلاثة ملايين لم يكن لدى واشنطن اكثر من ٢٥٫٠٠٠ مقاتل فى وقت واحد. وفى ساعات الشدة لم يكن لديه اكثر من ٣٠٠٠ مقاتل، فقد كان المزارعون الامريكيون ينضمون الى الجيش عندما كان العدو يهدد بيوتهم ويتركونه عندما يمر الخطر.

وكان جماعة من المواطنين الامريكيين امثال صامويل آدامز وباتريك هنرى وراء حركة الحرب الامريكية بين عامى ١٧٧٥ – ١٧٨١ وقد كان هؤلاء يحلمون بأمريكا حرة تخلق مصيرها. وبرغم انهم كانوا يعلمون ولايدركون العقبات التى تكمن فى الطريق، لا انهم كانوا مصممين على المحافظة على ايمانهم بهذا الوطن. لذلك فقد دفعوا

المجالس التشريعية الى اتخاذ الخطوات العملية فى الحرب واخمدوا بعنف شعور الموالاة البريطانيه وحضوا السكان المترددين على القتال فى سبيل حريتهم .

وكان توماس توم بين Tomas Paine رجلا انكليزيا من اعظم الثوار، وقد هاجر الى فيلادلفيا عام ١٧٧٤ وسرعان ما عرف عنه انه من المنادين بالاستقلال التام عن بريطانيا العظمى. كان بين كاتبا فصيحا "يكره الملكية" الى حد كبير فقد بين فى كتيب له اسمه "الادراك" Common Sense نشر عام ١٧٧٦ للامريكيين التناقض التام فى وضعهم، فهم يقاتلون جيوش الملك من ناحية ويرجون الصلح من ناحية اخرى. فكان ينادى "انجلترا لاوروبا وامريكا لنفسها" . ولقد لقى كتيب "الادراك" رواجا كبيرا واشعل الناس حماسه . ومع ازدياد شعور الحماسة وتفاقم الحرب انقطعت الامال فى السلم ، وازداد الكونجرس جرأة فى موقفه من الانفصال عن بريطانيا. فعين في يونيو لجنة من خمسة اعضاء تتضمن بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وجون آدامز ليحرروا وثيقة اعلان الاستقلال فكتب جيفرسون مشروع هذه الوثيقة ثم طرأ عليها بعض التعديلات على يد الاعضاء الاخرين،ثم اعيد النظر فيها وعدلت من قبل الكونجرس، واخيرا اقرت فى يوليو عام ١٧٧٦، وهو تاريخ مولد استقلال امريكا تحدثت وثيقة اعلان الاستقلال ، The Declaration of Independence بلغة ثابتة وواضحة الى العالم عن الاسباب التى دعت المستعمرات الى الانفصال عن البلد الام. وذكرت الخطوط الاساسية والمعتقدات السياسية الامريكية؛ اننا نؤمن بان هذه

الحقائق بديهية : ان جميع البشر خلقوا متساويين، انهم منحوا من قبل خالقهم حقوقا ثابتة من بينها حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة . ثم قالت الوثيقة بأن الحكومات تنشأ للمحافظة على هذه الحقوق، وهى تستمد سلطتها العادلة من موافقة الحكوميين فعندما تسيء الحكومة استعمال سلطتها لتحقيق هذه الغايات يحق للشعب ان يبدلها ويلغيها، ويستبدل بها حكومة اخرى تؤ من هذه المصالح

وبعد ان قطعت الامة الجديدة رباطها بانجلترا، واست الولايات المتحدة الامريكية، واجهت كفاحا يائسا فى معركة البقاء ولم تكن مهارة جورج واشنطن وبطولته وقيادته التى لا مثيل لها لتكفى للصمود فى هذه الحرب وحاول واشنطن ان يطرد الجنرال هاو (Howe) و٠٠٠ر١١ من جنوده من بوسطن، ولكن الاوضاع انقلبت عندما تقابل الجيشان فى نيويورك من اجل السيطرة على تلك المدينة الإستراتيجية . فقد حطمت القوات البريطانية والالمانية، التى جاءتها إمدادات قوية، الامريكيين فى عدة مواقع ودحرتهم نحو الجنوب عبر نيوجرسى، وكانت المساعدات التى قدمها الكونجرس القارى لقواته فى المعركة طفيفة اذ ان المستعمرات الثلاث عشر كانت لاتزال بعيدة عن الوحدة، وكان مندوبو المستعمرات يخافون من فرض الضرائب خشية ان يثور الشعب عليهم كما فعل ضد البريطانيين . لذلك فقد قلت امدادات الطعام والذخيرة، وتبعها انهيار الروح المعنوية ،وازداد ، عدد الفارين من الجندية .

تراجع واشنطن الى بنسلفانيا وكان موقفه يزداد حرجا كل ساعة الا انه اظهر مهارة عسكرية فائقة عندما جمع رجاله للقيام بهجوم

مضاد ليلة عيد الميلاد عام ١٧٧٦، فهاجم قوة من الجنود في تونتـــون وتبع هذه الضربة انتصار آخر في برنستون، وعادت نيوجرسي الـــــى الامريكيين مؤ قتا. وشهد عام ١٧٧٧ قتالا عنيفا حاسما، فقد هزمـــت جنود الجنرال هاو عن طريق البحر من نيويورك الى فيلادلفيا واحتلـــت العاصمة الامريكية. فتراجع واشنطن وجنوده الى خارج المدينة، ولـــو ان البريطانيين تابعوا الهجوم لتمكنوا من سحق خصمهم بضربة قاضيـــة ولكن الجنرال هاو لم يكن ديناميكيا، ويعتقد ان اتجاهاته الـــــى السياسة كانت ميالة لقضية الامريكيين.

وبينما كان واشنطن يتعرض لضربات قوية، كانت معركة آخرى تجـري لصالح الوطنيين، هي المعركة الحاسمة في الحرب تدور على بعــــد مئات الاميال شمال سراتوجا Saratoga في نيويورك عـــام ١٧٧٧، فقد اصبحت القيادة البريطانية غير فعالة ويضاف الى ذلك طـــول مسافة الامدادات التي تبلغ ثلاثة آلاف من الاميال. كل هذه العوامــل أدت الى تنازل البريطانيين في لحظة حاسمة، فخسروا جيشا كامـــلا وكانت بريطانيا قد فكرت في خطة لاخماد كل مقاومة في ولاية نيويـــورك وبذلك انقسمت امريكا الى قسمين مثلما حاولت فرنسا ان تفعـــل قبل عدة سنوات. وكانت الخطة ترمي الى الهجوم على نيويورك مـــن ثلاث جهات وتجتمع القوى المهاجمة في الباني التي تبعد مائة وخمسين ميلا الى شمال نيويورك في وادي نهر الهيسون فيتحرك الجنرال برجويـن Burgoyne من كندا، ويرسل الجنرال هاو Howe جنودا الى شمـــال مدينة نيويورك ويسير جنرال ثالث من الشرق من بحيرة اونتاريـــو عبر الولاية. ولكن الحملة اصيبت بالفشل، ولم تصل غير قوات برجوين التي حوصرت في ساراتوجا، واضطرت الى الاستسلام في اكتوبر عام ١٧٧٧.

ولم تكن خسارة الجيش فى ساراتوجا هى وحدها التى آلمت انجلتـــرا بل ان خسارة مكانتها وسلطتها كانت اشد ايلاما. فقد اصبح عدوتاهـــا القديمتان فرنسا واسبانيا تستجيبان لنداء الامريكيين من اجـــل المساعدة.

وكان ايجاد صلات مع البلاد الاجنبية على المستوى الدبلوماســـى تجربة جديدة فى حياة الامريكيين، الذين كانت بريطانيا تنوب عنهـــم فى هذه المسائل. وكانت اوربا لفترة من الوقت تساعد امريكا بعض الشىء، وكذلك كان بعض الضباط العسكريين الاوربيين امثال لافايـــت Lafayette من فرنسا، وبعض الشخصيات الهامة من المانيا، والكونـــت بولاسكى من بولندا، قد تطوعوا فى الجيش الامريكى وزودوه بمـــا يحتاجه من تدريب وتنظيم. غير ان الحكومات الاوربية كانت تتـــردد فى تقديم المساعدات على منهاج واسع خشية ان تتورط مع انجلترا فـــى حرب خاسرة اخرى. ولكن بنجامين فرانكلين تمكن بعد ساراتوجا مـــن اقناع ملك فرنسا بانه يمكن الحاق الهزيمة بانجلترا اذا ما تحالـــف الفرنسيون والامريكيون وعندما بلغ انجلترا نبأ المفاوضات الجاريـــة حاولت اجراء صلح مع مستعمراتها السابقة بأية شروط تريدها شريطـــة أن تبقى ضمن الامبراطورية. وقد دخلت فرنسا والولايات المتحدة فـــى حلف فى فبراير عام ١٧٧٨ تتعهد كل دولة بموجبه ان تتابع الحـــرب الى ان تصبح الدول الاخرى مستعدة لاجراء الصلح، ثم قدمت اسبانيـــا وهولندا مساعدة بحرية للقضية الامريكية على امل استعادة بعـــض الممتلكات التى خسراها فى حربهما مع انجلترا. وهكذا اخذت القـروض والامدادات والرجال ترد من فرنسا، ولعل اعظم هذه المساعدات هـــو الاسطول الفرنسى القوى الذى يأتى بعد الاسطول الانجليزى مباشرة.

وعندما أرشك عام ١٧٧٨ على الانتهاء، انتقلت مساحات الحرب من الشمال، فقد بقى جيش واشنطن قرب نيويورك ليمنع القوات البريطانية الموجودة فى المدينة من التحرك نحو الداخل. فتجمد الموقف فى هذه الناحية، واتجهت الانظار الى الجنوب على طول الحدود الغربية. على ان استيلاء الانجليز على بعض المناطق فى الجنوب بعد ان عجزوا عن اخضاع الولايات الشمالية لم يحسن من مركز الانجليز وخصوصا بعد وصول القوات الفرنسية الى امريكا. كما ان الانجليز لم يستطيعوا سوى اخضاع المدن الساحلية، ولم يتمكنوا من التوغل فى الداخل. وبناء على هذا الموقفه تركزت القيادة الانجليزية بقيادة كورنواليس (Cornwallis) فى فرجينيا وتحصنت فى مدينة يورك تاون حيث ظل كورنواليس منتظرا. وبعد ذلك اجتمعت قوات واشنطن وقوات حلفائه الفرنسيين، وحاصرت قوات واشنطن يورك تاون بينما قام الاسطول الفرنسى بمنع الانجليز من الفرار بطريق البحر ولقد اشترك لافاييت فى هذه العمليات الحربية، وحدثت معركة الثورة الاخيرة اذن فى يورك تاون فى فرجينيا على بعد بضعة اميال من جيمس تاون، وهى اول مكان استوطن فيه الانجليز، وعندما وجد كونواليس نفسه محاصرا بعدد لاقبل له به، قام بسلسلة هجمات جريئة، ولكنها فشلت مما دعاه الى الاستسلام فى ١٩ اكتوبر عام ١٧٨١، وكانت هذه الضربة التى نزلت بالانجليز قاسية جدا، وقد عبر الشعب البريطانى الذى سئم القتال عن رغبته فى السلم ماعدا الملك جورج الذى غضب كثيرا لفقدانه ما يسميه "مزارعه الامريكية". وقد تسلمت وزارة جديدة الحكم فى انجلترا، واظهر البريطانيون استعدادهم لاجراء مفاوضات مع الامريكيين.

وقد احتاج هذا الامر الى جمع مهارة فرانكلين وجون آدامز وغيرهم الدبلوماسية لازالة المعوبات الناشئة عن المصالح المتضاربة والتى كانت تقف فى طريق الصلح السلمى النهائى. وقضت شروط التحالف الفرنسى، الامريكى ان لا يتفاوض اى من البلدين مع انجلترا من اجل الصلح الا بموافقة البلد الاخر. غير ان انجلترا وامريكا كانتا مستعدتين للدخول فى مفاوضات الصلح حسب شروط امريكا بينما استمرت فرنسا وحليفتها اسبانيا فى قتال الانجليز فى البحار وفى البر ايضا فى محاولة فاشلة للاستيلاء على جبل طارق. وفى عام ١٧٨٢ اصبح من الواضح ان الحكومة الفرنسية كانت تفكر فى مصالحها ومصالح اسبانيا اكثر من تفكيرها فى مصالح الامريكيين فقد اقترح فرجين (١) ان تتراجع حدوذ الجمهورية الامريكية الجديدة مرة اخرى الى جبال الابلاش وان تعود السيطرة على الغرب الى السيطرة الاجنبية وخاصة سيطرة اسبانيا.

وهنا تبرز الدبلوماسية التى تجمع بين الاضداد. فقد كان كل من انجلترا والولايات المتحدة لاتريد رؤية امبراطورية فرنسية اسبانية جديدة فى امريكا تقوم على انقاض الامبراطورية القديمة وفى هذا الجو الخطير، دخل رجال امريكا وانجلترا فى مفاوضات سرية واتفقوا على ان تمتد حدود الجمهورية الجديدة من ساحل المحيط الاطلسى الى نهر المسيسيبى ، ومن البحيرات العظمى الى فلوريدا وغضب فرجين عندما سمع بالمفاوضات ولكن لباقة بنجامين فرانكلين

---

(١) شارل جرانييه فرجين ....Charles Granier Vergennes (١٧١٧ - ١٧٨٧) ، شغل منصب وزير خارجية فرنسا فيما بين ١٧٧٤ و ١٧٨٧.

يضاف اليها اخبار عن انتصارات انجليزية فى البحر، اقنعته فى النهاية ان يرضخ للامر الواقع ووقعت معاهدة باريس فى٣ سبتمبر ١٧٨٣ .

كانت المعاهدة بالنسبة لامريكا كريمة جدا مكنتها من الحصول على كل ما تريد . وقد اعطيت بالاضافة الى الاراضى التى طالبت بها حق الملاحة فى نهر المسيسيبى وحقوق الصيد فى سواحل كندا.ومقابل ذلك، وافق الكونجرس الامريكى على ان يفعل كل ما فى وسعه لتلبية رغبة بريطانيا الصادقة فى اهتمامها بعشرات الالاف من الموالين لها الذين دعموها فى الحرب . فقد تعرض هؤلاء الناس الى كثير من المحن فى ظل السيطرة الاجنبية وخسروا اراضيهم وبيوتهم واموالهم فشعرت الحكومة البريطانية انه يجب اعادة حقوق الموالين لها وممتلكاتهم الى ابعد حد ممكن. ووافق الكونجرس ان يوصى الولايات المتحدة باتخاذ مثل هذه التدابير، غير ان هذه التوصية لم تكن ذات فائدة تذكر للموالين المنكوبين .

ففى الواقع ، حتى فى حالة النصر، كانت الولايات المتحدة لاتزال غير متحدة ، وفى نهاية الحرب ارتبط هذه الولايات فيما بينها برباط غير متين فى اتفاقية اسمها "شروط الاتحاد" Articles of Conderation ولكنهم ظلوا فى الاساس وحدات مستقلة تعمل من اجل مصالحها الخاصة . فقد كان الكونجرس الذى يمثلهم مفلسا منذ عدة سنوات وكان الجيش متذمرا لعدم دفع رواتبه ، وكاد ان يثور لولا مناشدة بطله الجنرال واشنطن للجنود بأن يتفرقوا ويعودوا الى بيوتهم بهدوء. وهكذا جاء الانتصار والاستقلال، ولكن جاءت معها حالة من الفوضى الاهلية . فعندما كانت المستعمرات الامريكية فى

حالة حرب مع انكلترا ، استطاعت ان تشكل جبهة قوية موحدة تجـــاه العدو. وكان الكونجرس الذى يمثلهم يطلب الاعتمادات ويحصل عليهـا لمواصلة الكفاح. وكذلك كان هذا الكونجرس يبرم المعاهــــدات مع الامم الاخرى، غير انه لم يكن هناك قانون مكتوب او دستـــور يخول الكونجرس ان يتصرف باسم الشعب. وقد حاولت شروط الاتحـــاد Articles of Conderation ان تعالج هذا النقص بنصها علـــى اهداف وغايات معينة لحكومة مركزية . وقد جرى اقتراح هذه الامـور فى عام ١٧٧٧، ولكن لم يصدق عليها الكونجرس حتى مارس ١٧٨١.

وهكذا انتهت كل الولايات الى اقرار الاتحاد الكونفدرالـــى وتحول الكونجرس فى ذلك العام الى حكومة رسمية بعد موافقة الولايات ولقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها واستقلالها فى نطاق هـــذا الائتلاف. وكانت هذه الولايات قد اكتسبت حقوقها خلال الحروب واثنـاء الثورة ، فاقامت كل ولاية هيئة تشريعية خاصة بها، واختارت حاكمهـا ثم اقرت كل منها دستورها الخاص لفترة مابين ١٧٧٦ و ١٧٨٠ . امـا الكونجرس فكان يتكون من مجلس واحد ، وكان لكل ولاية ، بغض النظـر عن حجمها او عدد سكانها، صوت واحد فى الكونجرس وكان الكونجـرس مخولا حق اعلان الحرب او السلم او اقتراض المال وارسال واستقبـال السفراء ومعالجة الامور الخارجية ، ولكن الكونجرس لم يمنح سلطـة فرض الضرائب على الشعب مباشرة فتشبثت الولايات باعطاء هـــذا الحق لهيئاتها التشريعية فقط. كما لم يكن للامة سلطة تنفيذيـــة لتنفيذ التشريعات التى يقرها الكونجرس ومهما كان الامر، فـــان هذا النظام الذى تأسس بمقتضى بنود أو شروط الاتحاد هذه ، كـــان خطوة نحو الاتحاد بين الولايات الذى اتخذ صورته النهائية فيما بعد

كما صار للشعب الان الحق فى انتخاب حكامه بعد ان كانوا يعينـــون بطريقة او باخرى ٠

وبرغم ما احدثته شروط الاتحاد فى التطور الدستورى فى امريكـا فقد كان النظام ناقصا من عدة وجوه ، فالحكومة الفيدرالية كانـــت مفككة ، ولم تكن للكونجرس القدرة الكافية لتنفيذ قوانينه ، كما لـم تكن هناك محكمة عليا لتفسير هذه القوانين. ولكن الحاجة عقـــب الحرب ستدعو الى تعديل هذا النظام الذى ادى الغرض منه خلال فتـــرة الحرب وحتى اتمام وضع الدستور.

وقد حذر بعض الامريكيين، ومن بينهم جورج واشنطن، من الاخطـــار الناجمة عن غياب حكومة مركزية قوية ، وقال واشنطن "يجب ان يكـــون هنالك سلطة عليا تنظم الامور المشتركة لجمهورية اتحاد الولايـــات الجنوبية ، وبدون هذه السلطة لايمكن ان يطول الامر بالاتحاد". وقـــد تحققت هذه النبوءة عندما عبر الكونجرس بكل اسف عن عدم استطاعتـــه تسيير امور الامة ، فقد قل عدد الحضور فى جلساته الى حد لم يكـــن يوجد فيه عدد كاف من الاعضاء ليكمل النصاب. وهكذا فقد مضى وقـــت لم يكن يوجد فيه حكومة للولايات المتحدة على الاطلاق.

فقد حدث ان تنازعت ولايتا مـ رى لاند وفرجينيا على حق السيطـــرة على التجارة فى نهر البوتوماك(Potomac) وبذلك وجدت مناسبـــة لبحث التعاون بين الولايات استفاد منه المنادون بحكومة أقوى. فدعـى مفوضون من الولايتين الى بيت واشنطن لمباحثات تمهيدية ، وسرعـــان ما اتضح ان مصالح ولايات اخرى تتشابك مع مصالح مارى لاند وفرجينيـــا لذلك اتفق على ان تدعى جميع الولايات لارسال مندوبين عنها فـــى اجتماع يعقد فى العام القادم لبحث مشاكلهم التجارية المشتركـــة

ولم تقبل الدعوة الاخمس ولايات فى عام ١٧٨٦. ورغم ذلك، فقـــد استغل احد المؤمنين بالحكومة القومية وهو إلكسندر هاملتـــون (Hamilton) هذا الموقف لاسيما وانه شعر بأن زملاءه المجتمعيـن معه مستعدون ان يتجاوزوا بحث التجارة الى اعادة النظر فى شـــروط الاتحاد. فقد اقترح عقد مؤتمر آخر فى فيلادلفيا فى عام ١٧٨٧الدراسة الجهاز الحكومـــى كله. ثم وافق الكونجرس على اقتراح هاملتـــون وارسلت الدعوات ثانية الى الولايات الثلاث عشرة.

ارسلت جميع الولايات ممثلين عنها ماعدا ولاية رود آيلانـــد واجتمع المؤتمر وانتخب رئيسا له جورج واشنطن، وحضره بعض الرجـــال البارزين من امثال بنجامين فرانكلين والكسندر هاملتون وجيمـــس مادسون (M Madison) وجون ديكنسون (Dickinson) وغيرهـــم وظهرت رغبة الاغلبية منذ البداية، فقد جاءوا لا لتعديل الشروط السابقة بل لاستبدالها بأخرى تحقق نظاما حكوميا جديدا.

ولقد قدم اقتراحان رئيسيان ، احدهما من قبل فرجينيا التـــى تمثل الولايات الكبيرة والاخر من قبل نيوجرسى التى تمثل الولايـــات الصغرى. لقد اقترحت فرجينيا شكلا حقيقيا لحكومة وطنية تتألـــف من ثلاثة فروع : تنفيذية وتشريعية وقضائية. وتتألف السلطـــة التشريعية من مجلسين يمثل فى المجلس الاعلى او ال "سنيست Senate جميع الولايات تمثيلا مبنيا على حجم كل ولاية وثروتها. وينتخـــب الشعب اعضاء المجلس الادنى او مجلس الممثلين. وبهذا الاقتراح، فقـــد سددت فرجينيا الضربة الى مجالس الولايات التشريعية، بموجبه لم تعـــد الولايات تعمل كليا لمصلحتها الذاتية وتقف فى وجه التشريع الاتحـــادى الذى لاتقره. وبموجب هذا الاقتراح، تمثل المواطنون مباشرة ويحكمون

من قبل الكونجرس الولايات المتحدة . اما اقتراح ولاية نيوجرســـــي فقد كان اكثر ضررا . فقد خشيت الولايات الصغيرة ان تضيع فــــــي نظام التمثيل المباشر للشعب كالذى اقترحته فرجينيا . وفى هـــــذه الحاله تتغلب الحكومة الاتحادية عليها فى المسألة تلو المسألـــــة وذلك عن طريق التشريعات التى تقرها الولايات الكبيرة على حسابهـــــم لذلك اقترحت نيوجرسى تآليـنف كونجرس بمجلس واحد يتساوى فيـــــه التمثيل لكل ولاية كما نصت على ذلك شروط الاتحاد، ولكن مع منـــــح الكونجرس السلطة لفرض الضرائب على الولايات وتنظيم التجارة ، فخطـــة نيوجرسى فيها تأكيد على سيادة حكومات الولايات وذلك باعطائهــــــا سلطة توجيه سياسات الحكومة الوطنية بدلا من اعطاء هذه السلطة للافراد التى تعيش ضمن الولايات .

وبرغم ان اقتراح نيوجرسى وفرجينيا كانا متباعدين فى المعنـــى والشمول، الا ان المندوبين المجتمعين فى فيلادلفيا استطاعوا عــــــن طريق الحلول الوسطى، الوصول الى اتفاق بعد عدة اسابيع من النقـــاش فالكونجرس يجب ان يتألف من مجلسين، كما اقترحت فرجينيا ، ولكـــــن الولايات جميعها يجب ان تمثل فى المجلس الاعلى عن طريق عضويــــــن تنتخبهما مجالس الولايات التشريعية . وفى المجلس الادنى يبنـــــى عدد الممثلين الذين ترسلهم كل ولاية على عدد سكانها ، وينتخب الشعب هؤلاء الممثلين مباشرة حسب ما جاء فى اقتراح فرجينيا .

كانت هذه هى العقبة الكؤود التى واجهت المندوبين ولـــــم يتغلبوا عليها بسهولة ، فقد طلب الجنود مثلا ان تعتبر الاعـــــداد الكبيرة من الرق فيه قسما من السكان، وان كان لا يحق لهم الاقـــتراع

وذلك لكي يزيد عدد الممثلين من ولاياته . واخيرا جرى الاتفاق على اعتبار ثلاثة اخماس الرق مع عدد المواطنين الاحرار . وهكذا انتزع الدستور سيادة الولايات وسلمها للشعب ككل، فيكون للحكومة الوطنية اختصاصها ولحكومات الولايات اختصاصات اخرى. واعلن الدستور ان الولايات المتحدة ستضمن لكل ولاية في الاتحاد شكلا جمهوريا في الحكومة وستحمي كل واحدة منها في حالة تعرضها للهجوم. وبموجب دستور الاتحاد انقسمت الحكومة الوطنية الى ثلاثة فروع : تشريعية وتنفيذية وقضائية . لكل منها بعض السلطة او القيود على الاخرى وذلك لمنع اى فرع منها من ان يتطرف أو يصبح دكتاتورا . هذه الطريقة التي تدل على تفكير في المحافظة على الحقوق الديمقراطية قد سميت بنظام "حفظ التوازن" .

واعطى الكونجرس وهو الهيئة التشريعية ، سلطة سن القوانين في كثير من المجالات التي تتعلق بالنواحي الوطنية والمسائل الخارجية ومن اهم واجباته المخصصة فرض الضرائب واقتراض المال، وتنظيم التجارة بين الولايات وتوحيد النقد بين الولايات وانشاء جيوش مسلحة ، وحكم اراضي الولايات المتحدة ، وقبول الولايات الجديدة في الاتحاد. وهناك اختصاصات عامة ، وهذا اعطى الكونجرس قوة حقيقية فهو يستطيع اعتماد الاموال لما فيه مصلحة الولايات المتحدة العامة ويسن جميع القوانين اللازمة للتنفيذ وقد خول حق اقتراح التشريعات لتحصيل الضرائب لمجلس الممثلين (النواب) . ومن ناحية اخرى، حرمت على الكونجرس بعض السلطات فلم يستطع مثلا ان يفضل مرافىء ولاية على ولاية اخرى في قضايا التجارة والعائدات وكذلك لايستطيع ان يمنح الالقاب ومن العوامل التي ساعدت على تقوية السلطة المركزية ، هي

اى حكومة الاتحاد، وليس الولايات هى التى كانت تدفع رواتب رجال الكونجرس فالسناتور Senator يخدم مدة ست سنوات بينما يخدم اعضاء مجلس الممثلين سنتين، وفى المجلس الاعلى، ينتخب ثلث الاعضاء كل سنتين، ولذلك يبقى نوع من الاستقرار فى عضوية هذا المجلس .

وكانت الهيئة التنفيذية للحكومة تشرف على تنفيذ القوانين التى يقرها الكونجرس والسلطات التنفيذية كانت تجبى الضرائب التى صوت عليها الكونجرس وتنظيم القوات المسلحة التى أنشأها وتصك النقود التى آذن بها . وباختصار، تعمل على تنفيذ جميع تشاريع الكونجرس ويرأس الهيئة التنفيذية رئيس الولايات المتحدة الذى تولى تنفيذ القوانين التى يمكن الموافقة عليها بواسطة الكونجرس ومدة رئاسته اربع سنوات ويساعد الرئيس نائب الرئيس الذى يرأس المجلس الاعلى، وكذلك يساعده موظفون اداريون آخرون بعد موافقة الكونجرس عليهم ومن هنا نشأ نظام الوزارة Cabinet الذى يتألف من وزير الدولة، ووزير الخزانة، والداخلية، والحربية وبعض الموظفين الاخرين. وظل هؤلاء يساعدون الرئيس التنفيذى ويتلقون اوامره . غير ان الرئيس لم يكن مجرد اداة فى يد الكونجرس فكل مشروع قانون يقر، يجب ارساله اليه للموافقة عليه وتوقيعه لكى يصبح قانونا . واذا لم يوافق عليه فهو يستطيع استعمال حق الفيتو (Veto) ويرده لافادة النظر فيه . واذا عاد الكونجرس وأقر القانون بأغلبية ثلثى الاصوات عندها يصبح القانون سارى المفعول بدون توقيع الرئيس وهذا الفيتو اداة قوية :ويشكل جزءا من نظام حفظ التوازن الذى يجعل قوى فروع الحكومة الثلاثة موزعة

توزيعا متوازنا . والرئيس ايضا هو القائد الاعلى للجيوش والبحرية
ويعقد المعاهدات مع البلاد الاجنبية شريطه ان يوافق عليها ثلثا
اعضاء المجلس الاعلى ، وكذلك فهو يعين السفراء وقضاة المحكمة العليا
وموظفى الاتحاد الاخرين بموافقة المجلس الاعلى. واذا دعت الحاجة
فهو يستطيع دعوة الكونجرس لجلسة خاصة والمفروض فيه ان يقترح
تدابير مختلفة للكونجرس فى رسالته السنويةعن حالة الاتحاد . ومن
جهة اخرى، وهنا ايضا نجد فى نظام "حفظ التوازن" الكونجرس يستطيع
ان يقدم الرئيس للمحاكمة واستجوابه وعزله من منصبه فى حالة
الرشوة والخيانة أو غيرها من الجرائم او الجنح.

اما بالنسبة لوضع نظام خاص لانتخاب الرئيس التنفيذى فتنتخب
كل ولاية بالطريقة التى تحددها تشريعاتها، جماعة من المنتخبين
مساوين فى العدد لمجموع ممثلى الولاية فى كل من مجلس الكونجرس
ثم يقترح المنتخبون على الرئيس ، فاذا حصل اى مرشح على الغلبية
ظاهرة انتخب وينتخب الذى يأتى بعده مباشرة نائبا للرئيس وفى
حالة التساوى او انعدام الاغلبية يختار مجلس الممثلين (النواب)
الرئيس ، ويكون لكل ولاية صوت واحد. وقد هدف واضعو الدستور من
هذا النظام فى انتخاب الرئيس الى انلا ينتخب الرئيس من قبل
الكونجرس او السلطات التشريعية لكى لا يصبح الرئيس مقيدا بهم.
ولكن ارادوا ان ينتخبه جماعة من الرجال يمثلون اصحاب السلطة من
الناس فى جميع الولايات.

اما السلطة الثالثة وهى السلطة القضائية فكانت تتألف من
المحكمة العليا وغيرها من المحاكم الدنيا التى يعينها الكونجرس
وتفصل المحكمة العليا فى المنازعات ذات الصفة الوطنية او فى

المنازعات التى تنشأ بين الولايات وتكون احكامها نهائية وغير قابلة للرفض غير اننا نجد مرة اخرى نظام حفظ التوازن فالاعضاء الذين يتألفون من الرئيس وثمانية اعضاء يعينهم الرئيس بموافقة المجلس الاعلى، وهؤلاء وغيرهم من القضاه فى المحاكم الدنيا يمكن محاكمتهم. وكانت المحاكم الاتحادية موزعة فى الولايات وهى تذكر كل مواطن بحقوقه والتزاماته للحكومة الوطنية. فاذا خرق شخص قانونا اتحاديا يحاكم فى محكمة اتحادية، واذا وجد مذنبا يحكم عليه بالسجن فى سجن اتحادى. ولكن من جهة اخرى استطاع المواطن ان يظهر سببا كافيا لاعادة النظر فى قرار المحكمة. فانه يستطيع ان يرفع قضية ليصل بها الى المحكمة العليا. كما اعطى نظام المحاكم الاتحادية سلطة شرعية واسعة فى الامور التى تؤثر على القضايا الوطنية والدولية. فهذا النظام مفوض بان يحكم فى المعاهدات الاجنبية التى تعقدها الولايات المتحدة وفى الحالات التى تتعلق بالسفراء والوزراء، وكذلك فهو يفصل فى المنازعات التى تنشأ بين ولايتين أو اكثر وبين الولاية والمواطنين من ولاية اخرى، وبين المواطنين من ولاية مختلفة. وبرغم ذلك فقد بقيت امور كثيرة فى المجال القضائى لمحاكم الولايات والمحاكم المحلية التى بقيت تعالج معظم الامور للمواطنين العاديين فى انحاء البلاد

وقد نص الدستور على اجراء تعديلات كلما دعت الاوقات والظروف الى مثل ذلك. فيستطيع الكونجرس باجماع الثلثين فى كل المجلسين ان يقترح تعديلا او اذا تقدم ثلثا مجالس الولايات التشريعية بطلب فيعقد مؤتمر لتقديم الاقتراح. وفى كلتا الحالتين، اذا وافق ثلاثة ارباع المجالس فى الولايات التشريعية، فان التعديل يصبح

نافذ المفعول ويصبح جزءاً من الدستور. ولقد دل الزمن على انه لم تدع الحاجة الا لقليل من التعديلات ، ذلك لان الدستور كتب بطريقة مرتبة مرنة ، ويمكن التوسع في تفسيره من قبل الكونجرس والمحاكم. وبعد ان انشأ مندوبو المؤتمر الدستوري اداة قوية متوازنة لحكم الولايات المتحدة ، انتهت اعمالهم في عام ١٧٨٧ . وارسلت الوثيقة الى الكونجرس الذي قدمها بدوره الى الولايات للتصديق عليها من قبل مؤتمرات تدعى خصيصا لهذه الغاية، وقد كان تصديق تسع ولايات لازما لاقرار هذا الدستور، فكان لابد من معركة قاسية لتأمين هذا الاقرار.

لقد نال الدستور التسعة اصوات اللازمة لاقراره . ولكن بقيت ولايتان كبيرتان هما فيرجينيا ونيويورك تعالجان المسألة بعنف وكان الصراع في نيويورك عنيفا، فاحرز الفيدراليون النصر نتيجة لجهود الكسندر هاملتون وكان التصويت النهائي ٣٠ مقابل ٢٧ لتبني الدستور. وبعد ان اصبحت احدى عشر ولاية من ثلاثة عشرة منضمة تحت لواء علم الاتحاد وحكومة واحدة ، كان لابد للولايتين الباقيتين رود آيلاند وكارولينا الشمالية من الانصياع للوضع الراهن. ولم تشترك رود آيلاند في المؤتمر الدستوري في فيلادلفيا كما انها لم تدع لمؤتمر التصديق الدستوري ، ولكن عندما هددتها الولايات المتحدة بان تعاملها كأمة اجنبية، استسلمت رود ايلاند اخيرا واصبح الاتحاد كاملا. اما هذه الولايات الثلاثة عشر الاصلية فهي كرنكتكوت ديلاوير، (Delaware) ،جورجيا ، ميرى لاند ماساتشوستس نيوهامبشر، نيوجرسي، نيويورك، كارولينا الشمالية ، سلفانيا رود آيلاند، كارولينا الجنوبية، وفرجينيا. ولقد اجريت الانتخابات

ووقع الاختيار الاجتماعي على جورج واشنطن، ثم اختير جون آدامز من ماساشوستس كنائب للرئيس، وكانت العاصمة في السنوات الاولى مدينة نيويورك.

وهكذا تكونت جمهورية متوثبة اصبحت متأهبة لتبدأ حياتها في العالم الجديد. ولقد كشف تعداد للسكان اجرى في العام التالي لتنصيب واشنطن، عن انها كانت تضم حوالي اربعة ملايين نسمة، كان ثلاثة ملايين ونصف المليون تقريبا من البيض". وكان هؤلاء السكان في الغالب من الريفيين جميعا. فلم تكن هناك من المدن ما تستحق الاسم سوى خمس : فيلادلفيا وتضم ٤٢٫٠٠٠ شخص ونيويورك وتضم ٣٣٫٠٠٠ وبوسطن ١٨٫٠٠٠ وتشارلستون ١٦٫٠٠٠ ، وبلتيمور ١٣٫٠٠٠. كانت الاغلبية العظمى من السكان يعيشون في مزارع او ضياع أوفي قرى صغيرة. وكانت المواصلات شحيحة وبطيئة، اذ كانت الطرق سيئة والحافلات غير مريحة، والسفن غير منتظمة. بيد ان شركات الطرق بدأت تتكون ، ومالبثت القنوات ان حفرت. وكان معظم الناس يعيشون في عزلة نسبية ، والمدارس قليلة ، والكتب اقل، والصحف نادرة، كان الدنابع الذي خلفته امريكا لدى الرحالة الاوربيين طابع الخشونة وقلة الراحة، وغلظة الطباع، وضآلة الثقافة مع الاستقلال واليسر المادي، واعتداد بالنفس لاحدود له. علما ان حالها كانت في تحسن ثقافيا وماديا.

ذلك ان البلاد كانت في نمو مطرد دائب فاخذ المهاجرون من العالم القديم يفدون باعداد جعلت الامريكيين يظنون في بعض الاحيان ان نصف اوربا الغربية كان يتدفق على بلادهم. وكانت المزارع الجيدة

متوفرة لقاء مبالغ صغيرة ، والطلب شديدا على العمال، والاجر طيبا . ونظرت الحكومة الى هذه الهجرة نظرة تشجيع وكان جورج واشنطون يحبذ فكرة استقدام المزارعين ذوى الخبرة من انجلترا لتعليم الأمريكيين اساليب زراعية افضل، وسرعان ما اصبحت المساحات المترامية فى وادى موهوك وجنيسى فى شمال نيويورك، ووادى سهسكيهانا فى شمال بنسلفانيا، ووادى شيناندوا فى فرجينيا ، مناطق لزراعة القمح. واخذ الناس من نيوانجلند وبنسلفانيا ينتقلون الى اوهايو، ومن فرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية الى كنتكى وتنيسى .

كذلك كان اصحاب المصانع فى ازدياد، تشجعهم المنح من الولايات واخذت ماساتشوستس ورود آيلاند تضعان اسس صناعات نسج مهمة . اخذت تحصل خفية على نماذج الالات من انجلترا . وكانت كونكتيكوت قد بدأت تنتج السلع التصديرية والساعات وولايات الوسط تنتج الورق والزجاج والحديد. غير ان امريكا لم تكن حتى ذلك الحين قد اوتيت مدنا صناعية ينصرف سكانها تماما الى العمل فى المصانع . والواقع ان معظم العمليات الصناعية كانت تؤدى فى المساكن فكان بوسع المزارعين ان يصنعوا فى امسيات الشتاء الطويلة ، اقمشة خشنة وسلعا من الجلد، وآنية من الفخار والادوات الحديدية البسيطة والسكر والادوات الخشبية . وعندما بدأت المصانع والورش فى الظهور كان اصحابها كثيرا ما يشتغلون مع عمالهم الاجراء .

واخذت الملاحة تزدهر ، وشرعت الولايات المتحدة فى احتلال المكانة الثانية بعد انجلترا فى المحيط، وصنعت السفن باعداد كبيرة للتجارة الساحلية . ولصيد السمك ولصيد الحوت ولنقل الحبوب والتبغ

والاخشاب وغيرها من البضائع فى اوربا. ولم تكن الثورة قد انتهت تماما عندما قامت السفينة "امبريس" برحلة الى "كانتون" وعادت بانباء امكانيات الاتجار مع الصين، مما اثار تحمس اهل نيوانجلند وبرزت تجارة جديدة، بلغ من نشاطها ان خمس سفن تحمل العلم الامريكى "النجوم والاشرطة" ذهبت الى الصين فى عام ١٧٨٧. وكان الصينيون يتلهفون على اقتناء الفراء، فصمم بعض تجار بوسطن على ارسال سفن الى الساحل الشمالى الغربى لامريكا الشمالية، لشراء جلود الحيوان من الهنود الحمر ونقلها الى الصين مقابل احضار الشاى والاقمشة الحريرية. وقد ادت هذه الفكرة الى بداية علاقات تجارية ناجحة بين الصين والولايات المتحدة مبكرا.

الفصل السابع عشر

الحرب الاهليــــة الامريكيــة

١٨٦١ – ١٨٦٤

اندلعت الحرب الاهلية الامريكية بين ولايات الشمال والجنوب بفعل عوامل كثيرة متعددة، ويرجع بعضها الى طبيعة الاستعمار الاوروبى لامريكا منذ ان استقرت الهجرات الاوربية فى اماكن معينة اتخذت لها طابعا اقتصاديا خاصا املته عليها طبيعة ظروفها الجغرافية والثقافية والاجتماعية. فلقد ظلت الولايات الشمالية حتى عام ١٧٦٠ تحترف الزراعة شأنها فى ذلك شأن الولايات الوسطى والجنوبية برغم ان الطبيعة لم تمنح الولايات الشمالية سعة فى الاراضى الزراعية كما منحت ولايات الجنوبه ولذلك لم يكن للزراعة شأن كبير فى حياة تلك الولايات الشمالية.

وترتب على هذا ان تبنت الولايات الشمالية نظريات اقتصادية معينة تستند اساسا على عدم الاهتمام بالارض الزراعية كمورد هام من موارد الثروة. فلم تحافظ على بقاء تلك الارض على هيئة اقطاعيات كبيرة كما كان الحال فى الولايات الجنوبية، بل كانت تورث الارض للابناء بالتساوى دون وضعها فى يد الابن الاكبر فقط كما كان متبعا فى الجنوبه ومن ثم اختفت الاقطاعيات الكبيرة فى الشمال بينما ظلت باقية فى الجنوب بشكل واضح وملموس، ومن هنا اختلفت نظرة كل من الشماليين والجنوبيين للارض.

اما الولايات الجنوبية ، فقد حبتها الطبيعة بالسهول الواسعة وبالخصب وبوفرة الماء. وبكل مقومات الاقليم الزراعى الخصيب وتخصص المزارعون فى الجنوب فىزراعة محاصيل معينة كالتبغ والارز النيلة ثم القطن، واصبحت الولايات الجنوبية من اكبر اقاليم العالم انتاجا للقطن والسيطرة على اسواقه العالمية وعلى اسعاره. وقد واجه الجنوبيون مشكلة صعبة عند زراعة تلك المساحات الواسعة من الارض وهى قلة الايدى العاملة. وجاء الحل فى شراء الرقيق من اواسط افريقيا وتشغيلهم فى الارض وبمضى الوقت ظهرت مشكلة جديدة بتكاثر عدد هؤلاء الارقاء وزيادة عددهم زيادة كبيرة وعدم تمتعهم بما يتمتع به الامريكى من الحقوق. وهكذا اصبح الرقيق من اهم مستلزمات الحياة الاقتصادية فى الجنوب . ومن هنا جاء اختلاف النظرة الى الارض بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية.

وكان سكان الولايات الشمالية يضغطون على الكونجرس الامريكى لاباحة الهجرة الى تلك الولايات دون قيد او شرط ليتمكنوا من اجتذاب عدد كبير من الايدى العاملة الرخيصة التىتستخدم فى ادارة المصانع وف ، الانتاج الصناعى الكبير ، والقيام بالمشروعات العمرانية الواسعة التى تحتاج الى رؤوس الاموال الكبيرة. كما كانوا ايضا يحثون الكونجرس على فرض ضريبة عالية على المصنوعات المستوردة من الخارج لحماية المنتجات المحلية التى يقومون بانتاجها،فالحماية الجمركية فى صالح اصحاب رؤوس الاموال فى الشمال فى حين انها تضر بمصالح المستهلك من طبقة المزارعين فى الجنوب .

ومن ناحية اخرى، عارض الجنوبيون فكرة منح الاراضى لصغار المزارعين والعمال حتى لا يؤدى هذا العمل الى انشاء دويلات

جديدة تتبع نظاما لايقوم على الرق كعامل هام من مقومات الحياة الاقتصادية . وسيصبح انضمام تلك الولايات الجديدة الى الاتحاد الامريكي في غير صالح ولايات الجنوب ، لانه سيزيد من عدد الولايات المعارضة للرق داخل الاتحاد مما قد يؤدى الى تغلب اصواتها فى الكونجرس الامريكى على اصوات الولايات الجنوبية المؤيدة والواقع انه لم يكن من الميسور القضاء على الرق بسهولة لان الغاءه بالنسبة للولايات الجنوبية معناه القضاء التام على اهم مقومات الحياة الاقتصادية فى تلك الولايات بينما لن تتأثر الولايات الشمالية من هذا القرار الخطير لان الحياة الاقتصادية تركزت فى ايدى البيض ولم يكن للزنوج عمل فى الشمال سوى الخدمة فى المنازل ، وكان من السهل على اهل الشمال الاستغناء عن خدماتهم.

وعندما نالت الولايات المتحدة استقلالها فى عام ١٧٨٣، لم يكن هناك بد من الاعتراف فى الدستور بشرعية الرق. ولكن فى نفس الوقت ، سادت فى الولايات الشمالية فكرة التدرج فى الغائه واتخاذ التدابير اللازمة لذلك. وبدأت الولايات الشمالية الواحدة بعد الاخرى تدخل التعديلات الضرورية فى دساتيرها للنص على هذا الالغاء. وكانت اولى تلك الولايات ماساتشوستس ، اذ الغت الرق عام ١٧٨٠، وتلتها بنسلفانيا فى نفس السنة ثم ولاية نيويورك عام ١٧٩٩. وابتداء من عام ١٨٣٠، اخذت الاتجاهات تشتد باطراد بصدد الرق من القطاعين الشمالى والجنوبى . وفى عام ١٨٣١ أنشأ وليم لويد جاديسون صحيفته "المحرر" (Librator) فى بوسطن كما قام بدور لايقل من دوره اهمية فريق قوى من اوهايو تزعمه آرثر تايان، وفى نفس الوقت اعلن كثير من زعماء الجنوب ان الرق

خير مو كد، فنشر توماس ديو، من جامعة وليم آند ميرى ،كتابـــا يدافع عنه ، ووصفه هموند ، حاكم كارولينا الجنوبية فى عام ١٨٣٥ ، بأنه "حجر الزاوية فى صرحنا الجمهورى" .

وهال اصحاب المصانع فى الجنوبان تضيع مصالحهم تحقيقا لمبادئ انسانية لم يكن يعيروها ادنى اهتمام. وبدأ الخلاف يشتد بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية عندما اخذت الولايات الغربية تنضم للاتحاد الامريكى. ففى عام ١٨١٨ انضمت ولاية الينوى الى الاتحاد واصبح بذلك عدد الولايات التى تناهض الرق احد عشر ولاية مقابل عشر ولايات تؤيده. وفى عام ١٨١٩، تقدمت ولاية الباما للانضمام للاتحاد كولاية تقر مبدأ الرق، فعارضت الولايات الشمالية فى ذلك ، اذ ستتعادل ولايات الجنوب مع ولايات الشمال فى الاصوات داخل الاتحاد الامريكى. وكاد هذا الاختلاف يؤ دى الى حرب بين الطرفين لولا تدخل احد السياسيين ويدعى هنرى كلاى (Clay) فى الامر، فوضع ما يعرف باتفاق ميسورى كحل للمشكلة. وبمقتضى هذا الاتفاق، جعل خط عرض ٣٦ شمالا تقريبا كحد فاصل بين الولايات التى تقر الرق فى الجنوب والولايات التى تناهضه فى الشمال، ووافق الطرفان على هذا الحل.

غير ان هذه المشكلة ثارت مرة اخرى بشكل يهدد الاتحاد وذلك بعد انتصار الولايات المتحدة الامريكية فى الحرب الاهلية المكسيكية واستيلائها على كاليفورنيا ونيو مكسيكو. وفى ذلك الوقت تقدم احد نواب الشمال الى الكونجرس الامريكى يطالب بمنع الرق فى هذه المستعمرات الجديدة ، فثار نواب الجنوب وطالبوا بأن يكو ن لهم نفس الحق الذى للشماليين فى ممارسة نشاطهم الاقتصادى. وكاد ان

يؤدى هذا الخلاف ايضا الى حرب بين الفريقين لولا تدخل هنـــــرى كلاى للمرة الثانية وقيامه بوضع اتفاقية فى عام ١٨٥٠ اسهمت فـــــى وضع حد لهذا النزاع لما يقرب من ثلاث سنوات.

وبرغم ذلك، ظل التوتر قائما، وتجدد النزاع من جديد عندما اقر الكونجرس الامريكى بدخول ولايتى كانساس ونبراسكا الخصبتين الاتحـــاد بالشكل الذى ترياه اما مؤيدتان للرق أو مناهضتين له. ولما كانت هاتان الولايتان فى شمال خط عرض ٣٦ شمالا، وهو الحد الاقصى لامتـــداد الرق طبقا لاتفاقية ميسورى، فقد اعتبرهذا القرار من الكونجـــرس مخالفة صريحة لنصوص تلك الاتفاقية. وكان هذا الحادث الجديـــد من العوامل التى ايقظت الحقد الدفين فى صدور كلا الفريقين.

وفى عام ١٨٥٤، قام تنظيم جديد هو "الحزب الجمهورى" الـــذى اجتذب الشباب من ذوى الذكاء، وضم رجال الاعمال فى شرق الولايـــات المتحدة الامريكية والمزارعين فى غربها. وكان مطلب الحزب الاول هو الغاء الرق ومقاومة كل حركة ترمى الى امتداده الى الولايات الغربيـــة وكان من رجال هذا الحزب البارز ابراهام لنكولن Abraham Lincoln (١٨٠٩ – ١٨٦٥) الذى قال فى عام ١٨٥٤ "لو اوتيت كافة السلطـــات الدنيوية لما عرفت ماذا ينبغى ان افعل للنظام القائم" واعلن ان، حق الكونجرس فى الغاء اتفاق ميسورى لايتعدى حقه فى الغاء القانـــون المناهض لجلب العبيد من افريقيا. واكد ان جميع التشريعات القومية يجب ان تصاغ فى اطار المبدأ الذى اتخذه مؤسسو الجمهورية وان الرق نظام لابد من تغييره توطئة لالغائه فى النهاية.

ولاحت طلائع الحرب فى الافق بسبب تكالب كلا الفريقين الشمالى والجنوبى على استيطان ولاية كانساس ،ومحاولة كل منهما ان يتفوق فى عدد انصاره على الآخر، ليتمكن من تقرير مصير الولاية فى صالحه الخاص . وعندما اجريت الانتخابات داخل الولاية لاختيار ممثل لها لدى الكونجرى الامريكى، تغلبت اصوات المؤيدين على اصوات خصومهم وقد اغضبت هذه النتيجة ، التى جاءت فى صالح مؤيدى الرق، اهل الشمال ووسعت شقة الخلاف بينهم وبين اهل الجنوب .

ومن الخصائص التى زادت من خطورة الاحداث ، ان الشمال والجنوب كانا قد تطورا الى قطاعين مختلفين اختلافا كبيرا من النواحى الاقتصادية والاجتماعية . فكان الجنوب بأكمله ، تقريبا ، ريفيا ولم توجد به سوى مدينة كبيرة واحدة هى نيواورليانز . اما الشمال فقد انتشرت المدن فى اجزاء كبيرة منه ، واقترب تعداد سكان مدينة نيويورك من المليون نسمة . ولم تكن فى الجنوب صناعة تذكر ،والواقع ان ماكانت تستهلكه مصانع النسيج من القطن كان يقل عما تستهلكه مدينة لوويل Lowell وحدها فى ماساتشوستس وازدهر الشمال بالمنشآت الصناعية التى انتجت الحديد والمنسوجات والاحذية والساعات والادوات الزراعية وغيرها . وبالاضافة الى ذلك كان انشاء الطرق الحديدية فى الشمال أكثر تقدما مما كان عليه الحال فى الجنوب ،وحظى الشمال وحدة بالجزء الاكبر من العشرين الف ميل من الخطوط الحديدية التى انشئت بين عامى ١٨٥٠، ١٨٦٠.

وبرغم أهمية هذه الفوارق، فلم يكن فى مقدورها ان توقع الفرقة بين الشمال والجنوب لو لم يفخمها الخوف ، ولو لم يستغلها مثيرو الفتن بين عامة الشعب . وكان الجنوب يدرك ادراكا تاما ان وراء مشكلة الرق مشكلة عنصرية لا حل لها . اما الشماليون بما فيهم لينكولن فكانوا يخشون ان يعمل الجنوبيون على نشر الرق فى الأمة الامريكية

[illegible]

[illegible] ركه، [illegible] بين [illegible] يمكن ان [illegible]

مثيرى لخواطر بين الفريقين [illegible]

بوتوماني لمدة خمس عشرة دقيقة . وعلى اية حال، تكهرب الجو بين اهل الشمال والجنوب وتدهور الامور الى الحد الذى فكر فيه كل فريق فى حل تلك المشكلة بحد السيف . ومهما يكن الامر، فان هذه الحرب التى ستنشب بين الطرفين اطلق عليها بعض المؤرخين الثورة الامريكية الثانية واعتبروها نتيجة حتمية للنظام الاجتماعية الامريكية اقتضتها الظروف المحيطة بالشعب الامريكى فى ذلك الوقت

وبدأ الحزبان الرئيسيان فى امريكا حركة المقاومة فى كلا الجانبين فالحزب الجمهورى فى الشمال اخذ ينظم صفوفه ويستعد لخوض المعركة الانتخابية عام ١٨٦٠، فاجتمع فى مدينة شيكاغو وقام بترشيح ابراهام لنكولن رئيسا على اساس المبادىء التى نادى بها الحزب والتى تنص على انه ليس للكونجرس ولا لاى مجلس تشريعى من مجالس الولايات الحق فى منح الاسترقاق الصفة القانونية فى اية ولاية من الولايات الامريكية .
وفى الجانب الاخر، وجد الحزب الديمقراطى الذى كان يتكون من زعماء الحزب وكانت سياسته ترمى الى مراعاة الحقوق المكتسبة لكل ولاية ، وكذلك العمل على حفظ سياستها واستقلالها ، وان يكون للكونجرس الامريكى [illegible] حماية [illegible] الولايات [illegible]

[illegible]

[illegible]

الجنوبه واعلنت ان الشمال قد انتخب للرئاسة رجلا "ذا آراء وغايات معادية للرق" ولذلك قررت فى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٦٠ الانسحاب من الاتحاد الامريكى، وتبعتها بعد ذلك ولاية فلوريدا والباما ومسيسبى وتكساس ولويزيانا وجورجيا. ويعتبر انفصال هذه الولايات الجنوبية عن الاتحاد عملا خطيرا ادى الى تصدع الجبهة الداخلية فى الولايات المتحدة وحمل الرئيس الجديد ابراهام لنكولن مهمة شاقة لارجاع هذه الولايات المتمردة الى حظيرة الاتحاد باية وسيلة من الوسائل، على ان يكون استخدام القوة آخر تلك الوسائل التى ذهب تفكيره اليها.

ويمثل هذا الانفصال، من وجهة نظر الولايات الجنوبية المنشقة، خوف الولايات على مصالحها من ان تضيع اذا ما قدر لاهل الشمال التغلب عليهم فالنزاع فى نظر رجال الاقطاع فى الجنوب يتمثل فى الصراع بين المصالح الصناعية فى الشمال والمصالح الزراعية فى الجنوب، وخوف الجنوب من سيطرة الصناعة والتضحية بمصالحه الزراعية وعلى اية حال، لم يكن الانفصال فى صالح الولايات المتحدة الجنوبية بقدر ماكان فى صالح زعماء الجنوب واصحاب المصالح الزراعية فيه. وفى ٤ فبراير عام ١٨٦١ اجتمع مندوبو الولايات الجنوبية السبع المنشقة على الاتحاد، وقرروا فيما بينهم تكوين حكومة الولايات الائتلافية الامريكية Confederate States of America وعلى رأسها جيفرسون ديفس Jefferson Davis (١٨٠٨ – ١٨٨٩).

واختلف الرأى العام الامريكى فى نظرته الى تلك الحركة الانفصالية فالتجار الشماليون الذين كانوا يرتبطون بعلاقات تجارية مع الولايات الجنوبية قد اسفوا لهذه الخطوة، ولكنهم فى نفس الوقت حاولوا اعادة تلك الولايات الى حظيرة الاتحاد بالطرق السلمية دون ان يحبذوا استخدام القوة حتى لاتسوء علاقاتهم مع سكان الجنوب وفريق آخر من الناس كان

يرى ان انفصال الولايات المتحدة هو الحل العملى لتلك المشكلة .فتستطيع الولايات الجنوبية ان تتصرف داخل حدودها كيف تشاء دون ان تتحمل الولايات الشمالية هذا العمل الاجرامى الذى تقوم به ولايات الجنوب. ولكن المسئولين الامريكيين ارادوا فض النزاع بالطرق الودية وعرضوا حلولا لهذا الموضوع تتلخص فى اباحة الاتجار بالرقيق داخل الولايات التى تبيع الرق، وان تبقى تلك الولايات داخل الاتحاد الامريكى على ان يفصل بينها وبين الولايات الحرة خط يتفق عليه على غرار اتفاق ميسورى.

غير ان هذه الحلول لم ترض اى من الطرفين . ووقفت مشكلة امتداد الرق الى الولايات الغربية حجر عثرة فى سبيل الوصول الى اى اتفاق نظرا لتمسك كل منها بوجهة نظره . وكان على ابراهام لنكولن انقاذ الموقف المتدهور ومحاولة ايجاد علاج سريع يجنب البلاد ويلات حرب اهلية داخلية ، ولذلك اعلن عن سياسته التى تهدف الى التمسك بالوحدة ، وبانه ليست لاية ولاية من الولايات الحق فى الانسحاب من الاتحاد وانه سيركز جهوده حول صيانة الوحدة وارجاع البلاد الى ما كانت عليه من قبل. ومن ناحيته ، لم يفكر لينكولن فى اتخاذ اى اجراء عسكرى قد يؤدى الى حرب اهلية يتحمل هو وحده نتائجها. ولذلك ترك للايام تقرير مصير هذا العبء وقد واتته الفرصة فى ١٢ ابريل عام ١٨٦١ اذ حدث صدام مسلح بين حامية احدى القلاع بميناء تشارلستون بولاية كارولينا وبين احدى فرق قوات الولايات الاشتلافية فى الجنوب . فكان هذا الصدام بمثابة الشرارة الاولى التى اضرمت النار والتى اتخذها الشمال ذريعة للهجوم ومواجهة العدوان بمثله بحجة ان الولايات الجنوبية هى البادئة به .

واستغل لينكولن هذا الحادث وطلب من الولايات الشمالية تعبئة

٧٥ ألف متطوع لخوض تلك الحركة . وباعلان هذا الطلب انسحبت ولايات اركنساس وكارولينا وتنسى من الاتحاد، وانضمت الى الائتلاف الجنوبي وبذلك بلغ عددها احدى عشر ولاية تضم تسعة ملايين نسمة، بينما كان عدد ولايات الاتحاد فى الشمال ثلاث وعشرين ولاية بلغ مجموع سكانها اثنين وعشرين مليونا. هذا بالاضافة الى ما تتمتع به الولايات الشمالية من سعة فى خطوط مواصلاتها الحديدية. ومن هنا نرى ان كفة الشماليين سترجح فى هذه الحرب كفة الجنوبيين، اذا ما اخذنا فى الاعتبار قوة راس المال فى الشمال، وكذلك الخبرة والتقدم العلمي والثقافي بيد ان اهل الجنوب كانوا يرون فى انتاجهم للقطن ما يساعدهم على تصريفه لدى الدول التى هى فى حاجة اليه واهمها انجلترا وفرنسا. وكذلك فى شراء ما يلزمهم من اسلحة وعتاد حربى، هذا الى جانب ايمانهم العميق بقوتهم وان فى مقدورهم انتزاع النصر من الشماليين.

سير حرب الانفصال :

لايهمنا فى هذا المجال سوى ان نوضح المعالم الرئيسية لتلك الحرب وخطوطها العريضة ليتسنى الالمام بها وتتبع نتائجها. لقد ركز لينكولن خطته العسكرية على اهداف ثلاثة : اولهما، الاستيلاء على ريتشموند عاصمة الولايات الائتلافية والتى تركز فيها النشاط الحربي وثانيهما، دق اسفين بين الولايات الجنوبية بالاستيلاء على نهر المسيسبى وفصل الولايات الجنوبية فى الشرق عن زميلاتها فى الغرب، وثالثهما محاصرة الموانى الجنوبية لشل حركة التجارة بين الولايات الائتلافية والعالم الخارجي، وفى حصار اقتصادى شديد عليها حتى لاتستطيع تصريف قطنها خارجيا او استيراد الاسلحة اللازمة لها .

وفى سبيل تحقيق الهدف الاول وهو الاستيلاء على مدينة ريتشموند عاصمة الحكومة الائتلافية ، حاولت الجيوش الاتحادية القيام بعدة حملات بدأت فى منتصف عام ١٨٦١ باءت جميعها بالفشل، وذلك لصلابة سكان الجنوب ودفاعهم بعناد شديد عن مدينتهم . وهذا النجاح فى صد تيار الغزو الشمالى ، قد شجع الجنوبيين على القيام بغزو الشمال على يد قائدهم الكبير الجنرال روبرت لى Robert Lee ولكن محاولتهم ايضا لم تكن احسن حظا من محاولات الشماليين . وفى عام ١٨٦٤ عين الجنرال يوليسس جرانت Ulysses Grant قائدا عاما لجيوش الشمال الاتحادية ، فقام بمهاجمة ولاية فرجينيا والاستيلاء على مدينة ريتشموند والقضاء على الحكومة الائتلافية بعد استسلام قواتهم بقيادة الجنرال لى .

اما فيما يتعلق بالاستيلاء على حوض نهر المسيسبى فقد تمكن الجيش الاتحادى فى اوائل عام ١٨٦٢ من توجيه ضرباته الى معاقل الائتلافيين على نهرى تنسى وكمبرلند من فروع نهر المسيسبى . وفى نفس الوقت قامت قوة بحرية بالاستيلاء على مصب نهر المسيسبى لمعاونة الجيش الشمالى فى مهمة الاستيلاء على حوض النهر كله من الشمال والجنوب فى وقت واحد. وبنجاح تلك العملية الحربية يتم الفصل بين الولايات الجنوبية الشرقية وزميلاتها الجنوبية الغربية ، وتنقسم قوة الائتلافيين الى قسمين منعزلين لايمكن التعاون فيما بينهما . وكان هذا من الاسباب الجوهرية فى هزيمة الائتلافيين.

اما بالنسبة للحصار البحرى للسواحل الجنوبية الممتدة من ساوث كارولينا الى فلوريدا ، فقد نجح نجاحا كبيرا وكان من الاسباب الاساسية

...مقاومة الجنوبيين، فهـذا

... الشمال، ... الشماليون ان ... اهل الجنوب من اهـم

... ياة كالغ... والادوية والعتاد اللازم للجيش وبالاضافة

... ذلك ، اصابت الحياة الاقتصادية فى الجنوب خسارة فادحة من جـراء

عدم تمكنها من تصريف القطن والمحاصيل الرئيسية الى العالم الخارجـى

... ادى ذلك الى زيادة الاعباء الملقاه على عاتق الحكومة الجنوبية الـى

... تواجهه من اعباء حربية .

وفى خلال تلك الحرب، نشطت الدبلوماسية الامريكية نشاطا كبيـرا

... الامريكية تعتبر، من وجهة نظر الولايات المتحدة الامريكية

... تخص الولايات المتحدة وحدها دون تدخل من قبل الدول الاوربية

اى ان هذه الحرب تعتبر اختبارا عمليا لمبدأ فاعلية مبدأ منـرو

Monro Doctrine الذى اعلنته الولايات المتحدة الامريكيـة

فى ٢ ديسمبر عام ١٨٢٣، وينادى بان الولايات المتحدة الامريكية تعتبـر

... من قبل الدول الاوربية فى شئون القارة الامريكية عملا عدائيـا

... وان الولايات المتحدة الامريكية لن تتدخل فى الشئـون

... ان تعاملها الدول الاوربية بالمثل، وبمعنى آخـر

... امريكا للامريكيين،

... الحكومة الاتحادية ان تؤدى تلك الحرب الى تدخـل

... الاوربية لصالح الانفصاليين، وعلى وجه الخصوص انجلتـرا

... حكومة الاتحاديين من نشاطها السياسى لدى الـدول

... الدول الكبرى منها حتى لا تعترف باستقلال الحكومـة

... اذ لو قدر للمساعى الدبلوماسية التـى

بذلتها الولايات الجنوبية لدى حكومات الدول الاوربية المختلفة لحملها على الاعتراف بكيانها المستقل عن الحكومة الاتحادية ، لوجدت الحكومة الشمالية نفسها فى موقف حرج لايمكن مجابهته ، ولاضطرت الى الرجوع للامر الواقع والتسليم للجنوبيين. وخصوصا ان حكومة الائتلافيين كانت تجد عطفا وتأييدا من قبل التجار فى الدول الاوربية الذين تربطهم علاقات تجارية مع تجار الجنوب.

وعلاوة على ذلك فان هدف الشماليين من تلك الحرب لم يكن واضحا فلم يعلنوا بانهم قاموا بتلك الحرب لالغاء تجارة الرقيق، بل على العكس من ذلك، فقد اوضحوا بما لايدع مجالا للشك بانهم يوافقون على بقاء تجارة الرقيق على ماهى عليه اذا ما وافقت الولايات الجنوبية على الرجوع الى حظيرة الاتحاد. وهذا الموقف من قبل الشماليين قد نفر منهم جزءا من الرأى العام الانجليزى الذى راى فى موقف الشماليين طغيانا على مصلحة الجنوبيين وان الهدف منه السيطرة والمصلحة وليس الغاء تجارة الرقيق الشائنة. كما ان تلك الحرب قد اصابت المنسوجات القطنية الانجليزية بضرر بليغ. وفى نفس الوقت، وقف عدد كبير من الرأى العام الى جانب الاتحاديين فى هذا الصراع، ووجهة نظرهم فى هذا الشأن ان هذه الحرب قائمة بين الشمال والجنوب تمثل الحرب بين الحرية والاسترقاق. وان انجلترا قد جاهدت فى تاريخها الطويل لنصرة الحرية ومساندة النظم الدستورية فى العالم. ولهذا وجب على الشعب الانجليزى الوقوف الى جانب اهل الشمال لتحقيق هذا الهدف السامى.

اما عن موقف فرنسا من هذه الحرب فكان يختلف الى حد كبير عن موقف انجلترا ، ففرنسا كانت تتوق منذ خروجها من مستعمراتها فى امريكا الشمالية فى عام ١٧٦٣ الى انتهاز الفرص المناسبة للتدخل فى

شئون القارة الامريكية لمحاولة استعادة ماكان لها من نفوذ .

ولهذا كانت فرنسا تعطف على امانى الجنوبيين وتود التدخل لمصلحتهم ولكنها كانت لاترى التدخل بمفردها فى هذا النزاع وترغب فى ايجاد حل لها . يؤازرها هذا التدخل . فلجأت الى الحكومة الروسية طالبة معاونتها ، ولكن مسعاها لم يكلل بالنجاح . وقد ساعد على فشل تلك المحاولات انتهاء الحرب بسرعة فى صالح الشماليين وقد وضع انتهاؤها بهذه السرعة حدا للتدخل فى هذا النزاع . اما روسيا وبروسيا فقد اظهرتا عطفا كبيرا على امانى الاتحاديين ، وتعبيرا عن هذا العطف قام الاسطول الروسى بزيارة ودية لمينائى نيويورك وسان فرانسيسكو مما كان له اجمل الاثر فى نفوس اهل الشمال وفى تشجيعهم على مواصلة القتال .

نتائج الحرب :

انتهت الحرب الاهلية الامريكية بانتصار الولايات الاتحادية على الحكومة الائتلافية الجنوبية ، ولكنها كبدت الطرفين خسائر فادحة فقد اشترك فيها من الجانبين ما يقرب من الاربعة ملايين جندى ، وذهب ضحيتها ما يزيد عن ٦٠٠ ألف جندى ، هذا عدا ضحاياه من الجرحى والمشوهين وماسببته من خسائر مادية جسيمة عانت منها الولايات المتحدة لفترة غير قصيرة .

وبعد ان انتهت الحرب بانتصار وجهة نظر حكومة الاتحاديين وعلى رأسها ابراهام لنكولن ، بدأ هذا الرئيس يفكر فى حل تلك المشكلة وبالشكل الذى يضمن دوام الاتحاد . فعند بداية الحرب عام ١٨٦١ ، لم يكن الرئيس الامريكى يطلب اكثر من بقاء الولايات الثائرة داخل

الاتحاد مع موافقته على وجود الاسترقاق كما هو، ولكن هذا الحل لم يرض تلك الولايات . ملجأ الكونجرس الامريكي الى اتخاذ خطوة جديدة لحل تلك المشكلة، فاصدر عام ١٨٦٢ قانونا يمنح الولايات التي توافق على عتق الرقيق بالتدريج اعانات مالية لتواجه الالتزامات التي ترتبت على هذا العتق. ولكن هذه الخطوة الجديدة فشلت في حل تلك المشكلة. ثم تلا تلك الخطوة اصدار الكونجرس لقانون اخر في تلك السنة يلغي الرق في جميع الولايات الغربية فقط دون ان يتعرض هذا القانون الى الرق في الولايات المنضمة للاتحاد. فقوبل هذا القانون بنقد مرير من قبل سكان جميع الولايات وذلك للتفرقة في المعاملة بين الولايات التي تقر الرق. كذلك كثر الهجوم على ابراهام لنكولن واتهمه خصومه بالتردد والمحاباه في معالجة المشكلة. وهذا ما دفعه في عام ١٨٦٢ الى الاعلان عن عزمه لتحرير العبيد اذا ما رفضت الولايات المنشقة الرجوع الى حظيرة الاتحاد في اول يناير عام ١٨٦٣ .

ولكن هذا التهديد قوبل بالرفض من قبل الولايات الجنوبية وظل هذا القرار حبرا على ورق حتى ديسمبر عام ١٨٦٥، حيث اقر الكونجرس الامريكي التعديل الثالث عشر للدستور والذي ينص على الغاء الرق الغاءا تاما من البلاد. ثم اعقب هذا التعديل تعديل آخر اطلق عليه اسم التعديل الرابع عشر للدستور الذى منح العبيد الحقوق المدنية والسياسية واصبحوا بمقتضى تلك الحقوق يتمتعون بالجنسية الامريكية وقد اشترط الكونجرس الامريكي بانه ليس للولايات الجنوبية الحق في دخول الاتحاد الا بعد الموافقة على التعديل الرابع عشر. واضطرت ولايات الجنوب تحت ضغط القوة العسكرية الرضوخ للامر الواقع . وما ان اقبل عام ١٨٧٠، حتى رجعت جميع الولايات المنشقة الى الاتحاد مكرهة.

وقد سبق انضمام تلك الولايات المنشقة اجراءات خاصة وتنظيمات جديدة ، رأت حكومة الاتحاد ضرورة اتخاذها فى الجنوب لتضييق شقة الخلاف بين الطرفين وللاخذ بيد الجنوبيين ليستطيعوا مسايرة النهضة فى الشمال. ووجدت انه من الضرورى فى تلك المرحلة الاولى ان تقسم الولايات الجنوبية الى خمسة اقسام عسكرية خاصة لرجال من العسكريين الشماليين الذين اخذوا على عاتقهم تنفيذ تلك التنظيمات الجديدة واعادة تعمير الجنوب والعمل على مساعدة الرقيق والاخذ بيدهم وتدريبهم على ممارسة حقوقهم المدنية والسياسية. واقتضى وضع التنظيمات الجديدة ابعاد انصار العهد الماضى من السياسيين الجنوبيين عن الحكم وعن تولى الوظائف العامة حتى تستقر الامور فى الولايات الجنوبية وتتركز النظم الجديدة وكان لكل هذا أسوأ الاثر فى نفوس الجنوبيين اصحاب المصالح فى العهد السابق.

وقد مكنت الادارة الشمالية ، لولايات الجنوب الزنوج من التعبير عن رغباتهم فى الانتخابات العامة التى اجريت فى ذلك الوقت واستطاعت العناصر الزنجية بالتعاون مع العناصر البيضاء الفقيرة من ان يكون لها رأى فى حكم الولايات وان تقف هذه العناصر امام اطماع الشماليين والراغبين فى الاثراء على حساب اهل الجنوب. وفى هذه الفترة استطاعت العناصر الزنجية من ان تسيطر على بعض المجالس التشريعية فى الجنوب وان توجه السياسة المحلية وان تتولى الوظائف العامة فيها عدا الوظائف العليا التى سيطر عليها رجال من الولايات الشمالية وقد ازعجت هذه الحالة العناصر البيضاء فى الجنوب. فهم يخشون من سيطرة اصحاب رؤوس الاموال على ثروات الجنوب. وفى نفس الوقت فهم لا يرضون ايضا بسيطرة العنصر الزنجى على الحياة السياسية فى الجنوب. هذا العنصر

الذى كان بالامس القريب عبدا لهم ليست له من الحقوق الا النذر اليسير.
ولهذا فقد لجأوا الى طريق غير مشروعة للتخلص من سيطرة الطرفين
فقامت الجمعيات الارهابية السرية التى القت الرعب فى نفوس الانتهازيين
الشماليين ، وابعدتهم عن تلك الولايات. كما استخدمت تلك الجمعيات
مختلف وسائل الارهاب للحيلولة بين الزنوج وبين التعبير عن رغباتهم
فى الانتخابات حتى يخلو لهم الطريق. ومن اشهر هذه الجمعيات السرية
الارهابية جمعية كوكولوس كلان Ku-Klux- Klan التى تأسست فى
بولاسكى Pulaski فى ١٨٦٥ - ١٨٦٦، وقد نجحت تلك الجمعيات
فى تحقيق اهدافها نجاحا كبيرا.

واستطاعت العناصر البيضاء فى الولايات الجنوبية عن طريق الارهاب
من ان تستعيد سيطرتها على مصائر الامور فى الجنوب بعد انسحاب قوات
الاحتلال الشمالية. فما ان اقبل عام ١٨٧٧ حتى اصبحت الغلبة فى
المجالس التشريعية للعناصر البيضاء وقد اصاب اعضاء الحزب الجمهورى الشمالى
شيء من اليأس نتيجة لما وصلت اليه الحالة فى الجنوب. فهذه الحرب
كلفت الامريكيين الكثير من الارواح والاموال، وهذا الجهد الكبير الذى
بذل في ادخال النظم الجديدة فى الجنوب لم يؤد فى حقيقة الامر الى
صيانة مصالح العبيد الا فترة محدودة من الزمن اثناء وجود القوات
المختلفة. ولكن الاوضاع السياسية فى الجنوب عادت الى ماكانت عليه
من قبل بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب. فالحرب الاهلية الامريكية
رغم ما بذل فيها من تضحيات لم تحقق للعبيد كل ماكانوا يصبون
اليه من حقوق، فهى قد منحتهم الحرية من الناحية القانونية الا انها
لم تمنحهم المساواة الفعلية مع البيض رغم اعتراف القانون الامريكى

لهم بتلك المساواة. فظلت عوامل التفرقة والبغضاء تسيطر على فريقى الامة حتى الان. ولكن فى اوقات الازمات التى مرت بالامة الامريكية وقف عنصرا الامة صفا واحدا للدفاع عن وطنهم لافرق بين ابيض واسود وقد حدث هذا فى الحرب الاسبانية - الامريكية عام ١٨٩٨، وكذلك فى الحربين العالميتين الاولى والثانية وفى حرب فيتنام.

وعلى كل، فقد احدثت الحرب الاهلية ثورة فى المجتمع والاقتصاد الامريكيين، سواء فى الشمال او فى الجنوب وبرغم ان جذور الولايات المتحدة تتغلغل فى السنوات السابقة على الحرب فانه بوسعنا ان نرجع بزوغها الحقيقى الى الحرب ذاتها. فلقد نشط هذا الصراع الصناعة وعجل باستغلال الموارد الطبيعية، وساعد على نهضة الاعمال المصرفية الاستثمارية واتساع التجارة الخارجية، كما انه دفع الى الصدارة بجيل جديد من قادة الصناعة واصحاب رؤوس الاموال ولقد فتح الصراع ايضا المجال امام ظهور مساحات جديدة شاسعة للزراعة والرعى، مما اوجد اسواقا جديدة وخلق ظروفا مناسبة لنمو المدن، واتاح مجال العمل لمئات الالاف من المهاجرين الذين سرعان ما تدفقوا على العالم الجديد. وفى الجنوب قضت الهزيمة على طبقة اصحاب المزارع الكبيرة، ونمت طبقة وسطى جديدة، وفى خلال اربعين عاما، زاد سكان الولايات المتحدة من واحد وثلاثين مليونا الى ستة وسبعين مليونا، وتضاعف حجم مدن كبيرة مثل نيويورك وشيكاغو، بيتسبرج، وكليفلاند ودترويت.

الفصل الثامن عشر

التوسع الخارجي للولايات المتحدة الامريكية

تعتبر الحرب الامريكية - الاسبانية عام ١٨٩٨ نقطة تحول هامة في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية التي اصبحت دولة عالمية غير محصورة في نطاق القارة الامريكية . بل دخلت حلبة الصراع العالمي لقد اتبعت الولايات المتحدة الامريكية منذ عهد جورج واشنطون ، أول رئيس للولايات المتحدة (١٧٨٩ - ١٨٩٧) ، مبدأ عدم التدخل في تعقيدات الشئون الاوروبية ، غير ان ذلك لا يعني عدم استغلال الامريكيين المنازعات الاوربية لتحقيق مصالحهم الخاصة في امريكا اللاتينية وفي المحيط الهادى. لقد صدر "مبدأ منرو" (١٨٢٣) في الواقع حماية للمصالح الامريكية في القارة الامريكية ، وكان بمثابة المنفذ لتدخل الولايات المتحدة في شئون القارة . حقيقة ان الهدف الاساسي للرئيس كان الحد من تدخل الدول الاوربية في شئون القارة الامريكية ، لكن ذلك كان هدفا سلبيا . فمنذ عام ١٨٤٥، اتخذ مبدأ مونرو صفة ايجابية هامة وهي حق الولايات المتحدة في التدخل في شئون امريكا اللاتينية ونتج عن هذه الصفة الايجابية الجديدة سياسة التوسع وفرض النفوذ الامريكي في هذه المنطقة ، ومما يوضح ذلك تلك الحرب التي شنتها الولايات المتحدة ضد المكسيك عام ١٨٤٦ وانتهت بضم اراضي مكسيكية واسعة اليها .

وحتى التسعينات من القرن التاسع عشر لم تهتم الولايات المتحدة الامريكية كثيرا بالشئون الخارجية لانها لم تشعر بضرورة ملحة للتوسع الخارجي، اذ كانت منهمكة في عملية التطور الاقتصادى والاجتماعي

والسياسى فى الداخل . ولكن منذ عام ١٨٩٠ بلغت الولايات المتحدة درجة كبيرة من القوة الاقتصادية مكنتها من بلوغ مرتبة الدول العالمية والتطور الاقتصادى الامريكى يعتبر العامل الرئيسى الذى حدد وضع الولايات المتحدة العالمى فى الفترة الممتدة من ١٨٩٠ الى ١٩١٤. ففيما بين ١٨٦٠ و ١٩١٠ شهدت الولايات المتحدة ثورة زراعية ضخمة تمثلت فى التوسع الكبير فى ميكنة الزراعة واستخدام الاساليب العلمية ، والتوسع الافقى والرأسى وهو الامر الذى ادى الى زيادة الانتاج الزراعى بدرجة كبيرة فاقت احتياجات السوق المحلية . وفى الفترة من ١٨٩٧ الى ١٩١٧، ارتفع الانتاج الاجمالى الى ٣٠ ٪ غير ان هذا التقدم الزراعى الكبير لم يؤد الى تحسين احوال الريف بمقارنتها بأحوال الحضر الصناعى ، فقد ساعد وفرة الانتاج على انخفاض اسعار الحاصلات الزراعية نتيجة لتشبع السوق المحلية مما ادى الى حقيقتين :

أولا - هجرة سكان الريف الى المدن الصناعية ، ومما يلاحظ ان عدد سكان الريف انخفض من ٦٥ ٪ عام ١٨٨٠ الى ٤٠ ٪ عام ١٩٢٠.

ثانيا - العمل على زيادة الصادرات من السلع الزراعية ويمثل ذلك احد عوامل اهتمام الولايات المتحدة بالتوسع الاستعمارى.

ومن ناحية اخرى - شهدت الولايات المتحدة فى الفترة ذاتها ثورة صناعية عظمى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ من حيث الضخامة ،وساهمت بالسبب الاكبر فى تحديد وضع الولايات المتحدة الدولى. فحتى عام ١٨٨٠ كانت الزراعة هى المصدر الاول للثروة القومية . ولكن الصناعة احتلت هذا المركز ابتداء من عام ١٨٩٠، ومنذ عام ١٩٠٠ فاقت قيمة الانتاج الصناعى ضعفى قيمة الانتاج الزراعى . ومن ابرز ما يلاحظ

مى هذا المجال تقدم الولايات المتحدة على الدول الصناعية الاخـــــرى .
ففى عام ١٨٤٠ احتفظت الولايات المتحدة بالمركز الخامس بين هـــــذه
الدول وفى عام ١٨٦٠ احتلت المركز الرابع ثم قفزت الى المركـــز الاول
فى عام ١٨٩٤ حيث بلغ الانتاج الصناعى الامريكى ضعف انتاج بريطانيـــا
ونصف انتاج اوربا بأكملها.

وكان لهذه الثورة الصناعية اثر واضح فى توجيه السياسة الخارجيـــة
الامريكية فمنذ عام ١٨٩٠ وصلت السوق الداخلية الى مرحلة التشبع واخذت
الولايات المتحدة تبحث عن اسواق خارجية فى دول امريكا اللاتينيـــــة
ودول الشرق الاقصى لتصريف فائض الانتاج. ومن الملاحظ ان ضخامـــــة
الانتاج الصناعى جاء نتيجة طبيعية لضخامة المشروعات الصناعية التـــى
خضعت لتنظيم دقيق وادارة مركزية تمثلت فى تجمعات الشركات والتراست
والشركات القابضة (١). واصبحت هذه التجمعات والمؤسسات الماليـــــة
من اقوى جماعات الضغط فى الولايات المتحدة وساهمت مساهمة فعلية وقويـــة
فى عملية اتخاذ القرارات السياسية (٢) .

ولقد انعكس هذا التطور الزراعى والصناعى على تجارة الولايـــــات
المتحدة الخارجية التى زادت بمعدلات كبيرة . فأخذت الصادرات تتزايـــد
بشكل كبير مما يعنى فى الواقع اتساع الاسواق الخارجية التى تمكنـــت
الولايات المتحدة من استغلالها. وبالرغم من انه ، حتى عـــام ١٩١٤ ،

---

(١) Pools, Trusts, Holding Companies

(٢) من اهم هذه المؤسسات المالية مؤسستا روكفلر (Rockeffler
ومورجان (Morgan) ومثلا عصب الحياة الاقتصاديـــة
والتجارة الامريكية .

اتجهت حوالى ٦٣٫٤٠ ٪ ، وهى نسبة كبيرة من الصادرات الامريكية الى القارة الاوربية ، فانه من الملاحظ ان هذه الصادرات تكونت فى معظمها من السلع الزراعية التموينية . وهكذا تطلبتسويق السلع الصناعية المتزايدة البحث عن اسواق خارج القارة الاوربية . ويضاف الى ذلك ان قوة الاقتصاد الامريكى قد ادت الى زيادة المدخرات التى توجه جزء كبير منها الى الخارج سعيا وراء مزيد من الربح . ويمكن القول بأن جملة الاستثمارات الامريكية فى الخارج بلغت ٦٨٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار عام ١٨٩٧ ، وارتفع هذا المبلغ الى ٢٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار مع بداية الحرب العالمية الاولى .

ويمثل هذا التقدم الاقتصادى الضخم ، الذى لا نجد له مثيلا فى التاريخ من حيث المدى والسرعة ، شعور الامريكيين بقوتهم التى ولدته فى نفوسهم روح العظمة والزهو ودفعتهم الى الخروج من الاطار الانعزالى التقليدى الذى فرضته ظروف تنمية الولايات المتحدة فى الداخل وتوطيد اركان الدولة السياسية . ومن ثم شعرت الولايات المتحدة بضرورة ملحة فى ان تقوم بدور هام على مسرح السياسة الدولية . وبرز هذا الدور منذ اواخر التسعينات من القرن التاسع عشر حيث اتجهت الى التوسع الخارجى الذى تركز فى بدايته فى منطقتين رئيسيتين هما : منطقة البحر الكاريبى وامريكا الجنوبية من ناحية ، ومنطقة المحيط الهادى والشرق الاقصى من ناحية اخرى . وقد انتهى هذا المد التوسعى المصحوب بثورة تكنولوجية عظمى بأن اصبحت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ احدى الدولتين العظميين اللتين تسعيا للسيطرة على العالم بأسره .

ومما ساعد على نمو الشعور بالعظمة والزهو ظهور مجموعة قوية من المفكرين السياسيين الذين اعتنقوا ما يعرف بالنظرية الواقعية في السياسة والتى تهتم اساسا بتوازن القوى بين الدول فى ضوء المصالح القومية المختلفة بصرف النظر عن المبادىء والقيم الخلقية . وكان على راس هذه المجموعة : ألفريد ماهان (A.T.Mahan) وتيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) وهنرى كابوت لودج (Henry Cabot Lodge) والبرت بيفيريدج (Albert Beveridge وغيرهم . وقد انتهى هؤلاء من دراساتهم الى انه حان الوقت لكى تنظر الولايات المتحدة الى وضعها العالمى نظرة واقعية فى ضوء تنافس الدول الاستعمارية الكبرى، اذ ان مصالح الولايات المتحدة بما فى ذلك امنها القومى مهددة بتنافس الدول الصناعية والبحرية الكبرى ومن ثم يتعين على الولايات المتحدة تقوية اسطولها الحربى والسيطرة على قواعد بحرية فى البحر الكاريبى وفى المحيط الهادى كاجراء دفاعى ضد اى هجوم او غزو خارجى . وواقع الامر ان الادعاء بأن الامن الامريكى اصبح مهددا ، كان مجرد ستار شفاف لايحجب تماما ما وراءه من طموح واطماع نحو رغبة بعض الامريكيين من ذوى النفوذ الكبير فى التوسع الخارجى والسيطرة .

ولقد انتقلت هذه النظرة الواقعية فى السياسة من النطاق الفكرى الى ميدان الممارسة السياسية عندما اعلن الحزب الجمهورى عام ١٨٩٦ برنامجه الانتخابى وورد فيه تعهد الحزب باتباع سياسة خارجية "حازمة" وتقوية الاسطول الحربى بما يتناسب مع وضع الدولة ومسئولياتها وضرورة السيطرة على جزر هاواى وحفر قناة نيكاراجوا (بنما فيما بعد) على ان تكون القناة مملوكة للولايات المتحدة التى تقوم بادارتها

والحصول على قواعد بحرية فى جزر الهند الغربية . وقد نجح الحزب الجمهورى فى انتخابات الرئاسة عام ١٨٩٦ وتبع ذلك النجاح مباشرة بناء امبراطورية استعمارية امريكية فى البحر الكاريبى وفى المحيط الهادى، وتأكيد سياسة "الباب المفتوح" تجاه الصينيين، بالاضافة الى فرض سيطرة اقتصادية ومالية على معظم دول امريكا اللاتينية استتبعت سيطرة سياسية قوية تكاد تشبه الحماية الفعلية . وقد انعكست هذه السياسة على مفهوم "مبدأ منرو" كما فسره الرئيس تيودور روزفلت عام ١٩٠٤، اذ اعلن فى ذلك الوقت بأن مبدأ منرو" يخول الولايات المتحدة حق التدخل العسكرى فى شئون دول امريكا اللاتينية للمحافظة على الامن والنظام فيها .

وكانت اول خطوة فى اتجاه تصميم الولايات المتحدة على فرض سيطرتها على القارة الامريكية بأكملها شراء اقليم الاسكا من روسيا مقابل ٧٫٢٠٠٫٠٠٠ دولار وذلك طبقا لمعاهدة ٣٠ مارس عام ١٨٦٧ . وقد ترتب على هذه الصفقة التجارية آثار هامة بالنسبة لوضع الولايات المتحدة الدولى. واقليم الاسكا لايذخر بالثروات المعدنية والخشبية فحسب ولكنه يتمتع ايضا بحكم موقعه ، بأهمية استراتيجية بالغة الخطورة . وبالاستيلاء على اقليم الاسكا اصبحت الولايات المتحدة تشرف على شمال غربى المحيط الهادى، واصبحت تلامس قارة آسيا عند مضيق بيرنج (Bering). وقد زادت هذه الاهمية الاستراتيجية فى النصف الثانى من القرن العشرين عندما اصبحت منطقة القطب الشمالى محورا للمواصلات الجوية . وتحولت الاسكا الى قاعدة عسكرية ضخمة تهدد الاتحاد السوفيتى مباشرة .

اما الخطوة الثانية فى مجال التوسع الاستعماري الامريكي فتمثلت فى انشاء منظمة إقليمية ، أو بالاحرى، قارية، تضم جميع دول القارة الامريكية بزعامة الولايات المتحدة . وكان الهدف من انشاء هذه المنظمة هو استخدامها كأداة لفرض السيطرة الامريكية على القارة بأكملها. ففى عام ١٨٨١ ، دعا جيمس بلين (James Blaine) وزير خارجية الولايات المتحدة ثمان عشرة دولة امريكية لحضور مؤتمر يعقد فى واشنطون فى العام التالى لمناقشة التدابير الخاصة لمنع الحرب بين الدول الامريكية وتشجيع العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة اللاتينية ، الامر الذى يؤدى كما ذكر بلين الى زيادة الصادرات الامريكية الى تلك الدول . وقد تأجلت دعوة المؤتمر الى الانعقاد الى عام ١٨٨٩ لاسباب داخلية فى الولايات المتحدة . وفى عام ١٨٨٨ طلب الكونجرس من الرئيس الامريكى دعوة مؤتمر للدول الامريكية فى واشنطن فى اكتوبر عام ١٨٨٩. ووضح فى جدول اعمال المؤتمر كما وضعه الكونجرس والحكومة الامريكية ، ان الولايات المتحدة تسعى الى فرض سيطرتها على دول القارة فى اطار منظمة اقليمية . فقد اقترحت الحكومة الامريكية اقامة اتحاد جمركى ونقدى بين اعضاء المنظمة وانشاء خط حديدى قارى يربط الارجنتين بالمكسيك ، وقبول مبدأ التحكيم الاجبارى لفض المنازعات بين الدول الاعضاء .

ولكن دول امريكا اللاتينية ابدت تحفظا على خطة الولايات المتحدة ، اذ شعرت فيها رغبة السيطرة والتسلط، فرفضت الاتحاد الجمركى واقترحت بدلا منه ابرام معاهدات ثنائية على اساس المعاملة بالمثل وتم الاتفاق على مشروع معاهده للتحكيم الاجبارى ولكن لم يصدق

عليه . ولم يسفر المؤتمر الا عن انشاء "مكتب الجمهوريات الامريكية"(١) ومقره واشنطن ويتكون من الممثلين الدبلوماسيين لهذه الجمهوريات في العاصمة الامريكية وكان من اهم اختصاصاته العمل على توطيد العلاقات بين الدول الاعضاء والتمهيد لعقد مؤتمرات آخرى . ويرجع فشل الولايات المتحدة في انشاء منظمة امريكية عام ١٨٨٩ خاضعة لسيطرتها الى ان تنفيذ هذه السياسة كان سابقا لاوانه لاسيما من الناحية الاقتصادية فرؤوس الاموال الامريكية المستثمرة في الخارج كانت ضئيلة نسبيا بسبب اتساع مجال استثمارها داخل الولايات المتحدة حتى اواخر التسعينات من القرن التاسع عشر. كما ان فشل مؤتمرات "الاتحاد الامريكي" في الفترة التالية حتى عام ١٩١٤ كان بسبب الاعتبارات السياسية التي تلخصت في خوف جمهوريات امريكا اللاتينية من سيطرة الولايات المتحدة عليها.

التوسع الامريكي في البحر الكاريبي وامريكا الوسطى :

١ — قضية كوبا :

لقد تأثرت السياسة الامريكية تجاه كوبا بعاملين اساسيين هما : العامل الاقتصادي، والعامل الاستراتيجي. فالولايات المتحدة كانت في حاجة الى المنتجات الكوبية وخصوصا السكر والتبغ، كما ان مناجم الحديد الكوبية كانت محل تطلع الرأسماليين الامريكيين. وفي عام ١٨٩٣ بلغ مجموع الاستثمارات الامريكية في كوبا اكثر من ٥٠ مليون دولار بينما بلغ حجم تجارة كوبا مع الولايات المتحدة في نفس العام ١٠٠ مليون

---

(١) تغير اسمه عام ١٩١٠ الى "الاتحاد الامريكي :

Pan American Union

دولار. وفى عام ١٨٩٤ اندلعت ثورة مسلحة فى كوبا ضد حكم اسبانيا مالبثت ان تطورت الى حرب اهلية مدمرة استغرقت اكثر من أربع سنوات. وقد ازعجت هذه الحرب الاهلية الرأسماليين الامريكيين بسبب الخسائر الكبيرة التى لحقت بزراعة قصب السكر والتبغ وصناعة التعدين ومرفق السكك الحديدية. ومن ثم قوى الاتجاه فى الولايات المتحدة لاسيما فى المناطق الصناعية فى الشمال وفى الشرق، الى ضرورة ضم كوبا وكذلك بورتوريكو الى الولايات المتحدة لحماية رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى هذين البلدين. وهكذا يمكن القول بان حماية مصالح الرأسمالية الامريكية كانت من اهم الاسباب التى ادت الى اندلاع الحرب الامريكية ـ الاسبانية عام ١٨٩٨.

وبالنسبة للاهمية الاستراتيجية لجزيرة كوبا، فانها تحتل موقعا حيويا يسيطر على خليج المكسيك ويتحكم فى احد مدخلى القناة البحرية المزمع حفرها عبر امريكا الوسطى. وبذلك تعتبر السيطرة على جزيرة كوبا من اهم الشروط الاساسية للسيطرة على القناة البحرية وعلى امريكا الوسطى وشمال امريكا الجنوبية. وبسبب انفجار بارجة حربية امريكية فى ميناء هافانا فى يوليو عام ١٨٩٨ اعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد اسبانيا، وبالرغم من انتهاء الحرب الاهلية فى كوبا واصدار عفو عام عن المتمردين واطلاق سراح المواطنين الامريكيين الذين اشتركوا فى الثورة، فلقد اصرت الولايات المتحدة على احتلال كوبا متجاهلة فى ذلك جميع التنازلات التى قدمتها اسبانيا.

وانتهت الحرب بهزيمة اسبانيا وتم ابرام معاهدة باريس فى ديسمبر عام ١٨٩٨ بمقتضاها اعترفت اسبانيا باستقلال كوبا، وتنازلت

عن بورتوريكو للولايات المتحدة ، كما تنازلت عن جزر الفليبين وجوام فى المحيط الهادى مقابل عشرين مليون دولار. واصبحت كوبا تحت الحماية "المقنعة" للولايات المتحدة ، فقد خضعت لحكم عسكرى امريكى لمدة ثلاث سنوات من ١٨٩٩ الى ١٩٠٢ قبل انتقال السلطة الى حكومة مدنية جديدة بمقتضى دستور جديد. ولم يوافق الكونجرس الامريكى على نقل السلطة الى حكومة مدنية الا بشروط عرفت باسم "تعديل بلات". (Platt Amendment) ادمجت فى دستور كوبا الجديد، وتتلخص فيما يلى :

١ - لايحق لكوبا ابرام معاهدات مع دول اجنبية من شأنها المساس باستقلال كوبا او السيطرة على اى جزء منها من اجزاء الجزيرة.

٢ - لايحق لكوبا عقد قروض لا تتناسب ومقدرتها الاقتصادية العادية.

٣ - يحق للولايات المتحدة التدخل المباشر لحماية استقلال كوبا، كما اعترفت كوبا بحق الولايات المتحدة فى التدخل لحماية اية حكومة كوبية ترى الولايات المتحدة انها قادرة على المحافظة على حياة وحرية وممتلكات المواطنين.

٤ - يحق للولايات المتحدة اقامة قواعد عسكرية بحرية فى كوبا (*).

وهكذا لم تدع الولايات المتحدة لنفسها حق التدخل فى شئون كوبا الخارجية فحسب بل اعطت لنفسها حق التدخل المباشر فى شئون الجزيرة

---

* من اهم القواعد التى اقامتها الحكومة الامريكية قاعدة جوانتنامو (Guantanamo) التى تسيطر على خليج المكسيك

الداخلية . وقد طبقت الولايات المتحدة هذا الحق عام ١٩٠٦ عندما ثار الشعب الكوبى ممثلا فى حزب الاحرار ضد رئيس الدولة الموالى للولايات المتحدة والذى انتخب عام ١٩٠٢ بمساعدة القوات الامريكية التى كانت تحتل الجزيرة آنذاك. وتوالى هذا التدخل مرة اخرى وفى عام ١٩١٢ هددت الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى فى كوبا للمرة الثالثة عندما قامت ثورة شعبية تطالب بوضع حد للسيطرة الامريكية واقامة نظام ديموقراطى واجراء اصلاحات اقتصادية واجتماعية . ولم يتوقف التدخل الامريكى هذا الا عام ١٩٣٤ بسبب تطبيق سياسة "حسن الجوار" التى تبناها الرئيس فرانكلين روزفلت . ومن اهم النتائج التى ترتبت على هذه التطورات ان القيود التى تضمنها "تعديل بلات" لم يطبق على "كوبا" فحسب بل اصبح اساسا عاما للسياسة الامريكية فى منطقة البحر الكاريبى وامريكا الوسطى.

٢ - قضية قناة بنما :

لم تقتصر نتائج الحرب الامريكية - الاسبانية على سيطرة الولايات المتحدة على منطقة البحر الكاريبى بل ان استيلاءها على جزر الفلبين وجوام قد ادى الى تدعيم مركزها فى منطقة المحيط الهادى. ومن ثم فقد اصبح موضوع حفر قناة بحرية تصل بين المنطقتين اكثر أهمية من ذى قبل واصبحت هذه القناة حجر الزاوية فى الاستراتيجية البحرية الامريكية وبالرغم من اعلان "مبدأ منرو" لم تتمكن الولايات المتحدة قبل توحيدها وتعاظم قوتها العسكرية والاقتصادية من التغلب تماما على منافسة الدول الاستعمارية الاخرى لها فى منطقة امريكا الوسطى ولاسيما بريطانيا . ففى عام ١٨٥٠ اضطرت الحكومة الامريكية الى توقيع معاهدة كلايتون - بلور (Clayton - Bulwer) التى انكرت على الولايات المتحدة الاشراف

المنفرد" على منطقة امريكا الوسطى . وامام رغبة الولايات المتحدة في ازالة هذه العقبة الفاسوسية التي كانت تعوق فرض سيطرتها التامة على المنطقة ، رضخت بريطانيا التي كانت مشغولة بحرب جنوبية افريقية وتم توقيع معاهدة هاي ـ بونسيفوت (Hay-Pauncefote) في ١٨ نوفمبر عام ١٩٠١ التي الغت معاهدة كلايتون ـ بلور، واعترفت بمبدأ حياد القناة وحق الولايات المتحدة في الاشراف عليها، وادارتها والدفاع عنها وحق اقامة التحصينات والاستحكامات اللازمة . وعلى هذا يمكن القول ان معاهدة هاي ـ بونسيفوت اطلقت يد الولايات المتحدة في منطقة امريكا الوسطى.

واستمر توسع الولايات المتحدة بسرعة كبيرة . وفي يناير ١٩١٣ ـ عقدت الولايات المتحدة معاهدة هاي ـهوران (Hay - Harran) مع كولومبيا حيث حصلت الولايات المتحدة على امتياز تأجير منطقة برزخ بنما بعرض ستة اميال لحفر قناة بحرية فيها وذلك لمدة ٩٩ عاما مقابل عشرة ملايين دولار. واجرة سنوية مقدارها ربع مليون دولار. وعندما رفض برلمان كولومبيا التصديق على المعاهدة لجأت الحكومة الامريكية الى تشجيع ومساعدة حركة انفصالية في اقليم بنما الذى كان تابعا لدولة كولومبيا في ذلك الوقت وحالت القوات البحرية الامريكية دون قيام قوات كولومبيا بقمع الحركة الانفصالية التي اعلنت استقلال بنما عن كولومبيا واسرعت الولايات المتحدة بالاعتراف بدولة بنما الجديدة في نوفمبر ١٩٠٣ وعقدت معها معاهدة هاي ـ بونوفاريلا Hay-Bunau Varilla التي منحت الولايات المتحدة حقوق السيادة على منطقة القناة . كما نصت الولايات المتحده على حق الولايات المتحدة في امتلاك وتحصين قناة بنما الى

الابد، وحقها فى احتلال واستغلال جميع الاراضى اللازمة لادارة القناة والدفاع عنها، ومن ناحيه اخرى، تعهدت الولايات المتحدة بضمان استقلال جمهورية بنما الحديدة التى خضعت للوصاية الفعلية للولايات المتحدة. وبعد حفر القناة تزايد تدخل الولايات المتحدة فى شئون دول امريكا الوسطى والبحر الكاريبى انطلاقا من "مبدأ مترو" احيانا، وبدافع تأمين قناة بنما احيانا اخرى.

٣ – ثانية جمهورية الدومينيكان :

بين جزيرتى كوبا وبورتوريكو تقع جزيرة هسبانيولا Hispaniola التى تضم جمهوريتى هايتى والدومينيكان محتلة بذلك موقعا استراتيجيا هاما عند مشارف البحر الكاريبى وفى مواجهة قناة بنما. ولذلك عملت الولايات المتحدة منذ فترة طويلة على منع الدول الاستعمارية الاوروبية من السيطرة على الجزيرة، واتبعت سياسة اكثر ايجابية ازاء باقى دول البحر الكاريبى وامريكا الوسطى بعد ان فرضت سيطرتها على جزيرتى كوبا وبورتوريكو. ولم يعد الامر محصورا على منع الدول الاوروبية من السيطرة على المنطقة ولكنه يعنى ايضا فرض السيطرة الامريكية الفعلية عليها. وقد ساعدت الولايات المتحدة على تنفيذ هذه السياسة الايجابية الجديدة تلك الإضطرابات والثورات التى شملت هذه الاقاليم بشكل مستمر وافضل دليل على ذلك تطور الاحداث فى جمهورية الدومينيكان .

فلقد ظلت الدومينيكان منذ استقلالها عن هايتى عام ١٨٤٤ تخضع لحكم دكتاتورى رجعى واجه ثورات شعبية متكررة بسبب فساد الحكم وجشع الرأسماليين الاوروبيين والامريكيين الذين اثقلوا كاهل الدولة

بالديون الخارجية . ولما لوحت الدول الاوروبية بالتدخل لحماية مصالح رعاياها الدائنين طلبت حكومة الدومينيكان تدخل الولايات المتحدة لمساعدتها . وكانت فرصة انتهزها الرئيس الامريكى روزفلت ليعلن رسميا مفهومه الجديد لمبدأ منرو (Roosevelt Corollary) ففى ٦ ديسمبر ١٩٠٤ قال روزفلت فى رسالته السنوية "حيث ان الولايات المتحدة بمقتضى مبدأ منرو لن تسمح للدول الاوروبية باستخدام القوة ضد هذه الشعوب الصغيرة المتمردة التى لاتسدد ما عليها من ديون - أو تستولى على ممتلكات الاجانب او تسئ معاملة الاجانب المقيمين بها فقد وضع هذا على كاهل الامريكيين مسئوليات لامفر منها . وسوف تتولى الولايات المتحدة بنفسها مهمة مراقبة سلوك هذه الجمهوريات" واضاف روزفلت ان قيام اية اضطرابات فى دولة من دول القارة الامريكية سوف يقتضى التدخل بالقوة من جانب الولايات المتحدة عملا بمبدأ منرو وهكذا اعطت الولايات المتحدة لنفسها سلطة البوليس الدولى فى القارة الامريكية .

وتحقيقا لهذه السلطة المزعومة عينت الولايات المتحدة مراقبا ماليا فى جمهورية الدومينيكان لتحصيل الرسوم الجمركية وتوزيع جزء كبير منها على الدائنين الاوروبيين والامريكيين واباحت الحكومة الامريكية لنفسها حق حماية مراقبها المالى بالقوة اذا استدعى الامر ذلك ولكن الاضطرابات الداخلية استمرت فى الدومينيكان بسبب الصراع السياسى على السلطة وتدخل الولايات المتحدة السافر فى امور البلاد . الامر الذى ادى الى تطور هذه الاضطرابات الى حرب اهلية . وهنا تدخلت الولايات المتحدة مرة اخرى وطالبت الدومينيكان بتوقيع معاهدة جديدة

تقضي بتعيين مستشار اقتصادى امريكى بجانب المراقب المالى الـــــدى توسعت اختصاصاته وذلك بهدف تحصيل جميع موارد الدولة الداخلية عــلاوة على الرسوم الجمركية . وبالاضافة الى ذلك طالبت الولايات المتحدة بحـــق الاشراف على تنظيم الشرطة . ولكن حكومة الدومينيكان رفضت هـــــذه المطالب لما فيها من مساس بسيادة البلاد . وفى مايو ١٩١٦ قرر الرئيـــس الامريكى وودرو ولسون احتلال البلاد واخضاعها لحكم عسكرى امريكـــــى وهكذا تحولت جمهورية الدومينيكان الى مستعمرة امريكية من الناحيـــة الواقعية ومكثت القوات الامريكية بها حتى عام ١٩٢٤ عندما تشكلت فـــى البلاد حكومة موالية للحكومة الامريكية .

٤ - قضية المكسيـــــك :

تعتبر المكسيك اعم دول امريكا الوسطى من حيث عدد سكانها ومواردها الزراعية والمعدنية وموقعها الجغرافى . وكان من الطبيعى ان تتدفـــق رؤوس الاموال الاجنبية على المكسيك لاستغلال مواردها المتعددة وتبـــوأت رؤوس الاموال الامريكية المقام الاول بين الاستثمارات الدولية . وفـــى عام ١٩١٢ بلغت جملة الاستثمارات الامريكية فى المكسيك ٥٢ ٪ مـــــن مجموع الاستثمارات الامريكية فى جميع دول امريكا اللاتينية . وكمـــا يحدث عادة فى البلاد الضعيفة المتخلفة اقتصاديا فان الرأسماليـــــة الاجنبية لاتتمكن من اقتصاديات البلاد الا بالتحالف مع الطبقات الحاكمة من الاقطاعيين والرأسمالية الوطنية التى لاتتورع عن استخدام اكثـــــر اساليب الدكتاتورية تعسفا لتحقيق مصالحها الخاصة المرتبطة ارتباطـــا وثيقا بالرأسمالية الدولية . وهذا يمثل وضوح ملامح الحكم فى المكسيـــك فى عهد الدكتاتور بروفيريو دياز Profirio Diaz الذى قبـــض

على رمام الحكم في البلاد بيد من حديد لمدة تربو على الثلاثين عامـا من ١٨٧٧ الى ١٧٨٠ ثم من ١٨٨٤ الى ١٩١١ وفي عام ١٩١٠ اندلعت ثورة شعبية قومية بزعامة فرنشيسكو ماديرو Francesco Madero ضد دكتاتورية بروفيريو ديار .

لقد اقتصرت ثورة ماديرو، الذي كان ينتمي الى الطبقة الاقطاعية رغم اعتناقه مبدأ الليبرالية السياسية . اقتصرت على الجانب السياسي دون معالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية . ولذلك تعرض نظام حكم ماديرو (١٩١١ - ١٩١٣) لمقاومة بعض اتباعه اصحاب النزعات التقدمية . كما ان ديمقراطيته السياسية فتحت المجال للرجعية الاوتوقراطية باغتصاب الحكم مرة اخرى بواسطة انقلاب عسكري بزعامة الجنرال فيكتوريانو هويرتا (Victoriano Huerta) الذي تطلع الى الانفراد بالسلطة المطلقة والقضاء على منافسيه بكل اساليب الغدر والتنكيل. واشعلت هذه السياسة الحرب الاهلية بين الرجعية والعناصر التقدمية مما ترتب عليه الاضرار بالمصالح الاقتصادية الرأسمالية الامريكية . ومما تجدر الاشارة اليه ان شركات البترول الامريكية كانت تؤيد حكومة هويرتا لانها كانت الاقدر على حماية المصالح الرأسمالية . ولكن حكومة الرئيس وودرو ويلسون التي تولت الحكم عام ١٩١٣ كانت ابعد نظرا من هذه الشركات. فساندت الحركة الديمقراطية على امل استقرار الحكم في المكسيك بواسطة حكومة ديموقراطية معتدلة تستطيع ان تكبح جماح التيارات الثورية بتقديم بعض الاصلاحات الدستورية التي لاتؤثر على المصالح الرأسمالية الامريكية في المكسيك . ولم تكتف الولايات المتحدة بعدم الاعتراف بحكومة هويرتا

ولكنها قدمت السلاح الى "الثوار" كما احتلت القوات الامريكية ميناء فيرا كروز (Vera Cruz) لمنع حكومة هويرتا من الحصول على معونات خارجية . وبذلك نجحت الثورة المكسيكية بقيادة فنوستيانو كرانزا (Venustiano Carranza) بفضل التدخل الامريكى.

ولكن استيلاء كرانزا على الحكم فى اغسطس عام ١٩١٤ لم يمثل نجاحا مطلقا لسياسة الرئيس ويلسون ، فقد كان رجلا وطنيا يريد وضع حد لسيطرة الرأسمالية الامريكية على البلاد . ومن هنا اصطدم كرانزا بحكومة ويلسون التى كانت سنده الرئيسى فى صراعه للوصول الى الحكم غير ان نجاح الثورة الشعبية فى المكسيك لم يمنع من استمرار الاضطرابات بسبب اختلاف زعماء الثورة على خطط الاصلاح الاقتصادى والاجتماعى، الامر الذى ادى الى تدخل الولايات المتحدة بقوة السلاح فى شئون المكسيك بحجة الانتقام لمصرع بعض الامريكيين اثناء القتال بين زعماء الثورة المتصارعين وبسبب قرب دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الاولى اضطرت الحكومة الامريكية الى سحب قواتها من المكسيك فى يناير ١٩١٧ . وفى نفس العام اصدرت حكومة كرانزا دستورا نص على ملكية الدولة لجميع الثروات المعدنية فى البلاد . واعادة توزيع الاراضى الزراعية لصالح الفلاحين وحق الدولة فى تأميم الشركات الاجنبية التى تستغل ثروات البلاد المعدنية والزراعية . كما نص الدستور ايضا على ان تتنازل الشركات الاجنبية التى تستمر فى استغلال ثروات البلاد عن حق الحماية الدبلوماسية اذا ثار نزاع بينها وبين حكومة المكسيك حول عقود الامتياز . ولذلك قامت الشركات الامريكية بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة بالتحريض على قلب الحكومة القومية فى المكسيك وتدخلت الولايات المتحدة مرارا لاقناع حكومة المكسيك بعدم التعرض للشركات الاجنبية .

التوسع الأمريكي في امريكا الجنوبية :

لم يبلغ تدخل الولايات المتحدة .في امريكا الجنوبية درجة تدخلهـــا في شئون امريكا الوسطى، فاكتفت بفرض نفوذها المالي والاقتصادي عـــن طريق الشركات الامريكية الكبرى والاعتماد على الاساليب الدبلوماسيـــة لفرض نفوذها السياسي. ويرجع اهتمام الولايات المتحدة بامريكا الجنوبية الى اوائل القرن التاسع عشر عندما ظهرت حركات التحرر في هذه البلاد مـــن الحكم الاسباني والبرتغالي. وقد ادى هذا الاهتمام الى اعلان مبـــدأ منرو عام ١٨٢٣ كما اسلفنا . وتعتبر الدوافع السياسية والاستراتيجيـــة من اهم الدوافع التي وجهت اهتمام الولايات المتحدة بامريكا الجنوبيـــة لاسيما الدول المطلة على البحر الكاريبي مثل كولومبيا وفنزويلا.

ولكن اهم اسباب تدخل الولايات المتحدة في شئون امريكا الجنوبيـــة كان سببا ذات طبيعة اقتصادية . ولقد برزت هذه الاسباب منذ اواخر القـــرن التاسع عشر بعد تشبع السوق الداخلية الامريكية وعجزها عن استيعاب فائض الانتاج الصناعي وفائض راس المال، وبدأ الاقتصاد الامريكي يواجه خطـــر الكساد. وتمثل امريكا الجنوبية، بمواردها الطبيعية الغنية وقوتهـــا البشرية مجالا واسعا امام استثمار فائض راس المال الامريكي وتنميـــة التجارة الامريكية ، الامر الذي يؤدي إلى مزيد من التقدم والازدهـــار للاقتصاد الامريكي ككل. وقد ارتفعت الاستثمارات الامريكية في امريكـــا بمقدار عشرة اضعاف خلال الفترة من ١٨٩٧ الى ١٩١٤. كما ارتفعت معدلات التجارة الخارجية مع دول امريكا الجنوبية ارتفاعا واضحا في نفـــس الفترة . وكان من الطبيعي ان تصطدم رغبة الولايات المتحدة في التغلغـــل الاقتصادي في امريكا الجنوبية بمصالح الدول الاستعمارية الاخـــرى

وعلى رأسها بريطانيا . وانعكس هذا التنافس البريطاني - الامريكي على النزاع الذي ثار بين فنزويلا وبريطانيا حول الحدود بين مستعمرة غيانا البريطانية وفنزويلا.

ويعود النزاع على الحدود بين فنزويلا وغيانا البريطانية الى ما قبل منتصف القرن التاسع عشر حيث لم يسبق تحديدها من قبل. وحاولت الحكومتان التوصل الى اتفاق بهذا الصدد. لكن جميعها باءت بالفشل اذ ارادت كل دولة فرض سيطرتها على مصب نهر اورينوكو Orinoco الذي يتحكم في تجارة جزء كبير من داخل البلاد. ومنذ عام ١٨٨٤ توترت العلاقات بين البلدين وتمسك كل طرف بموقفه بعد اكتشاف مناجم الذهب في منطقة النزاع بينهما. وقررت حكومة فنزويلا في عام ١٨٨٧ قطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا وطلبت من الولايات المتحدة التوسط لحمل بريطانيا على قبول عرض النزاع على لجنة التحكيم. ورفضت بريطانيا الوساطة ، كما رفضت عرض الموضوع للتحكيم وتمسكت بمطالبها الاقليمية كاملة. حينئذ ارسل ريتشارد اولني Richard Olney وزير خارجية الولايات المتحدة في ٢٠ يوليو ١٨٩٥ مذكرة شديدة اللهجة الى الحكومة البريطانية اكد فيها حق بلاده التدخل في كل القضايا الاقليمية المتعلقة بالقارة الامريكية. واستندت هذه المذكرة الى مبدأ منرو وأدعى اولني ان هذا المبدأ له جانب ايجابي يهدف الى حماية وتأكيد مصالح الولايات المتحدة في القارة الامريكية بأكملها. وفي نهاية المذكرة انذر اولني بريطانيا بضرورة عرض هذا النزاع على هيئة تحكيم مؤكدا ان الولايات المتحدة اصبحت تتمتع بالسيادة الفعلية على القارة وان ارادتها في مقام القانون الملزم

فيما يتعلق بالموضوعات التى ترى التدخل فيها.

ومن ناحيتها رفضت بريطانيا هذا التفسير الامريكى لمبدأ منرو وانكرت على الولايات المتحدة حقها فى فرض وساطتها فى النزاع الفنزويلى البريطانى لمخالفة ذلك لقواعد القانون الدولى. فطلب الرئيس الامريكى كليفلاند (Cleveland) من الكونجرس الموافقة على تكوين لجنة امريكية لتقصى الحقائق فى هذا النزاع. واكد كليفلاند فى رسالة الكونجرس بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٨٩٥ بانه اذا اتضح لهذه اللجنة أحقية فنزويلا فى المنطقة المتنازع عليها، فسوف تعتبر حكومة الولايات المتحدة استيلاء بريطانيا على هذه المنطقة عدوانا على حقوق ومصالح الولايات المتحدة التى من واجبها ان تدفع هذا العدوان بكل وسيلة ممكنة. وقد وافق الكونجرس على تكوين هذه اللجنة.

ولكن بريطانيا تراجعت عن موقفها وقبلت عرض النزاع على هيئة تحكيم تتكون من عضوين امريكيين وعضوين بريطانيين وبرئاسة شخص محايد هو الفقيه الروسى الشهير دى مارتنز F.F. de Martens وبمقتضى قرار هيئة التحكيم احتفظت فنزويلا بسيطرتها على مصب نهر اورينوكو وهو ما يحقق المصالح التجارية الامريكية فى المناطق التى يمر بها النهر. وتعتبر هذه الفائدة ثانوية بالنسبة الى الاثار السياسية العامة التى ترتبت على اسلوب تسوية هذا النزاع ونجملها فيما يلى :

١ - يعتبر اصرار الولايات المتحدة على فرض وساطتها لتسوية النزاع الفنزويلى - البريطانى تطورا هاما لمبدأ منرو اذ ادعت الولايات المتحدة لنفسها حق التحكيم فى كل نزاع ينشب فى القارة الامريكية واعتبرته حقا من حقوق السيادة تلتزم به السياسة

الامريكية وترضخ له جميع الدول. وبالفعل رضخت بريطانيا لانها كانت مشغولة بقضايا استعمارية هامة فى آسيا وافريقية ، ومنذ ذلك الوقت اتسمت العلاقات البريطانية - الامريكية بطابع التعاون ليس فى القارة الامريكية فحسب وانما ايضا فى الشرق الاقصى والمحيط الهادى.

٢ - تدخلت الولايات المتحدة فى هذا النزاع دون تفويض من فنزويلا وقد اثار هذا الاسلوب مخاوف دول امريكا الجنوبية من فرض سيطرة الولايات المتحدة عليها كما حدث فى امريكا الوسطى وفى منطقة البحر الكاريبى. ونتيجة لذلك ظهرت بوادر التوتر فى العلاقات بين دول امريكا الجنوبية والولايات المتحدة لان هذه الاخيرة افصحت بوضوح عن نواياها الاستعمارية التى لم تختلف كثيرا عن سلوك الدول الاستعمارية الاوربية التى حاربتها دول امريكا الجنوبية للتخلص من سيطرتها . ولقد اضرت هذه المخاوف الوحدة الامريكية حيث رأت فيها دول امريكا الجنوبية وسيلة لفرض السيطرة الامريكية على جميع دول القارة ، الامر الذى انعكس ايضا على الحركة الادبية والفكرية فى امريكا الجنوبية والتى تبنت فكرة المحافظة على التراث الاسبانى لمواجهة النفوذ الثقافى الامريكى.

التوسع الامريكى فى المحيط الهادى :

لم يكن عام ١٨٩٨ نقطة انطلاق جديدة للدبلوماسية الامريكية فى منطقة البحر الكاريبى وامريكا اللاتينية فحسب وانما فى منطقة المحيط الهادى والشرق الاقصى ايضا . وكان هذا التوسع الامريكى الجديد سببا فى اثارة عدة قضايا يرجع تاريخها الى ما قبل عام ١٨٩٨ مثل ضم جزر الفلبين وجوام، وضم جزر هاواى وتسوية قضية جزيرة ساموا، واخيرا التنافس الاستعمارى فى الصين. ومما لاشك فيه ان كل هذه القضايا كانت

متشابكة تماما بحيث لا يمكن فهم احداها دون النظر الى الاخرى. ولكن رغم ذلك يمكن الفصل بين معالجة القضايا التى ثارت فى المحيط الهادى ، وقضية التنافس الاستعمارى فى الصين.

ويرجع تزايد النفوذ الامريكى فى منطقة المحيط الهادى الى اواخر القرن الثامن عشر عندما قام التجار والمبشرون الامريكيون بمد نشاطهم الى جزر المحيط الهادى واليابان وكوريا والصين. وامام تزايد هذا النشاط التجارى والتبشيرى بدأت الولايات المتحدة تولى اهتماما متزايدا بالمنطقة. وبالاضافة الى ذلك، فقد اقنعت الحرب الاهلية الامريكية المسئولين الامريكيين بضرورة وضع خطة كاملة للدفاع عن البلاد وحماية نشاط مواطنيها فى المحيط الهادى وبصفة خاصة ضد الحيتان. وفى عام ١٨٦٧ اكتسبت الولايات المتحدة مراكز استراتيجية هامة فى المحيط الاطلنطى بعد شرائها لشبه جزيرة الاسكا وأرخبيل الوتيان (Aleutian) من روسيا، واحتلالها لجزر ميدواى (Midway) التى تقع شمال جزر هاواى. وقد بذلت عدة محاولات من قبل بعض رجال الاعمال الامريكيين عند منتصف القرن التاسع عشر لدفع الحكومة الامريكية على ضم جزر هاواى غير ان اوضاع الولايات المتحدة الداخلية والموقف الدولى لم تكن ملائمة لاتخاذ مثل هذه الخطوة.

ولكن الحرب الامريكية - الاسبانية عام ١٨٩٨ غيرت الموقف كلية فبمقتضى معاهدة باريس تنازلت اسبانيا عن جميع حقوقها فى جزر الفلبين وجوام وقررت الولايات المتحدة ضمها. ويمكن ان نلخص العوامل التى دفعت الولايات المتحدة على التوسع خارج القارة الامريكية على النحو التالى :

أولا ـ دعا فريق من ذوي النفوذ من الامريكيين امثال روزفلت وماهان وكابوت لودج الى استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين وسائر جزر المحيط الهادى لاهميتها الاستراتيجية . وقد ثار الرئيس الامريكى وليام ماكنلى (W.MacKinley) بآراء هذا الفريق من الاستعماريين الامريكيين وارسلت تعليمات الى الوفد الامريكى فى مفاوضات الصلح مع اسبانيا جاء فيها "ان الحرب القت على عاتقها اعباء ومسئوليات يجب علينا القيام بها باعتبارنا دولة كبرى . كتب لها حاكم الامم منذ الازل القيادة العليا ونشر المدنية .

ثانيا ـ تمثل الفلبين ركيزة للتوسع الاقتصادى الامريكى فى الشرق الاقصى، فالفلبين بلاد غنية بمواردها لاسيما التبغ والخشب والبن وقصب السكر والايدى العاملة الرخيصة . كما ان الفلبين تعتبر قاعدة انطلاق هامة لتدعيم التوسع التجارى والاقتصادى الامريكى فى الصين، وبذلك ارتبط استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين بسياسة "الباب المفتوح" وقد عبر السناتور "بفريدج" (A.J.Beveridge) عن ذلك بقوله "ان الفلبين لنا ومن ورائها اسواق الصين غير المحدودة لن ننسحب من أى منها ، ان الجزء الاكبر من تجارتنا يجب ان يكون مع آسيا .. الصين هى المستهلك الطبيعى للمنتجات الامريكية .. والفيليبين توفر لنا قاعدة على اعتاب الشرق باكمله .. ان الدولة التى تسيطر على المحيط الهادى تسيطر على العالم ...".

ثالثا ـ أثرت الاعتبارات الدينية على الرأى العام الامريكى لحمله على تقبل فكرة ضم الفلبين وجوام الى الولايات المتحدة . فقد رأت الطوائف البروتستانتية ان الفلبين تفتح مجالا واسعا للنشاط التبشيرى ومنافسة الوضع الممتاز الذى تمتعت به الكنيسة الكاثوليكية

فى عهد الحكم الاسبانى. ولقد كان لهذه الطوائف تأثير على الرئيس الامريكى ماكنلى .

رابعا – ادى تطور الاوضاع فى الفلبين ذاتها الى تمسك الولايات المتحدة بالسيطرة عليها، فخلال الحرب الامريكية – الاسبانية ضاعفت الحركة القومية فى الفلبين نشاطها بزعامة اميليو اجونيالدو (Aguinaldo) للتحرر من الاستعمار الاسبانى. وتعاون اوجونيالدو مع الحملة العسكرية الامريكية للاطاحة بالحكم الاسبانى املا فى اعتراف الولايات المتحدة باستقلال الفلبين. وفى مايو عام ١٨٩٨ كون اجونيالدو حكومة فلبينية مؤقتة واعلن استقلال البلاد، فى ١٢ يونيو من نفس العام. وصدر أول دستور للبلاد فى ٢١ يناير من العام التالى. ولما ادركت الولايات المتحدة ان الحكومة الوطنية فى الفلبين تتبع سياسة قومية، قررت الاستيلاء على البلاد وتحويلها الى مستعمرة امريكية . وفى اعقاب ذلك اندلعت الثورة فى البلاد ولم تتمكن القوات الامريكية من اخمادها الا فى ابريل ١٩٠٢ .

خامسا – اقتنعت الولايات المتحدة بضرورة الاستيلاء على الفيلبين كعنصر هام فى مجال التنافس الاستعمارى بينها وبين الدول الاستعمارية الاخرى. وفى ذلك الوقت انحصر التنافس الاستعمارى فى المحيط الهادى بين بريطانيا والمانيا والولايات المتحدة . وخوفا من الخطر الالمانى فى المحيط الهادى حثت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة على ضم جزر الفلبين لمنع المانيا من الاستيلاء عليها أو على الاقل منعها من الحصول على قاعدة بحرية فى تلك الجزر تهدد توازن القوى فى المحيط الهادى وفى الشرق الاقصى عموما . ومن ناحية اخرى خشيت الولايات المتحدة

من ان تمتد اطماع اليابان التوسعية الى الفلبين فى المستقبل.

ولقد انهى استيلاء الولايات المتحدة على الفلبين سياسة العزلـة التقليدية قبل دخول الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الاولى بربـع قرن. وانعكست سياسة الولايات المتحدة فى الحفاظ على توازن القـوى فى المحيط الهادى على بعض القضايا الاخرى مثل قضية جزر هاواى وقضيـة جزر ساموا. وبالنسبة لجزر هاواى، فان لها اهمية استراتيجيـة لفتت نظر الولايات المتحدة اليها منذ اواخر القرن الثامن عشر. وبالرغم من احتفاظ الجزر باستقلالها الاسمى، فقد اصبحت جزر هاواى مستعمـرة امريكية بحكم الواقع اقتصاديا وثقافيا وسياسيا. وفى عام ١٨٧٥ـ اخذت الولايات المتحدة تعهدا على حكومة هاواى بعدم التنازل عن حقوقهـا لاية دولة اخرى ، وفى عام ١٨٨٢ استأجرت الولايات المتحدة مينا ء بيـرل هاربر (Pearl Harbour) وحولته الى قاعدة بحرية. وفى عـام ١٨٩٣ قام الامريكيون المقيمون فى هاواى بانقلاب ضد نظام الحكم فـى البلاد واقاموا حكومة مؤقتة يرأسها امريكى وطالبوا حكومتهم بضـم الجزر، وفى يولنيو ١٨٩٨ وافق الكونجرس الامريكى على ضم جزر هاواى ال الولايات المتحدة.

اما جزر ساموا فتحتل موقعا استراتيجيا هاما فى جنوب المحيـط الهادى على الطريق الملاحى بين كاليفورنيا وقناة بنما من ناحيـة واستراليا ونيوزيلندا من ناحية اخرى. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر شهدت جزر ساموا تنافسا شديدا بين مواطنى بريطانيا والولايات المتحدة والمانيا مما اضطر حكومة ساموا الى توقيع معاهدات تجارية وسياسيـة مع هذه الدول الثلاث لتحييد نشاطها .

وفى اواخر ١٨٨٨ حدث صدام مسلح بين القوات الالمانية وشعب ساموا وانتهزت المانيا هذه الفرصة لتفرض سيطرتها على البلاد. ولذلك نشبت ازمة دبلوماسية بين المانيا من ناحية والولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية اخرى. وأرسلت الولايات المتحدة بعض قطع اسطولها الحربى لمنع اى محاولة للتدخل العسكرى الالمانى. ولكن الازمة انتهت بين الدولتين بعقد مؤتمر ثلاثى فى برلين عام ١٨٨٩ ضم المانيا والولايات المتحدة وبريطانيا. وفى ١٤ يونيو من نفس العام وقعت معاهدة برلين التى اخضعت جزر ساموا لادارة مشتركة بين الدول الثلاث (Condominium)

كانت هذه هى الخطوة الاولى لتقسيم جزر ساموا بين الدول الاستعمارية الثلاثه وفى عام ١٨٩٨ ثار صراع حاد حول خلافة العرش فى جزر ساموا وتطور هذا الصراع الى حرب اهلية. ولتفادى نشوب حرب بين الدول الثلاث التى تدخلت فى هذا الصراع، تم تسوية النزاع بالطرق الدبلوماسية فابرمت معاهدة اخرى فى يونيو ١٨٩٩ انهت النظام الملكى فى جزر ساموا والغت الادارة الثلاثية. وقد حصلت الولايات المتحدة على الجزر الواقعة شرقى خط طول ١٧١ وتضم جزيرة تتويلا (Tutuila) وبها اهم ميناء فى جنوب المحيط الهادى وهو ميناء باجو باجو Pago Pago الذى تحول الى قاعدة بحرية امريكية وهى من اهم القواعد الاستراتيجية فى المحيط الهادى الى جانب قاعدتى بيرل هاربر وجوام. ووضعت الولايات المتحدة الجزر التى حصلت عليها بمقتضى هذه المعاهدة تحت ادارة البحرية الامريكية دون ان تعلن الولايات المتحدة ضم الجزر رسميا واستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٢٩ عندما وافق الكونجرس الامريكى على ضم الجزر الى الولايات المتحدة.

سياسة الباب المفتوح :

فى ٦ سبتمبر عام ١٨٩٩ ارسل جون هاى (John Hay) وزير خارجية الولايات المتحدة مذكرة الى الدول التى استحوذت على مناطق نفوذ لها فى الصين يطالبها فيها بالاعتراف بمبدأ حرية التبادل التجارى مع الصين فى تلك المناطق دون اية قيود. ودون تمييز فى المعاملة بين رعاياها ورعايا الدول الاخرى. وقد اطلق على هذا المبدأ "سياسة الباب المفتوح" (Open Door Policy) ولم يكن هذا المبدأ جديدا على الدبلوماسية الاستعمارية فى الشرق الاوسط، فقد كان فى الاساس مبدأ رئيسيا من مبادىء الدبلوماسية البريطانية فى الشرق الاقصى منذ منتصف القرن التاسع عشر. فلقد استحوذت بريطانيا على ٨٠ ٪ من تجارة الصين بفضل تفوقها الصناعى وقوة مصارفها وسيطرتها على البحار.

وفى مطلع عام ١٨٩٨ زاد احتمال تقسيم الصين الى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية ، وكانت هذه الدول نفسها قد تدخلت لارغام اليابان على التخلى عن بعض الامتيازات الاقليمية التى حصلت عليها بمقتضى معاهدة شيمونوزيكى (١) (Shimonoseki) التى انهت الحرب اليابانية الصينية (١٨٩٤ — ١٨٩٥) وفى مقابل هذا التدخل طالبت الدول الاستعمارية

---

(١) وقعت هذه المعاهدة فى ١٧ ابريل ١٨٩٥ واعترفت الصين بمقتضاها باستقلال كوريا (اى وضعها تحت الحماية الفعلية لليابان) كما تنازلت لليابان عن جزر فورموزا (تايوان) والبسكادور وشبه جزيرة لياو تونج بما فى ذلك ميناء دايرن (Dairen) وميناء بورت آرثر (Port Arthur) كما التزمت الصين بدفع مبلغ ١٦٥ مليون دولار على سبيل التعويض.

بامتيازات فى مناطق عديدة من الصين، وهكذا بدأت حرب الامتيازات ـ التى هددت بتفكك الامبراطورية الصينية ، وقد خشى الرأسماليون البريطانيون من ان تقسيم الصين الى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية قد يؤدى الى تقييد التجارة البريطانية اذا لجأت تلك الدول الى فرض قيود على التجارة الدولية فى مناطق نفوذها . ولهذا فان سياسة الباب المفتوح كانت اكثر ملائمة للنشاط التجارى البريطانى الذى كان يعتمد اساسا ـ حتى نهاية القرن التاسع عشر ـ على تجارة السلع الاستهلاكية .

ولقد أثرت هذه الاعتبارات الاقتصادية ايضا على سياسة الولايات المتحدة تجاه الصين، ووضح هذا عندما قررت الولايات المتحدة ضم جزر الفلبين بهدف تحويلها الى قاعدة انطلاق لزيادة وتدعيم النشاط الاقتصادى الامريكى فى الصين التى اعتبرتها الرأسمالية الامريكية اهم سوق عالمية لتصريف فائض الانتاج الامريكى. وبالفعل ارتفع معدل الصادرات الامريكية الى الصين ارتفاعا كبيرا لاسيما فى منطقتى منشوريا وشمال الصين اللتان دخلتا فى دائرة النفوذ الروسى ـ الالمانى بعد الحرب اليابانية ـ الصينية ومن ثم خشى الرأسماليون الامريكيون والبريطانيون ان تفرض روسيا والمانيا قيودا على نشاط رعايا الدول الاخرى فى هاتين المنطقتين ولذلك دعت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة الى تأييد سياسة الباب المفتوح ولبت الحكومة الامريكية هذه الدعوة فكان ان اصدر جون هاى فى ٦ سبتمبر ١٨٩٩ المذكرة التى سبق الاشارة اليها .

مما يلاحظ ان مذكرة جون هاى قد اشارت فقط الى مبدأ المساواة بين رعايا جميع الدول فى التعامل التجارى مع الصين. وكل الاقاليم الصينية ولكنها لم تشر الى الوجه الاخر من النشاط الاقتصادى الاجنبى فى

فى الصين وهو امتيازات انشاء السكك الحديدية وصناعة التعدين وقد وافقت الحكومة البريطانية على سياسة الباب المفتوح لانها كانت تخدم مصالحها ولكنها اوردت استثناء على تطبيقه فيما يتعلق باقليم كولون Kwoloon المواجه لجزيرة هونج كونج. وتفسير هذا الوضع المتناقض للسياسة البريطانية يرجع، فى الواقع ، الى تطور الوضع فى الصين بعد الحرب اليابانية - الصينية والى مضمون مذكرة جون هاى. ولذلك قررت بريطانيا اتباع ثلاثة اساليب دبلوماسية فى آن واحد تتلخص فيما يلى :

١ - تأييد سياسة الباب المفتوح بصفة عامة ومحاولة حمل الدول الاستعمارية الاخرى على تطبيقها فى جميع المناطق الخاضعة لنفوذها . وفى حالة فشل هذه المحاولة تلجأ بريطانيا الى اسلوبين دبلوماسيين آخرين هما :

٢ - محاولة الحد من التوسع الروسى والالمانى فى شمال الصين ولذلك احتلت بريطانيا ميناء واى هاى واى (Wei Hai Wei) على خليج ميناء كياشو Kiaochow كما رأت بريطانيا ضرورة قيام نوع من توازن القوى فى المنطقة يخدم مصالحها ويحد من توسع النفوذ الروسى فى منطقة جنوب منشوريا وشمال الصين . وقد ادى ذلك الى ضرورة التعاون مع اليابان وتوقيع التحالف البريطانى - اليابانى عام ١٩٠٢.

٣ - تمسك بريطانيا بالحصول على منطقة نفوذ خاصة بها وهى منطقة حوض نهر اليانج تسى والمنطقة المواجهة لجزيرة هونج كونج .

وقد علقت الدول الاستعمارية الاخرى قبولها لسياسة الباب المفتوح على موقف روسيا التى كانت تعتبر اكبر منافس للولايات المتحدة وبريطانيا واليابان فى هذه المنطقة . فقد رفضت روسيا تماما سياسة الباب المفتوح ولم تتعهد الالتزام بها فى المناطق الخاضعة لنفوذها وبالذات فى منشوريا . ولذلك لم تطبق الدول الاخرى هذه السياسة نظرا لسلبية موقف

روسيا وعلى الرغم من ذلك اعتبرت الولايات المتحدة ردود الدول على مذكرة جون هاى مرضية وقاطعة وبالتالى فان سياسة الباب المفتوح اصبحت قاطعة ونهائية .

ولكن النتائج التى تمخضت عن ثورة البوكسر [١] (١٩٠٠-١٩٠١)، أدت الى مزيد من التوسع فى مناطق النفوذ الاستعمارى مما هدد بالقضاء على سياسة الباب المفتوح. وعند ذلك رأت الولايات المتحدة ضرورة تحديد موقفها مرة اخرى ،فأرسل جون هاى مذكرة اخرى بتاريخ ٣ يوليو عام ١٩٠٠، الى الدول يطالبها فيها بضرورة المحافظة على سلامة الصين الاقليمية ،غير أن الدول الاستعمارية تجاهلت هذه المذكرة واستمرت فى سياستها التوسعية ونتيجة لذلك اضطرت الولايات المتحدة الى انتهاج نفس اسلوب السياسة البريطانية بالاعتماد على اليابان فى وقف التقدم الروسى فى الصين . وهكذا تكون وفاق ثلاثى فى الشرق الاقصى بين بريطانيا والولايات المتحدة واليابان . ولكنه لم يستمر اكثر من خمس سنوات. فبعد انتصار اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ اتجهت الى فرض سيطرتها على كوريا وفرضت قيودا على تجارة الدول الاوروبية مع هذا الاقليم مما ادى الى فتور فى العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان وتطور الى تنافس وعداء فى فترة ما بين الحربين العالميتين. وعلى الرغم من فشل

---

(١) لقد قام بأهم مقاومة للتدخل الاجنبى فى شئون الصين جماعة وطنية سرية اطلقت عليها الدول الغربية اسم "البوكسر" وقامت هذه الجماعة بثورة مسلحة ضد الاجانب فى جميع انحاء الصين واعتدت على منشآتهم التجارية وسفاراتهم ومبشريهم ابتداء من يونيو عام ١٩٠٠ كما شجعت بعض الدوائر الحكومية الصينية هذه الثورة واشتركت بعض وحدات الجيش الصينى فى الهجوم على حى السفارات .

سياسة الباب المفتوح الا انها ادت الى بعض النتائج ذات الاثر البعيدوتتلخص فيما يلى :

١ - تورطت الولايات المتحدة فىشئون الشرق الاقصى وكذلك فى السياسة الاوروبية بسبب الارتباط الوثيق بين الشئون السياسية والشئون الاوروبية ٠

٢ - اوضحت سياسة الباب المفتوح التنافس الحاد بين الولايات المتحدة وروسيا حول السيطرة على الشرق الاقصى واذا كان هذا الصراع قد احتجب مؤقتا فيمابين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ بسبب هزيمة روسيا عام ١٩٠٥ وفى الحرب العالمية الاولى، فقد تجدد هذا الصراع من جديد فى اعقاب الحرب العالمية الثانية بانتصار النظام الشيوعى فى الصين عام ١٩٤٩ وحرب كوريا (١٩٥٠-١٩٥٣) وحرب فيتنام ٠

الملاحـــق

التحالفات التي تكونت خلال الحروب الايطالية

١ - حلف البندقية (١٤٩٥) :

اعضاء الحلف : البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + البندقية + ميلان + فلورنسا ضد فرنسا

٢ - حلف كمبراى (١٥٠٨)

البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + انجلترا + فرنسا ، ضد البندقيــة

٣ ميلان .

٣ - الحلف المقدس (١٥١١)

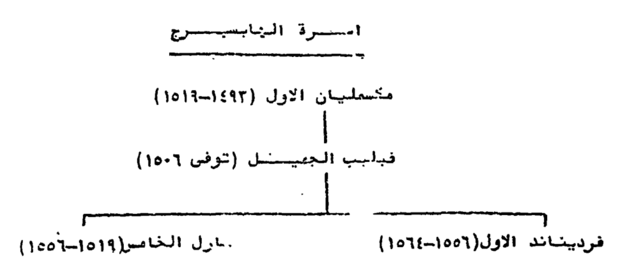
البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + انجلترا ضد فرنسا

٤ - الحلف المقدس (١٥٢١)

البابوية + الامبراطورية + اسبانيا + انجلترا + ضد فرنسا

٥ - حلف كونياك (١٥٢٦)

البابوية + البندقية + ميلان + فلورنسا + انجلترا + فرنسا + ضـــد الامبراطورية + اسبانيا .



حكام اسبانيـا

فردينانـد(اراجون)+ ايزابيلا (قشتالة)

كاترين

تزوجت (١) آرثر امير ويلز

(٢) هنرى ٨ ملك انجلترا

جوان (توفيت ١٥٥٥)

تزوجت فيليب هابسبرج

شارل الاول (١٥١٦-١٥٥٦)

الامبراطور شارل الخامس

تزوج ايزابيلا البرتغالية

فيليب الثانى(١٥٥٦-١٥٧١)

فيليب الثالث(١٥٩٨-١٦٢١)

فيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥)

الفهـــــرس

صفحـــة

القســـم الاول

معالم التاريخ الأوروبى الحديث

صفحة

صفحة

القسم الثانـــى

معالم التاريخ الامريكى الحديـــث

